بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سور : التوبة – يونس – هود

جمع وإعداد

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الانترنت – مجلة رياض المتقين

www.almotaqeen.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تفـسـير
سـورة التوبة

فوائد – منوعات – فضائل – أقوال

جمع وإعداد
سليمان بن محمد اللهيميد
السعودية – رفحاء
الموقع على الانترنت – مجلة رياض المتقين
www.almotaqeen.net

كانت البداية بفضل الله : ١ / ٤ / ١٤٣٨هـ

مقدمة

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، كما قال البخاري : عن البراء قال : آخر آية نزلت: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ) وآخر سورة نزلت براءة .

- واختلف العلماء في سبب سقوط البسملة في أولها على أقوال :

مِنْهَا : أَنَّ الْبَسْمَلَةَ رَحْمَةٌ وَأَمَانٌ وَ «بَرَاءَةٌ» نَزَلَتْ بِالسَّيْفِ ، فَلَيْسَ فِيهَا أَمَانٌ .

وَهَذَا الْقَوْلُ مَرْوِيٌّ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ ، وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ .

وَمِنْهَا : أَنَّ ذَلِكَ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا كَتَبُوا كِتَابًا فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ أَسْقَطُوا مِنْهُ الْبَسْمَلَةَ .

وَمِنْهَا : أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا اخْتَلَفُوا : هَلْ «بَرَاءَةٌ» وَ «الْأَنْفَالُ» سُورَةٌ وَاحِدَةٌ أَوْ سُورَتَانِ ، تَرَكُوا بَيْنَهُمَا فُرْجَةً لِقَوْلِ مَنْ قَالَ : إِنَّهُمَا سُورَتَانِ ، وَتَرَكُوا الْبَسْمَلَةَ لِقَوْلِ مَنْ قَالَ : هُمَا سُورَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَرَضِيَ الْفَرِيقَانِ وَثَبَتَتْ حُجَّتَاهُمَا فِي الْمُصْحَفِ .

ومِنْهَا : أَنَّ سُورَةَ «بَرَاءَةٌ» نُسِخَ أَوَّلُهَا فَسَقَطَتْ مَعَهُ الْبَسْمَلَةُ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْبَسْمَلَةَ لَمْ تُكْتَبْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ; لِأَنَّ جِبْرِيلَ لَمْ يَنْزِلْ بِهَا فِيهَا . قَالَهُ الْقُشَيْرِيُّ . اهـ .

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ عِنْدِي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ سَبَبَ سُقُوطِ الْبَسْمَلَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، هُوَ مَا قَالَهُ عُثْمَانُ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ .

فَقَدْ أَخْرَجَ النَّسَائِيُّ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ ، وَابْنُ حِبَّانَ ، فِي «صَحِيحِهِ» وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» وَقَالَ : صَحِيحُ الْإِسْنَادِ ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قُلْتُ لِعُثْمَانَ : مَا حَمَلَكُمْ عَلَى أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي وَإِلَى بَرَاءَةٌ وَهِيَ مِنَ الْمِائِينَ فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا ، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَوَضَعْتُمُوهُمَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ؟

فَقَالَ عُثْمَانُ ﷺ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، كَانَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَدْعُو بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ عِنْدَهُ ، فَيَقُولُ : «ضَعُوا هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي فِيهَا كَذَا وَكَذَا» ، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَقُولُ : «ضَعُوا هَذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا» ، وَكَانَتِ «الْأَنْفَالُ» مِنْ أَوَائِلِ مَا أُنْزِلَ بِالْمَدِينَةِ ، وَ «بَرَاءَةٌ» مِنْ آخِرِ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا ، وَقُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا ، فَمِنْ ثَمَّ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَلِ) .

وقول القرطبي وقد رجحه المحققون من العلماء.

فقد قال الفخر الرازي – وقد ذكر ستة أوجه في سبب إسقاط التسمية من أولها – :

الصحيح أنه ﷺ أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحيا ، وأنه حذف بسم الله الرحمن الرحيم من أول هذه السورة وحياً .

وقال الجلال : ولم تكتب فيها البسملة لأنه ﷺ لم يأمر بذلك ، كما يؤكد من حديث رواه الحاكم.

أي أنه –كما يقول الجمل – لا مدخل لرأى أحد في الإثبات والترك ، وإنما المتبع في ذلك هو الوحى والتوقيف وحيث لم يبين النبي ﷺ ذلك تعين ترك التسمية ، لأن عدم البيان من الشارع في موضع البيان بيان للعدم .

- ومن أشهر أسمائها : التوبة ، وبراءة .

التوبة : وسميت بهذا الاسم لتكرار الحديث فيها عن التوبة والتائبين .

ومن ذلك قوله تعالى (فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ...) .

وقوله تعالى (فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ) .

وقوله تعالى (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيم) .

وقوله تعالى (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تكررت في هذه السورة عن التوبة والتائبين .

براءة : وسميت بذلك لافتتاحها بقوله – سبحانه – : بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ....

وهذان الاسمان – التوبة وبراءة – هما أشهر أسماء هذه السورة الكريمة.

ومن أسمائها :

ج-الفاضحة : وسميت بهذا الاسم لحديثها المستفيض عن المنافقين وصفاتهم وأحوالهم .. وفضيحتهم على رءوس الأشهاد.

أخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة التوبة قال : التوبة هي الفاضحة. ما زالت تنزل : ومنهم ومنهم ، حتى ظنوا أنها لن تبقى أحدا منهم إلا ذكر فيها .

(د) المنقرة : وسميت بذلك ، لأنها نقرت عما في قلوب المنافقين والمشركين فكشفت عنه ، وأظهرته للناس.

(هـ) المثيرة : وسميت بهذا الاسم ، لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم. أي : أخرجتها من الخفاء إلى الظهور.

(و) المبعثرة : لأنها بعثرت أسرارهم. أي: بينتها وعرفتها للمؤمنين.

(ز) المدمرة : أي: المهلكة لهم.

إلى غير ذلك من الأسماء التي اشتهرت بها هذه السورة الكريمة .

- زمان ومكان نزولها :

قال ابن كثير : هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخاري ...

وقال صاحب المنار : هي مدنية بالاتفاق.

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)) .

[التوبة : ١ – ٢] .

____

قال ابن كثير : وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ ، لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذُكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم، فبعث أبا بكر الصديق، ﷺ، أميرًا على الحج هذه السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ببراءة، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله ﷺ، لكونه

عَصَبَة له، كما سيأتي بيانه.

(**بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) أي: هذه براءة، أي: تبرؤ من الله ورسوله .

- وأصل البراءة : التباعد عن الشيء والتخلص منه. تقول : برئت من هذا الشيء أبرأ براءة فأنا منه بريء ، إذا أزلته عن نفسك ، وقطعت الصلة بينك وبينه. ومنه قولهم : برئت من الدين أي: تخلصت منه.

(**إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**) اختلف المفسرون ها هنا اختلافا كثيراً .

فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقَّت فأجله إلى مدته، مهما كان؛ لقوله تعالى (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

ولما سيأتي في الحديث (ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته) .

وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير، رحمه الله، ورُوي عن الكلبي ومحمد بن كعب القُرَظِيّ، وغير واحد.

- **قال ابن جرير** : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : الأجل الذي جعله الله إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله ﷺ ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته ، فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ، ولم يظاهروا عليه ، فإن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله : إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، ثم قال : وبعد ففي الأخبار المتظاهرة عن رسول الله ﷺ أنه حين بعث عليا ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم أمره فيما أمره أن ينادى به فيهم « ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته ». وهو أوضح دليل على صحة ما قلنا.

وذلك أن الله لم يأمر نبيه ﷺ بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل، فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل، أو كان له عهد إلى أجل غير محدود، فأما من كان أجل عهده محدودا، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلاً، فإن رسول الله ﷺ كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأمورا، وبذلك بعث مناديه في أهل الموسم من العرب.

- **وقال الشنقيطي** : قوله تَعَالَى (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) .

ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْعُمُومُ فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ الْمُعَاهَدِينَ ، وَأَنَّهُ بَعْدَ انْقِضَاءِ أَشْهُرِ الْإِمْهَالِ الْأَرْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ (فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) ، لَا عَهْدَ لِكَافِرٍ .

وَفِي هَذَا الِاخْتِلَافُ كَثِيرٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، وَالَّذِي يُبَيِّنُهُ الْقُرْآنُ ، وَيَشْهَدُ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَالِ ، هُوَ أَنَّ مَحَلَّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ فِي أَصْحَابِ الْعُهُودِ الْمُطْلَقَةِ غَيْرِ الْمُوَقَّتَةِ بِوَقْتٍ مُعَيَّنٍ ، أَوْ مَنْ كَانَتْ مُدَّةُ عَهْدِهِ الْمُوَقَّتِ أَقَلَّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَتَكْمُلُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ، أَمَّا أَصْحَابُ الْعُهُودِ الْمُوَقَّتَةِ الْبَاقِي مِنْ مُدَّتِهَا أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِنَّهُ يَجِبُ لَهُمْ إِتْمَامُ مُدَّتِهِمْ ، وَدَلِيلُهُ الْمُبَيِّنُ لَهُ مِنَ الْقُرْآنِ ، هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَرُوِيَ عَنِ الْكَلْبِيِّ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ ، قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ عَلِيٍّ ؓ أَنَّ

النَّبِيَّ ﷺ ، بَعَثَهُ حِينَ أُنْزِلَتْ «بَرَاءَةٌ» بِأَرْبَعٍ : أَلَّا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ . وَلَا يَقْرَبَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ مُشْرِكٌ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا .
وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ .
وَلَا يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ .

- **وقال رحمه الله** : قَوْلُهُ تَعَالَى (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : كَانَ ابْتِدَاءُ التَّأْجِيلِ بِالْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ شَوَّالٍ ، وَآخِرُهُ سَلْخَ الْمُحَرَّمِ ، وَبِهِ قَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابْتِدَاءَهَا مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ عَلَى الْأَصَحِّ مِنْ أَنَّهُ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، أَوْ يَوْمُ عَرَفَةَ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ هُوَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ . وَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ ابْتِدَاءَ الْإِعْلَامِ الْمَذْكُورِ مِنْ يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ ، وَلَا يَخْفَى انْتِهَاؤُهَا فِي الْعَشْرِ مِنْ رَبِيعٍ الثَّانِي .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : كَانَ ابْتِدَاءُ التَّأْجِيلِ مِنْ شَوَّالٍ ، وَآخِرُهُ سَلْخَ الْمُحَرَّمِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ غَرِيبٌ ، وَكَيْفَ يُحَاسَبُونَ بِمُدَّةٍ لَمْ يَبْلُغْهُمْ حُكْمُهَا ، وَإِنَّمَا ظَهَرَ لَهُمْ أَمْرُهَا يَوْمَ النَّحْرِ ، حِينَ نَادَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ .

(وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ) أي : واعلموا – أيها المشركون – أنكم بسياحتكم في الأرض خلال تلك المهلة لن تعجزوا الله تعالى في طلبكم ، فأنتم حيثما كنتم تحت سلطانه وقدرته ، واعلموا كذلك أنه سبحانه مذل للكافرين ، في الدنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة بالعذاب المهين.

فالآية الكريمة قد ذيلت بما يزلزل قلوب المشركين بالحقيقة الواقعة ، وهي أن ذلك الإمهال لهم ، وتلك السياحة في الأرض منهم ، كل هذا لن يجعلهم في مأمن من عقاب الله ، ومن إنزال الهزيمة بهم ، لأنهم في قبضته.

ومهما أعدوا خلال تلك المهلة من عدد وعدد لقتال المؤمنين ، فإن ذلك لن ينفعهم ، لأن سنته – سبحانه – قد اقتضت أن يجعل النصر والفوز للمؤمنين والخزي والسوء على الكافرين.

الفوائد :

١- وجوب التبرؤ من الكفر وأهله .

٢-الولاء والبراء من أعظم عقائد المسلمين .

٣-يجب حب كل مؤمن .

٤-عند قوة المسلمين لا يجوز الخضوع للمشركين وطلب الصلح منهم .

٥-حرص الإسلام على العهود والمواثيق وحفظها .

٦- تهديد الكفار بأن الله لهم بالمرصاد .

٧- الخزي والعذاب للكفار .

(وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)) .

[التوبة : ٣ – ٤] .

(**وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**) الأذان : الإعلام تقول : آذنته بالشيء إذا أعلمته به. ومنه الأذان للصلاة أي الإعلام بحلول وقتها. وهو بمعنى الإيذان كما أن العطاء بمعنى الإعطاء.

والمعنى : وهذه الآيات إيذان وإعلان من الله ورسوله إلى الناس عامة يوم الحج الأكبر بأن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، وأن هذه العهود قد نبذت إليهم ، بسبب إصرارهم على شركهم ونقضهم لمواثيقهم.

- وأسند سبحانه الأذان إلى الله ورسوله ، كما أسندت البراءة إليهما ، إعلاء لشأنه وتأكيدا لأمره :

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟ قلت : تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت.

- واختير يوم الحج الأكبر لهذا الإعلام ، لأنه اليوم الذي يضم أكبر عدد من الناس يمكن أن يذاع الخبر عن طريقهم في جميع أنحاء البلاد.

وأصح ما قيل في يوم الحج الأكبر أنه يوم النحر. وقيل : هو يوم عرفة ، وقيل : هو جميع أيام الحج.

وقد رجح ابن جرير – بعد أن بسط الأقوال في ذلك – أن المراد بيوم الحج الأكبر : يوم النحر .

فقال. وأولى الأقوال في ذلك بالصحة عندنا : قول من قال : يوم الحج الأكبر ، يوم النحر ، لتظاهر الأخبار عن جماعة من الصحابة أن علياً نادى بما أرسله به رسول الله ﷺ إلى المشركين يوم النحر ، هذا مع الأخبار التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم النحر : أتدرون أي يوم هذا؟ هذا يوم الحج الأكبر) .

- **وقال ابن القيم** : والصواب أن المراد بيوم الحج الأكبر يوم النحر ، لأنه ثبت في الصحيحين أن أبا بكر وعليا أذنا بذلك يوم النحر لا يوم عرفة. وفي سنن أبي داود بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال (يوم الحج الأكبر يوم النحر) ، وكذا قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة.

عن أن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر ﷺ في تلك الحَجَّة في المؤذِّنين، بعثهم يوم النحر، يُؤذِّنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبيُّ ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يُؤَذِّن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذَّنَ معنا عليٌّ في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان .

(**فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ**) أي : فإن تبتم أيها المشركون من كفركم ، ورجعتم إلى الإيمان بالله وحده واتبعتم ما جاءكم به محمد ﷺ فهو أي: المتاب والرجوع إلى الحق خَيْرٌ لَكُمْ من التمادي في الكفر والضلال :

(**وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ**) أي : أعرضتم عن الإيمان ، وأبيتم إلا الإقامة على باطلكم .

(**فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ**) أي : فأيقنوا أنكم لا مهرب لكم من عقاب الله ، ولا إفلات لكم من أخذه وبطشه ، لأنكم أينما كنتم فأنتم في قبضته وتحت قدرته.

(**وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) أي : وبشر – يا محمد – هؤلاء الذين كفروا بالحق لما جاءهم بالعذاب الأليم في الآخرة بعد إنزال الخزي والمذلة بهم في الدنيا.

- التبشير : الإخبار بما يسر ، وسمي بذلك لأنه يظهر أثره على البشرة وهو ظاهر الجلد ، والغالب أنه يستعمل في التبشير بالخير، وقد يستعمل في الشر تهكماً كقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم).

ولفظ البشارة ورد هنا على سبيل الاستهزاء بهم ، كما يقال : تحيتهم الضرب ، وإكرامهم الشتم.

(**إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ**) أي : والمعنى : اعلموا أيها المؤمنون أن الله ورسوله بريئان من عهود المشركين بسبب نقضهم لها ، لكن الذين عاهدتموهم منهم ولم ينقضوا عهودهم ، ولم ينقصوكم شيئاً من شروط العهد ، ولم يعاونوا عليكم أحداً من الأعداء ، فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ولا تعاملوهم معاملة الناكثين.

فالآية الكريمة تدل على أن المراد بالمشركين الذين تبرأ الله ورسوله منهم وأعطوا مهلة الأربعة الأشهر ، هم أولئك الذين عرفوا بنقض العهود .

أما الذين عاهدوا ووفوا بعهودهم ، فإن هؤلاء يجب إتمام عهدهم إلى مدتهم وفاء بوفاء ، وكرامة بكرامة.

وعبر – سبحانه – بثم في قوله (ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً) للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة وتطاولها.

- **قال ابن كثير** : هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت ، فأجله، أربعة أشهر، يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت ، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث (ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته) وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً ، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بذمته وعهده إلى مدته .

(**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**) تنبيه على أن الوفاء بالعهد إلى نهايته مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التي يحبها لعباده ويحبهم بسببها.

قال صاحب المنار : والآية تدل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام مادام العهد معقوداً ، وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته وأن شرط وجوب الوفاء به علينا محافظة العدو المعاهد لنا عليه بحذافيره.

- وفيه فضل التقوى وعلو منزلتها .

الفوائد :

١-وجوب إعلان الحق والتبرؤ من المشركين .

والبراءة من الكفر وأهله أقسام :

أولاً : البراءة القلبية :

وهي أن تبغض المشركين والشرك بقلبك وتكرههم وتتمنى زوالهم كبغض النصارى واليهود والهندوس .

وحكم هذا القسم فرض لازم ولا يمكن أن يسقط عن المسلم .

والدليل على ذلك حديث أبي مالك الأشجعي : (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله تعالى) . رواه مسلم

ثانياً : براءة اللسان :

وذلك بالتصريح بأنك تبغض الكفار والتصريح أن دينهم باطل وأنهم كفار .

والدليل قوله تعالى : (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) قل : أي بلسانك .

وقوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون) .

وهذا القسم واجب مع القدرة لقوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) ويجب عليه الهجرة إن استطاع .

ثالثاً : براءة الجوارح .

وذلك بمجاهدتهم بالجوارح ، وتكسير معبوداتهم ومساجدهم وقتلهم .

والدليل قوله تعالى : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) .

وقوله ﷺ : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ...) . رواه مسلم

وهذا القسم يجب مع القدرة ويسقط مع العجز .

٢-عظم يوم الحج الأكبر وهو يوم النحر .

٣- إظهار الحق وإعلانه في الأيام والأماكن المشهورة .

٤-من تاب من الكفر تاب الله عليه .

٥- تبشير كل كافر بالله بالعذاب الأليم بالدنيا والآخرة .

٦-وجوب الثبات على العهود والمواثيق وتحريم نقضها .

٧-فضل التقوى ، ومحبة الله لأهلها . (وسيأتي إن شاء الله فضائل التقوى قريباً) .

٨- الحرص على التقوى وفعل الأسباب التي تؤدي إليها وتقويها .

(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)) .

[التوبة : ٥] .

(**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ**) أي : مضت وخرجت الأشهر الأربعة التي حرم فيها قتالهم .

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا ما هي ؟

- **قال المفسرون** : : في الأشهر الحرم قولان :

أحدهما : أنها رجب وذو العقدة وذو الحجة والمحرم ، ثلاثة سرد وواحد فرد .

واختاره ابن جرير .

- **قال الماوردي** : وهذا رأي الجمهور.

والثاني : أنها الأربعة الأشهر التي جعلها الله تعالى أن يسيحوا فيها آمنين وهي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع عشر من شهر ربيع الآخر ، قاله الحسن.

واختار هذا ابن كثير .

- **قال ابن كثير** : الذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: (فَسِيحُوا فِي الأرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) ثُمَّ قَالَ (فَإِذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الْحُرُمُ) أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة.

- **واختاره الشنقيطي فقال** : .... القول الثاني في هذه الآية الكريمة: أن المراد بقوله (فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ) أنها أشهر الإمهال الأربعة التي قدمنا أن التحقيق أن أولها من يوم النحر من ذي الحجة عام تسع، وأنها تنقضي بالعشر من ربيع الثاني من ذلك العام، وإنما قيل لها «حُرُم» لأن الله حرّم فيها قتال المشركين، وقال لهم فيها: سيحوا في الأرض أربعة أشهر، أي: آمِنِينَ مُدْبِرِينَ ومقبلين، قتالكم والتَّعَرُّضُ لَكُمْ حَرَامٌ. وهذا أظهر القَوْلَيْنِ هنا .

- **قال ابن الجوزي** : فعلى هذا ، سميت حُرُماً لأن دماء المشركين حرّمت فيها .

(**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**) أي: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله (وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) .

- **قال الشنقيطي** : (حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ) (حيث): كلمة تدل على المكان ، والمعنى : في أي مكان من أمكنة الأرض وجدتموهم فاقتلوهم.

وقال بعض العلماء: هذا ما لم يكونوا في الحرم .

وقال : عموم هذه الآية يخصصه عموم قوله تعالى (وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ) .

وعلى هذا القول يكون القتال لا يجوز في الحرم إلا إذا بدؤوا بالقتال. بهذا قال جماعة من العلماء .

وقال جماهير من أهل العلم: إنهم يُقْتَلُون في كل مكان، كما دَلَّ عليه عموم (حيث) هنا، وإن كانوا في الحَرَم.

قالوا: أمَّا آية (وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ) فإنها كانت من مراحل تشريع القتال .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنها منسوخة ، ورجحه الطبري .

نسخها قوله تعالى (فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) .

وحكى ابن عطية في المحرر على أن الجمهور على القول بالنسخ .

- **قال القرطبي** : ومما احتجوا به أن (براءة) نزلت بعد سورة البقرة بسنتين ، وأن النبي ﷺ دخل مكة وعليه المغفر ، فقيل : ابن خطل متعلق بأستار الكعبة ، فقال : (اقتلوه) .

وقال مكي في الإيضاح : والبين الظاهر في الآية أنها منسوخة ، وهو قول أكثر العلماء ، لأن قتال المشركين فرض لازم في كل موضع كانوا فيه .

- قوله تعالى (**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**) يستثنى الصبيان والنساء .

قال ابن العربي : قَوْله تَعَالَى (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) عَامٌّ فِي كُلِّ مُشْرِكٍ لَكِنَّ السُّنَّةَ خَصَّتْ مِنْهُ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ قَبْلَ هَذَا مِنْ امْرَأَةٍ وَصَبِيٍّ ، وَرَاهِبٍ ، وَحُشْوَةٍ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَبَقِيَ تَحْتَ اللَّفْظِ مَنْ كَانَ مُحَارِبًا أَوْ مُسْتَعِدًّا لِلْحِرَابَةِ وَالْإِذَايَةِ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ : اُقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَكُمْ.

- يجوز قتل النساء وغيرهن ممن لا يجوز قتلهم في حالين :

أولاً : إذا قاتلوا وحملوا السلاح أو قاموا بأعمال تعتبر من الأعمال القتالية .

وهذا واضح من تعليل النبي ﷺ ، فإنه ﷺ لما رأى المرأة مقتولة في بعض المغازي قال : [**ما كانت هذه لتقاتل**] فإن مفهومه أنها لو قاتلت لقتلت .

قال النووي : أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث ، وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا ، فإن قاتلوا يقتلون وبذلك قال جماهير العلماء .

وقال القرطبي : والصحيح : أنها إذا قاتلت بالسّلاح ، أو بالحجارة ، فإنه يجوز قتلها لوجهين :

أحدهما : قوله ﷺ (ما كانت هذه تقاتل) فهذا تنبيه على المعنى الموجب للقتل ، فيجب طرده إلا أن يمنع منه مانع .

والثاني : قتل النبي ﷺ لليهودية التي طرحت الرَّحى على رجل من المسلمين فقتلته ، وذلك بعدما أسرها النبي ﷺ ، وكلا الحديثين مشهور . (المفهم) .

الحالة الثانية : حين شن الغارات على الأعداء .

لحديث الصعب بن جَثّامة السابق قال (سئل النبي ﷺ عن الذراري من المشركين يُبَيَّتون ، فيصيبون من نسائهم وذراريهم، فقال: هم منهم) .

قوله (هم منهم) أي في الحكم في تلك الحالة ، وليس المراد إباحة قتلهم بطريق القصد إليهم ، بل المراد إذا لم يمكن الوصول إلى الآباء إلا بوطء الذرية ، فإذا أصيبوا لاختلاطهم بهم جاز قتلهم .

ومعنى البيات المراد في الحديث : أن يغار على الكفار بالليل بحيث لا يميز بين أفرادهم . **[قاله الحافظ ابن حجر]** .

وقال النووي : ومعنى البيات ويبيتون : أن يغار عليهم بالليل بحيث لا يعرف الرجل من المرأة والصبي ، وأما الذراري فبتشديد الياء والمراد بالذراري هنا النساء والصبيان .

(**وَخُذُوهُمْ**) أي : بالأسر .

- **قال ابن الجوزي** : واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال.

أحدها : أن حكم الأسارى كان وجوبَ قتلهم ، ثم نسخ بقوله (فإمّا منّاً بَعْدُ وإمّا فداءً) قاله الحسن ، وعطاء في آخرين.

والثاني : بالعكس ، وأنه كان الحكم في الأسارى ، أنه لا يجوز قتلهم صبراً ، وإنما يجوز المن أو الفداء بقوله (فإما مَنّاً بعدُ وإما فداءً) ثم نُسخ بقوله (فاقتلوا المشركين) قاله مجاهد ، وقتادة.

والثالث : أن الآيتين محكمتان ، والأسير إذا حصل في يد الإمام ، فهو مخيَّر ، إن شاءَ مَنَّ عليه ، وإن شاء فاداه ، وإن شاء قتله صبراً ، أيَّ ذلك رأى فيه المصلحة للمسلمين فعلَ ، هذا قول جابر بن زيد ، وعليه عامة الفقهاء ، وهو قول الإمام أحمد .

(**وَاحْصُرُوهُمْ**) قال ابن عباس : إن تحصنوا فاحصروهم أي: في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام .

(**وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**) أي : اقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه ، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم ، وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال .

قال القرطبي : لمرصد : الموضع الذي يُرقب فيه العدوّ ؛ يقال : رصدت فلاناً أرْصُده ، أي رَقَبْته.

(**فَإِنْ تَابُوا**) **من** الشرك .

(**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**) أتوا بها مستقيمة على وجهها الأكمل .

(**وَآتَوُا الزَّكَاةَ**) الإيتاء : هو الإعطاء قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ) .

- الزكاة : هي : قدر واجب في مال مخصوص ، لطائفة أو جهة مخصوصة .

وسميت بذلك : لأنها تزكي المال ، وتزكي صاحب المال ، كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ) ، بل وتزكي المجتمع كله ، فتنتشر المحبة والوئام والإخاء .

- كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والإنفاق [الزكاة] كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

قيل : إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين : إخلاصه لمعبوده ، وسعيه في نفع الخلق .

وقيل : الصلاة رأس العبادات البدنية ، والزكاة رأس العبادات المالية .

وقيل : الصلاة طهارة للنفس والبدن ، والزكاة طهارة للمال .

(**فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ**) أي : اتركوهم .

(**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**) يغفر السيئات مهما عظمت وكثرت .

والغفور : اسم من أسماء الله.

- **قال السعدي** : الغفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب.

قال ابن القيم:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان

لأتاه بالغفران ملء قرابها ... سبحانه هو واسع الغفران.

وهو متضمن للمغفرة الواسعة كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) , وقال تعالى (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) وقال تعالى (ورحمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق , والتجاوز عن عقوبته , كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه – عز وجل – حتى يضع كنفه – أي ستره ورحمته – فيقرره بذنوبه , فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم , أي ربي , حتى إذا قرره بذنوبه , ورأى في نفسه أنه هلك , قال الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) رواه البخاري ومسلم.

ومنه سمي المغفر , وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم:

أولاً: محبة الله وحمده وشكره على رحمته لعباده وغفرانه لذنوبهم.

ثانياً: فتح باب الرجاء والمغفرة للشاردين عن الله تعالى والمسرفين على أنفسهم , فهما عظمت ذنوب العبد فإن مغفرة الله ورحمته أعظم كما قال تعالى (إن ربك وسع لمغفرة) , وقد تكفل الله بالمغفرة لمن تاب (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) , بل من فضله وجود وكرمه أن تعهد بأن يبدل سيئات المذنبين إلى حسنات قال تعالى عن التائبين (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً).

ثالثاً: الإكثار من الأعمال الصالحة والحسنات لأنها من أسباب الحصول على مغفرة الله للسيئات السالفة قال سبحانه (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى).

رابعاً: إن كونه سبحانه غفوراً وغفاراً للذنوب لا يعني أن يسرف المسلم في الخطايا والذنوب ويتجرأ على معصية الله تعالى بحجة أن الله غفور رحيم, لأن المغفرة لا تكون إلا بشروطها وانتفاء موانعها قال سبحانه (إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً).

(**رَحِيمٌ**) ومن رحمته أن من تاب – مهما كان ذنبه – فإنه يتوب عليه ويغفر له .

والرحيم : اسم من أسماء الله دال على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى , كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).

- ورحمة الله تعالى لعباده نوعان:

الأولى: رحمة عامة.

وهي لجميع الخلائق بإيجادهم , وتربيتهم , ورزقهم , وإمدادهم بالنعم والعطايا , وتصحيح أبدانهم , وتسخير المخلوقات من نبات وحيوان وجماد في طعامهم وشرابهم , ومساكنهم , ولباسهم , وحركاتهم , وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

الثانية: رحمة خاصة.

وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين فيرحمهم الله في الدنيا بتوفيقهم إلى الهداية والصراط المستقيم , ويثبتهم عليه , ويدافع عنهم وينصرهم على الكافرين ويرزقهم الحياة الطيبة ويبارك لهم فيها , ويمدهم بالصبر واليقين عند المصائب , ويغفر لهم ذنوبهم , ويكفرها بالمصائب , ويرحمهم في الآخرة بالعفو عن سيئاتهم والرضا عنهم والإنعام

عليهم بدخول الجنة , كما قال تعالى (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً).

قال الشيخ ابن عثيمين: فهي رحمة إيمانية دينية دنيوية.

- ومن أعظم آثار رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور, كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (ونَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ).
- ومن رحمته: سبحانه مغفرته لذنوب عباده بالصفح عنهم , وتكفير سيئاتهم , وفتح باب التوب لهم , كما قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).
- ينبغي على العبد أن يتصف بصفة الرحمة , فقد مدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) , ومن أسمائه ﷺ (نبي الرحمة) ومدح الصحابة بقوله (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) , وخص أبو بكر من بينهم بقوله (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر).
- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم:

أولاً: محبة الله المحبة العظيمة , وذلك حينما يفكر العبد وينظر في آثار رحمة الله في الآفاق وفي النفس والتي لا تعد ولا تحصى , وهذا يثمر تجريد المحبة لله والعبودية الصادقة له سبحانه وتقديم محبته على النفس والأهل والمال والناس جميعاً.

ثانياً: عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله وعدم اليأس من رحمة الله تعالى , فإن الله قد وسعت رحمته كل شيء , وحسن الظن بالله وانتظار الفرج بعد الشدة من أجل العبادات.

ثالثاً: اتصاف العبد بالرحمة وبذلها لعباد الله تبارك وتعالى, وقد حض الله عباده على التخلق بها, ومدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ومن أسمائه ﷺ أنه نبي الرحمة, ومدح الصحابة بقوله (رحماء بينهم) وخُص أبو بكر بينهم بالكمال البشري في الرحمة بعد الرسل حيث قال ﷺ فيه (أرحم أمتي أبو بكر) رواه أحمد.

رابعاً: التعرض لرحمة الله بفعل أسبابها.

- وإذا كان الله رحيماً فينبغي أن يعمل بالأسباب التي تنال بها الرحمة:

أولاً: رحمة الناس.

قال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود.

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه.

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد.

ثانياً: الإحسان.

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

ثالثاً: طاعة الرسول ﷺ .

قال تعالى (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

رابعاً: السماحة في البيع والشراء.

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) رواه البخاري.

خامساً: عيادة المريض.

قال رسول الله ﷺ (من عاد مريضاً خاض في الرحمة) رواه مسلم.

سادساً: قيام الليل وإيقاظ الأهل.

قال رسول الله ﷺ (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته , فإن أبت نضح في وجهها الماء) رواه أبو داود.

سابعاً: الحلق في النسك.

قال رسول الله ﷺ (اللهم ارحم المحلقين ثلاثاً) متفق عليه.

ثامناً: مجالس الذكر.

قال رسول الله ﷺ (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة) رواه مسلم.

تاسعاً: الجلوس في المسجد.

قال رسول الله ﷺ (إن الملائكة تستغفر للمصلي مادام في مصلاه تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه) متفق عليه.

عاشراً: سماع حديث الرسول وتبليغه.

قال رسول الله ﷺ (رحم الله من سمع مني حديثاً فبلغه كما سمعه , فرب مبلغ أوعى من سامع) رواه ابن حبان.

الحادي عشر: الإنصات للقرآن.

قال تعالى (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

الثاني عشر: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

قال تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

الثالث عشر: الاستغفار.

قال تعالى (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

الفوائد :

١- وجوب قتال المشركين .

٢- مشروعية الجهاد ، وأنه باق لقتال الكفار .

٣- وجوب إعلاء كلمة الله في كل مكان .

٤- يجب قتال الكفار حتى لا تكون فتنة .

٥- أن من تاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة فإنه يكف عنه .

٦- سعة رحمة الله بقبول توبة من تاب .

٧- فضل الصلاة وعظيم مكانتها .

٨- فضل الزكاة ، وأنها أعظم ركن بعد الصلاة .

٩- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغفور والرحيم .

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (٦)) .

[التوبة : ٦] .

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) يقول تعالى لنبيه ﷺ (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم .

(اسْتَجَارَكَ) أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته .

(حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) أي: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئًا من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله .

(ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ) أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

أي: ذلك الأمر بالإجارة للمشركين ، بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الإسلام ، فلا بد من أمانهم حتى يسمعوا ويتدبروا

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشدًا أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحدًا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

- **قال السعدي** : قوله تعالى (فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) ... والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمته أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومن أخذ بقولهم: أن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

الفوائد :

١- حرص الإسلام على نشر الخير وسماع الدعوة لكل أحد .

٢- وجوب إقامة الحجة على أحد .

٣-عظمة تعاليم الإسلام .

٤- أن القرآن كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود .

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)) .

[التوبة : ٧] .

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ) الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للإنكار .

وفي الآية إضمار . والمعنى : كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه ، وقيل : معنى الآية : محال أن يثبت لهؤلاء عهد ، وهم أضداد لكم مضمرون للغدر ، فلا يطمعوا في ذلك ولا يحدّثوا به أنفسهم ،

- يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ) أي: أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله .
- **قال القرطبي** : وفي الآية إضمار ، أي كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر والنكث .
- **وقال ابن عاشور** : ففي وصفهم بالمشركين إيماء إلى علّة الإنكار على دوام العهد معهم.

(إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) يعني يوم الحديبية .

كما قال تعالى (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) .

- قال قوم منهم مجاهد : هم خزاعة ورد بإسلامهم عام الفتح.

وقال ابن زيد : هم قريش نزلت فلم يستقيموا ، فنزل تأجيلهم أربعة أشهر بعد ذلك.

وضعف هذا القول بأنّ قريشاً بعد الأذان بأربعة أشهر لم يكن فيهم إلا مسلم، وذلك بعد فتح مكة بسنة، وكذلك خزاعة. قاله الطبري.

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين فاستقيموا لهم .

قيل : هم بعض قبائل بني بكر ممن أقام على العهد ولم ينقض ، وهذا اختيار ابن جرير .

- **قال البغوي** ؛ قال السدي والكلبي وابن اسحاق : هم من قبائل بكر : بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية ، فلم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بني بكر فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض .

(إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) الذين يتقون ربهم ويمتنعون عن نقض العهد .

- وفي هذا فضل عظيم للتقوى وأهلها .

فالتقوى هي وصية الله لجميع خلقه ، ووصية رسوله ﷺ لأمته .

كان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيراً .

ولما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله وبالسمع والطاعة لأئمتهم .

ولما وعظ الناس كأنها موعظة مودع قال : أوصيكم بتقوى الله .

وقال لمعاذ : اتق الله حيثما كنت .

- التقوى مأخوذة من الوقاية ، وهي : أن يجعل الإنسان لنفسه وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

وهذا من أجمع التعاريف ، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت هذا المعنى .

قال علي : التقوى: الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقال ابن مسعود : حقيقة تقوى الله : أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله .

قال ابن القيم : وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى .

وروي أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى ؟ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك ؟ قال: نعم ، قال : فما عملت ؟ قال: تشمرت وحذرت ، قال : فذاك التقوى .

قال ابن المعتز :

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرهـــا فهـــو التقى

كن مثل ماش فـــوق ... أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقــرن صـــغيرة ... إن الجبـــال من الحصـى

- **فضائل التقوى :**

أولاً : أنها سبب لتيسير الأمور .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً) .

ثانياً : أنها سبب لإكرام الله .

قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

ثالثاً : العاقبة لأهل التقوى .

قال تعالى (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

رابعاً : أنها سبب في دخول الجنة .

قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

خامساً : أنها سبب لتكفير السيئات .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً) .

سادساً : أنها سبب لحصول البشرى لهم .

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا) .

سابعاً : أنها سبب للفوز والهداية .

قال تعالى (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

ثامناً : أنها سبب للنجاة يوم القيامة .

قال تعالى (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً) .

تاسعاً : أنها سبب لتفتيح البركات من السماء والأرض .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) .

عاشراً : أنها سبب للخروج من المأزق .

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

الحادي عشر : أنها سبب لمحبة الله .

قال تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

الثاني عشر : أنها سبب للاهتداء بالقرآن .

قال تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) .

الثالث عشر : بالتقوى تنال معية الله .

قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

الرابع عشر : أنها خير زاد .

قال تعالى (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) .

الخامس عشر : أنها من أسباب نيل الأجر العظيم .

قال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

السادس عشر : أن الآخرة خير من الدنيا للمتقين .

قال تعالى (والْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) .

السابع عشر : أنها سبب لقبول الأعمال .

قال تعالى (قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) .

الثامن عشر : أن لباس التقوى خير لباس .

قال تعالى (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) .

التاسع عشر : أنها من أسباب الرحمة .

قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) .

العشرون : أنها من أسباب ولاية الله .

قال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

وقال تعالى (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) .

- قال الحسن : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام .

وقال الثوري : إنما سموا متقين ، لأنهم اتقوا ما لا يُتقى .

- **قال ابن القيم** : مراتب التقوى :

التقوى ثلاث مراتب :

إحداها : حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات ، **والثانية** : حميّتها عن المكروهات ، **والثالثة** : الحمية عن الفضول وما لا يعني .

فالأولى تعطي العبد حياته ، والثانية تفيده صحته وقوته ، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته .

الفوائد :

١- لا عهد لكافر ينقض العهد .

٢- يجب الشدة على الكفار الغادرين .

٣- وجوب الوفاء بالعهود .

٤- فضل وعلو منزلة التقوى والمتقين .

٥- على المسلم أن يحرص على كل سبب يؤدي إلى التقوى .

٦- إثبات المحبة لله تعالى .

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)) .

[التوبة : ٨ – ١١] .

(كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً) أعاد الاستفهام التعجبي للتأكيد والتقرير ، والتقدير : كيف يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله؟ والحال أنهم إن يظهروا عليكم بالغلبة لكم (لاَ يَرْقُبُواْ) أي : لا يراعوا فيكم (إِلاًّ) : أي عهداً (وَلاَ ذِمَّةً) القرابة .

- قال ابن كثير : يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداة المشركين والتبري منهم، ومبينا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله ولو أنهم إذ ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم، لم يبقوا ولم يذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة.

(الإل) القرابة ، (والذمة) العهد .

(**يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ**) أي : يقولون بألسنتهم ما فيه مجاملة ومحاسنة لكم ، طلباً لمرضاتهم وتطييب قلوبكم ، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه ، وتودّ ما فيه مساءتكم ومضرتكم ، كما يفعله أهل النفاق وذو الوجهين

(**وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ**) الميل والمحبة لكم ، بل هم الأعداء حقاً ، المبغضون لكم صدقاً .

(**وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ**) أي : أكثرهم خارجون عن طاعة الله تعالى .

- والفسق هو الخروج عن طاعة الله ، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد ، ويطلق ويراد به الكفر

كقوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) وقال تعالى (ومَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) .

ويطلق ويراد به ما دونه من المعاصي كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ) .

(**اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا**) أي : استبدلوا بآيات الله الشرعية –التي هي هذا القرآن العظيم– تركوها وتَعَوَّضُوا منها ثمناً قليلاً ، من أمور الدنيا الخسيسة .

- **قال الشنقيطي** : الاشتراء في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه: الاستبدال، فكل أحد استبدل شيئاً من شيء تقول العرب: اشتراه، فالاشتراء في لسانها يتناول كل استبدال كائناً ما كان .

فمعنى (اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللَّهِ) استبدلوا بآيات الله الشرعية –التي هي هذا القرآن العظيم– تركوها وتَعَوَّضُوا منها ثمناً قليلاً.

واختلف العلماء بالمراد بهذا الثَّمَنِ القَلِيل :

فقال جماعة من العلماء: هي نزلت في قوم من الأعراب الذين كانوا عاهدوا النبي ﷺ فدعاهم أبو سفيان بن حرب، وأطعمهم أُكْلَة، ونقضوا العهود بسبب ذلك. وهذا قاله جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ المفسرين في هذه الآية. وهو مستبعد جدّاً .

لأن هذه الآية من براءة نزلت بعد إسلام أبي سفيان؛ لأنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَسْلَمَ عَامَ الفَتْحِ عَامَ ثَمَانٍ، وَهَذِهِ نَزَلَتْ عَامَ تِسْعٍ.

وقال بعض العلماء: هي في اليهود؛ لأنهم هم الذين تَبَدَّلُوا الرُّشَا من بيان الحق، وهو ضعيف أيضاً.

والتحقيق –إن شاء الله– أن المعنى: أن الكفار تبدلوا من آيات الله والعمل بما جاء عن الله ثمناً قليلاً من متاع الحياة الدنيا، وهو –مثلاً– عدم التقيد بالشرع، وبقاؤهم على ما كانوا عليه، واتباعهم أهواءهم . (العذب النمير) .

- وقد تقدم أن اليهود قد اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً :

كما قال تعالى (يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)

وقال تعالى (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) .

سئل الحسن البصري عن قوله تعالى (ثَمَناً قَلِيلاً) قال : الثمن القليل الدنيا بحذافيرها .

- فالثمن القليل : يشمل المال والمنصب والجاه والشهرة والرفعة ، فإن أحبار اليهود لو آمنوا بمحمد ﷺ لذهبت عنهم بعض ما هم فيه من المكانة والمنزلة والرفعة .

(**فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ**) أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق .

(**إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) أي : بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه وساء صنيعهم .

(**لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً**) تقدم تفسيره

(**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ**) أي : وأولئك الجامعون تلك الأوصاف الذميمة ، هم المجاوزون الحد في الظلم والبغي

والعدوان .

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) أي : فإن تابوا عن الكفر ، وأقلعوا عن عبادة غير الله ، ونطقوا بكلمة التوحيد ، وأقاموا الصلاة ، وأعطوا الزكاة لأهلها ، فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليكم ما عليهم .

(**وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**) أي : ونبيّن الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم ، لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

الفوائد :

١- التهييج والاغراء ببغض الكفار .

٢- شدة عداوة الكفار للمسلمين .

٣-يجب الحذر من أهل الشرك ، لأن قلوبهم كلها حقد وبغض للمسلمين .

٤- ذم وخطر من يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً .

٥- خطر الدنيا وشهواتها من منزلة ومال ومنصب ومحمدة .

٦- أن من يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً فيه شبه من أهل الشرك .

٧- ذم الدنيا .

٨- أن من أسلم وأقام الصلاة وآتى الزكاة فهو أخ للمسلمين .

٩- رحمة الله بعباده حيث يفصل لهم الآيات ويبينها لعلهم يعلمون الحق فيتبعونه .

(**وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢)**) .

[التوبة : ١٢] .

(**وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ**) يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم .

(**وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ**) أي: عابوه وانتقصوه.

- **قال القرطبي** : والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ؛ لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أُصوله واستقامة فروعه.
- ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بتنقص .

(**فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ**) أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

- **قال الرازي** : أي ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعدما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سبباً في انتهائهم عما هم عليه من الكفر ، وهذا من غاية كرم الله وفضله على الإحسان.

- **قال ابن الجوزي**: قوله تعالى (إنهم لا أَيْمان لهم) أي: لا عهود لهم صادقة؛ هذا على قراءة من فتح الألف، وهم الأكثرون.

وقرأ ابن عامر : "لا إِيمان لهم" بالكسر ؛ وفيها وجهان ذكرهما الزجاج.

أحدهما : أنه وصف لهم بالكفر ونفي الإيمان ، والثاني : لا أمان لهم ، تقول : آمنته إيماناً ، والمعنى : فقد بطل أمانكم لهم بنقضهم. (زاد المسير) .

- قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وعدد رجالاً .

والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر) "أئمّة" جمع إمام ، والمراد صناديد قريش في قول بعض العلماء كأبي جهل وعتبة وشيبة وأُمية بن خلف.

وهذا بعيد ؛ فإن الآية في سورة "براءة" وحين نزلت وقُرِئت على الناس كان الله قد استأصل شَأْفة قريش فلم يبق إلاّ مسلم أو مسالم ؛ فيحتمل أن يكون المراد (فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر) أي : من أقدم على نكث العهد والطعنِ في الدين يكون أصلاً ورأساً في الكفر ؛ فهو من أئمة الكفر على هذا.

ويحتمل أن يعني به المتقدِمون والرؤساء منهم ، وأن قتالهم قتالٌ لأتباعهم وأنهم لا حُرْمة لهم.

- **وقال أبو حيان** : وقال قتادة : المراد أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة ، وغيرهم ، وهذا ضعيف إن لم يؤخذ على جهة المثال ، لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير.
- **وقال ابن عطية** : أصوب ما في هذا أن يقال : إنه لا يعني بها معين ، وإنما دفع الأمر بقتال أئمة الناكثين العهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين .
- **قال البقاعي** : لما كان هذا الفعل لا يستقل به في الأغلب إلا الرؤساء ، أشار إلى ذلك بقوله : (فقاتلوا)

.

- **وقال الرازي** : قوله تعالى (فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر) معناه قاتلوا الكفار بأسرهم ، إلا أنه تعالى خص الأئمة والسادة منهم الذكر ، لأنهم هم الذين يحرضون الأتباع على هذه الأعمال الباطلة.
- **وقال أبو حيان** : والمعنى : فقاتلوا الكفار ، وخص الأئمة بالذكر لأنهم هم الذين يحرضون الأتباع على البقاء على الكفر.
- **وقال الآلوسي** : وتخصيصهم بالذكر لأن قتلهم أهم لا لأنه لا يقتل غيرهم ، وقيل : للمنع من مراقبتهم لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم فإن قتلهم غالباً يكون بعد قتل من دونهم ، وعن مجاهد أنهم فارس والروم وفيه بعد.

الفوائد :

١- فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْعَهْدِ مَتَى خَالَفُوا شَيْئًا مِمَّا عُوهِدُوا عَلَيْهِ ، وَطَعَنُوا فِي دِينِنَا فَقَدْ نَقَضُوا الْعَهْدَ .

٢- وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ سَبَّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ فَقَدْ نَقَضَ عَهْدَهُ ، إِذْ سَبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَكْثَرِ الطَّعْنِ فِي الدِّينِ .

(**أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)**) .

[التوبة : ١٣- ١٥] .

(**أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ**) هذا أيضاً تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة .

كما قال تعالى (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) .

وقال تعالى (يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ [إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي) .

وقال تعالى (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلاً) .

- **قال الرازي** : واعلم أنه تعالى ذكر ثلاثة أسباب كل واحد منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد ، فكيف بها حال الاجتماع :

أحدها : نكثهم العهد ، وكل المفسرين حمله على نقض العهد.

وثانيها : قوله (وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرسول) فإن هذا من أوكد ما يجب القتال لأجله.

وثالثها : قوله (وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) يعني بالقتال يوم بدر ، لأنهم حين سلم العير قالوا : لا ننصرف حتى نستأصل محمداً ومن معه.

(**وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) قيل : بدءوكم بالقتال يوم بدر ؛ لأن النبيّ ﷺ خرج للعِير ولما أحرزوا عِيرهم كان يمكنهم الانصراف ، فأَبَوْا إلاَّ الوصول إلى بدر وشُربَ الخمر بها .

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد.

- **قال الرازي** : ...والقول الثاني : أراد أنهم قاتلوا حلفاء خزاعة فبدؤا بنقض العهد ، وهذا قول الأكثرين .
- وإنما قال (بدؤكم) تنبيهاً على أن البادئ أظلم .
- **وقال الثعلبي** : قوله تعالى (وَهُم بَدَءُوكُم) بالقتال (أَوَّلَ مَرَّةٍ) يعني يوم بدر ، وقال أكثر المفسرين : أراد بدؤوكم بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ .
- **وقال الآلوسي** : وقال الزجاج : بدأوا بقتال خزاعة حلفاء النبي ﷺ وإليه ذهب الأكثرون ، واختار جمع الأول لسلامته من التكرار .

(**أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ**) الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أي : أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم ؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره .

(**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**) فكلما قوي إيمان الشخص قويت شجاعته وقوته في الحق ، فالمؤمن لا يخشى إلا ربه ، ولا يبالي بمن سواه .

- وفيه أن من أعظم علامات الإيمان عدم خشية الناس في الله .
- **قال الرازي** : وهذا الكلام يقوي داعية القتال من وجوه :

الأول : أن تعديد الموجبات القوية وتفصيلها مما يقوي هذه الداعية .

والثاني : أنك إذا قلت للرجل : أتخشى خصمك كان ذلك تحريكاً منه لأن يستنكف أن ينسب إلى كونه خائفاً من خصمه .

والثالث : أن قوله : (فالله أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ) يفيد ذلك كأنه قيل : إن كنت تخشى أحداً فالله أحق أن تخشاه لكونه في غاية القدرة والكبرياء والجلالة ، والضرر المتوقع منهم غايته القتل.

- ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده.

(**قَاتِلُوهُمْ**) اعلم أنه تعالى لما قال في الآية الأولى : (أَلاَ تقاتلون قَوْماً) ذكر عقيبه سبعة أشياء كل واحد منها يوجب إقدامهم على القتال.

ثم إنه تعالى في هذه الآية أعاد الأمر بالقتال وذكر في ذلك القتال خمسة أنواع من الفوائد ، كل واحد منها يعظم موقعه إذا انفرد فكيف بها إذا اجتمعت ؟ فأولها :

(**يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ**) مرة بالقتل ، ومرة بالأسر ، ومرة بأخذ أموالهم .

- والله تعالى سمى ذلك عذاباً وهو حق فإنه تعالى يعذب الكافرين فإن شاء عجله في الدنيا وإن شاء أخره إلى الآخرة.

(**وَيُخْزِهِمْ**) أي : ينزل بهم من الذل والهوان حيث شاهدوا أنفسهم مقهورين في أيدي المؤمنين ذليلين مهينين.

(**وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ**) والمعنى أنه لما حصل الخزي لهم ، بسبب كونهم مقهورين فقد حصل النصر للمسلمين بسبب كونهم قاهرين.

(**وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ**) أي : يذهب الغيظ الذي كان بها على المشركين الظالمين .

- **قال السمرقندي** : وفي الآية دلالة نبوة محمد ﷺ ، لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين على لسان النبي ﷺ أن يعذب الكفار بأيديهم ويخزهم وينصركم ، فأنجز وعده ولم يظهر خلاف ما وعد لهم.

(**وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ**) أي : أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وحرج الصدر .

- **قال السعدي** : فإن في قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهم إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله ساعين في إطفاء نور الله وزوالا للغيظ الذي في قلوبهم وهذا يدل على محبة الله لعباده المؤمنين واعتنائه بأحوالهم حتى إنه جعل –من جملة المقاصد الشرعية– شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم .

- **قال الشوكاني** : فإن قيل : شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون تكراراً . قيل في الجواب : إن القلب أخص من الصدر . وقيل : إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح ، ولا ريب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر ، وأن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح ، وقد وقعت للمؤمنين ولله الحمد هذه الأمور كلها ،

(**وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ**) أي: من عباده .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) أي: بما يصلح عباده .

والعليم : اسم من أسماء الله تعالى .

- **قال السعدي** : هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن, والإسرار والإعلان, وبالواجبات والمستحيلات, والممكنات, وبالعالم العلوي والسفلي, وبالماضي والحاضر والمستقبل, فلا يخفى عليه شيء من الأشياء .

- **مباحث علم الله تعالى :**

أولاً : الله تعالى يعلم كل شيء , يشمل الجزئيات والكليات .

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) .

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ثانياً : يعلم سبحانه الماضي والمستقبل .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .

(ما بين أيديهم) الحاضر والمستقبل (وما خلفهم) الماضي .

ثالثاً : الله يعلم الخفايا وما في الصدور :

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) . وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ) .

رابعاً : وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) .

خامساً : ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت .

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً , لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون , كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا

خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) .

سادساً : ويستوي في علم الله السر والعلانية , والصغير والكبير والغيب والشهادة .

قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) .

سابعاً : وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان .

قال تعالى (... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) .

وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) .

أما علم ابن آدم فمسبوق بجهل ويلحقه نسيان كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً) .

ثامناً : علمنا قليل بالنسبة لعلم الله .

قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) .

- الآثار المترتبة من علمنا بهذه الصفة :

أولاً : الخوف من الله وخشيته , ومراقبته في السر والعلن , لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره , فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً .

ثانياً : اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض , وللبواطن والظواهر , يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه , كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر .

قال ابن القيم : فإن قلت : فما السبيل إلى حفظ الخواطر , قلت : أسباب عدة , أحدها : العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك , وعلمه بتفصيل خواطرك , والثاني : حياؤك منه , والثالث : إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته .

ثالثاً : إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء , ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام , إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب .

رابعاً : ونستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء : وجوب مراقبة الله , لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء , فسوف يراقب ربه , بلسانه وجنانه وأركانه , فبلسانه : لا ينطق بما حرم الله , وبجنانه : لا يعتقد بقلبه خلاف الحق , وبجوارحه : لا يستعملها في المحرمات , فيستعمل العين في النظر إلى الحرام , ويستعمل اليد في البطش الحرام , ويستعمل الآذان في السماع الحرام .

وأيضاً نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: الرغبة والنشاط والرجاء, لأن الإنسان يعلم أن الله يعلم بكل أعماله الصالحة, وأنه لن يضيع منها شيء

(**حَكِيمٌ**) في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبدا، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

والحكيم اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة.

- **قال ابن جرير**: هو الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل.
- **وقال ابن كثير**: الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله.
- **قال ابن القيم**: وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة: أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل , بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة , لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل.
- **وقال السعدي**: فلا يخلق شيئاً عبثاً , ولا يشرع سدى , الذي له الحكم في الأولى والآخرة , وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك , فيحكم بين عباده في شرعه , وفي قدره , وجزائه.
- **وقال رحمه الله**: (وَهُوَ الْحَكِيمُ) فيما أمر به ونهى , وأثاب , وعاقب , وفيما خلق وقدر.

فهو سبحانه حكيم في صنعه , وحكيم في شرعه , فجميع مصنوعاته كلها محكمة , قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبداً.

قال بعض العلماء: الحكمة تكون في صورة الشيء: أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة , وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة.

وتكون في غايته: أي: أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة , وكذلك الحيوانات , وكذلك جميع المخلوقات , كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً).

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم:

أولاً : أن الله خلق الخلق لحكمة عظيمة ، وغاية جليلة وهي عبادته سبحانه حيث قال (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . ولم يخلقهم عبثاً وباطلاً كما يظن الكفار والملاحدة ، قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) . وقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) .

ثانياً : أن خلق الله محكم لا خلل فيه ولا قصور ، قال تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) .

ثالثاً : ونستفيد من معرفتنا أن الله حكيم في كل أفعاله: اقتناع الإنسان بما يجري عليه وما يوجبه الله عليه، لأن ما يجريه الله عز وجل من الأحكام مقرون بالحكمة ، فإذا علمت هذا يقينياً اقتنعت سواء كان هذا من الأحكام

الكونية أو الأحكام الشرعية ، حتى المصائب التي تنال العباد لاشك أن لها حكمة .

رابعاً : الرضا بالقضاء والقدر .

- وبالعلم والحكمة تتم الأمور ، لأن تخلف الأمور سببه أحد أمرين : إما الجهل وإما السفه ، فإذا وجد العلم ارتفع الجهل ، وإذا وجدت الحكمة ارتفع السفه .

الفوائد :

١- استعمال أسلوب التهييج والإثارة للجهاد .

٢- وجوب قتال أعداء الله .

٣- فضل وعظم منزلة قتال أعداء الله ، حيث أن الله يأمر به ويكرره .

٤- أن إخراج الرسول من أعظم الكفر .

٢-وجوب خشية الله تعالى .

٣- تحريم خشية غير الله تعالى .

٤- من أعظم علامات الإيمان خشية الله ، وعدم خشية الناس .

٥- أن من قوي إيمانه لم يخشى من الناس .

٦- وعد من الله بأننا إذا قاتلنا أعداء الله نصرنا عليهم وعذبهم بأيدينا .

٧- أن الجهاد وقتال أعداء الله فيه شفاء لصدور المؤمنين من الغيظ الذي فيه على المشركين .

٨- إثبات اسم العليم لله تعالى ، المتضمن للعلم الكامل الواسع .

٩- إثبات اسم الحكيم لله تعالى ، المتضمن للحكمة الكاملة البالغة .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)) .

[التوبة : ١٦] .

(**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ**) ام منقطعة بمعنى (بل) أي بل اظننتم يا معشر المؤمنين ان تتركوا بغير امتحان وابتلاء ، يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه ؟

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (أم حسبتم أن تُترَكوا) في المخاطب بهذا قولان.

أحدهما : أنهم المؤمنون ، خوطبوا بهذا حين شق على بعضهم القتال ، قاله الأكثرون.

والثاني : أنهم قوم من المنافقين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج معه إلى الجهاد تعذيراً

- **قال السعدي** : يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد ما أمرهم بالجهاد (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا) من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) أي: علماً يظهر مما في القوة إلى الخارج، ليترتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله: لإعلاء كلمته (وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً) أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله

والمؤمنين أولياء.

فشرع الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

كما قال تعالى (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) .

وقال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .

وقال تعالى (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) .

والحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد لعباده، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

(وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ) أي : والحال أنه لم يتبين المجاهد منكم من غيره .

- **قال الشوكاني** : والمعنى كيف تحسبون أنكم تتركوا ، ولما يتبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص .

كما قال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .

- **قال السعدي** : هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تئول إليه، تنقلب عند أرباب البصائر منحا يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

- **قال الشنقيطي** : أنكر الله في هذه الآية على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكاليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه ، وبين غيره وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة :

كقوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأسآء والضرآء وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ألا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيب) .

وقوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وقوله (الم أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين) .

- والمراد بالعلم هنا : (علم ظهور) لا علم خفاء ، فانه تعالى يعلم ذلك غيبا ، فاراد اظهار ما علمه ليجازي على العلم .
- وقد تقدم في قوله تعالى (إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْه) .

فقوله تعالى (إلا لنعلم ...) المراد علماً يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس .

- **قال القرطبي** : هذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء ، لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم .
- **وقال الشنقيطي** : ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون . وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا (وَلِيَبْتَلِيَ الله مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور) فقوله (والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور) بعد قوله (وَلِيَبْتَلِيَ) دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به، ... ومعنى (إِلاَّ لِنَعْلَمَ) أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك ، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس . أما عالم السر والنجوى فهو عالم بكل ما سيكون ،كما لا يخفى . [أضواء البيان : ١ / ١٠٤] .
- **وقال الشيخ ابن عثيمين** : المراد علم ظهور أو علم يترتب عليه الجزاء ، لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء حتى يُمتحن العبد ويُنظر .
- ومثل هذه الآية قوله تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) وقوله تعالى (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) وقوله تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .

(**وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً**) أي : جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين ، يفشون اليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين .

- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (ولم يتخذوا من دون الله ...) معطوف على جاهدوا ، غير متخذين وليجة .
- وليجة : يعني : بطانة من غير أهل دينه ، يفشي إليه سره.

وقال الزجاج : الوليجة البطانة ، وهي مأخوذة من ولج الشيء إذا دخل ، يعني : ولم يتخذوا بينهم وبين أهل الكفر خُلَّةً ومودة.

وقال الفرّاء : وليجة بطانة من المشركين يتخذونهم ويُفشون إليهم أسرارهم ويعلمونهم أمورهم.

وقال الخازن : قال الراغب : الوليجة كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من قولهم فلان وليجة في القوم إذا دخل فيهم وليس منهم والمقصود من هذا نهي المؤمنين عن موالاة المشركين وإن يفشوا إليهم أسرارهم

- والغرض من الآية : أن الله تعالى لا يترك الناس دون تمحيص ، يظهر فيه الطيب من الخبيث .

(**وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**) أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرها وشرها.

الفوائد :

١- أن الإيمان ليس بالتمني .
٢- أن الإيمان له علامات تدل على صدق صاحبه ، ومن ذلك بذل النفوس في سبيل الله .
٣- أن الله يبتلي عبده ليمتحن صبره .
٤- أن الجهاد سبب لدخول الجنة .

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨))

[التوبة : ١٨] .

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ) يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له. ومن قرأ: "مسجد الله" فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسسه خليل الرحمن هذا .

- **قال الرازي** : عمارة المساجد قسمان : إما بلزومها وكثرة إتيانها يقال : فلان يعمر مجلس فلان إذا كثر غشيانه إياه ، وإما بالعمارة المعروفة في البناء ، فإن كان المراد هو الثاني ، كان المعنى أنه ليس للكافر أن يقـدم على مرمة المساجد وإنما لم يجز له ذلك :

لأن المسجد موضع العبادة فيجب أن يكون معظماً والكافر يهينه ولا يعظمه .

وأيضاً الكافر نجس في الحكم ، لقوله تعالى (إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ) وتطهير المساجد واجب لقوله تعالى (أَن طَهِّـرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ) .

وأيضاً الكافر لا يحترز من النجاسات ، فدخوله في المسجد تلويث للمسجد ، وذلك قد يؤدي إلى فساد عبادة المسلمين.

وأيضاً إقدامه على مرمة المسجد يجري مجرى الإنعام على المسلمين ، ولا يجوز أن يصير الكافر صاحب المنة على المسلمين .

(شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ) حال : أي ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر ، بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها ، وجعلها آلهة ، فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر ، وإن أبوا ذلك بألسنتهم ، فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين : عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين ، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرّب إلى الله بعمارة مساجده .

وقيل : المراد بهذه الشهادة قولهم في طوافهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك : تملكه وما ملك .

وقيل : شهادتهم على أنفسهم بالكفر : أن اليهودي يقول هو يهودي ، والنصراني يقول هو نصراني ، والصابئ يقول هو صابئ ، والمشرك يقول هو مشرك . (فتح القدير) .

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) أي: بشركهم .

فالشرك محبط للعمل .

قال تعالى (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

(**وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ**) أبد الآبدين .

المراد بالخلود هنا الإقامة الأبدية الدائمة ، التي لا تحول ولا تزول .

- فأهل النار الذين هم الكفار مخلدون في نار جهنم لا يخرجون منها ولا تفنى على الصحيح من أقوال أهل العلم .

وقد ذكر الله أبديتها في القرآن في ثلاثة مواضع :

في سورة النساء .قال تعالى (وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً . إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) .

وفي سورة الأحزاب .قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً . خالدين فيها أبداً) .

وفي سورة الجن .قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

(**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**) فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد .

وقد جاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال (إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان؛ قال الله تعالى (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) .

(**وَالْيَوْمِ الآخِرِ**) أي : يوم القيامة .

- الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت ، فيشمل ما يكون في القبر من سؤال الملكين ، وعذاب القبر ونعيمه ، والبعث ، والحشر ، والصراط ، والجزاء ، والجنة والنار ، سمي بذلك لأنه لا يوم بعده .
- كثيراً ما يقرن الله بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً) .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وقال تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ ..) .

وقال ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليقل خيراً أو ليصمت) .

وقال ﷺ (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً)

وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الحوافز التي تدفع الإنسان للعمل الصالح ، حيث الجزاء على الأعمال في ذلك اليوم ، فهو أعظم دافع إلى العمل الصالح ، وهو أعظم رادع على التمادي في الباطل لمن وفقه الله تعالى .

ولهذا قال عمر : لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى .

قال الشيخ السعدي : الآخرة اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل ، واليقين : هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك ، والموجب للعمل .

- **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله** : لأن الإيمان بالله هو الذي يبعث على العمل ، ولهذا يقرن الله دائماً الإيمان بالله وباليوم الآخر .
- للإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة :

منها : الرغبة في فعل الطاعات والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم .

ومنها : الرهبة من فعل المعصية والرضى بها خوفاً من عقاب ذلك اليوم .

ومنها : تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها .

- ثمرات الإيمان باليوم الآخر :

أولاً : الحث على العمل الصالح والمبادرة لفعل الخيرات وترك المنكرات .

بل ما تكاسل المتكاسلون في عمل الصالحات سواء الواجب منها والمسنون إلا بسبب الغفلة عن الآخرة والانشغال عنها .

يقول تعالى في وصف عباده الصالحين (رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) .

وقال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) .

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة) .

وهو (سبحانه) كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة ، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة ، فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل ، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ).

وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها . قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ، فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون ؟ قال : لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم ، أولئك يسارعون في الخيرات) .

والله (سبحانه) وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

قال ابن القيم : فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات ؟ وقال المغرورون : إن المفرطين المضيعين

لحقوق الله المعطلين لأوامره الباغين المتجرئين على محارمه ، أولئك يرجون رحمة الله .

ثانياً : الإخلاص لله (عز وجل) والمتابعة للرسول .

إن الموقن بلقاء الله عز وجل يوم الفزع الأكبر ، لا تلقاه إلا حريصاً على أعماله ، خائفاً من كل ما يحبطها من أنواع الشرك الأكبر أو الشرك الأصغر .

قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) .

ثالثاً : الحذر من الدنيا والزهد فيها والصبر على شدائدها وطمأنينة القلب وسلامته .

إذا أكثر العبد ذكر الآخرة ، وكانت منه دائماً على بال ، فإن الزهد في الدنيا والحذر منها ومن فتنتها سيحلان في القلب ، وحينئذ لا يكترث بزهرتها ، ولا يحزن على فواتها ، ولا يمدن عينيه إلى ما متع الله به بعض عباده من نعم ليفتنهم فيها ، وهذه الثمرة يتولد عنها بدورها ثمار أخرى مباركة طيبة منها : القناعة ، وسلامة القلب من الحرص والحسد والغل والشحناء ؛ لأن الذي يعيش بتفكيره في الآخرة وأنبائها العظيمة لا تهمه الدنيا الضيقة المحدودة ، مع ملاحظة أن إيمان المسلم باليوم الآخر وزهده في الدنيا لا يعني انقطاعه عنها وعدم ابتغاء الرزق في أكنافها ؛ يقول تعالى (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ) .

رابعاً : اجتناب الظلم بشتى صوره .

لا شيء يمنع النفس من ظلم غيرها في نفس أو مال أو عرض: كاليقين بالرجوع إلى الله (عز وجل) وإعطاء كل ذي حق حقه، وإنصاف المظلوم ممن ظلمه، فإذا تذكر العبد هذا الموقف العصيب الرهيب، وأنه لا يضيع عند الله شيء، كما قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) وقوله تعالى (وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً) إذا تذكر هذه المواقف واتعظ بهذه الآيات ، وأيقن بتحققها فلا شك أن ذلك سيمنعه من التهاون في حقوق الخلق ، والحذر من ظلمهم في دم أو مال أو عرض ، خاصة وأن حقوق العباد مبنية على المشاحة والحرص على استيفاء الحق من الخصم ، وبالذات في يوم الهول الأعظم الذي يتمنى العبد فيه أن يكون له مظلمة عند أمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، فضلاً عن غيرهم من الأباعد ، ومعلوم أن التقاضي هنالك ليس بالدينار والدرهم ولكن بالحسنات والسيئات .

خامساً : تقصير الأمل وحفظ الوقت :

إن من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد : طول الأمل ، والأماني الخادعة التي تجعل صاحبها في غفلة شديدة عن الآخرة ، واغترار بزينة الحياة الدنيا ، وتضييع ساعات العمر النفيسة في اللهث وراءها حتى يأتي الأجل الذي يقطع هذه الآمال ، وتذهب النفس حسرات على ما فرطت في عمرها ، وأضاعت من أوقاتها .

ولكن اليقين بالرجوع إلى الله (عز وجل) والتذكر الدائم لقصر الحياة وأبدية الآخرة وبقائها ، هو العلاج الناجع لطول الأمل وضياع الأوقات .

يقول ابن قدامة : واعلم أن السبب في طول الأمل شيئان : أحدهما : **حب الدنيا** ، والثاني : **الجهل** .

أما حب الدنيا : فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ، ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع من

الفكر في الموت ، الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه .

السبب الثاني : الجهل ، وهو أن الإنسان يعول على شبابه ، ويستبعد قرب الموت مع الشباب ، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشرة ؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب ، وقد يغتر بصحته ، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة ، وإن استبعد ذلك) .

سادساً : الفوز برضا الله (سبحانه) وجنته ، والنجاة من سخطه والنار :

وهذه ثمرة الثمار ، وغاية الغايات ، ومسك الختام في مبحث الثمار ، قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) أي : حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم ، والوصول إلى جنات النعيم ، التي فيها : ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ ومفهوم الآية : أن من لم يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فإنه لم يفز ، بل قد شقي الشقاء الأبدي ، وابتلي بالعذاب السرمدي ، وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه ، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه ، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه) .

(**وَأَقَامَ الصَّلاةَ**) أي: التي هي أكبر عبادات البدن .

(**وَآتَى الزَّكَاةَ**) أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق .

(**وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ**) أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه .

- **قال الآلوسي** : ... فيندرج فيه عدم الخشية عند القتال الموبخ عليها في قوله سبحانه (أَتَخْشَوْنَهُمْ فالله أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ) وأما الخوف الجبلي من الأمور المخوفة فليس من هذا الباب ولا هو مما يدخل تحت التكليف ، والخطاب والنهي في قوله تعالى (خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ) ليس على حقيقته ، وقيل : كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفي تلك الخشية عنهم .
- **وقال ابن عاشور** : وقصر خشيتهم على التعلّق بجانب الله تعالى بصيغة القصر ليس المراد منه أنّهم لا يخافون شيئاً غير الله فإنّهم قد يخافون الأسَد ويخافون العدوّ ، ولكن معناه إذا تردّد الحال بين خشيتهم الله وخشيتهم غيره قدّموا خشية الله على خشية غيره كقوله آنفاً (أتخشونهم فاللَّهُ أحق أن تخشوه) وهذا من خصائص المؤمنين : فأمّا المشركون فهم يخشون شركاءهم وينتهكون حرمات الله لإرضاء شركائهم، وأمّا أهل الكتاب فيخشون الناس ويعصون الله بتحريف كَلمِه ومجاراة أهواء العامّة، وقد ذكّرهم الله بقوله (فلا تخشوا الناس واخشون) .
- فضائل خشية الله في الخلوة .

أولاً : لهم مغفرة وأجر كبير .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

(بالغيب) أي : وهم غائبون عن أعين الناس لا يراهم أحد من الناس كما جاء في الحديث عن أبي هريرة .

قال : قال رسول الله ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : .. وذكر منهم : ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه .وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) .

ويحتمل (يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ) أي : أنهم يخشون ربهم وهم لم يروه كما في الحديث (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم .

ثانياً : أن الله مدح من يخافه بالغيب .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) .

ثالثاً : هم أهل من ينتفع الإنذار .

قال تعالى (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ) .

- **قال السعدي** : أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر .

رابعاً : من علامات المتقين .

قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) .

- **قال السعدي** (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم (وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُون) أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد .

خامساً : من أسباب النجاة .

قال ﷺ (ثلاث منجيات : خشية الله في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى) .

وقال المناوي : إن خشية الله رأس كل خير، والشأن في الخشية في الغيب لمدحه تعالى من يخافه بالغيب .

وقال : وقدّمها الرسول ﷺ على خشية العلن في الحديث ، فقدّم عليه الصلاة والسلام الخشية في السِّر؛ لأن تقوى الله فيه أعلى درجة من العلن؛ لما يخاف من شوب رؤية الناس، وهذه درجة المراقبة، وخشيته فيهما تمنع من ارتكاب كل منهي وتحثه على فعل كل مأمور .

سادساً : أن النبي ﷺ كان يدعو ربه بذلك .
ففي حديث عمار . (أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات: ...، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة) . رواه أحمد
قال ابن رجب : ... فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة ، ولكن الشأن في خشيته في الغيب إذا غاب عن أعين الناس وقد مدح الله من يخافه بالغيب ... ثم ذكر الآيات المتقدمة .
سابعاً : من الذين يظلهم الله في ظله .
قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله). متفق عليه
ثامناً : وخشية الله في السر والعلانية هي الوصية النبي ﷺ .
فقد قال ﷺ لمعاذ (اتق الله حيثما كنت) أي : في السر والعلانية، حيث يراك الناس وحيث لا يرونك، في الليل والنهار، في الغيب والشهادة، في كل وقت وعلى كل حال .
تاسعاً : لقد كان النبي ﷺ أشد الناس خشية لله .
فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي، فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها) .
وقال عبد الله بن مسعود : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا .

- ما يعين على خشية الله بالغيب والشهادة .

أولاً : أن يعلم العبد أن الله يراه، ومطلع عليه .
قال ابن رجب –رحمه الله– مبيناً لذلك : فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه مطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلواته؛ أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر .
وقد كان بعض السلف يقول لأصحابه: "زهدنا الله وإياكم في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة، فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته .
وقال الشافعي : أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف .
وقال رجل لوهب بن الورد: عظني؟ فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .
ودخل بعضهم غيضة ذات شجر فقال: لو خلوت هاهنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع هاتفا بصوت ملأ الغيضة: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير .
وراود بعضهم أعرابية، وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب، قالت: أين مكوكبها؟!
إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ** خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ** ولا أن ما يخفى عليه يغيب
ثانياً : قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي .

ثالثاً : النظر في شدة بطشه وانتقامه ، وقوته وقهره ، وذلك يوجب للعبد ترك التعرض لمخالفته .

- وقال رحمه الله : ومن هنا عظم ثواب من أطاع الله سراً بينه وبينه ، ومن ترك المحرمات التي يقدر عليها سراً .

فأما الأول : فمثل قوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) .

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

وأما الثاني : فمثل قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله) .

الفوائد :

١- أن الكافر ليس أهلاً لعمارة بيوت الله .

٢- لا يجوز أن يسمح للكافر أن يعمر مساجد الله .

٣- أن الكفر محبط للعمل .

٤- أن الكافر مخلد في النار .

٥- أن بيوت الله أنما يعمرها حسياً ومعنوياً أهل الإيمان بالله واليوم الآخر .

٦- فضل الإيمان بالله .

٧- عظم منزلة الإيمان باليوم الآخر .

٨- مكانة الصلاة في الإسلام .

٩- أن أعظم الأركان بعد الصلاة إيتاء الزكاة .

١٠- أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أعظم علامات الإيمان .

١١- وجوب خشية الله في السر والعلن .

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

[التوبة : ١٩] .

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) هذه الآية نزلت في افتخار الكفار بسقايتهم الحاج ، وعمارتهم المسجد الحرام ، وجعلهم ذلك مثل إيمان المؤمنين ، وأن لهم من الأجر مثل ما للمؤمنين فأنكر الله عليهم .

- الهمزة في قوله. أَجَعَلْتُمْ للاستفهام الإنكاري المتضمن معنى النهى.

والكلام على حذف مضاف ، لأن العمارة والسقاية مصدران ولا يتصور تشبيههما بالأعيان ، فلا بد من تقدير مضاف في أحد الجانبين حتى يتأتى التشبيه والمعنى : أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله؟ لا يكونون مثلهم أبداً .

- والمراد بسقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء ، وكان العباس. رضى الله عنه. هو الذي يتولى إدارة هذا العمل.

قال الجمل : السقاية هي المحل الذي يتخذ فيه الشراب في الموسم. كان يشترى الزبيب فينبذ في ماء زمزم ويسقى للناس ، وكان يليها العباس جاهلية وإسلاما ، وأقرها النبي ﷺ له .. ويظهر أن المراد بها هنا المصدر. أي : إسقاء الحجاج وإعطاء الماء لهم.

- وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات ، مضمونها افتخار الكفار بسقايتهم للحجاج وعمارة الحرام على الإيمان بالله واليوم والآخر والجهاد في سبيل الله ، فأنزل الله هذه الآية .

(ذكر ابن الجوزي في زاد المسير الأقوال في أسباب النزول لمن أراد مراجعتها) .

- والخطاب يشمل بعض المؤمنين الذين آثروا السقاية والعمارة على الجهاد كما جاء في حديث النعمان. كما يشمل المشركين الذين كانوا يتفاخرون بأنهم سقاة الحجيج ، وعمار المسجد الحرام.

والمقصود من الجملة الكريمة إنكار التسوية بين العملين وبين الفريقين. وقد جاء هذا الإنكار صريحا في قوله تعالى (لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ) .

- **قال السعدي** : لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ) أي: سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم، أنه المراد (وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ) فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالا صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال (لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ) .

(**لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ**) أي : لا يساوى الفريق الأول الفريق الثاني في حكم الله ، إذ أن الفريق الثاني له بفضل إيمانه الصادق. وجهاده الخالص الأجر الجزيل عند الله.

لأن عمل الكفار باطل ، قال تعالى (وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وقال جلَّ وعلا (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا) .

(**وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) تهديد لكل ظالم ، وأخطر الظلم الشرك بالله تعالى .

(**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ**) (**الَّذِينَ آمَنُواْ**) بالله تعالى ، وبكل ما يجب الإيمان به .(**وَهَاجَرُواْ**) أوطانهم وديارهم وأموالهم (**وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ**) أي : وبذلوا جهدهم في إعلاء كلمة الله ، في محاربة الكفار .

- هذه الثلاثة : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله من أعظم خصال الإيمان .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

- **قال السعدي** : وفي قوله (أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ) إشارة إلى أن العبد ولو أتى من الأعمال بما أتى به لا ينبغي له أن يعتمد عليها ، ويعول عليها ، بل يرجو رحمة ربه ، ويرجو قبول أعماله ومغفرة ذنوبه ، وستر عيوبه.
- هذه الأعمال الثلاثة (الإيمان والهجرة والجهاد) من أفضل الأعمال .
- **قال السعدي** : هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان، من الربح والخسران، فأما الإيمان، فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد، قبلت أعمال الخير منه ، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض، ولا نفل .

وأما الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المألوف، لرضا الله تعالى، فيترك المهاجر وطنه وأمواله وأهله وخلانه، تقرباً إلى الله ونصرة لدينه.

وأما الجهاد: فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء ، والسعي التام في نصرة دين الله ، وقمع دين الشيطان ، وهو ذروة الأعمال الصالحة ، وجزاؤه ، أفضل الجزاء ، وهو السبب الأكبر ، لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام ، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة على لأوائها ومشقتها كان لغيرها أشد قياما به وتكميلا.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله ، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة ، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة ، وأما الرجاء المقارن للكسل ، وعدم القيام بالأسباب ، فهذا عجز وتمن وغرور ، وهو دال على ضعف همة صاحبه ، ونقص عقله ، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح ، ووجود الغلة بلا بذر وسقي ، ونحو ذلك.

- فضل الإيمان بالله :

مِنْهَا : الْأَجْرُ الْعَظِيمُ (وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) .

وَمِنْهَا : الدَّفْعُ عَنْهُمْ شُرُورَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) .

وَمِنْهَا : اسْتِغْفَارُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ لَهُمْ .

قال تعالى (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) .

وَمِنْهَا : مُوَالَاةُ اللَّهِ لَهُمْ ، وَلَا يَذِلُّ مَنْ وَالَاهُ اللَّهُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) .

وَمِنْهَا : أَمْرُهُ مَلَائِكَتَهُ بِتَثْبِيتِهِمْ .

قال تعالى (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) .

وَمِنْهَا : الْعِزَّةُ .

قال تعالى (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) .

وَمِنْهَا : مَعِيَّةُ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ .

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) .

وَمِنْهَا : الرِّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ :.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

وَمِنْهَا : أَمَانُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ يَوْمَ يَشْتَدُّ الْخَوْفُ .

قال تعالى (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وَمِنْهَا : أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ هُدًى لَهُمْ وَشِفَاء .

قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْإِيمَانَ سَبَبٌ جَالِبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَكُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ الْإِيمَانُ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ عَدَمُ الْإِيمَانِ .

- فضل الهجرة لله تعالى :

أولاً: أنه الله يعوضه مراغماً وسعة.

قال تعالى (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا).

قال ابن كثير: وهذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه.

- **وقال السعدي**: هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغمًا في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا.
- **وقال الرازي**: وعندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية، وذلك لأن من فارق وذهب إلى بلدة أجنبية فإذا استقام أمره في تلك البلدة الأجنبية، ووصل ذلك الخبر إلى أهل بلدته خجلوا من سوء معاملتهم معه، ورغمت أنوفهم بسبب ذلك، وحمل اللفظ على هذا أقرب

من حمله على ما قالوه، والله أعلم.

- **وقال لرازي:** كأنه قيل: يا أيها الإنسان إنك كنت إنما تكره الهجرة عن وطنك خوفاً من أن تقع في المشقة والمحنة في السفر، فلا تخف فإن الله تعالى يعطيك من النعم الجليلة والمراتب العظيمة في مهاجرتك ما يصير سبباً لرغم أنوف أعدائك، ويكون سبباً لسعة عيشك، وإنما قدم في الآية ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش لأن ابتهاج الإنسان الذي يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة ظلمهم عليه بدولته من حيث إنها تصير سبباً لرغم أنوف الأعداء، أشد من ابتهاجه بتلك الدولة من حيث إنها صارت سبباً لسعة العيش عليه .

ثانياً : أن الله يخلفه.

قال تعالى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً).

- قوله (لساناً) أي ذكراً حسناً، واللسان في القرآن يطلق ثلاث إطلاقات:

ثالثاً : ينالون رحمة الله.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم).

رابعاً: تكفير للسيئات ودخول الجنان.

قال تعالى (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ).

- قال ابن كثير: أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران ... وقوله (ثَوَاباً مِّن عِندِ اللَّهِ) إضافة إليه ونسبة إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً.
- وقال السعدي: فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال طلبًا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

خامساً: قال تعالى (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَة وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

قال السعدي: يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين ...فذكر لهم ثوابين، ثوابًا عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء الذي رأوه عياناً بعدما هاجروا وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة، (وَلأَجْرُ الآخِرَةِ) الذي وعدهم الله على لسان رسوله خير، و (أَكْبَرُ) من أجر الدنيا ... (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وجاهد في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

قال ﷺ لعمرو بن العاص (أما عملت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟! وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟! وأن الحج يهدم ما كان قبله؟).

- **قال النووي**: فيه عظيم موقع الإسلام والهجرة والحج، وأن كل واحد منها يهدم ما كان قبله من المعاصي.

سادساً : ومن فضلها أنّها تدحر الشّيطان الرّجيم، حتّى قرنها النبيّ ﷺ بالإسلام والجهاد في سبيل الله تعالى.

روى الإمام أحمد والنّسائي عن سَبْرَةَ بنِ أبي فَاكِهٍ ﷺ قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ: فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ، فَأَسْلَمَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟! فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ؟ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ؟! فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ).

قوله ﷺ لأبي فاطمة الضمري (عليك بالهجرة فإنه لا مثل لها).

- مقاصد الهجرة:

أولاً : تكثير المسلمين.

ثانياً : أن البقاء بينهم ذريعة إلى موافقتهم.

ثالثاً : تيسير الجهاد على أهل الإسلام.

رابعاً : هجر المكان الذي يكفر فيه.

- **فضائل الجهاد في سبيل الله .**

أولاً : أن الروحة في سبيل الله خير من الدنيا بما فيها .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال (لَغَـدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) متفق عليه .

فائدة : قوله (خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) قولان :

قيل : فَضْل الْغَدْوَة وَالرَّوْحَة فِي سَبِيل الله وَثَوَابهمَا خَيْر مِنْ نَعِيم الدُّنْيَا كُلّهَا لَوْ مَلَكهَا الْإِنْسَان ، وَتَصَوَّر تَنَعُّمه بِهَا كُلّهَا ؛ لِأَنَّهُ زَائِل وَنَعِيم الْآخِرَة بَاقٍ .

وقيل : أن ثواب الغدوة والروحة أفضل من الدنيا وما فيها لو ملكها مالك ، فأنفقها في وجوه البر والطاعة غير الجهاد .

قال ابن دقيق العيد : والثاني : أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة الله تعالى .

قلت — ابن حجر – ويؤيد هذا الثاني ما رواه ابن المبارك في كتاب الجهاد من مرسل الحسن قال بعث رسول الله ﷺ جيشاً فيهم عبد الله بن رواحة فتأخر ليشهد الصلاة مع النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : والذي نفسي بيده لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت فضل غدوتهم ، والحاصل أن المراد تسهيل أمر الدنيا وتعظيم أمر الجهاد . (الفتح) .

ثانياً : أنه من أفضل الأعمال .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ فَقَالَ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : حَجٌّ مَبْرُور) متفق عليه .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : (سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِه) متفق عليه .

قال ابن حجر : وفي الحديث أن الجهاد أفضل الأعمال بعد الإيمان .

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: (يَا رَسُولَ اللهِ نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ أَفَلاَ نُجَاهِدُ قَالَ: لاَ، لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ). رواه البخاري

فالرسول ﷺ في هذا الحديث أقر عائشة على قولها : نرى الجهاد أفضل العمل ، ثم بيّن أن الحج بالنسبة إلى النساء هو أفضل من الجهاد .

ثالثاً : أن المجاهد أفضل الناس .

عن أَبِي سَعِيد الْخُدْرِي . قَالَ (قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ قَالُوا ثُمَّ مَنْ قَالَ مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ) متفق عليه .

رابعاً : الجهاد لا يعدله شيء .

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ « لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ ». قَالَ فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ « لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ ». وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ : مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ لاَ يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى) متفق عليه .

ولفظ البخاري : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ قَالَ : لاَ أَجِدُهُ قَالَ : هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ ، وَلاَ تَفْتُرَ وَتَصُومَ ، وَلاَ تُفْطِرَ قَالَ ، وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ) .

قال النووي : قَوْله ﷺ (مَثَل الْمُجَاهِد فِي سَبِيل اللَّه كَمَثَلِ الصَّائِم الْقَائِم الْقَانِت بِآيَاتِ اللَّه ... إِلَى آخِره) مَعْنَى الْقَانِت هُنَا : الْمُطِيع . وَفِي هَذَا الْحَدِيث عَظِيم فَضْل الْجِهَاد ؛ لِأَنَّ الصَّلَاة وَالصِّيَام وَالْقِيَام بِآيَاتِ اللَّه أَفْضَل الْأَعْمَال ، وَقَدْ جَعَلَ الْمُجَاهِد مِثْل مَنْ لَا يَفْتُر عَنْ ذَلِكَ فِي لَحْظَة مِنْ اللَّحَظَات ، وَمَعْلُوم أَنَّ هَذَا لَا يَتَأَتَّى لِأَحَدٍ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ : " لَا تَسْتَطِيعُونَهُ " وَاللَّهُ أَعْلَم . (نووي) .

خامساً : للمجاهدين مائة درجة في الجنة .

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) رواه البخاري .

سادساً : الجهاد سبب للنجاة من النار .

عن أَبِي عَبْس . أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ) رواه البخاري .

وفي لفظ (مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ) .

(**ما اغبرت**) جاء عند أحمد (ساعة من نهار) ، (**في سبيل الله**) لا من أجل وطنية أو قبلية أو رياء .
قال الحافظ ابن حجر : وفي ذلك إشارة إلى عظم قدر التصرف في سبيل الله ، فإذا كان مجرد مسّ الغبار للقدم يحرم عليها النار ، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفذ وسعه ؟ .

سابعاً : من أسباب دخول الجنة .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ) متفق عليه .

وعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى . قال : قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ واسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوف) متفق عليه .

والمعنى : ... وَالسَّبَب الْمُوَصِّل إِلَى الْجَنَّة عِنْد الضَّرْب بِالسُّيُوفِ فِي سَبِيل اللَّه ، وَمَشْي الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيل اللَّه ، فَاحْضُرُوا فِيهِ بِصِدْقٍ وَاثْبُتُوا .

وقال ﷺ (إِنَّ أَبْوَاب الْجَنَّة تَحْت ظِلَال السُّيُوف) قَالَ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ : إِنَّ الْجِهَاد وَحُضُور مَعْرَكَة الْقِتَال طَرِيق إِلَى الْجَنَّة وَسَبَب لِدُخُولِهَا .

قال القرطبي : قوله (... الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوف) هذا الكلام من النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة مع جزالة اللفظ وعذوبته وحسن استعارته ، وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ المقبولة الوجيزة بحيث يعجز الفصحاء اللسن البلغاء عن إيراد مثله ، وأن يأتوا بنظيره وشكله ، فإنه استفيد منه مع وجازته الحض على الجهاد والإخبار بالثواب عليه .

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال (لا يلجُ النارَ رجلٌ بكى من خشية الله، حتَّى يعودَ اللَّبَنُ في الضّرع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنّم) رواه الترمذي .

ثامناً : المجاهد يكون الله في عونه .

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ثَلاَثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمُ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُكَاتَبُ الَّذِى يُرِيدُ الأَدَاءَ وَالنَّاكِحُ الَّذِى يُرِيدُ الْعَفَافَ) رواه الترمذي .

تاسعاً : الجهاد ذروة سنام الإسلام .

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ (كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ... ثُمَّ قَالَ : أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ». قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ : رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَاد) رواه الترمذي .

ذروة الشيء : أعلاه .

عاشراً : نفى سبحانه التسوية بين المؤمنين المجاهدين وغير المجاهدين .

قال تعالى : (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى

الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً) .

الحادي عشر : أن الجهاد سبب لمغفرة الذنوب .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

- أما المجاهدة بالمال فلأنهم لما فارقوا الأوطان فقد ضاعت دورهم ومساكنهم وضياعهم ومزارعهم، وبقيت في أيدي الأعداء، وأيضاً فقد احتاجوا إلى الإنفاق الكثير بسبب تلك العزيمة، وأيضاً كانوا ينفقون أموالهم على تلك الغزوات، وأما المجاهدة بالنفس فلأنهم كانوا أقدموا على محاربة بدر من غير آلة ولا أهبة ولا عدة مع الأعداء الموصوفين بالكثرة والشدة، وذلك يدل على أنهم أزالوا أطماعهم عن الحياة وبذلوا أنفسهم في سبيل الله .

- **ما الحكمة في أكثر الآيات الآمرة بالجهاد بالنفس والمال ، فيها تقديم المال على النفس ؟**

كقوله تعالى (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون) .

وقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...) .

وقوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُون) .

وجاء في موضع واحد تقديم النفس على المال .

كما في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ) .

قال الآلوسي رحمه الله : لعل تقديم الأموال على الأنفس لِمَا أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً، وأتم دفعاً للحاجة؛ حيث لا يُتصَوَر المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال، وقيل: ترتيب هذه المتعاطفات في الآية على حسب الوقوع؛ فالجهاد ب (المال) لنحو التأهب للحرب، ثم الجهاد بالنفس .

وقال صاحب البرهان : وجه التقديم أن الجهاد يستدعي تقديم إنفاق الأموال أولاً؛ فهو من باب السبق بالسببية .

وقال ابن القيم رحمه الله في حكمة تقديم المال على النفس :

أولاً: هذا دليل على وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، فإذا داهم العدو وجب على القادر الخروج بنفسه، فإن كان عاجزاً وجب عليه أن يكتري بماله.

وفائدة ثانية: على تقدير عدم الوجوب؛ وهي أن المال محبوب النفس ومعشوقها التي تبذل ذاتها في تحصيله وترتكب الأخطار وتتعرض للموت في طلبه، وهذا يدل على أنه هو محبوبها ومعشوقها ، فندب الله تعالى محبّيه المجاهدين في سبيله إلى بذل معشوقهم ومحبوبهم في مرضاته ، فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم،

ولا يكون في الوجود شيء أحبَّ إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها؛ وهي بذل نفوسهم له؛ فهذا غاية الحب؛ فإن الإنسان لا شيء أحبَّ إليه من نفسه، فإذا أحب شيئاً بذل له محبوبه من نفسه وماله، فإذا آل الأمر إلى بَذْلِ نفسه ضنَّ بنفسه وآثرها على محبوبه.

هذا هو الغالب وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية ، ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله وولده ، فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفسه فرَّ وتركهم، فلم يرضَ الله من محبيه بهذا، بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتهم .

وأيضاً فبذل النفس آخر المراتب ، فإن العبد يبذل ماله أولاً يقي به نفسه ، فإذا لم يبقَ له ماله بذل نفسه؛ فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقاً للواقع.

وقال الشنقيطي : وَحَقِيقَةُ الْجِهَادِ بَذْلُ الْجُهْدِ وَالطَّاقَةِ ، وَالْمَالُ هُوَ عَصَبُ الْحَرْبِ وَهُوَ مَدَدُ الْجَيْشِ ، وَهُوَ أَهَمُّ مِنَ الْجِهَادِ بِالسِّلَاحِ ، فَبِالْمَالِ يُشْتَرَى السِّلَاحُ ، وَقَدْ تُسْتَأْجَرُ الرِّجَالُ كَمَا فِي الْجُيُوشِ الْحَدِيثَةِ مِنَ الْفِرَقِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، وَبِالْمَالِ يُجَهَّزُ الْجَيْشُ ، وَلِذَا لَمَّا جَاءَ الْإِذْنُ بِالْجِهَادِ أَعْذَرَ اللَّهُ الْمَرْضَى وَالضُّعَفَاءَ ، وَأَعْذَرَ مَعَهُمُ الْفُقَرَاءَ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ تَجْهِيزَ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَعْذَرَ مَعَهُمُ الرَّسُولَ ﷺ إِذْ لَمْ يُوجَدْ عِنْدَهُ مَا يُجَهِّزُهُمْ بِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ، إِلَى قَوْلِهِ : وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُون) .

وَكَذَلِكَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، قَدْ يُجَاهِدُ بِالْمَالِ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ بِالسِّلَاحِ كَالنِّسَاءِ وَالضُّعَفَاءِ، كَمَا قَالَ ﷺ (مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فَقَدْ غَزا).

وفي سؤال لفضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله قال فيه السائل: نجد أن الله عزَّ وجل في كثير من آيات الجهاد يقدِّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس؛ فما الحكمة من ذلك؟

فأجاب فضيلته بقوله: يظهر والله أعلم لأن الجيش الإسلامي قد يحتاج إلى المال أكثر من حاجته إلى الرجال؛ ولأن الجهاد بالمال أيسر من الجهاد بالنفس .

(**أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ**) أي : أرفع رتبة ومكانة .

(**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**) الظافرونَ بالحظِّ الأكبرِ؛ لأن العربَ تقولُ: «فاز فلان». إذا ظفر بما كان يتمنَّى، وظفر بأكبرِ مطلوبٍ، يقولونَ: «فاز»: نال الفوزَ، ومنه (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَاز) .

(**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ**) أي : يبشرهم المولى – جوداً وكرماً – برحمة عظيمة ، أزال بها عنهم الشرور .

والبشارةَ في لغةِ العربِ هي الإخبارُ بما يَسُرُّ، فكلُّ مَنْ أخبرك بما يسرك فقد بشَّرَكَ، وبَشَرَكَ على اللغةِ الأخرى، وأنه يُطْلَقُ أيضًا على البشارةِ بما يسوء ، هو كثيرٌ في القرآنِ، كقولِه (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم) .

(**وَرِضْوَانٍ**) لا سخط بعده .

(**وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ**) أي : دائم أبداً لا يزول .

- الجنة في لغة العرب : البستان ، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه ، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان ، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ

لِنَفْسِهِ) . وأما في الاصطلاح : فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه ، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

- وقوله تعالى (وجنات) أحياناً تأتي مفردة كقوله تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ) وأحياناً تأتي مجموعة ، فإفرادها باعتبار الجنس ، وجمعها باعتبار النوع ، وقد ذكر الله في آخر سورة الرحمن أربعة أنواع (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) ثم قال (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) والأوليان أشرف .
- **قال الشيخ ابن عثيمين** : (جنات) بالجمع ، وأحياناً يقال بالإفراد (جنة) ، فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس ، وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها أنواع الجنات .

وهذا كمالُ النعمةِ؛ لأَنَّ كمالَ النعمةِ الإقامةُ فيها وعدمُ الانتقالِ عنها؛ لأَنَّ أعظمَ ما يُكَدِّرُ النعمَ والمسارَّ هو أن يُفَكِّرَ الإنسانُ في أنه يفارقُها. فترى الإنسانَ في لَذَّاتِهِ وَفِي نِعَمِهِ وترفِه، إذا فَكَّرَ في أنه غدًا يموتُ عنها، وَتُنْكَحُ نساؤُه، وَتُقْسَمُ أموالُه، ويذهبُ عنه كُلُّ شيءٍ فَزِعَ من ذلك ، وَأَظْلَمَتِ الدنيا في عَيْنَيْهِ، ولم يَتَلَذَّذْ بما هو فيه .

(**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**) على الدوامِ لا يَزُولُونَ، كما قال جلَّ وعلا (لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً) لا يتحولونَ عنها إلى غيرِها.

وهذا من أعظم تمام النعيم ، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين .

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم ، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ ، وينغص اللذات ، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها ، وأنها زائلة عنه ، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم ، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً .

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة ، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت ، ويقال للموت : هاذم اللذات ، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها ، لأنه يقطعها ، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم .

وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة .

فقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

وقال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وقال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ، لا تبلى ثيابُه ، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ينادِ مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم .

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح ، فيقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ...) متفق عليه .

(**إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**) الأجرُ في لغةِ العربِ: جزاءُ العملِ. ومعنَى (أَجْرٌ عَظِيمٌ) أي: جزاء عملهم وهو الجنة، وَوَصَفَهُ بِالْعِظَمِ لِمَا في الجنةِ من عظيمِ الشأنِ؛ لأَنَّ اللَّهَ يقولُ فيها: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ولأَجْلِ هذا وَصَفَ هذا الجزاءَ بالعِظَمِ. وقد جاء مُفَصَّلاً في القرآنِ جميعُ مَلاَذِّهِ، كالمناكحِ في النساءِ التي هُنَّ في غايةِ الجمالِ، والملابسِ التي هي في غايةِ الجمال .

الفوائد :

١- أن الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد من أعظم خصال الإيمان وأرفعها .

٢- أن الأعمال الصالحة تتفاضل وتتفاوت في الأفضلية ، ولذلك كان الصحابة يسألون النبي ﷺ كثيراً : أي العمل أفضل ، أي الإسلام أفضل .

٣-عمّار المساجد الحقيقيون هم من وصفوا بالإيمان الصادق ، والإيمان باليوم الآخر ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

٤-التحذير لكل ظالم .

٥- فضل هذه الأعمال العظيمة : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد .

٦- وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس .

٧- أن أهل الجنة خالدين فيها .

٨- عظم ثواب الله تعالى .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣))

[التوبة : ٢٣] .

(**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**) تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد :

الأولى : العناية والاهتمام به والتنبيه .

الثانية : الإغراء ، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان ، كما تقول يا ابن الأجود جُد .

الثالثة : أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان ، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان . (ابن عثيمين)

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بقلوبهم وانقادوا وعملوا بجوارحهم .

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات ، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي ، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وبكل ما يجب الإيمان به . (الشنقيطي) .
- **قال السعدي** : يقول تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا

من لم يقم به.

(**لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ**) أي : إذا اختاروا الكفر على الإيمان .

- **قال السعدي** : (لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ) الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم.
- **قال القرطبي** : وخصَّ الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها ، فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ) ليبيّن أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان.

(**ومن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) فقد حكم تعالى عليه بأنه ظالم أشد الظلم ، لأنهم تجرؤوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

- قوله تعالى (أولياء) جمع ولي ، والمراد به ولي النصرة والمعونة والمودة والمحبة .
- من صور الموالاة: مصادقتهم، إخبارهم بأسرار المسلمين، الدفاع عنهم والذب عنهم، اتخاذهم مستشارين، توليتهم مناصب.
- في الآية تحريم موالاة الكفار وجعلهم أنصاراً وأعواناً وأخلاء ، وهذا النهي في الآية للتحريم ، فيحرم موالاة الكفار وجعلهم أنصاراً وأعواناً وأخلاء .

قال تعالى كما في هذه الآية (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

فذكر تعالى في هذه الآية أن من تولى الكفار فهو ظالم .

وذكر تعالى أن متولي اليهود والنصارى فهو منهم :

فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

وبين في موضع آخر أن توليهم موجب لسخط الله ، والخلود في عذابه ، وأن متوليهم لو كان مؤمناً ما تولاهم :

وهو قوله تعالى (ترى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الذين كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ الله عَلَيْهِمْ وَفِي العذاب هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ولكن كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) .

ونهى في موضِع آخر عن تَوليهم مبيناً سبب التنفير منه:

وهو قوله (يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الآخرة كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أَصْحَابِ القبور) .

وبين في موضع آخر: أن محل ذلك، فيما إذا لم تكن الموالاة بسبب خوف، وتقية، وإن كانت بسبب ذلك فصاحبها معذور:

وهو قوله تعالى (لاَّ يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين وَمَن يَفْعَلْ ذلك فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْءٍ إِلاَّ

أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاة) فهذه الآية الكريمة فيها بيان لكل الآيات القاضية بمنع موالاة الكفار مطلقاً وإيضاح ، لأن محل ذلك في حالة الاختيار ، وأما عند الخوف والتقية ، فيرخص في موالاتهم ، بقدر المداراة التي يكتفي بها شرهم ، ويشترط في ذلك سلامة الباطن من تلك الموالاة:

قال تعالى (لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

فقوله (وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) أي : ولو كان هؤلاء المحادون لله ورسوله أقرب الناس إليهم ، كالآباء والأبناء ، والإخوان ، والعشيرة .

قال الشوكاني : فإن الإيمان يزجر عن ذلك ، ويمنع منه ، ورعايته أقوى من رعاية الأبوّة والبنوّة والأخوّة والعشيرة .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ....) . أي : يا معشر المؤمنين يا من صدقتم بالله ورسوله ، لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداؤكم أصدقاء وأحباء ، فإن من علامة الإيمان بغض أعداء الله لا مودتهم وصداقتهم

وقال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ".

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ) فنهى سبحانه وتعالى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء وأصحاباً من دون المؤمنين ، وأخبر أن من فعل ذلك فليس من الله في شيء ، قال ابن جرير (فليس من الله في شيء) يعني فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه ، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر .

وقال القرطبي : أي : ليس من حزب الله ولا من أوليائه في شيء ، وهو إذاً من حزب الشيطان وأنصاره .

وقال تعالى (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً) ، يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ يا محمد بشر المنافقين الذين يتخذون أهل الكفر بي والإلحاد في ديني أولياء ، يعني أنصاراً وأخلاء من دون المؤمنين ، تاركين موالاة المؤمنين معرضين عنها ، يطلبون عند هؤلاء الكفار المنعة والقوة والنفوذ ، وما علم أولئك السفهاء البلهاء أن العزة لله جميعاً

وقال تعالى (تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) .

فبين سبحانه وتعالى أن الإيمان الحقيقي بالله وبنبيه ﷺ محمد ﷺ مرتبط بعدم موالاة الكفار وتوليهم ، فثبوت موالاة الكفار موجب لعدم الإيمان أو نقصه .

ففي هذه الآيات أشد التهديد والوعيد وأعظم الزجر عن موالاة الكافرين .

عن أبي موسى الأشعري أنه قال : قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن لي كاتباً نصرانياً ، فقال : مالك قاتلك الله ، ألا اتخذت حنيفاً ، أما سمعت قول الله تعالى : (يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَاء) قلت : له دينه ولي كتابته ، فقال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ، ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله ، قلت : لا يتم أمر البصرة إلا به ، فقال : مات النصراني والسلام ، يعني هب أنه قد مات فما تصنع بعده ، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره

الفوائد :

١- تحريم موالاة الكفار .

٢-أن موالاتهم دليل على نقص الإيمان .

٣- أن من وحد الله لا يجوز له موالاة الكفار ولو كانوا من أقرب الناس .

٤- أن موالاتهم من كبائر الذنوب .

٥- أن من تولاهم فهو منهم .

٦- التحذير من الظلم .

(قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)) .

[التوبة : ٢٤] .

في هذه الآية يهدد تعالى من قدّم وآثر محبة أحد على الله ورسوله وجهاد في سبيله .

(**قُلْ**) الخطاب للنبي ﷺ .

(**إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ**) ومثلهم الأمهات .

(**وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ**) في النسب والعشرة .

(**وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ**) أي: قراباتكم عموماً .

قال أبو حيان : وقدّم الآباء لأنهم الذي يجب برهم وإكرامهم وحبهم ، وثنى بالأبناء لكونهم أعلق بالقلوب.

ولما ذكر الأصل والفرع ذكر الحاشية وهي الإخوان ، ثم ذكر الأزواج وهن في المحبة والإيثار كالأبناء ، ثم الأبعد بعد الأقرب في القرابة فقال : وعشيرتكم.

- **وقال الآلوسي** : لم يذكر الأبناء والأزواج فيما سلف وذكرهم هنا لأن ما تقدم في الأولياء وهم أهل الرأي والمشورة والأبناء والأزواج تبع ليسوا كذلك وما هنا في المحبة وهم أحب إلى كل أحد

(**وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا**) أي: اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ.

(**وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا**) أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك.

(**وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا**) من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء .

(**أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ**) فأنتم فسقة ظلمة.

(**فَتَرَبَّصُوا**) أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب .

(**حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**) الذي لا مرد له.

- **قال ابن عاشور** : والتربّص : الانتظار ، وهذا أمر تهديد لأنّ المراد انتظار الشرّ.

وهو المراد بقوله (حتى يأتي الله بأمره) أي الأمر الذي يظهر به سوء عاقبة إيثاركم محبّة الأقارب والأموال والمساكين ، على محبّة الله ورسوله والجهادِ.

والأمر : اسم مبهم بمعنى الشيء والشأن ، والمقصود من هذا الإبهام التهويل لتذهب نفوس المهدَّدين كلّ مذهب محتمل ، فأمر الله : يحتمل أن يكون العذَابَ أو القتل أو نحوهما ، ومن فسّر أمر الله بفتح مكة فقد ذهل لأنّ هذه السورة نزلت بعد الفتح.

- **قال الشوكاني** : وفي هذا وعيد شديد ، ويؤكده إبهام الأمر وعدم التصريح به ، لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردّد بين أنواع العقوبات .

- **قال ابن عاشور** : وقد جمعت هذه الآية أصنافاً من العلاقات وذويها ، من شأنها أن تألفها النفوس وترغب في القرب منها وعدم مفارقتها ، فإذا كان الثبات على الإيمان يجرّ إلى هجران بعضها كالآباء والإخوان الكافرين الذين يهجر بعضهم بعضاً إذا اختلفوا في الدين ، وكالأبناء والأزواج والعشيرة الذين يألف المرء البقاء بينهم ، فلعلّ ذلك يقعده عن الغزو ، وكالأموال والتجارة التي تصدّ عن الغزو وعن الإنفاق في سبيل الله.

وكذلك المساكن التي يألف المرء الإقامة فيها فيصدّه إلفها عن الغزو.

فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أراده الله من المؤمنين وبين ما تَجُرُّ إليه تلك العلائق وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربّه.

(**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**) أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئا من المذكورات.

- والهداية المنفية هنا هي هداية التوفيق ، أي : إن الله لا يوفق القوم الفاسقين ، وأما هداية الدلالة والإرشاد فهي عامة لهم ولغيرهم من الخلق كما قال تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) وقال تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) .

- **قال السعدي** : وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه.

- **قال ابن عاشور** : وخصّ الجهاد بالذكر من عموم ما يحبّه الله منهم : تنويهاً بشأنه ، ولأنّ ما فيه من الخطر على النفوس ومن إنفاق الأموال ومفارقة الإلف ، جَعله أقوى مظنّة للتقاعس عنه ، لا سيما والسورة نزلت عقب غزوة تبوك التي تخلّف عنها كثير من المنافقين وبعضُ المسلمين.

عن عَبْدَ اللهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهْوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ ، فَإِنَّهُ الآنَ وَاللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ الآنَ يَا عُمَرُ) رواه البخاري .

وعن أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) متفق عليه .

وعنه . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) متفق عليه .

ومن علامات محبة الله ورسوله : أن يحب ما يحب الله ، ويكره ما يكره الله ، ويؤثر مرضاته على ما سواه ، ويسعى فيما يرضيه ما استطاع ، ويبعد عما حرمه ويكرهه أشد الكراهة ، ويتابع رسوله ﷺ ، ويتمثل أمره ونهيه ، كما قال : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) .

ومن لوازم محبة الله أيضاً : محبة أهل طاعته ، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده .

الفوائد :

١-وجوب تقديم محبة الله ومحبة رسوله على كل أحد وأمر .

٢- تهديد ووعيد شديد لمن قدّم شيئاً من أمور الدنيا على الله ورسوله والجهاد في سبيله .

٣- خطر فتنة الدنيا والتعلق بها .

٤- خطر ترك الجهاد .

٥-بيان فَضْلِ الْجِهَادِ .

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ

تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)) .

[التوبة : ٢٥- ٢٦] .

(**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ** ...) يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَددهم ولا بعُددهم ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حُنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل [الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع . (هذا المعني الإجمالي للآية) .

(**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ**) أي: أعانَكم على أعدائِكم .

(**فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ**) أي : لقد أعانكم اللَّهُ على أعدائكم في مواقفَ ومشاهدَ عديدةٍ، كما نَصَرَكُمْ يومَ بدرٍ، ويومَ الخندقِ، ويومَ قريظةَ، ويومَ النضيرِ، ويومَ الحديبيةِ، ويومَ فتحِ مكةَ، إلى غيرِ ذلك من المواقفِ التي تَخْرُجُونَ منها وأنتم ظاهرونَ منصورون.

- المواطنُ: جمعُ مَوْطِنٍ، وموطنُ الحربِ معناه مشهدُه وموقفُه، وهو معنًى معروفٌ في كلامِ العربِ .

(**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ**) أي : ويوم حنين أيضًا، أي: ولقد نصركم يومَ حنينٍ .

- وقد كانت وقعة (حُنين) بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّصري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعم، وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين أيضا، فسار بهم إلى العدو
- **قال السعدي** : يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجاء، حتى في يوم "حنين" الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وممن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفا، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول

الله ﷺ، إلا نحو مائة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ، يركض بغلته نحو المشركين ويقول: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب".

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين، هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم ، وذلك قوله تعالى (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ) وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف. . (تفسير السعدي) .

(**إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ**) أي : أُعْجِبْتُمْ بكثرةِ عددِكم وقلتُم: لَنْ نُغْلَبَ اليومَ مِنْ قِلَّة .

(**فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا**) أي: الكثرةُ التي أَعْجَبَتْكُمْ لم تُغْنِ (عَنْكُمْ شَيْئًا) لم تُفِدْكُمْ ولم تُجْدِكُمْ قَبْلَ أن يُنَزِّلَ اللَّهُ عليكم سكينتَه وينصرَكم. وهذا امتحانٌ من اللهِ وابتلاءٌ وبيانٌ لِخَلْقِهِ أن النصرَ بيدِه وحدَه لاَ بكثرةِ العددِ ولا بكثرةِ العُددِ؛ ولذا لَمَّا أَمَدَّهُمْ بالملائكةِ بَيَّنَ لهم مع ذلك أن النصرَ به وحدَه، قال (وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّه)

.

(**وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**) أي : ضَاقَتْ عليكم الأرضُ مع سَعَتِهَا ورُحْبِهَا .

- والرُّحْبُ بالضمِّ: هو الاتساعُ، والرَّحْبُ: وَصْفٌ، تقولُ: مكانٌ رَحْبٌ، يعني: وَسِيعٌ، وصدرٌ رَحْبٌ أي: وَسِيعٌ. والرُّحْبُ: معناه السعةُ .
- والخائفُ يضيقُ عليه فضاءُ الأرضِ الواسعُ؛ لأن مَنِ اشْتَدَّ خوفُه ضَاقَتِ الأرضُ في عينه وإن كانت طويلةً عريضةً واسعةً، كما قال الشاعرُ :

كَأَنَّ بِلاَدَ اللَّهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ ... عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلِ .

(**ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ**) **أي** : منهزمين .

- وفي هذا خطر العجب .

وهو مرض عضال ، وداء خطير ، وخلل في القلب .

قال القرطبي : وهو ملاحظة لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان منة الله ، فإن وقع على الغير واحتقره فهو الكبر .

وقال الغزالي : العُجْب: هو استعظام النعمة، والركون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم .

العجب سبب للهزيمة .

قال الله تبارك وتعالى (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِين) .

قال جعفر: استجلاب النصر في شيء واحد، وهو الذلة والافتقار والعجز... وحلول الخذلان بشيء واحد وهو العُجْب..

وقال الله تبارك وتعالى (ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور) .

قال ابن كثير : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارًا منك لهم واستكبارًا عليهم، ولكن

ألن جانبك وابسط وجهك إليهم... وقوله تعالى :وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا .أي: خيلاءً متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يبغضك الله، ولهذا قال :إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .أي: مختال معجب في نفسه فَخُورٍ .أي: على غيره .

والعجب من أسباب الهلاك .

قال ﷺ (ثلاث منجيات:خشية الله تعالى في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وثلاث مهلكات: هوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه) .

وقد خافه النبي ﷺ علينا .

قال ﷺ (لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك العُجْب العُجْب) .

عن أَبي هريرة قال (بينا رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجل جمته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة). متفق عليه

قال أبو العباس القرطبي : يفيد هذا الحديث ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة على الذنوب، وأن عجب المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرام وكبيرة .

- من أقوال السلف :

قال الغزالي: أحذرك ثلاثاً من خبائث القلب هي الغالبة على متفقهة العصر وهي مهلكات وأمّهات لجملة من الخبائث سواها ،الحسد والرياء والعجب ، فاجتهد في تطهير قلبك منها فإن عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز ،ولا تظن أنه يسلم لك نية صالحة في تعلم العلم وفي قلبك شيء من الحسد والرياء والعجب .

وقال ابن حزم : من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه ، فإن أعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنيئة ، فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه ، فليعلم أن مصيبته إلى الأبد ، وأنه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوباً وأضعفهم تمييزاً ، وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل ولا عيب أشد من هذين لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته وإما لأنه يقدر أن عيوبه خصال وهذا أشد عيب في الأرض .

وقال الماوردي : وَلِلْإِعْجَابِ أَسْبَابٌ : فَمِنْ أَقْوَى أَسْبَابِهِ كَثْرَةُ مَدِيحِ الْمُتَقَرِّبِينَ وَإِطْرَاءِ الْمُتَمَلِّقِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا النِّفَاقَ عَادَةً وَمَكْسَبًا ، وَالتَّمَلُّقَ خَدِيعَةً وَمَلْعَبًا ، فَإِذَا وَجَدُوهُ مَقْبُولًا فِي الْعُقُولِ الضَّعِيفَةِ أَغْرَوْا أَرْبَابَهَا بِاعْتِقَادِ كَذِبِهِمْ ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ ذَرِيعَةً إلَى الِاسْتِهْزَاءِ بِهِم .

سُئِلَ الحافظ عبد الغني المقدسي :لِمَ لا تقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف العجب . [السير ٢١/٤٤٩] .

وقال الزمخشري :الإعجاب هو فتنة العلماء وأعظم بها من فتنة .

- ذكر ابن سعد في الطبقات عن عمر بن عبد العزيز انه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطعه وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه ويقول اللهم أني أعوذ بك من شر نفسي . (نقله ابن القيم في الفوائد) .

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :لو كان العجب رجلاً لكان رجل سوء .

وقال علي بن أبي طالب ﷺ التوفيق خير قائد ، وحسن الخلق خير قرين ، والعقل خير صاحب ، والأدب خير ميراث ، ولا وحشة أشد من العجب .

وقال أبو الدرداء : لو أن عبداً من عباد الله عز وجل قدم على الله بعمل أهل السماوات والأرضيين من أنواع البر والتقوى لم يزن ذلك مثقال ذرة مع ثلاث خصال ، العجب ، وإيذاء المؤمنين ، والقنوط من رحمة الله .

وكان ذو النون يقول : أربع خلال لها ثمرة ،العجلة والعجب واللجاجة والشره ، فثمرة العجلة الندامة ، وثمرة العجب البغضة ، وثمرة اللجاجة الحيرة ، وثمرة الشره الفاقة .

قال السري : إنما أذهب أكثر أعمال القراء العجب وخفي الرياء

- وعن خالد بن يزيد بن معاوية قال: (إذا رأيت الرجل لجوجًا، مماريًا، معجبًا بنفسه، فقد تمت خسارته .

قال ابن تيمية : وكثيرًا ما يقرن الرياء بالعُجْب، فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعُجْب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله إِيَّاكَ نَعْبُدُ والمعجب لا يُحقِّق قوله :وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ فمن حقَّق قوله إِيَّاكَ نَعْبُدُ خرج عن الرِّياء، ومن حقَّق قوله :وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ خرج عن الإعجاب .

وقال ابن القيم : لا شيء أفسد للأعمال من العُجْب ورؤية النفس .

- آثار العجب :

أولاً : طريق إلى خذلان العبد، بحيث يكله الله إلى نفسه فلا ينصره، ولا يؤيده.

وقد قال جل وعلا (لقد نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِين) .

ثانياً : يدعو إلى الكبر؛ لأنَّه أحد أسبابه.

قال ابن الجوزي : اعلم أَنَّ من أَسباب الْكِبْرِ العُجْب، فَإِنَّ من أُعْجِب بِشَيْءٍ تكبَّر به .

وقال المحاسبي : إن أوَّل بدوِ الكبر العُجْب، فمن العُجْب يكون أكثر الكبر، ولا يكاد المعجب أن ينجو من الكبر .

ثالثاً : أنه يتولد عنه الكثير من الأخلاق السيِّئة والصِّفات الرديئة، كالتيه وازدراء الآخرين .

لذا قيل فِي تَعْرِيفِ التِّيهِ: هو خلق متولد بين أمرين: إعجابه بنفسه، وإزراؤه بغيره، فيتولَّد من بين هذين التيه .

رابعاً : يدعو إلى إهمال الذنوب ونسيانها، فلا يحدث العبد بعد ذلك توبة.

قال المحاسبي: يجمع العُجْب خصالًا شتى: يعمى عليه كثير من ذنوبه، وينسى مما لم يعم عليه منها أكثرها، وما ذكر منها كان له مستصغرًا، وتعمى عليه أخطاؤه، وقوله بغير الحق .

خامساً : يجعل العبد يستعظم أعماله، وطاعاته، ويمنُّ على الله بفعلها.

سادساً : يدعو العبد إلى الاغترار بنفسه، وبرأيه، ويأمن مكر الله، وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، ولا يسمع نصح ناصح، ولا وعظ واعظ.

سابعاً : يمنعه عن سؤال أهل العلم.

ثامناً : يفتره عن السعي، لظنه أنه قد فاز، واستغنى، وهو الهلاك الصريح.

تاسعاً : يخفي المحاسن، ويظهر المساوئ، ويصدُّ عن الفضائل)

(**ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ**) أي: أَمَنَتَهُ من الخوفِ، وطمأنينتَه في القلوبِ المستوجبةِ لأكملِ الثباتِ على رسولِه محمد ﷺ حيث كان على بغلتِه الشهباءِ (دُلْدُل) يركضُها إلى نحورِ العدوِّ ويقولُ: «أَقْبِلُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

«أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ .

- **قال السعدي** : والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفظعات، مما يثبتها، ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

(**وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**) قال بعضُ العلماءِ: المرادُ بالمؤمنينَ الذين أنزل الله سكينتَه عليهم: مَنْ ثَبَتُوا معه ﷺ. وقال بعضُ العلماءِ: يدخلُ فيهم الذين رَجَعُوا بعد الفرارِ والهزيمةِ وَقَاتَلُوا معه عَدُوَّهُ. والتحقيقُ: أن اللَّهَ أَنْزَلَ سكينته على الجميعِ، الذين بَقُوا معه ولم يَفِرُّوا والذين رجعوا إليه.

(**وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا**) وهم الملائكة ، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين ، يثبتونهم ويبشرونهم بالنصر .

- **قال الشنقيطي** :؛ وَاللَّهُ (جلَّ وعلا) في هذا القرآنِ العظيمِ ذَكَرَ التأييدَ بجنودِ الملائكةِ في أربعِ سورٍ من كتابِه، في ثلاثةٍ منها يقولُ: (لَّمْ تَرَوْهَا) وفي الرابعةِ لم يَقُلْ: (لَّمْ تَرَوْهَا).

أما الثلاثُ التي قال فيها: (لَّمْ تَرَوْهَا).

فمنها: الملائكةُ الذين نَزَلُوا في غزوةِ الخندقِ - غزوةِ الأحزابِ - الآتِي ذِكْرُهُمْ في قولِه تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا).

الثانيةُ: الملائكةُ الْمُنَزَّلُونَ في غزوةِ حنينٍ هذه، المذكورونَ في قولِه: (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا).

الثالثةُ: الملائكةُ الذين نَزَلُوا بِنَبِيِّنَا ﷺ يومَ دَخَلَ في الغارِ هو وصاحبُه، وسيأتِي بَسْطُ قِصَّتِهِمْ - إن شاء الله - في هذه السورةِ الكريمةِ سورةِ براءةٍ، وذلك في قولِه: (إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) فَفِي هذه المواضعِ الثلاثةِ كُلِّهَا يقيدُ بـ (لَّمْ تَرَوْهَا)، (لَمْ تَرَوْهَا) لأنه يُنْزِلُ ملائكةً لاَ يراهم بنو آدمَ؛ لأنهم ليسوا من شَكْلِهِمْ ولا من جِنْسِهِمْ حتى يَرَوْهُمْ.

وفي الموضعِ الرابعِ لم يُقَيِّدْ بقولِه: (لَّمْ تَرَوْهُمْ) وهو الملائكةُ النازلونَ يومَ بدرٍ، المذكورونَ في الأنفالِ وآلِ عمرانَ، حيث قال اللَّهُ في الأنفالِ: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ). وَذَكَرَهُمْ أيضًا في سورةِ آلِ عمرانَ في قولِه: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ...) إلى قولِه: (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ) .

وقد قَدَّمْنَا في سورةِ الأنفالِ أن أَظْهَرَ الأقوالِ أن الملائكةَ قَاتَلَتْ يومَ بدرٍ، وأنها لم تُقَاتِلْ في غيرِها بل تأتِي لِتَجْبِينِ الكفارِ وتقويةِ قلوبِ المؤمنينَ وَنُصْرَتِهِمْ، هذا هو الظاهر .

(**وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم.

(**وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**) يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

(**ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ**) فتاب الله على كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم، وأولادهم.

- **قال ابن كثير** : قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرَّانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما، فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائةً من الإبل، وكان من جملة من أعطي مائة مالك بن عوف النَّضْري، واستعمله على قومه .

(**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**) أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم، وقبول توباتهم، فلا ييأسنَّ أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

الفوائد :

١- منّة الله على عباده المؤمنين بنصرهم في مشاهد كثيرة .

٢- من دلائل صدق النبي ﷺ نصر الله له على أعدائه .

٣- خطر العجب ، وأنه سبب للهزيمة .

٤- وجوب التضرع والافتقار لله عند لقاء العدو .

٥- الاستفادة وأخذ العبر والعظات من قصص القرآن الكريم .

٦- أن النصر من عند الله ، لا بكثرة عدد ولا عُدد .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)**) .

[التوبة : ٢٨] .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**) تقدم : أن تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد:

الأولى: العناية والاهتمام به والتنبيه.

الثانية: الإغراء، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان، كما تقول يا ابن الأجود جُد.

الثالثة: أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان. (ابن عثيمين).

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بقلوبهم وانقادوا وعملوا بجوارحهم.

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن

لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به. (الشنقيطي).

(**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**) المراد النجاسة المعنوية ، نجاسة الشرك ونجاسة الخبث والاعتقاد .

- **قال الشنقيطي** : وجماهيرُ العلماءِ – وهو الصوابُ إن شاء اللَّهُ – على أن النجاسةَ في هذه الآيةِ الكريمةِ معنويةٌ، فهو نَجِسٌ مَعْنًى، والمعنَى أعظمُ من الحسِّ؛ لأن شِرْكَهُ بِاللَّهِ أنتنُ شيءٍ وأقذرُه وأنجسُه .

قال السعدي : قوله تعالى (نَجَسٌ) أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئا ؟ وأعمالهم ما بين محاربة لله، وصد عن سبيل الله ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

وليس المراد هنا، نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها، تَقَذُّرَهُم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

(**فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**) وعامُهم هذا هو عامُ تسعٍ على التحقيق .

- **قال ابن كثير** : أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين، الذين هم نَجَس دينًا، عن الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها في سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر، رضي الله عنهما، عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فأتم الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدراً .

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما دلت على طهارة المؤمن، ولما ورد في الحديث الصحيح (المؤمن لا ينجس)

وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

- والمرد بالمسجد الحرام هنا : قيل : المسجد فقط

وقيل جميع الحرم .

- **قال الرازي** : اختلفوا في أن المراد من المسجد الحرام هل هو نفس المسجد أو المراد منه جميع الحرم ؟ والأقرب هو هذا الثاني.

والدليل عليه :

قوله تعالى (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ) وذلك لأن موضع التجارات ليس هو عين المسجد ، فلو كان المقصود من هذه الآية المنع من المسجد خاصة لما خافوا بسبب هذا المنع من العيلة ، وإنما يخافون العيلة إذا منعوا من حضور الأسواق والمواسم ، وهذا استدلال حسن من الآية ، ويتأكد هذا القول بقوله سبحانه وتعالى (سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) مع أنهم أجمعوا على أنه إنما رفع الرسول عليه الصلاة والسلام من بيت أم هانئ وأيضاً يتأكد هذا بما روي عن الرسول ﷺ أنه قال :

" لا يجتمع دينان في جزيرة العرب) .

- **وقال الشنقيطي** : قال عطاءٌ (رحمه الله) وغيرُ واحدٍ من العلماءِ (فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) المرادُ بالمسجدِ الحرامِ: الحرمُ كُلُّهُ ، أي: لاَ يَقْرَبِ المشركونَ حَرَمَ اللهِ كُلَّهُ، بل يجبُ إبعادُهم عن الحرمِ وعدمُ قُرْبَانِهِمْ إياه. وهذا القولُ هو الحقُّ والصوابُ إن شاء الله .

لأنه دَلَّ استقراءُ القرآنِ العظيمِ على أن اللَّهَ يُطْلِقُ المسجدَ الحرامَ على جميعِ الحرمِ، وهذه الآيةُ من جملةِ الآياتِ التي أَطْلَقَ فيها المسجدَ الحرامَ وأرادَ الْحَرَمَ كُلَّهُ، كقولِه (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) والصحيحُ أن الإسراءَ وَقَعَ به من بيتِ أُمِّ هَانِئٍ بنتِ أبي طالبٍ في مكةَ في الحرمِ لاَ في نفسِ المسجدِ، وقد قَدَّمْنَا في الآياتِ الماضيةِ قولَه (إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) والمعاهدةُ في طرفِ الحرمِ من الحديبيةِ، فهذه الآياتُ دَلَّتْ على أن مَنْعَ الكفارِ والمشركينَ من القربانِ عَامٌّ لجميعِ الحرمِ لاَ لخصوصِ المسجدِ وحدَه، خلافًا لمن قَامَ مَعَ اللفظِ.

- حكم دخول الكافر المسجد :

اختلف العلماء في حكم دخول الكافر المسجد على أقوال :

القول الأول : لا يجوز دخول الكافر للمسجد مطلقاً .

وهذا روي عن مالك وأحمد .

أ-لقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ) .

ب- ولقوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

وجه الدلالة : (مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ) ففي هذه الآية أن المشرك لا يدخل المسجد إلا وهو خائف من المسلم أن يطرده ، ولأنه لا ينبغي أن يدخلها على حين غفلة من المؤمنين لأنه يسعى في خراب المساجد .

ج-قال في المغني : أو لأن حدث الجنابة والحيض والنفاس يمنع المقام في المسجد ، فحدث المشرك أولى .

القول الثاني : أنه يجوز للمشرك دخول جميع المساجد ما عدا المسجد الحرام .

وهذا مذهب الشافعي ورجحه ابن حزم .

أ-لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) والمراد الحرم كله . **واستدلوا** :

ب- ولحديث الباب ، فإن النبي ﷺ أمر بربط ثمامة بن أثال بسارية من سواري المسجد .

ج-ولحديث الأعرابي – وهو ضمام بن ثعلبة – الذي جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام ، وقد ربط بعيره ثم قال : أيكم محمد ... وسأل عن الإسلام ، وكان هذا الأعرابي وقت دخوله المسجد مشركاً .

(مذهب أبي حنيفة نفس هذا المذهب لكنه لا يستثني المسجد الحرام، فعنده يجوز للمشرك دخول جميع المساجد بلا استثناء).

والراجح : أنه يجوز للمصلحة والحاجة جمعاً بين الأدلة .

- **فائدة** : أما جلب الخادمات الكافرات وغيرهن من الكفار إلى الحرم : فلا يجوز سـواء للعمرة أو للحج أو لغيرهما لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) .

والمسجد الحرام هنا هو : الحرم كله .

قال النووي رحمه الله : والمراد بالمسجد الحرام ها هنا : الحرم كله ، فلا يمكَّن مشرك من دخول الحرم بحال ، حتى لو جاء في رسالة أو أمر مهم لا يمكَّن من الدخول ، بل يُخرج إليه من يقضى الأمر المتعلق به ، ولو دخل خفية ومرض ومات : نبش وأخرج من الحرم . (شرح مسلم " (٩ / ١١٦) .

(**وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً**) العيْلة في لغة العرب الفقر .

- **قال السعدي** : أي : (وَإِنْ خِفْتُمْ) أيها المسلمون (عَيْلَةً) أي: فقراً وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية،
- والخوفَ في لغةِ العربِ هو الغَمُّ من أمرٍ مُسْتَقْبَلٍ. وأن الحزنَ هو الغمُّ من أمرٍ فائتٍ. وربما أَطْلَقَتِ العربُ أحدَهما في موضعِ الآخَرِ كما هو مَعْرُوفٌ.

(**فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء**) ولا شكَّ أن اللَّهَ أَغْنَاهُمْ من فضلِه.

قال بعضُ العلماءِ: أَغْنَاهُمْ من فضلِه بما فَتَحَ من بابِ الجزيةِ. قالوا: والدليلُ عليه أن الآيةَ التي بعدَها آيةُ الجزيةِ، فَأَخَذَ المسلمونَ الجزيةَ من الكفارِ واستغنَى بها المسلمونَ. وقال بعضُ العلماءِ: أَغْنَاهُمْ بإنزالِ المطرِ، وَأَخْصَبَتِ الأرضُ، فَأَخْصَبَتْ بلادُ اليمنِ، وأخصبت تبالةُ وجُرش، وجلبوا لهم من الطعامِ والودكِ، وأسلمَ قبائلُ العربِ في اليمنِ وفي نَجْدٍ وفي غيرِه، فكانوا يَحُجُّونَ كُلَّ سنةٍ ويأتونَهم بمثلِ ما كانوا يأتونَهم به من الطعامِ والأموالِ فَأَغْنَاهُمُ اللَّهُ بذلك .

- **قال السعدي** : فليس الرزق مقصوراً على باب واحد ، ومحل واحد ، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئا لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك.

- قوله تعالى (إِنْ شَاءَ) أي : إن شاء أن يغنيَكم. فَعَلَّقَ الغِنَى بمشيئتِه، فَلاَ يكونُ شيءٌ إلا بمشيئتِه (جلَّ وعلا)؛ لأن الأرزاقَ مقسومةٌ بمشيئتِه (جلَّ وعلا)، فهو الذي تَوَلَّى قسمَها بنفسِه وَلَمْ يَكِلْهُ إلى أَحَدٍ .
- **قال السعدي** : قوله (إِنْ شَاءَ) تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا، ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة.

فإن الله يعطي الدنيا، من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين، إلا من يحب.

- ولذلك جاء في صحيح مسلم : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ « اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِى بِزَوْجِي

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ. قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ ». قَالَ وَذُكِرَتْ عِنْدَهُ الْقِرَدَةُ قَالَ مِسْعَرٌ وَأُرَاهُ قَالَ وَالْخَنَازِيرُ مِنْ مَسْخٍ فَقَالَ « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلاً وَلاَ عَقِبًا وَقَدْ كَانَتِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ ».

(**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ**) أي: بما يصلحكم .

(**حَكِيم**) أي: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره، تبارك وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

الفوائد :

١- إثبات نجس المشرك ، فهو نجس خبيث الاعتقاد بكفره وعصيانه .

٢- أن المؤمن طاهر .

٣- تحريم قربان المشرك للمسجد الحرام .

٤- تنزيه بيوت الله – وخاصة الحرم – عن دخول المشركين .

٥- بغض المشركين .

٦- المسلم الحقيقي لا يخاف الفقر .

٧- أن فضل الله واسع .

٨- أن أبواب الرزق كثيرة ، فلا يظن أحد أنه لا يوجد إلا باب واحد .

٩- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : العليم الحكيم .

١٠- أن كل أحكام الله ناتجة عن علم وحكمة .

(**قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)**) .

[التوبة : ٢٩] .

(**قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**) قال ابن الجوزي : قال المفسرون : نزلت في اليهود والنصارى.

قال الزجاج : ومعناها : لا يؤمنون بالله إيمان الموحِّدين ، لأنهم أقرُّوا بأنه خالقُهم ، وأنَّه له ولد ، وكذلك إيمانهم بالبعث لأنهم لا يقرُّون بأنَّ أهل الجنة يأكلون ويشربون.

- **قال الماوردي** : إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بحقوقه ، وهم لا يقرُّون بها ، فكانوا كمن لا يُقِرُّ به.

وقيل : من اعتقد أن عزيزاً ابن الله وأن المسيح ابن الله فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك بالله.

وقيل : من كذب رسولاً من رسل الله فليس بمؤمن بالله واليهود والنصارى يكذبون أكثر الأنبياء فليسوا بمؤمنين بالله.

وأما إيمانهم باليوم الآخر ، فليس كإيمان المؤمنين ، وذلك أنهم يعتقدون بعثة الأرواح دون الأجساد ويعتقدون أن

أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس إيمانه كإيمان المؤمنين وإن زعم أنه مؤمن.

(**وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ**) وهو يوم القيامة .

وقد تقدمت مباحثه .

(**وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ**) **بل** يُحِلُّونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ ويحرمونَ ما أحلَّ الله .

(**وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ**) فيه وجهانِ من التفسيرِ :

أحدُهما: أن (الحقَّ) هو ضِدُّ الباطلِ، وأن دينَ الحقِّ من إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه. أي: الدينُ الذي هو الحقُّ الذي هو دينُ الإسلامِ ، قال تعالى (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) .

وقال تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ) .

الوجهُ الثاني: أن الحقَّ هو اللَّهُ، فالحقُّ من أسماءِ اللَّهِ. (وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) أي: دين الله الذي شَرَعَهُ على لسانِ نَبِيِّهِ محمدٍ ﷺ .

(**مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ**) بيانٌ للذين أُمِرُوا بقتالِهم الموصوفونَ بأنهم لاَ يؤمنونَ باللهِ إلى آخرِ ما ذكر (مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى.

وعندما نَزَلَتْ تَجَهَّزَ ﷺ لقتالِ النصارى في غزوةِ تبوك .

(**حَتَّى يُعْطُواْ**) إن لم يسلموا .

(**الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ**) أي : عن قهر وذل وغلبة .

وقال بعضُ العلماءِ: يُعْطِيه عن يدٍ معناه: يُسَلِّمُهُ بيدِه ولاَ يُرْسِلُ به غيرَه، فالدافعُ واقفٌ والآخِذُ جالسٌ.

وقال بعضُ العلماءِ (عَنْ يَدٍ) أَيْ: نَقْدًا مُتسلمًا باليدِ لا نسيئةً.

وقال بعضُ العلماءِ (عَنْ يَدٍ) أي: عن اعترافِهم بنعمةِ المسلمينَ عليهم حيث قَبِلُوا منهم العوضَ ولم يقتلوهم.

أَنْ يُعْطِيَهَا وَهُوَ قَائِمٌ وَالْآخِذُ جَالِسٌ

(**وَهُمْ صَاغِرُونَ**) أي : ذليلون حقيرون .

- والجزية : هي ما يوضع على أفراد أهل الذمة من يهود ونصارى، وغيرهم على القول الراجح.

قال ابن قدامة : الجزية هي الوظيفة المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام . (وستأتي أن شاء الله مباحث الجزية) .

الفوائد :

١- وجوب قتال الكفار حتى يكون الدين لله تعالى .

٢- وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر .

٣- أن عدم الإيمان بالله واليوم الآخر كفر .

٤- أهمية الإيمان باليوم الآخر .

٥- وجوب وقت القتال ضد أهل الحرب إذا دفعوا الجزية .

أ- قال تعالى (قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) .

فهذه الآية تنص على أن الغاية التي ينبغي عندها وقف القتال ضد الكفار هي إعطاؤهم الجزية .

قال القرطبي : جَعَل للقتال غاية ، وهي إعطاء الجزية بدلاً عن القتل .

وقال ابن قدامة : جعل إعطاء الجزية غاية لقتالهم ، فمتى بذلوها لم يجُز قتالهم .

ب- وفي الحديث قال ﷺ (... فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ) رواه مسلم .

فهذا الحديث نص في وجوب الكف عن قتال أهل الحرب إذا استجابوا إلى الالتزام بأداء الجزية .

ج- وجاء في صحيح البخاري . أن المغيرة بن شعبة قال لعامل كسرى بين يدي معركة نهاوند في بلاد فارس (... فَأَمَرَنَا نَبِيُّنَا رَسُولُ رَبِّنَا ﷺ أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ ، أَوْ تُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ وَأَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺ عَنْ رِسَالَةِ رَبِّنَا أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَطُّ ، وَمَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقَابَكُم) .

فهذا الحديث ينص على الأمر بقتال الكفار إلى أن يصيروا إلى أحد أمرين: إما عبادة الله وحده، أي: الدخول في الإسلام، وإما أن يؤدوا الجزية .

قال ابن قدامة : إذا بذلوا الجزية لزم قبولها ، وحرم قتالهم .

٦-الصغار والذل للكفار .

٧- أن دافع الجزية يأتي بها بنفسه ، ليكون ذلك أذل وأحقر له .

مباحث الجزية :

أولاً : اختلف العلماء فيمن تؤخذ منهم الجزية على أقوال :

القول الأول : أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس فقط .

وبهذا قال الشافعية ، والحنابلة ، وهو قول ابن حزم .

قال ابن قدامة : مَنْ سِوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوس لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ ، وَلَا يُقَرُّونَ بِهَا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ إلَّا الْإِسْلَامُ ، فَإِنْ لَمْ يُسْلِمُوا قُتِلُوا ، هَذَا ظَاهِرُ مَذْهَبِ أَحْمَدَ .

وقال النووي :

أ-لقوله تعالى (قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) .

وجه الدلالة : أنه جعل الكتاب شرطاً في قبولها ، فلم يجز – لعدم الشرط – قبولها من غيرهم.

ب- عن عَبْد الرَّحْمَن بْنُ عَوْف (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَر) رواه البخاري .

القول الثاني : أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس ومشركي العجم خاصة دون مشركي العرب .

وهذا قول الحنفية .

القول الثالث : أن الجزية تؤخذ من جميع الكفار دون استثناء .

وهذا قول المالكية ، واختيار ابن تيمية ، وابن القيم .

قال القرطبي : وقال الأوزاعي : تؤخذ الجزية من كل عابد وثن ، أو نار ، أو جاحد ، أو مكذب ، كذلك مذهب مالك .

أ- لحديث الباب (وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ اَلْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ ...) .

وجه الدلالة : أن لفظ المشركين يعم الكفار جميعاً ، من اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وعباد الأوثان من العرب وغيرهم .

ب- ولأن الرسول ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر كما تقدم .

والله أعلم .

ثانياً : أن الجزية لا تؤخذ إلا من بالغ ، فلا جزية على صبي ولا امرأة .

قال ابن قدامة : قَوله (وَلَا جِزْيَةَ عَلَى صَبِيٍّ ، وَلَا زَائِلِ الْعَقْلِ ، وَلَا امْرَأَةٍ) .

لَا نَعْلَمُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ خِلَافًا فِي هَذَا .

وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ أَصْحَابُهُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو ثَوْرٍ وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ : وَلَا أَعْلَمُ عَنْ غَيْرِهِمْ خِلَافَهُمْ .

وَقَدْ دَلَّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا :

أ- أَنَّ عُمَرَ ﷺ كَتَبَ إلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ ، أَنْ اضْرِبُوا الْجِزْيَةَ ، وَلَا تَضْرِبُوهَا عَلَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ، وَلَا تَضْرِبُوهَا إلَّا عَلَى مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمَوَاسِي رَوَاهُ سَعِيدٌ وَأَبُو عُبَيْدٍ وَالْأَثْرَمُ .

ب- وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِمُعَاذٍ (خُذْ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَا تَجِبُ عَلَى غَيْرِ بَالِغٍ .

ج- وَلِأَنَّ الدِّيَةَ تُؤْخَذُ لِحَقْنِ الدَّمِ ، وَهَؤُلَاءِ دِمَاؤُهُمْ مَحْقُونَةٌ بِدُونِهَا . (المغني) .

قال القرطبي : قال علماؤنا رحمة الله عليهم: والذي دل عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين، لأنه تعالى قال (قَاتِلُوا الَّذِينَ) إلى قوله (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ) فيقتضي ذلك وجوبها على من يقاتل. ويدل على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلاً ، لأنه لا مال له ، ولأنه تعالى قال (حَتَّى يُعْطُوا) ولا يقال لمن لا يملك حتى يعطي. وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفاني . (تفسير القرطبي) .

ثالثاً : وممن لا تؤخذ منهم الجزية :

- الفقير الْعَاجِزَ عَنْ أَدَائِهَا .

وَهَذَا أَحَدُ أَقْوَالِ الشَّافِعِيِّ .

قال ابن قدامة :

وَلَنَا ، أَنَّ عُمَرَ ﷺ جَعَلَ الْجِزْيَةَ عَلَى ثَلَاثِ طَبَقَاتٍ، جَعَلَ أَدْنَاهَا عَلَى الْفَقِيرِ الْمُعْتَمِلِ، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُعْتَمِلَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ.

وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا) .

وَلِأَنَّ هَذَا مَالٌ يَجِبُ بِحُلُولِ الْحَوْلِ ، فَلَا يَلْزَمُ الْفَقِيرَ الْعَاجِزَ ، كَالزَّكَاةِ وَالْعَقْلِ .

وَقَالَ فِي الْآخَرِ : يَجِبُ عَلَيْهِ .

لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَام (خُذْ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا) .

وَلِأَنَّ دَمَهُ غَيْرُ مَحْقُونٍ ، فَلَا تَسْقُطُ عَنْهُ الْجِزْيَةُ ، كَالْقَادِرِ عَلَيْهِ .

○ والعبد .

لأنه لا مال له ، فلا يملك .

وَلِأَنَّ مَا لَزِمَ الْعَبْدَ إنَّمَا يُؤَدِّيه سَيِّدُهُ ، فَيُؤَدِّي إيجَابُهُ عَلَى عَبْدِ الْمُسْلِمِ إلَى إيجَابِ الْجِزْيَةِ عَلَى مُسْلِمٍ .

فَأَمَّا إنْ كَانَ الْعَبْدُ لِكَافِرٍ ، فَالْمَنْصُوصُ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ لَا جِزْيَةَ عَلَيْهِ أَيْضًا .

وَهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ أَهْلِ الْعِلْمِ .

قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ : أَجْمَعَ كُلُّ مَنْ نَحْفَظُ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، عَلَى أَنَّهُ لَا جِزْيَةَ عَلَى الْعَبْدِ .

وَذَلِكَ لِمَا ذُكِرَ مِنْ الْحَدِيثِ ، وَلِأَنَّهُ مَحْقُونُ الدَّمِ ، فَأَشْبَهَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ ، أَوْ لَا مَالَ لَهُ ، فَأَشْبَهَ الْفَقِيرَ الْعَاجِزَ .

فائدة :

من صار أهلاً لها من هؤلاء أخذت منه في آخر الحول ، كصبي بلغ ، وعبد عتق ، وفقير اغتنى .

رابعاً : كم مقدار الجزية ؟

ذهب بعض العلماء إلى أن أقلها دينار .

وذهب بعض العلماء إلى أن الجزية غير مقدرة ، بل يرجع فيها إلى رأي الإمام .

جاء في (الموسوعة الفقهية الكويتية)

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ – نَقَلَهَا عَنْهُ الأَثْرَمُ –: أَنَّ الْمَرْجِعَ فِي الْجِزْيَةِ إِلَى الإِمَامِ، فَلَهُ أَنْ يُزِيدَ وَيُنْقِصَ عَلَى قَدْرِ طَاقَةِ أَهْل الذِّمَّةِ، وَعَلَى مَا يَرَاهُ.

وَهَذَا هُوَ الْمَذْهَبُ كَمَا قَال الْمِرْدَاوِيُّ فِي الإِنْصَافِ، وَقَال الْخَلاَّل: الْعَمَل فِي قَوْل أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَى مَا رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ بِأَنَّهُ لاَ بَأْسَ لِلإِمَامِ أَنْ يَزِيدَ فِي ذَلِكَ وَيُنْقِصَ عَلَى مَا رَوَاهُ أَصْحَابُهُ عَنْهُ فِي عَشَرَةِ مَوَاضِعَ، فَاسْتَقَرَّ قَوْلُهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَهَذَا قَوْل الثَّوْرِيِّ وَأَبِي عُبَيْدٍ.

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) فَلَفْظُ الْجِزْيَةِ فِي الآيَةِ مُطْلَقٌ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِقَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَبْقَى عَلَى إِطْلاَقِهِ، غَيْرَ أَنَّ الإِمَامَ لَمَّا كَانَ وَلِيَّ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ جَازَ لَهُ أَنْ يَعْقِدَ مَعَ أَهْل الذِّمَّةِ عَقْدًا عَلَى الْجِزْيَةِ بِمَا يُحَقِّقُ مَصْلَحَةَ الْمُسْلِمِينَ؛ لأَنَّ تَصَرُّفَ الإِمَامِ عَلَى الرَّعِيَّةِ مَنُوطٌ بِالْمَصْلَحَةِ.

وَلأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ مُعَاذًا أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُل حَالِمٍ دِينَارًا وَصَالَحَ أَهْل نَجْرَانَ عَلَى أَلْفَيْ حُلَّةٍ، النِّصْفُ فِي صَفَرٍ وَالْبَاقِي فِي رَجَبٍ.

وَجَعَل عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْجِزْيَةَ عَلَى ثَلاَثِ طَبَقَاتٍ عَلَى الْغَنِيِّ ثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا، وَعَلَى الْمُتَوَسِّطِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا، وَعَلَى الْفَقِيرِ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا، وَصَالَحَ بَنِي تَغْلِبَ عَلَى ضِعْفِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الزَّكَاةِ.

فَهَذَا الاِخْتِلاَفُ يَدُل عَلَى أَنَّهَا إِلَى رَأْيِ الإِمَامِ، لَوْلاَ ذَلِكَ لَكَانَتْ عَلَى قَدْرٍ وَاحِدٍ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ وَلَمْ يَجُزْ أَنْ تَخْتَلِفَ. وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ أَبِي نَجِيحٍ قُلْتُ لِمُجَاهِدٍ: مَا شَأْنُ أَهْل الشَّامِ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ، وَأَهْل الْيَمَنِ عَلَيْهِمْ دِينَارٌ؟ قَال: جُعِل ذَلِكَ مِنْ أَجَل الْيَسَارِ.

وَلأنَّ الْمَال الْمَأْخُوذَ عَلَى الأَمَانِ ضَرْبَانِ: هُدْنَةٌ وَجِزْيَةٌ، فَلَمَّا كَانَ الْمَأْخُوذُ هُدْنَةً إِلَى اجْتِهَادِ الحَاكِمِ، فَكَذَلِكَ الْمَأْخُوذُ جِزْيَةً.

خامساً : متى وقت وجوب أداء الجزية ؟

ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ إِلَى أَنَّ وَقْتَ وُجُوبِ الأَدَاءِ آخِرُ الْحَوْل .

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِمَا وَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجِزْيَةِ، فَقَدْ ضَرَبَهَا عَلَى أَهْل الذِّمَّةِ وَالْمَجُوسِ بَعْدَ نُزُول آيَةِ الْجِزْيَةِ، وَلَمْ يُطَالِبْهُمْ بِأَدَائِهَا فِي الْحَال، بَل كَانَ يَبْعَثُ رُسُلَهُ وَسُعَاتَهُ فِي آخِرِ الْحَوْل لِجِبَايَتِهَا.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُول اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْل الْبَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ .

وَتَدُل سِيرَةُ الْخُلَفَاءِ وَالأُمَرَاءِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْعَثُونَ الْجُبَاةَ فِي آخِرِ الْعَامِ لِجباية الْجِزْيَةِ. فَبَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ أَبَا هُرَيْرَةَ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، فَقَدِمَ بِمَالٍ كَثِيرٍ .

وَلأنَّ الْجِزْيَةَ حَقٌّ مَالِيٌّ يَتَكَرَّرُ بِتَكَرُّرِ الْحَوْل، فَوَجَبَ بِآخِرِهِ كَالزَّكَاةِ.

وَلأنَّ الْجِزْيَةَ تُؤْخَذُ جَزَاءً عَلَى تَأْمِينِهِمْ وَإِقْرَارِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، فَلاَ تَجُوزُ الْمُطَالَبَةُ بِهَا إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَتَحَقَّقَ لَهُمْ ذَلِكَ فِي طُول السَّنَةِ.

وَلأنَّ الْجِزْيَةَ عِوَضٌ عَنْ سُكْنَى الدَّارِ فَوَجَبَ أَنْ تُؤْخَذَ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ الْمَنْفَعَةِ وَانْقِضَاءِ الْمُدَّةِ . (الموسوعة الفقهية) .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)) .

[التوبة : ٣٠] .

(**وَقَالَتِ الْيَهُودُ**) أي : بعضهم .

- **قال القرطبي** : هذا لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص ؛ لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك.

وهذا مثلُ قوله تعالى (الذين قَالَ لَهُمُ الناس) ولم يقل ذلك كل الناس.

- سموا بذلك ، قيل : من التوبة كقول موسى (إنا هدنا إليك) أي تبنا إليك، وقيل : نسبة إلى يهود أكبر أولاد يعقوب ، وقيل : لأنهم يتهودون ، أي يتحركون عند القراءة.
- وقد نسب – سبحانه – القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم ، لأن الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم ، فكانوا مشاركين لهم في الإثم والضلال ، وفيما يترتب على ذلك من عقاب.

وقيل : نسب ذلك القول إلى اليهود بناء على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد ، يقال فلان يركب الخيول ولعله لم يركب إلا واحداً منها ، وفلان يجالس السلاطين ولعله لا يجالس إلا واحداً.

وقيل : لعل هذا المذهب كان فاشياً فيهم ثم انقطع ، فحكى الله ذلك عنهم ، ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك ،

فإن حكاية الله عنهم أصدق.

(**عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**) أي : نسب اللعناء الى الله الولد ، فقالوا : ان عزيرا ابن الله **! !** وهو واحد احد فرد صمد .

- **قال البيضاوي** : وانما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة ، فلما احياه الله بعد مائة عام ، أملى عليهم التوراة حفظا فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله .
- **وقال الماوردي** : أما قول اليهود ذلك فسببه أن بختنصر لما أخرب بيت المقدس أحرق التوراة حتى لم يبق بأيديهم شيء منها ، ولم يكونوا يحفظونها بقلوبهم ، فحزنوا لفقدها وسألوا الله تعالى ردها عليهم ، فقذفها الله في قلب عزير ، فحفظها وقرأها عليهم فعرفوها فلأجل ذلك قالوا إنه ابن الله.
- **جاء في التفسير الوسيط** : وقد ذكر المفسرون هنا أقوالا متعددة في الأسباب التي حملت اليهود على أن يقولوا « عزير ابن الله » وأغلب هذه الأقوال لا يؤيدها عقل أو نقل ، ولذا فقد ضربنا عنها صفحاً .

(**وَقَالَتْ النَّصَارَى**) هم أتباع عيسى ، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقيل : سموا بذلك لأنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة .

(**الْمَسِيحُ**) عيسى ابن مريم .

(**ابْنُ اللَّهِ**) أي : وزعم النصارى-اعداء الله -ان المسيح ابن الله ، قالوا : لان عيسى ولد بدون اب ، ولا يتصور ان يكون ولد بدون اب ، فلا بد ان يكون ابن الله .

- **قال الماوردي** : واختلف في سبب قولهم لذلك على قولين :

أحدهما : أنه لما خلق من غير ذكر من البشر قالوا إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك.

الثاني : أنهم قالوا ذلك لأجل من أحياه من الموتى وأبرأه من المرضى.

- هذا غلو عظيم .

كما قال تعالى (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ.

قال الشنقيطي : هَذَا الْغُلُوُّ الَّذِي نُهُوا عَنْهُ هُوَ وَقَوْلُ غَيْرِ الْحَقِّ هُوَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : إِنَّ عِيسَى ابْنُ اللَّهِ ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ : هُوَ اللَّهُ ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ : هُوَ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا، كَمَا بَيَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) وَقَوْلُهُ (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) ، وَقَوْلُهُ (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) .

(**ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ**) أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم .

- **قال في التسهيل** : يتضمن معنيين :

أحدهما : الزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك .

والثاني : أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وانما هو مجرد دعوى ، كقولك لمن تكذبه : هذا قولك بلسانك .

- كل قول نسب إلى الفم في القرآن فهو كذب .

قال تعالى (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ) .

- **قال الثعلبي** : قال أهل المعاني : إن الله عز وجل لا يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان ذلك القول زوراً كقوله تعالى (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) و (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) ، وقوله (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً) .

(**يضاهئون**) أي: يشابهون .

(**قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ**) أي : يشابهون بهذا القول الشنيع ، قول المشركين قبلهم حيث قالوا : الملائكة بنات الله [تشابهت قلوبهم] في الكفر والضلال .

- والمراد بالذين كفروا من قبل : قيل ، أهل مكة وأمثالهم من المشركين السابقين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله وقيل ، المراد بهم قدماء أهل الكتاب ، أي ، أن اليهود والنصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم يشابه قولهم في العزير وعيسى قول آبائهم الأقدمين ، – أي المعاصرين للعهد النبوي – قد ورثوا الكفر كابرا عن كابر.

والأولى من هذين الوجهين أن يكون المراد بالذين كفروا من قبل. جميع الأمم التي ضلت وانحرفت عن الحق ، وأشركت مع الله في العبادة آلهة أخرى.

(**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ**) قال ابن عباس: لعنهم الله .

(**أَنَّى يُؤْفَكُونَ**) أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل؟

- ادعاء لله الولد أمر خطير وكبير .

كما قال تعالى (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً) .

وقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً) .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّاي فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّاي فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً) رواه البخاري .

وقال ﷺ (لا أحد أصبر على اذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم) متفق عليه

- والله منزه عن الولد لأمور متعددة :

أولاً : لأنه مالك كل شيء ، والمالك لا بد أن يكون المملوك مبايناً له في كل الأحوال .

ثانياً : أنه ليس له زوجة ، والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ) .

ثالثاً : أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء ، أي : بقاء النوع باستمرار النسل ، والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك ، لأنه الحي الذي لا يموت .

رابعاً : أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار

إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني) .   [قاله الشيخ ابن عثيمين]

قال الرازي : إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له ، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتُرُون مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون)وقال أيضاً في آخر هذه السورة (وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً) .

- **عقيدتنا في عيسى عليه السلام .**

أولاً : أن يؤمن ويعتقد أنه عبد الله [ليس بإله] ورسوله [فليس بكذاب أو أنه ولد بغي] .

كما في الحديث .

قال تعالى (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً) .

وقال تعالى (مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) .

(**مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**) أخبر تعالى عن حقيقة أمر المسيح وأنه رسول بشر كالرسل المتقدمة قبله ، و (خلت) معناه مضت (**وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ**) أي: مؤمنة به مصدقة له. وهذا أعلى مقاماتها .

- **قال ابن عاشور** : والقصد من وصفها بأنّها صدّيقة نفيُ أن يكون لها وصف أعلى من ذلك ، وهو وصف الإلهيّة ، لأنّ المقام لإبطال قول الّذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة .
- **قال ابن تيمية** : فجعل غاية مريم الصديقية ، كما جعل غاية المسيح الرسالة (**كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ**) أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

قال ابن تيمية : لأن ذلك من أظهر الأدلة على أنهما مخلوقان مربوبان ، إذ الخالق أحد صمد لا يأكل ولا يشرب .

و قال تعالى (وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) .

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) .

وقال تعالى عنه (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) .

وقال تعالى (لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) .

وقال تعالى (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) .

وعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاء) متفق عليه .

ثانياً : أنه من أم بلا أب .

كما قال تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) .

وقال تعالى (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً) .

ثالثاً : أنه ليس له شيء من حقوق الربوبية ، فليس إلهاً .

قال تعالى (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ) .

رابعاً : أنه لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله إليه وسينزل في آخر الزمان .

قال تعالى (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ... بل رفعه إليه) .

وقال تعالى (إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ) .

وقال ﷺ (يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ....) .

خامساً : أنه أحد أولي العزم من الرسل [وقد ذكرهم الله في موضعين] .

الموضع الأول / في سورة الأحزاب .

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً) .

الموضع الثاني / في سورة الشورى .

قال تعالى (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .

سادساً : أنه من قال أنه قتل فهو كافر لأنه مكذب للقرآن .

سابعاً : الحكمة من نزوله في آخر الزمان دون غيره من الأنبياء :

قيل : الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه .

وقيل : أن عيسى وجد في الإنجيل فضل أمة محمد ﷺ فدعا الله أن يجعله فيهم ، فاستجاب الله دعاءه .

وقيل : أن نزول عيسى عليه السلام من السماء لدنو أجله ، ليدفن في الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها .

ورجح الحافظ ابن حجر القول الأول .

ثامناً : **والمعجزات المذكورة في القرآن الكريم عن المسيح عليه السلام هي** :

١- إبراء الأكمة .

٢- إبراء الأبرص .

٣- إحياء الموتى .

٤- نزول المائدة من السماء .

٥- تصوير الطين ، والنفخ فيه ، فيصبح حياً بإذن الله سبحانه وتعالى .

٦- الإخبار ببعض المغيبات . التي أطلعه الله عليها .

٧- الكلام في المهد .

وكل هذه المعجزات هي بأمر الله تعالى وإذنه ، يقول الله سبحانه وتعالى (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) .

الفوائد :

١- شرك اليهود والنصارى في ادعاء لله الولد .

٢-أن ادعاء الولد لله تنقص خطير لله رب العالمين ، الغني سبحانه .

٣-ضلال اليهود والنصارى .

٤- وجوب تنزيه الله عن كل نقص وعيب ، ومن ذلك ادعاء الوله له سبحانه .

٥-أن قولهم هذا لا مستند له ولا دليل ، بل هو افتراء وكذب .

٦- التعجب كيف يصرف الإنسان عن الحق مع وضوحه وبيانه .

٧- خبث القلب له دور كبير في عدم وضوح الحق والتوفيق له .

٨- إنّ الإفراط في كل شيء مذموم ، لأن النصارى أفرطوا في حب عيسى عليه السلام تغالوا ، وقالوا فيه ما قالوا حتى كفروا بسبب ذلك ؛ واليهود أفرطوا بحب عزير ، وقالوا فيه ما قالوا حتى كفروا ؛ كما أفرطت الروافض في حب عليّ حتى أبغضوا غيره وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)) .

[التوبة : ٣١] .

(**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**) هذا بيان للون آخر من ألوان انحراف اليهود والنصارى عن

الحق إلى الباطل ، وتقرير لما سبقت حكايته عنهم من أقوال فاسدة ، وأفعال ذميمة.

أي : أطاع اليهود أحبارهم ، والنصارى رهبانهم في التحليل والتحريم ، وتركوا أمر الله ، فكأنهم عبدوهم من دون الله والمعنى : أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم .

وهذا هو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ .

قال عدي بن حاتم : اتيت رسول الله (ص) وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي ، اطرح عنك هذا الوثن ، قال وسمعته يقرأ سورة براءة [اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله] فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم !! فقال عليه السلام: أليس يحرمون ما احل الله تعالى فيحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فيستحلون ؟ ! فقلت : بلى ، قال : فذلك عبادتهم .

- **قال الآلوسي** : وقيل اتخاذهم أربابا بالسجود لهم ونحوه مما لا يصلح إلا لله ، تعالى ، وحينئذ فلا مجاز ، إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- والأحبار : علماء اليهود جمع حبر ، بكسر الحاء وفتحها – وهو الذي يحسن القول ويتقنه ، مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزيين ، ومنه ثوب محبر أي جمع الزينة والحسن ، والرهبان : علماء النصارى جمع راهب وهو الزاهد في متع الدنيا ، المنعزل عن الناس مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله تعالى.

(**وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ**) أي : اتخذه النصارى رباً معبوداً .

- اختلف لماذا سمي عيسى بالمسيح ؟

فقيل : لكونه ممسوح أسفل القدمين لا أخمص له ، وقيل : لمسح زكريا إياه ، وقيل : لمسحه الأرض أي قطعها .

وقيل : أنه لم يمسح ذا عاهة إلا برئ .

- قوله تعالى (ابن مريم) أن عيسى ينسب إلى أمه دائماً **وذلك لحكمتين** :

الحكمة الأولى : بيان أنه مولود والله لم يولد .

الحكمة الثانية : نسبته إلى مريم ، بأنه ابنها ليس هو ابن الله .

- **قال شيخ الإسلام** في معنى قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً ، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، يكون على وجهين :

الأول : أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله ، فيتبعونهم على التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب .

(**وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا**) أي : والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا على لسان الأنبياء ، إلا بعبادة اله واحد هو الله رب العالمين .

كما قال تعالى (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ) .
قال تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) .
وقال تعالى (فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) .
وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) .
وقال تعالى (هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) .
وقال تعالى (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) .
وقال تعالى (وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ) .
وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) .
وقال تعالى (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) .
(لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) لا معبود بحق إلا الله .
(سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) أي : تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علوا كبيراً .

- **قال ابن كثير** : أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.
- وما تضمنته هذه الآية الكريمة : من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به ، نزه نفسه عن ذلك ، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به ، جاء موضحاً في آيات كثيرة :

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ) .
وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) .
وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) .
وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) .
وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ) .
وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً) .
وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .
وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) .

الفوائد :

١-دلت الآية على أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله إفراد الله بالطاعة في تحليل ما أحل وتحريم ما حرم ، وأن من اتخذ شخصاً من دون الله يحلل ما أحل ويحرم ما حرم فهو مشرك .

٢- أن طاعة غير الله في مخالفة أمر أحكام الله من الشرك بالله .
٣-أن من أطاع مخلوقاً في تحليل الحرام وتحريم الحلال فقد اتخذه شريكاً لله .
٤-أنه لا يعتبر العمل صالحاً إلا بشرطين : الإخلاص لله ، والمتابعة للرسول ﷺ .
٥-بيان انحراف اليهود والنصارى عن دينهم الصحيح .
٦-خطر العلماء الضالين على الأمة .

(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)) .
[التوبة : ٣٢- ٣٣] .

(**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ**) يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب .(أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ) أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه .

- والمراد بنور الله : دين الإسلام الذي ارتضاه. سبحانه – لعباده دينا وبعث به رسوله ، ﷺ ، وأعطاه من المعجزات والبراهين الدالة على صدقه ، وعلى صحته ما جاء به مما يهدى القلوب ، ويشفى النفوس ، ويجعلها لا تدين بالعبادة والطاعة إلا لله الواحد القهار.

وقيل المراد بنور الله : حججه الدالة على وحدانيته – سبحانه – وقيل المراد به ، القرآن ، وقيل المراد به : نبوة النبي ﷺ وكلها معان متقاربة.

- والمراد بإطفاء نور الله : محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه ، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه ، كإثارتهم للشبهات من حول تعاليمه ، وكتحريضهم لأتباعهم وأشياعهم على الوقوف في وجهه ، وعلى محاربته.

(**وَيَأْبَى اللَّهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**) بشارة منه سبحانه للمؤمنين ، وتقرير لسنته التي لا تتغير ولا تتبدل في جعل العاقبة للحق وأتباعه.

والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل "كافرا"؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافرا؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال (أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ) .

(**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ**) المراد بالرسول هنا الجنس، فإن جميع الرسل أرسلوا بالهدى ودين الحق، ولكن الذي أكمل الله به الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه قد ختم الله به الأنبياء، وتم به البناء، كما وصف محمد ﷺ نفسه بالنسبة للرسل، كرجل بنى قصراً وأتمه، إلا موضع لبنة، فكان الناس يأتون إلى هذا القصر ويتعجبون منه، إلا موضع هذه اللبنة، يقول: "فأنا اللَبِنَة، وأنا خاتم النبيين .

(**بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**) الهدى : هو العلم النافع و (ودين الحق) هو العمل الصالح، لأن الدين هو العمل أو الجزاء على العمل، فمن إطلاقه على العمل: قوله تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ) ، ومن إطلاقه على

الجزاء قوله تعالى (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) . والحق ضد الباطل، وهو ـ أي الحق ـ المتضمن لجلب المصالح ودرء المفاسد في الأحكام والأخبار.

- **قال ابن كثير** : فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع .

ودين الحق: هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

(**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**) أي: على سائر الأديان .

- وهذا الإعلاء يدخل فيه إظهاره بالحجة والبرهان ، فبراهينه قاطعة ، وحججه ساطعة ، وكتابه محفوظ .
- قوه تعالى (**لِيُظْهِرَهُ**) الضمير على الدين ، فكل من قاتل لدين الحق سيكون هو العالي. لأن الله يقول: "ليظهره"، يظهر هذا الدين على الدين كله، وعلى مالا دين له فيظهره عليهم من باب أولى، لأن من لا يدين أخبث ممن يدين بباطل، فإذا: كل الأديان التي يزعم أهلها أنهم على حق سيكون دين الإسلام عليه ظاهراً، ومن سواهم من باب أولى.

فإن من تمسك بهذا الدين الحق، فهو الظاهر العالي، ومن ابتغى العزة في غيره، فقد ابتغى الذل، لأنه لا ظهور ولا عزة ولا كرامة إلا بالدين الحق .

كما ثبت في الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال(إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِي لي منها).

عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعزِّ عزيز، أو بِذُلِّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر"، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية).

الفوائد :

١–أن أهل الكفر بأنواعهم يسعون بكل وسيلة لإطفاء نور الله .

٢– البشارة لأهل الإيمان ، بأن الله سوف يتم دينه .

٣–إثبات الرسالة للنبي ﷺ .

٤– عموم رسالته ﷺ ، وقد جاءت الأدلة التي تدل على ذلك :

قال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) .

وقال ﷺ (وأرسلت إلى الخلق كافة) رواه مسلم .

ففيه الرد على اليهود والنصارى الذين يقولون أن محمداً رسول للعرب فقط ، ورد على من يدعي التقريب بين الأديان بزعمه .

٥– أن العزة والرفعة لهذا الدين .

٦– أن كل من تمسك بهذا الدين وقاتل لدين الحق فإن الله سيظهره ويعليه .

٧– أن من ابتغى العزة والرفعة بغير هذا الدين فقد ضل .

٨– أن الإسلام هو دين الحق وغيره باطل .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥))

.

[التوبة : ٣٤- ٣٥] .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ) تقدم فائدة تصدير الخطاب بهذا النداء .

(إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ) قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.

فإن الأحبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى (لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ) .

والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) .

لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) أي : إن كثيراً من علماء اليهود (الاحبار) وعلماء النصارى (الرهبان) (ليأكلون اموال الناس بالباطل) أي : ليأخذون اموال الناس بالحرام ، ويمنعونهم عن الدخول في دين الاسلام .

(لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خَرْج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله، صلوات الله وسلامه عليه استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله.

- **قال ابن عاشور** : والباطل يشمل وجوها كثيرة ، منها تغيير الأحكام الدينية لموافقة أهواء الناس ، ومنها القضاء بين الناس بغير إعطاء صاحبِ الحقّ حقّه المعين له في الشريعة ، ومنها جحد الأمانات عن أربابها أو عن ورثتهم ، ومنها أكل أموال اليتامى ، وأموال الأوقاف والصدقات.
- **قال بعضُ العلماءِ**: يأخذونَ الرُّشَا. وقال بعضُ العلماءِ: يأخذونَ من أتباعِهِم أموالاً باسمِ الدِّينِ ثم يأكلونَها، قال بعضُهم: يأخذونَ أموالاً باسمِ الكنيسةِ والبيعةِ ونحوِ ذلك مما يُخَيِّلُونَ لأتباعِهِم أن أخذَه مِنَ الدِّينِ ومرادُهم الغرضُ الدنيويُّ .
- **وقال الطبري** : يَأْخُذُونَ الرُّشَى فِي أَحْكَامِهِمْ ، وَيُحَرِّفُونَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَيَكْتُبُونَ بِأَيْدِيهِمْ كُتُبًا ثُمَّ يَقُولُونَ : هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَيَأْخُذُونَ بِهَا ثَمَنًا قَلِيلاً مِنْ سَفَلَتِهِمْ .
- **وقال الرازي** : أنهم كانوا يأخذون الرشا في تخفيف الأحكام والمسامحة في الشرائع.
- **قال ابن كثير** : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال ، قال ابن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى

- **قال الرازي** : اعلم أنه تعالى لما وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية والترفع على الخلق ، وصفهم في هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس ، تنبيها على أن المقصود من إظهار تلك الربوبية والتجبر والفخر ، أخذ أموال الناس بالباطل.
- وقوله (لَيَأْكُلُونَ) والمراد بالأكل في قوله لَيَأْكُلُونَ مطلق الأخذ والانتفاع ، وعبر عن ذلك بالأكل ، لأنه المقصود الأعظم من جمع الأموال ، فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده .
- وأسند سبحانه هذه الجريمة – وهي أكل أموال الناس بالباطل – إلى كثير من الأحبار والرهبان ولم يسندها إلى جميعهم ، إنصافا للعدد القليل منهم الذي لم يفعل ذلك ، فإن كل طائفة أو جماعة لا تخلو من وجود أفراد من بينها يتعففون عن الحرام ، ويقيدون أنفسهم بالحلال.

قال صاحب المنار : وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحرى الحق في عبارات الكتاب العزيز ، فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم ، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر ، أو يطلق اللفظ العام ثم يستثنى منه.

(**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**) هذه جريمة من جرائمهم الكثيرة.

والصد : المنع والصرف عن الشيء .. وسبيل الله : دينه وشريعته.

أي: أن هؤلاء الكثيرين من الأحبار والرهبان لا يكتفون بأكل أموال الناس بالباطل ، بل إنهم يضيفون إلى ذلك جريمة ثانية من جرائمهم المتعددة وهي أنهم ينصرفون عن الدين الحق وهو دين الإسلام انقياداً لأحقادهم وشهواتهم ، ويصرفون أتباعهم عنه بشتى الوسائل ، كأن يصفوه لهم بأنه دين باطل ، أو بأن رسوله ﷺ ليس هو الرسول الذي بشرت به الكتب السماوية السابقة ... إلى غير ذلك من وسائلهم المتنوعة في صرف الناس عن الحق.

(**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ**) أي : يجمعون الأموال ويدخرون الثروات .

- وخص الذهب والفضة بالذكر ، لأنهما الأصل الغالب في الأموال ولأنهما اللذان يقصدان بالكنز أكثر من غيرهما.

(**وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أي : لا يؤدون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير .

قال ابن عمر : الكنز ما لم تؤد زكاته ، وما أديت زكاته فليس بكنز .

- **قال الشنقيطي** : أَظْهَرُ الْأَقْوَالِ وَأَقْرَبُهَا لِلصَّوَابِ فِي مَعْنَى (يَكْنِزُونَ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، أَنَّ الْمُرَادَ بِكَنْزِهِمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَعَدَمِ إِنْفَاقِهِمْ لَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَنَّهُمْ لَا يُؤَدُّونَ زَكَاتَهُمَا .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : وَأَمَّا الْكَنْزُ ؟ فَقَالَ مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ : هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُؤَدَّى زَكَاتُهُ .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ نَحْوَهُ : أَيُّمَا مَالٍ أُدِّيَتْ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَإِنْ كَانَ مَدْفُونًا فِي الْأَرْضِ ، وَأَيُّمَا مَالٍ لَمْ تُؤَدَّ زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ يُكْوَى بِهِ صَاحِبُهُ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. اهـ .

وَمِمَّنْ رُوِيَ عَنْهُ هَذَا الْقَوْلُ عِكْرِمَةُ ، وَالسُّدِّيُّ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ أَصْوَبُ الْأَقْوَالِ ; لِأَنَّ مَنْ أَدَّى الْحَقَّ

الْوَاجِبَ فِي الْمَالِ الَّذِي هُوَ الزَّكَاةُ لَا يُكْوَى بِالْبَاقِي إِذَا أَمْسَكَهُ ; لِأَنَّ الزَّكَاةَ تُطَهِّرُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ، وَلِأَنَّ الْمَوَارِيثَ مَا جُعِلَتْ إِلَّا فِي أَمْوَالٍ تَبْقَى بَعْدَ مَالِكِيهَا .

وَمِنْ أَصْرَحِ الْأَدِلَّةِ فِي ذَلِكَ ، حَدِيثُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَغَيْرِهِ فِي قِصَّةِ الْأَعْرَابِيِّ أَخِي بَنِي سَعْدٍ ، مِنْ هَوَازِنَ ، وَهُوَ ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ لَمَّا أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِ الزَّكَاةَ ، وَقَالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ، فَإِنَّ النَّبِيَّ قَالَ لَهُ : «لَا ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي «الْبَقَرَةِ» تَحْقِيقًا أَنَّهُ مَا زَادَ عَلَى الْحَاجَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا .

وَفِي الْآيَةِ أَقْوَالٌ أُخَرُ :مِنْهَا : أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَاتِ الزَّكَاةِ كَقَوْلِهِ : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ الْآيَةَ .

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ هَذَا الْقَوْلَ بِالنَّسْخِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَيْضًا ، وَبِهِ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَعِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ . اهـ .

وَعَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ : أَرْبَعَةُ آلَافٍ فَمَا دُونَهَا نَفَقَةٌ ، وَمَا كَانَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ كَنْزٌ .

وَمَذْهَبُ أَبِي ذَرٍّ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَدَّخِرَ شَيْئًا فَاضِلًا عَنْ نَفَقَةِ عِيَالِهِ . اهـ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ ادِّخَارَ مَا أُدِّيَتْ حُقُوقُهُ الْوَاجِبَةُ لَا بَأْسَ بِهِ ، وَهُوَ كَالضَّرُورِيِّ عِنْدَ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ .

عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ (مَرَرْتُ بِالرَّبَذَةِ فَإِذَا أَنَا بِأَبِي ذَرٍّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ مَا أَنْزَلَكَ مَنْزِلَكَ هَذَا قَالَ : كُنْتُ بِالشَّامِ فَاخْتَلَفْتُ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ فِي الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ, قَالَ مُعَاوِيَةُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ, فَقُلْتُ: نَزَلَتْ فِينَا وَفِيهِمْ فَكَانَ, بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي ذَاكَ وَكَتَبَ إِلَى عُثْمَانَ ﷺ يَشْكُونِي فَكَتَبَ إِلَيَّ عُثْمَانُ أَنِ اقْدَمِ الْمَدِينَةَ فَقَدِمْتُهَا فَكَثُرَ عَلَيَّ النَّاسُ حَتَّى كَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْنِي قَبْلَ ذَلِكَ فَذَكَرْتُ ذَاكَ لِعُثْمَانَ فَقَالَ لِي: إِنْ شِئْتَ تَنَحَّيْتَ فَكُنْتَ قَرِيبًا فَذَاكَ الَّذِي أَنْزَلَنِي هَذَا الْمَنْزِلَ وَلَوْ أَمَّرُوا عَلَيَّ حَبَشِيًّا لَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ) .

- **وقال ابن كثير** رحمه الله في تفسير آية التوبة : وأما الكنز ، فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر : هو المال الذي لا يؤدى زكاته . وروى الثوري وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : ما أدي زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين ، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز ، وقد روي هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً .

وقال عمر بن الخطاب نحوه : أيما مال أديت زكاته فليس بكنز ، وإن كان مدفوناً في الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض .

وكان أبو ذر ﷺ يرى وجوب التصدق بما زاد على النفقة اللازمة، التي يحتاج إليها المسلم، وكان يفتي بذلك، ويحث الناس عليه، ويغلظ في كلامه، ويحتج على ذلك بقوله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

وخالفه في ذلك باقي الصحابة، وذهبوا إلى أن المقصود بالكنز: المال الذي لم تؤد زكاته ، كما تقدم .

(**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) أسلوب تهكم ، أي : أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم .

- **قال الشوكاني :** وهو من باب التهكم بهم كما في قوله : تحية بينهم ضرب وجيع.

وقيل : إن البشارة هي الخبر الذي يتغير له لون البشرة لتأثيره في القلب ، سواء كان من الفرح أو من الغمّ.

- وإنما قرن بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظا عليهم ، ودلالة على ان من يأخذ منهم السحت ،

ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله ، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الاليم .

- والتعبير بالبشارة من باب التهكم بهم ، والسخرية منهم ، فهو كقولهم : تحيتهم الضرب وإكرامهم الشتم.
- يرى بعضهم أن المراد به أولئك الأحبار والرهبان ، لأن الكلام مسوق في ذمهم ، وتكون هذه الجملة ذما لهم على رذيلة ثالثة هي الحرص والبخل ، بعد ذمهم على رذيلتي أكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله.

ويرى آخرون أن المراد بهم البخلاء من المسلمين ، وأن الجملة مستأنفة لذم مانعي الزكاة بقرينة قوله : وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ويكون نظمهم مع أهل السوء من الأحبار والرهبان من باب التحذير والوعيد والإشارة إلى أن الأشحاء المانعين لحقوق الله ، مصيرهم كمصير الأحبار والرهبان في استحقاق البشارة بالعذاب.

وترى طائفة ثالثة من العلماء أن المراد به كل من كنز المال، ولم يخرج الحقوق الواجبة فيه، سواء أكان من المسلمين أم من غيرهم، لأن اللفظ مطلق، فيجب إجراؤه على إطلاقه وعمومه .

- **قال الشوكاني** : وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء ، وغالب ما يكنز وإن كان غيرهما له حكمهما في تحريم الكنز

(**يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ**) أي : يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية .

(**فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ**) قال القرطبي : الكى في الوجه أشهر وأشنع ، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع ، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الاعضاء .

(**هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**) أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما، كما في قوله (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) أي: هذا بذاك، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم؛ ولهذا يقال: من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله، عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عذبوا بها، كما كان أبو لهب، لعنه الله، جاهدًا في عداوة الرسول ﷺ ، وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضاً (فِي جِيدِهَا) أي: في عنقها (حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه كان في الدنيا .

الفوائد :

١- التحذير من علماء السوء والعباد الجهال .

٢- أخبث الناس من اشترى الدنيا بالدين .

٣- تحريم أكل أموال الناس بالباطل ، والأشد من ذلك أن يكون عن طريق الدين .

٤- التحذير الشديد من التشبه باليهود والنصارى ، ومن ذلك أكل الأموال بالباطل عن طريق الدين .

٥- عدل الله ، حيث ذكر أن الكثير من هؤلاء يفعلون ذلك ، لكن يوجد القليل من لا يفعل هذا الفعل الخبيث .

٦- تحريم كتمان العلم ، من أجل أغراض دنيوية ، وهو من أشد الذنوب .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ

اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وقال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ) .

- قال ابن تيمية: معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر، والله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير، لما في ذلك من عموم النفع لكل شيء، وعكسه كاتموا العلم، فإنهم يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. مجموع الفتاوى : ٤ / ٤٢ قال ابن المبارك – رحمه الله :

وهل أَفْسَدَ الدينَ إلا الملوكُ ... وأحْبَارُ سُوءٍ ورُهْبانُهَا

وباعُوا النفوسَ ولم يَرْبَحُوا ... ولم تغْلُ في البَيْع أثْمانُهَا

لقدْ رتعَ القومُ في جِيفَةٍ ... يَبِينُ لذِي العَقْلِ إنْتَانُهَا

وكان يحيى بن معاذ الرازي ﷺ يقول لعلماء وقته (يا معْشرَ العلماء ، ديارُكم هَامَانيَّة ، وملابِسُكُم قَارُونية ، ومَرَاكِبُكُم فرعونية وولائمُكُمْ جالوتية ، فأين السنّةُ المحمدية ؟) .

٧-تحريم اكتناز الأموال وعدم دفع زكاتها .

٨-شدة عذاب من منع الزكاة .

أ- قال تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) .

ب- ثم ذكر حديث أبي هريرة (تَأْتِي الإِبِلُ عَلَى صَاحِبِهَا عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ إِذَا هُوَ لَمْ يُعْطِ فِيهَا حَقَّهَا تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَأْتِي الْغَنَمُ عَلَى صَاحِبِهَا عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ إِذَا لَمْ يُعْطِ فِيهَا حَقَّهَا تَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا) .

ج- ثم ذكر حديث (مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ ....) .

د- عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِىَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ». قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالإِبِلُ قَالَ « وَلاَ صَاحِبُ إِبِلٍ لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ ...) رواه مسلم

٩- أن من أحب شيئاً لغير الله عُذب به .

قال ابن تيمية : وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَضُرَّهُ مَحْبُوبُهُ ؛ وَيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِعَذَابِهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ يُمَثَّلُ لِأَحَدِهِمْ كَنْزُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتِهِ . يَقُولُ : أَنَا كَنْزُكَ . أَنَا مَالُك . (الفتاوى) .

فكما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى

عليها في نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

في صحيح مسلم ، قال ﷺ (مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِىَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ) .

١٠- قال السعدي : وذكر الله في هاتين الآيتين، انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبات، و "النهي عن الشيء، أمر بضده"

١١-التحذير من التشبه باليهود والنصارى ، حيث اتخذوا الدين سلماً لأغراضهم الدنيوية الحقيرة .

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)) .

[التوبة : ٣٦] .

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ) أي : عدد شهور السنة عند الله في حكمه وقضائه وحكمته : اثنا عشر شهراً.

- قوله (لشهور) جمع شهر. والمراد بها هنا : الشهور التي تتألف منها السنة القمرية وهي شهور. المحرم. وصفر. وربيع الأول .. إلخ.

وهذه الشهور عليها مدار الأحكام الشرعية ، وبها يعتد المسلمون في عباداتهم وأعيادهم وسائر أمورهم.

والمراد بقوله (يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ) الوقت الذي خلقهما فيه ، وهو ستة أيام كما جاء في كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله تعالى (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ) .

والمعنى : إن عدد الشهور «عند الله» أي: في حكمه وقضائه اثْنا عَشَرَ شَهْراً هي الشهور القمرية التي عليها يدور فلك الأحكام الشرعية.

وقوله (**فِي كِتَابِ اللَّهِ**) أي : في اللوح المحفوظ.

والمعنى : أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة ، أي : أن المقصود من هذه الآية الكريمة ، بيان أن كون الشهور كذلك حكم أثبته سبحانه في اللوح المحفوظ منذ أوجد هذا العالم ، وبينه لأنبيائه على هذا الوضع .. فمن الواجب اتباع ترتيب الله لهذه الشهور ، والتزام أحكامها ونبذ ما كان يفعله أهل الجاهلية من تقديم بعض الشهور أو تأخيرها أو الزيادة عليها ، أو انتهاك حرمة المحرم منها.

(**مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**) وقد أجمع العلماء على أن المراد بها ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وبذلك

تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ .

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إن الزَّمَان قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاَثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ قُلْنَا بَلَى قَالَ فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ قُلْنَا بَلَى قَالَ فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ قُلْنَا بَلَى قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ- قَالَ مُحَمَّدٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَأَعْرَاضَكُمْ - عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ أَلاَ فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلاَّلاً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ - فَكَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا ذَكَرَهُ يَقُولُ صَدَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ ثُمَّ قَالَ: أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ مَرَّتَيْنِ) متفق عليه .

- **قال ابن كثير** : إنما كانت الأشهر المحرمة أربعة : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، لأجل أداء المناسك - الحج والعمرة - فحرم قبل أشهر الحج ، شهر وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال ، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون بأداء المناسك ، وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول ، لأجل زيارة البيت والاعتمار به ، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً .

- من خصائص الأشهر الحرم :

تحريم القتال فيهن .

قال تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) .

ولكن ذهب جماهير أهل العلم إلى نسخ هذا الحكم وجواز القتال، ولهم في ذلك أدلة لا تسلم من مقال .

وَمِنْ أصرحِ ما استدلوا به ، ما ثبت في الصحيحينِ أن النبيَّ ﷺ حاصرَ ثَقِيفًا في غزوةِ الطائفِ بَعْضًا من ذِي القعدة ، وهذا ثابتٌ في الصحيحينِ ثُبُوتًا لاَ مَطْعَنَ فيه. قالوا: لم تنسخ لما حَاصَرَ النبيُّ ﷺ ثقيفًا في ذي القعدةِ وهو شهرٌ حَرَامٌ.

وذهب بعض أهل العلم ومنهم عطاء -رحمه الله- إلى أن الآية محكمة، وأن تحريم القتال باقٍ غير منسوخ .

تحريم الظلم فيهن .

وإليه يشير قوله تعالى — الآتي (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) .

(**ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**) أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحَذْو بها على ما سبق في كتاب الله الأول.

قال في التفسير الوسيط : أي : ذلك الذي شرعناه لكم من كون عدة الشهور كذلك ، ومن كون منها أربعة حرم : هو الدين القويم ، والشرع الثابت الحكيم ، الذي لا يقبل التغيير أو التبديل .. لا ما شرعه أهل الجاهلية لأنفسهم من تقديم بعض الشهور وتأخير بعضها استجابة لأهوائهم وشهواتهم ، وإرضاء لزعمائهم وسادتهم.

(**فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ**) اختلف في مرجع الضمير في قوله (فيهن) :

فقيل : أي في هذه الأشهر الحرم بإيقاع القتال فيها والهتك لحرمتها .

وهذا قول الجمهور .

وقيل : إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها الحرم وغيرها ، وإن الله نهى عن الظلم فيها .

والأوّل أولى.

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) أي: في هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام .
- وقد رجح ابن جرير ما ذهب إليه الجمهور فقال ما ملخصه : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها.
- **قال القرطبي رحمه الله** :لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب، لأن الله سبحانه إذا عظم شيئاً من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة، وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعددة فيضاعف فيه العقاب بالعمل السيء، كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح، فإن من أطاع الله في الشهر الحرام في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام، ومن أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام ليس ثوابه ثواب من أطاعه في شهر حلال في بلد حلال، وقد أشار الله إلى هذا بقوله (يا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) .
- استدل بالآية العلماء على مضاعفة الحسنات والسيئات في الأشهر الحرم .

قال ابن عثيمين : فإذا كان قد نُهي عن ظلم النفس بخصوص هذه الأشهر ، دل ذلك على أن العمل الصالح فيهن أفضل

ومن العبارات المشهورة عند العلماء قولهم : تضاعف الحسنة في كل زمان ومكان فاضل .

- فالحسنة تضاعف بالكم وبالكيف . وأما السيئة فبالكيف لا بالكم ، لأن الله تعالى قال في سورة الأنعام وهي مكية : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ). وقال : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ). ولم يقل : نضاعف له ذلك . بل قال : (نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) فتكون مضاعفة السيئة في مكة أو في المدينة مضاعفة كيفية .(بمعنى أنها تكون أشد ألماً ووجعاً لقوله تعالى : وقال : (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ). أ.هـ
- **فإن قال قائل** : فإن كان الأمر على ما وصفت ، فقد يكون مباحا لنا ظلم أنفسنا في غيرهن من سائر شهور السنة.

قيل: ليس ذلك كذلك، بل ذلك حرام علينا في كل وقت ولكن الله عظم حرمة هؤلاء الأشهر وشرفهن على سائر شهور السنة: فخص الذنب فيهن ، بالتعظيم كما خصهن بالتشريف ، وذلك نظير قوله تعالى حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى ، ولكنه تعالى – زادها تعظيما ، وعلى المحافظة عليها توكيدا ، وفي تضييعها

تشديدا ، فكذلك في قوله مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ.

وقد كانت الجاهلية تعظم هذه الأشهر الحرم وتحرم القتال فيهن ، حتى لو لقى الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم يهجه .

وقال القرطبي : لا يقال كيف جعلت بعض الأزمنة أعظم حرمة من بعض فإنا نقول :

للباري تعالى أن يفعل ما شاء ، ويخص بالفضيلة ما يشاء ليس لعمله علة ، ولا عليه حجر ، بل يفعل ما يريد بحكمته ، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى .

(**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**) تحريض للمؤمنين على قتال المشركين بقلوب مجتمعة ، وعزيمة صادقة.

أي: قاتلوا – أيها المؤمنون – المشركين جميعاً، كما يقاتلونكم هم جميعا، بأن تكونوا في قتالكم لهم مجتمعين متعاونين متناصرين، لا مختلفين ولا متخاذلين.

(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**) بالنصر والتأييد ، ومن كان الله معه فلن يغلبه شيء فكونوا – أيها المؤمنون من عباد الله المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى عنه لتنالوا عونه وتأييده.

وقد تقدم فضائل التقوى في أول السورة .

الفوائد :

١- أن السنة اثنا عشر شهراً ، وأن شهور السنة القمرية هي المعول عليها في الأحكام لا شهور السنة الشمسية.

قال الشوكاني : وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض ، وأن هذا هو الذي جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب.

وأنه لا اعتبار بما عند العجم ، والروم، والقبط، من الشهور التي يصطلحون عليها ويجعلون بعضها ثلاثين يوماً، وبعضها أكثر، وبعضها أقلّ.

٢- وجوب التقيد بما شرعه الله من أحكام بدون زيادة أو نقصان عليها.

٣- إثبات الأشهر الحرُم ، وأنها أربعة .

٤- حكمة الله الكاملة في تفضيل بعض الشهور على بعض ، قال تعالى (ورَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون) .

فإذا اختار شيئًا من الخلق أو الأمر الشرعي؛ فليس للمؤمنين إلا الرضا باختياره، وإلا فليسوا بمؤمنين (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً) .

٥- وجوب تعظيم شعائر الله ، ومن ذلك تعظيم الأشهر الحرم .

٦- التحذير من انتهاك حرمات هذه الأشهر الحرم بارتكاب المنكرات ، وترك المأمورات .

٧- أخذ بعضهم من قوله تعالى (فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت لم ينسخ ، وأنه لا يصح القتال فيها إلا أن يكون دفاعاً .

قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبى رباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها.

وذهب جمهور العلماء إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم قد نسخ .

بدليل أن الله – تعالى – بعد أن نهى المؤمنين عن أن يظلموا أنفسهم بالقتال فيها أمرهم بقتال المشركين من غير تقيد بزمن فقال (وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) فدل ذلك على أن القتال في الأشهر الحرم مباح.

وبدليل أن النبي ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو شهر ذي القعدة ، والله أعلم .

٨- أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب .

٩- أن ارتكاب المعاصي ظلم للنفس .

١٠- وجوب قتال المشركين ، وأنه فرض على الأعيان إن لم يقم به البعض .

١١- ينبغي التحريض على قتال الكفار في كل مناسبة .

١٢- فضل الجهاد في سبيل الله ، حيث أن الله كثيراً ما يأمر به ويحث عليه .

١٣- فضل التقوى .

١٤- أن من كان الله معه فلا خوف عليه .

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)) .

[التوبة : ٣٧] .

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) لأنه تحليل ما حرمه الله ، وتحريم ما حلله ، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم

- النسيء : مصدر بزنة فعيل مأخوذ من نسأ الشيء إذا أخره. ومنه نسأت الإبل عن الحوض إذا أخرتها عنه. ومنه : أنسأ الله في أجل فلان ، أي : أخره ، والمراد به : تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر.

والمعنى : إنما النسيء الذي يفعله المشركون ، من تأخيرهم حرمة شهر إلى آخر ، زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ أي : زيادة في كفرهم لأنهم قد ضموا إلى كفرهم بالله كفرا آخر ، هو تحليلهم لما حرمه الله وتحريمهم لما أحله وبذلك يكونون قد جمعوا بين الكفر في العقيدة والكفر في التشريع.

- **قال الشوكاني** : وكانت العرب تحرّم القتال في الأشهر الحرم المذكورة ، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرّموا غيرها.

فإذا قاتلوا في المحرّم ، حرّموا بدله شهر صفر ، وهكذا في غيره.

وكان الذي يحملهم على هذا : أن كثيراً منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضم البعض ، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغيرون عليه ، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال ، وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرّ بهم تواليها وتشتدّ حاجتهم وتعظم فاقتهم.

فيحللون بعضها ويحرّمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم ، فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه.

- **وقال القرطبي** : وسبب ذلك أن العرب كانت أصحابَ حروب وغارات ، فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها ؛ وقالوا : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نُصيب فيها شيئاً لنهلكنّ ، فكانوا إذا صدروا عن مِنًى يقوم من بني كنانة ، ثم من بني فُقَيم منهم رجل يقال له القَلَمّس ؛ فيقول أنا الذي لا يُردّ لي قضاء ، فيقولون : أنسئنا شهراً ، أي أخّر عنا حُرمة المحرّم واجعلها في صفر ؛ فيحلّ لهم المحرّم ، فكانوا كذلك شهراً فشهراً حتى استدار التحريم على السَّنة كلها ، فقام الإسلام وقد رجع المحرّم إلى موضعه الذي وضعه الله فيه.
- **وقال السعدي** : النسيء: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا -بآرائهم الفاسدة- أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراما، فهذا -كما أخبر الله عنهم- أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراما، والحرام حلالا.

ومنها: أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال (يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ) أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

(**يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ**) أي : يوقع الذين كفروا بسبب ارتكابهم للنسيء في الضلال والموقع لهم في هذا الضلال كبراؤهم وشياطينهم.

(**يُحِلّونَهُ عَامًا وَيُحَرّمُونَهُ عَامًا**) أي : أن هؤلاء الكافرين من مظاهر ضلالهم، أنهم يحلون الشهر المؤخر عن وقته عاماً من الأعوام، ويحرمون مكانه شهراً آخر ليس من الأشهر الحرم ، وأنهم يحرمونه أي : يحافظون على حرمة الشهر الحرام عاما آخر ، إذا كانت مصلحتهم في ذلك.

- **قال الواحدي** : يحلون التأخير عاماً وهو العام الذي يريدون أن يقاتلوا في المحرم ، ويحرمون التأخير عاماً آخر وهو العام الذي يدعون المحرم على تحريمه .

(**لّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ**) والمعنى : فعل المشركون ما فعلوه من التحليل والتحريم للأشهر على حسب أهوائهم ، ليوافقوا بما فعلوه عدة الأشهر الحرم ، بحيث تكون أربعة في العدد وإن لم تكن عين الأشهر المحرمة في شريعة الله.

- قال أهل اللغة يقال : واطأت فلاناً على كذا إذا وافقته .
- قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنهم ما أحلوا شهراً من الحرام إلا حرموا مكانه شهراً من الحلال ، ولم يحرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام ، لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة ،

مطابقة لما ذكره الله تعالى ، هذا هو المراد من المواطأة.

- **قال القرطبي** : أي لم يُحلّوا شهراً إلا حرموا شهراً لتبقى الأشهر الحرم أربعة ، وهذا هو الصحيح ، لا ما يذكر أنهم جعلوا الأشهر خمسة.

(**فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ**) أي : فيحلوا بتغييرهم الشهور المحرمة ، ما حرمه الله في شرعه ، فهم وإن كانوا وافقوا شريعة الله في عدد الشهور المحرمة ، إلا أنهم خالفوه في تخصيصها فقد كانوا – مثلاً– يستحلون شهر المحرم ويحرمون بدله شهر صفر.

(**زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ**) أي : زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فجعلهم يرون العمل القبيح عملاً حسناً .

(**وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**) الهداية المنفية هنا هداية التوفيق ، أما هداية البيان والإرشاد فهي حاصلة لكل أحد .

- **قال الشوكاني** : وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد اليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده.
- وهنا سؤال معروف ، وهو أن الله قد هدى كثير من الكفار ، ومثل هذه الآية (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين) ، فكَمْ مِنْ كافرٍ ظالمٍ يهديه الله؟ فكيف قال (وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) والجواب من وجهين :

أحدهما : أن هذه الآيةَ الكريمةَ وأمثالَها في القرآنِ من العامِّ المخصوصِ، أي: لا يهدِي القومَ الكافرينَ الذين سَبَقَ في عِلْمِهِ عدمُ هدايتِهم وشقاؤهم شقاءً أزليًّا .

كقولِه (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ) .

وقولُه (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) . ونحو ذلك من الآياتِ. وعلى أن هذه الآيةَ الكريمةَ من العامِّ المخصوصِ بآياتٍ أُخَرَ فلاَ إشكالَ.

القول الثاني: لا يهدي الظالمين ما داموا مصرّين على ظلمهم، فإن رزقهم الله التوبة والإنابة زال اسم الظلم عنهم، ولم يدخلوا في عداد الظالمين، فصار لا إشكال في هدايتهم . (الشنقيطي) .

والله تعالى اقتضت حكمته أن لا يهدى القوم الكافرين إلى طريقه القويم ، لأنهم بسبب سوء اختيارهم استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا طريق الغي على طريق الرشاد .

الفوائد :

١- **قال أبو حيان** : وأخبر أنّ النسيء زيادة في الكفر أي : جاءت مع كفرهم بالله ، لأن الكافر إذا أحدث معصية ازداد كفراً.

قال تعالى (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) كما أنّ المؤمن إذا أحدث طاعة ازداد إيماناً.

٢-**قال ابن عاشور** : واعلم أنّ حرمة الأزمان والبقاع إنّما تُتلقَّى عن الوحي الإلهي لأنّ الله الذي خلق هذا العالم هو الذي يسُنّ له نظامَه فبذلك تستقرّ حرمة كلّ ذي حرمة في نفوس جميع الناس إذ ليس في ذلك عمل لبعضهم دون بعض ، فإذا أدخل على ما جعله الله من ذلك تغييرٌ تقشّعت الحرمة من النفوس فلا يرضى فريق بما وضعه غيره من الفرق ، فلذلك كان النسيء زيادة في الكفر لأنّه من الأوضاع التي اصطلح عليها الناس ،

كما اصطلحوا على عبادة الأصنام بتلقين عمرو ابن لحيّ.

٣- خبث الكفار بالتلاعب في دين الله .

٤- تحريم تغيير معالم الشريعة .

٥- أن تغيير معالم الشريعة قد يؤدي مع مرور الأزمان والأوقات إلى نسيان الشريعة وتركها .

٦- من أقبح الأمور أن يُزين للإنسان الأعمال القبيحة فيراها حسنة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)) .

[التوبة : ٣٨- ٣٩] .

هذا شروع في عتاب من تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحَمَارَّة القيظ .

- **قال ابن عطية** : هذه الآية هي بلا اختلاف نازلة عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام غزا فيها الروم في عشرين ألفاً بين راكب وراجل ، وتخلف عنه قبائل من الناس ورجال من المؤمنين كثير ومنافقون .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**) عود إلى ترغيب المؤمنين وحثهم على المقاتلة بعد ذكر طرف من فضائح أعدائهم .

- **قال ابن عاشور** : هذا ابتداء خطاب للمؤمنين للتحريض على الجهاد في سبيل الله ، بطريقة العتاب على التباطئ بإجابة دعوة النفير إلى الجهاد ، والمقصود بذلك غزوة تبوك.

(**مَا لَكُمْ**) استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ .

(**إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ، وقيل لكم : انفروا في سبيل الله .

- **قال ابن عاشور** : والنَّفْر : الخروج السريع من موضع إلى غيره لأمرٍ يحدث ، وأكثر ما يطلق على الخروج إلى الحرب ، ومصدره حينئذٍ النفير.

وسبيل الله : الجهاد ، سمّي بذلك لأنّه كالطريق الموصّل إلى الله ، أي إلى رضاه.

(**اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأرْضِ**) **أي:** تَكَاسَلْتُمْ وتباطأتُم وتقاعستُم عن الخروجِ في سبيلِ اللهِ لغزوِ الكفارِ.

- **قال الآلوسي** : أي أثاقلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم مشاق الجهاد ومتاعبه المستتبعة للراحة الخالدة والحياة الباقية ، أو إلى الإقامة بأرضكم ودياركم والأول أبلغ في الإنكار والتوبيخ ورجح الثاني بأنه أبعد عن توهم شائبة التكرار في الآية ، وكان هذا التثاقل في غزوة تبوك وكانت في رجب سنة تسع .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ) .

قيل : إلى الإقامة بأرضكم ووطنكم.

وقيل : اطمأننتم إلى الدنيا ، فسماها أرضاً لأنها فيها ، وهذا قول الضحاك.

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (إلى الأرض) كلام موجه بديع : لأنّ تباطؤهم عن الغزو ، وتطلّبهم العذر ، كان أعظم بواعثه رغبتهم البقاء في حوائطهم وثمارهم ، حتّى جعل بعض المفسّرين معنى اثاقلتم إلى الأرض : ملتم إلى أرضكم وديارکم.
- **قال ابن العربي** : فِي مَحَلِّ النَّفِيرِ: لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ غَزْوَةُ تَبُوك، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلَيْهَا فِي حَمَّارَةِ الْقَيْظِ، وَطَيِّبِ الثِّمَارِ، وَبَرْدِ الظِّلَالِ؛ فَاسْتَوْلَى عَلَى النَّاسِ الْكَسَلُ، وَغَلَبَهُمْ عَلَى الْمَيْلِ إلَيْهَا الْأَمَلُ، فَتَقَاعَدُوا عَنْهُ، وَتَثَاقَلُوا عَلَيْهِ، فَوَبَّخَهُمْ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ هَذَا ، وَعَابَ عَلَيْهِمْ الْإِيثَارَ لِلدُّنْيَا عَلَى ثَوَابِ الْآخِرَةِ.
- **قال الرازي** : المروي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في غزوة تبوك ، وذلك لأنه عليه السلام لما رجع من الطائف أقام بالمدينة وأمر بجهاد الروم ، وكان ذلك الوقت زمان شدة الحر وطابت ثمار المدينة وأينعت ، واستعظموا غزو الروم وهابوه ، فنزلت هذه الآية.

قال المحققون : وإنما استثقل الناس ذلك لوجوه :

أحدها : شدة الزمان في الصيف والقحط.

وثانيها : بعد المسافة والحاجة إلى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به العادة في سائر الغزوات.

وثالثها : إدراك الثمار بالمدينة في ذلك الوقت.

ورابعها : شدة الحر في ذلك الوقت.

وخامسها : مهابة عسكر الروم فهذه الجهات الكثيرة اجتمعت فاقتضت تثاقل الناس عن ذلك الغزو ، والله أعلم.

(**أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ**) أي: ما لكم فعلتم هكذا أرضا منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة .

- **قال الشنقيطي** : لأنَّ أَسْفَهَ الناسِ وأقلَّهم عقلاً هو مَنْ يرضى بالدنيا بدلاً من الآخرةِ؛ لأنه يعتاضُ القليلَ التافهَ من الكثيرِ الذي لا يُقَدِّرُ قدرَه إلا اللَّهُ، وفي هذا وَبَّخَهُمْ؛ لأنه نَقْضٌ ضِمْنِيٌّ للعقدِ الذي عَقَدَهُ معهم؛ لأن اللَّهَ (جلَّ وعلا) عقد عُقْدَةً بينَه وبينَ عبادِه المؤمنينَ وَأَبْرَمَهَا، وهو أنه اشْتَرَى منهم أنفسَهم وأموالَهم بالجهادِ، يشتري من المؤمنِ حياتَه الدنيويةَ وهي حياةٌ قصيرةٌ مُنَغَّصَةٌ مشوشةٌ بالأمراضِ والمصائبِ والبلايا والمشاقِّ، يشتريها منه بحياةٍ أبديةٍ سرمديةٍ، لا شيبَ فيها ولا هرمَ ولا مرضَ ولا غضبَ ولا أَلَمَ ولا تشويشَ، ويشتري منه مالاً قليلاً وَعَرَضًا زائلاً من الدنيا بالْحُورِ الْعِينِ والوِلْدانِ وغُرَفِ الجنةِ وأنهارِها وثمارِها، والنظرِ إلى وَجْهِ اللَّهِ الكريمِ. فهذا هو البيعُ الرابحُ، وَاللَّهُ يقولُ في هذه السورةِ الكريمةِ: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) هذا هو البيعُ الرابحُ والمعاملةُ الراجحةُ، أما الذي يَنْقُضُهَا وينكثُها ويقدمُ للدنيا على الآخرةِ فهذا سَفِيهٌ يستحقُّ أشدَّ

الإنكارِ .

ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة، فقال:

(**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ**) أي: في جنبِها وبالنسبةِ والإضافةِ إليها (إِلاَّ قَلِيلٌ) جِدًّا .

والدنيا هي هذه الحياة التي نعيشها التي قبل الآخرة ، وسميت الدنيا لسببين :

السبب الأول : لأنها قبل الآخرة في الزمن .

السبب الثاني : لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة .

وفي هذه الآية حقارة الدنيا وخستها بالنسبة للآخرة .

كما قال تعالى (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) .

وقال تعالى (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ) .

قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وقال تعالى(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) .

وقال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

قال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم .

- **قال النووي رحمه الله** : ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر .

وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء) رواه الترمذي .

وقال ﷺ (لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري .

فمتاع الدنيا يزول ، أو أنت تزول عنه ، وكذلك نعيمه فهو قليل بالنسبة لنعيم الآخرة .

- وأهلُها الذين كانوا يتمتعونَ بها إذا بُعِثُوا يحلفونَ أنهم ما مَكَثُوا فيها إلا ساعةً .

كما قال تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) .

بل إن أقواهم عقلاً وأثبتَهم نظرًا يَدَّعِي أنهم مَكَثُوا يومًا أو بعضَ يومٍ، وهو قولُه في (طه) (إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا) .

وقال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) .

وقال تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) .

- **قال ابن رجب** : وقال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع : هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى .

فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها ، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها ، فتتبدل صحتها بالسقم ، ووجودها بالعدم ، وشبيبتها بالهرم ، ونعيمها بالبؤس ، وحياتها بالموت ، فتفارق الأجسام النفوس, وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب, قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم : هل ترون إلا خرقاً تبلى أو لحماً يأكله الدود غداً , وكان الإمام أحمد ﷺ يقول :

يا دار تخربين ويموت سكانك .

- ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال:

(**إِلا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**) هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، وَوَعِيدٌ مُؤَكَّدٌ ، فِي تَرْكِ النَّفِيرِ .

- الظاهرُ أن هذا العذابَ شاملٌ لعذابِ الدنيا وعذابِ الآخرةِ، لأن التكاسلَ عن مقاومةِ الأعداءِ في دارِ الدنيا من أسبابِ عذابِ الدنيا؛ لأنه يُضْعِفُ المسلمينَ ويقوي أعداءَهم فيُهينونهم في قعرِ بيوتِهم كما هو واقعٌ الآنَ؛ لأن المسلمينَ، أو من يتسمونَ باسمِ المسلمينَ معذبونَ في أقطارِ الدنيا من جهةِ الكفرةِ، يضطهدونَهم، ويظلمونَهم، ويقتلونَهم، ويتحكمونَ في خيراتِ بلادِهم، وهذا كُلُّهُ من أنواعِ عذابِ الدنيا لتركِهم الجهادَ وإعلاءَ كلمةِ اللهِ (جلَّ وعلا).
- والْعَذَابُ الْأَلِيمُ هُوَ الَّذِي فِي الدُّنْيَا بِاسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْتَوْلِ عَلَيْهِ ، وَبِالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ ، وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ اسْتِبْدَالُ غَيْرِكُمْ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) .
- **قال أبو حيان** : هذا سخط على المتثاقلين عظيم ، حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين ، وأنه يهلكهم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع ، وأنه غني عنهم في نصرة دينه ، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً.
- **قال السعدي** : قوله تعالى (يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف، قد عصى الله تعالى وارتكب لنهيه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما فَتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد .
- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (يعذبكم) لفظ عام يدخل تحته أنواع عذاب الدنيا والآخرة ، والتهديد بعمومه أشد تخويفاً .

(**وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ**) أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى (إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

- **قال الآلوسي** : أي قوماً مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا .
- **قال الشنقيطي** : أَكْثَرَ اللَّهُ (جلَّ وعلا) في القرآنِ مِنْ ذِكْرِهِ أن الموجودينَ إذا لم يُطِيعُوهُ وَيَمْتَثِلُوا أمرَه فهو غَنِيٌّ عنهم قادرٌ على إذهابِهم وإزالتِهم بالكليةِ والإتيانِ بِمَنْ يَخْلُفُهُمْ، بل مَنْ يكونُ خَيْرًا منهم .

كما قال تعالى (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا) .

وقال تعالى (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ) .

وذكر تعالى: أن ذلك هين عليه غير صعب وهو قوله تعالى (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ) أي: ليس بممتنع ولا صعب.

(**وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا**) أي: ولا تضروا الله شيئًا بتوليكم عن الجهاد، ونُكُولكم وتثاقلكم عنه (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

- **قال الخازن** : قوله تعالى (وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا) .

قيل : الضمير راجع إلى الله تعالى يعني ولا تضروا الله شيئاً لأنه غني عن العالمين وإنما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله ﷺ .

ويشهد لهذا القول آيات :

كقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا) .

تدلُّ على هذا الآياتُ القرآنيةُ الكثيرةُ أن اللهَ غَنِيٌّ عن خَلْقِهِ الذين يدعوهم لطاعتِه، فإنما يَدْعُوهُمْ لنفعِهِم، فامتثالُهم نَفْعُهُ لهم، وتمردُهم ضررُه عليهم .

كما قال تعالى (فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

وقال تعالى (إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

وقال تعالى (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) .

وقيل : الضمير راجع إلى رسول الله ﷺ يعني : ولا تضروا محمداً ﷺ شيئاً فإن لله ناصره على أعدائه ولا يخذله .

- **قال ابن الجوزي** : وفي هاء (تضرُّوه) قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله ، والمعنى : لا تضروا الله بترك النفير ، قاله الحسن.

والثاني : أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ ، فالمعنى : لا تضروه بترك نصره ، قاله الزجاج.

(**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

- قال الحسن وعكرمة هذا الآية منسوخة بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لأنها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله ﷺ فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ.

الفوائد :

١–أن الجهاد يكون واجباً إذا استنفر الإمام .

٢–من أعظم علامات الإيمان النفير لنصرة دين الله .

٣–أن متاع الدنيا قليل .

٤– خطر فتنة الدنيا ، وأن التعلق بها من أعظم ما يصد عن الاستجابة لأمر الله .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

٥– أن ترك الجهاد في سبيل الله ونصرة دين الله موجب للعذاب الأليم الشديد في الدنيا والآخرة .

٦– وجوب نصرة دين الله .

٧–أنه كلما قوي إيمان العبد قويت استجابته لله ولرسوله .

٨-ذم من تكاسل وتقاعس عن الجهاد في سبيل الله .

٩-أن الله يبتلي عباده بالجهاد ليعلم الصادق من الكاذب .

١٠- أن الله لا يعجزه شيء .

(إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)) .

[التوبة : ٤٠] .

- **قال الرازي** : اعلم أن هذا ذكر طريق آخر في ترغيبهم في الجهاد ، وذلك لأنه تعالى ذكر في الآية الأولى أنهم إن لم ينفروا باستنفاره ، ولم يشتغلوا بنصرته فإن الله ينصره بدليل أن الله نصره وقواه ، حال ما لم يكن معه إلا رجل واحد .

(**إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ**) يعني : إن لم تنصروه وتخرجوا معه إلى غزوة تبوك ، فالله ينصره كما نصره.

(**إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**) أي: عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا صحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطَّلَبُ الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيرا نحو المدينة، فجعل أبو بكر ﷺ يجزع أن يَطَّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول ﷺ منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يُسَكِّنه ويَثَبِّته ويقول: " يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

- والمراد بالغار ثقب في أعلى ثور وهو جبل في الجهة اليمنى لمكة على مسير ساعة ، مكثا فيه كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ثلاثة أيام يختلف إليهما بالطعام عامر بن فهيرة .
- **قال أبو حيان** : ومعنى إخراج الذين كفروا إياه : فعلهم به ما يؤدي إلى الخروج ، والإشارة إلى خروج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.
- **قال القرطبي** : وهو خرج بنفسه فاراً ، لكن بإلجائهم إلى ذلك حتى فعله ، فنسب الفعل إليهم ورتّب الحكم فيه عليهم ؛ فلهذا يقتل المكرِه على القتل ويضمن المال المتلَف بالإكراه ؛ لإلجائه القاتل والمتلِف إلى القتل والإتلاف.

(**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**) يريد أن النبي ﷺ قال لصاحبة أبي بكر " لا تَحْزَنْ " فاحتمل قوله ذلك له وجهين :

أحدهما : أن يكون تبشيراً لأبي بكر بالنصر من غير أن يظهر منه حزن.

والثاني : أن يكون قد ظهر منه حزن فقال له ذلك تخفيفاً وتسلية. وليس الحزن خوفاً وإنما هو تألم القلب بما تخيله من ضعف الدين بعد الرسول فقال له النبي ﷺ "لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا " أي ناصرنا على أعدائنا.

- إذا يقول لصاحبه ، منقبة عظيمة لأبي بكر الصديق ﷺ .

(**إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**) أي : بالنصر والرعاية والحفظ والكلاءة.

(**فَأَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ**) أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول في أشهر القولين .

وقيل: على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينة .

وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) فيها قولان :

أحدهما : على النبي ﷺ ، قاله الزجاج.

والثاني : على أبي بكر لأن الله قد أعلم نبيه بالنصر.

(**وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا**) أي: الملائكة .

(**وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى**) أي : الساقطة المخذولة .

وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) كما قال تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وقال تعالى (إنا لننصر رسلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وقال تعالى (وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

(**وَاللَّهُ عَزِيزٌ**) لا يغالبه مغالب ، ولا يفوته هارب .

في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه .

اسم من أسماء الله وهو : العزيز , وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله , وهي ثلاثة أنواع :

- **عزة القدْر** : بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم ,كما قال النبي ﷺ (السيد الله) .
- **وعزة القهر** : بمعنى أن الله القاهر لكل شيء , لا يُغلب ,كما قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .
- **وعزة الامتناع** : بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص .

- **قال السعدي** : (العزيز) الذي له العزة كلها : عزة القوة , وعزة الغلبة , وعزة الامتناع , فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات , وقهر جميع الموجودات , ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته .
- **الآثار المترتبة على معرفة هذا الاسم** :

أولاً : أن اسمه سبحانه (العزيز) يستلزم توحيده وعبادته وحده لا شريك له , إذ الشركة تنافي كمال العزة .

ثانياً : ومن كمال العزة تبرئته سبحانه من كل سوء وتنزيهه من كل شر ونقص , قال ابن القيم : ومن تمام عزته : براءته عن كل سوء وشر وعيب , فإن ذلك ينافي العزة التامة .

ثالثاً : من كمال عزته سبحانه نفاذ حكمه وأمره في عباده وتصريف قلوبهم على ما يشاء , وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله , وهذا يجعل العبد خائفاً من ربه سبحانه , لائذاً بجنابه معتصماً به متبرئاً من الحول والقوة ذليلاً حقيراً بين يدي ربه سبحانه .

رابعاً : أن الإيمان بهذا الاسم الكريم يثمر العزة في قلب المؤمن , ومهما ابتغى العبد العزة عند غير الله وفي غير دينه فلن يجدها ولن يجد إلا الذل والضعف والهوان كما قال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً) .

والشعور بهذه العزة تثمر التعالي على الباطل وأهله وعدم الاستكانة لهم مهما تسلطوا على العبد .

خامساً : أن الإيمان بهذا الاسم يثمر عدم الركون إلى شيء من هذه الدنيا الفانية وجعلها مصدر العزة والقوة ,

فكم رأينا وسمعنا من كثير من الناس اغتر بعضهم بماله أو جاهه أو ولده أو سلطانه ومنصبه فكانت كلها سبباً في إذلاله وشقائه .

سادساً : من أسباب العزة : العفو والتواضع والذلة للمؤمنين , قال تعالى في وصف عباده الذين يحبهم ويحبونه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقال ﷺ (... وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) رواه مسلم .

(**حَكِيمٌ**) في أقواله وأفعاله .

الحكيم : الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر، اقتضته الحكمة الإلهية.

الفوائد :

١- أن الله ناصر عبده ورسوله ﷺ .

٢- أن الله غني العالمين .

٣- أن من تولى عن نصرة دين الله ، جاء الله بقوم ينصرون دينه ويرفعون رايته ، وما ذلك على الله بعزيز .

٤- بيان ما لاقى النبي ﷺ من أذى المشركين .

٥-وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

ومن فضائله :

عن أنس بن مَالِك (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ قَالَ نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رؤوسنا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا) متفق عليه .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ « عَبْدٌ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ ». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى فَقَالَ فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا. قَالَ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرُ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ لاَ تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاَّ خَوْخَةَ أَبِى بَكْر) متفق عليه .

وعن عبْدَ اللَّهِ بْن مَسْعُود . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي وَقَدِ اتَّخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلاً) متفق عليه .

وعن عَمْرُو بْن الْعَاص (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلاَسِلِ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ « عَائِشَةُ ». قُلْتُ مِنَ الرِّجَالِ قَالَ « أَبُوهَا ». قُلْتُ ثُمَّ مَنْ قَالَ « عُمَرُ ». فَعَدَّ رِجَالاً) متفق عليه .

وعن جُبَيْر بْن مُطْعِم (أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ قَالَ أَبِي كَأَنَّهَا تَعْنِي الْمَوْتَ. قَالَ « فَإِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ) متفق عليه .

٦- وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها

الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

٧-تأييد الله لرسوله بالملائكة .

٨-إثبات اسمين من أسماء الله وهما : العزيز والحكيم .

(انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)) .

[التوبة : ٤١] .

(**انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا**) أمرٌ بالنفرِ، والنفرُ المرادُ به هنا: التهيؤُ والحركةُ للجهادِ في سبيلِ اللَّهِ، أي : تحرَّكُوا مسرعينَ إلى جهادِ الرومِ إلى تبوكَ في حالِ كونِكم خفافًا أو ثقالاً.

قال الشوكاني : أي حال كونكم خفافاً وثقالاً .

قيل المراد : منفردين أو مجتمعين .

وقيل : نشاطاً وغير نشاط .

وقيل : فقراء وأغنياء .

وقيل : شباباً وشيوخاً .

وقيل : رجالاً وفرساناً .

وقيل : من لا عيال له ومن له عيال .

وقيل : من يسبق إلى الحرب كالطلائع ، ومن يتأخر كالجيش .

وقيل : غير ذلك .

ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني ، لأن معنى الآية : انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت . (فتح القدير) .

- **وقال السعدي** : يقول تعالى لعباده المؤمنين -مهيجا لهم على النفير في سبيله فقال: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا) أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

قيل : وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى (لَّيْسَ عَلَى الضعفاء وَلاَ على المرضى) .

وقيل : الناسخ لها قوله (فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ) .

وقيل : هي محكمة وليست بمنسوخة ، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله (لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ) . وإخراج الضعيف والمريض بقوله (لَّيْسَ عَلَى الضعفاء وَلاَ على المرضى) من باب التخصيص ، لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله (خِفَافًا وَثِقَالاً) والظاهر : عدم دخولهم تحت العموم .

(**وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه -كما يجب الجهاد في النفس- يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة

ودعت لذلك.

- نستفيد الحث على مجاهدة المشركين بالمال والنفس واللسان .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)

وقال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

وقال تعالى (لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

قال الصنعاني : الْحَدِيث دَلِيل عَلَى وُجُوب الْجِهَاد بِالنَّفْسِ ، وَهُوَ بِالْخُرُوجِ وَالْمُبَاشَرَة لِلْكُفَّارِ , وَبِالْمَالِ وَهُوَ بَذْله لِمَا يَقُوم بِهِ مِنْ النَّفَقَة فِي الْجِهَاد وَالسِّلَاح وَنَحْوه , وَبِاللِّسَانِ بِإِقَامَةِ الْحُجَّة عَلَيْهِمْ وَدُعَائِهِمْ إِلَى اللَّه تَعَالَى ، وبالأصوات عند اللقاء وَالزَّجْر وَنَحْوه مِنْ كُلّ مَا فِيهِ نِكَايَة لِلْعَدُو .

وقال الشوكاني : فيه دليل على وجوب المجاهدة للكفار بالأموال والأيدي والألسن. وقد ثبت الأمر القرآني بالجهاد بالأنفس والأموال في مواضع ، وظاهر الأمر الوجوب .

- **وقال شيخ الإسلام ابن تيمية** : ومن عجز عن الجهاد ببدنه وقدر على الجهاد بماله وجب عليه الجهاد بماله ، فيجب على الموسرين النفقة في سبيل الله.

وعلى هذا : فيجب على النساء الجهاد في أموالهن إن كان فيها فضل ، وكذلك في أموال الصغار إن احتيج إليها كما تجب النفقات والزكاة ، فأما إذا هجم العدو فلا يبقى للخلاف وجه ، فإن دفع ضررهم عن الدين والنفس والحرمة واجب إجماعاً .

- **ما الحكمة في أكثر الآيات الآمرة بالجهاد بالنفس والمال ، فيها تقديم المال على النفس ؟**

كقوله تعالى (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون) .

وقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ...) .

وقوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُون) .

وجاء في موضع واحد تقديم النفس على المال .

كما في قوله تعالى (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ) .

- **قال الآلوسي رحمه الله** : لعل تقديم الأموال على الأنفس لِمَا أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً، وأتم دفعاً للحاجة؛ حيث لا يُتصَوَر المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال، وقيل: ترتيب هذه المتعاطفات في الآية على

حسب الوقوع؛ فالجهاد ب (المال) لنحو التأهب للحرب، ثم الجهاد بالنفس .

- **وقال الشنقيطي** : وَحَقِيقَةُ الْجِهَادِ بَذْلُ الْجُهْدِ وَالطَّاقَةِ ، وَالْمَالُ هُوَ عَصَبُ الْحَرْبِ وَهُوَ مَدَدُ الْجَيْشِ ، وَهُوَ أَهَمُّ مِنَ الْجِهَادِ بِالسِّلَاحِ ، فَبِالْمَالِ يُشْتَرَى السِّلَاحُ ، وَقَدْ تُسْتَأْجَرُ الرِّجَالُ كَمَا فِي الْجُيُوشِ الْحَدِيثَةِ مِنَ الْفِرَقِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، وَبِالْمَالِ يُجَهَّزُ الْجَيْشُ ، وَلِذَا لَمَّا جَاءَ الْإِذْنُ بِالْجِهَادِ أَعْذَرَ اللَّهُ الْمَرْضَى وَالضُّعَفَاءَ ، وَأَعْذَرَ مَعَهُمُ الْفُقَرَاءَ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ تَجْهِيزَ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَعْذَرَ مَعَهُمُ الرَّسُولَ ﷺ إِذْ لَمْ يُوجَدْ عِنْدَهُ مَا يُجَهِّزُهُمْ بِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ، إِلَى قَوْلِهِ : وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُون) .

وَكَذَلِكَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، قَدْ يُجَاهِدُ بِالْمَالِ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ بِالسِّلَاحِ كَالنِّسَاءِ وَالضُّعَفَاءِ، كَمَا قَالَ ﷺ (مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فَقَدْ غزا).

(**ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلا فيغنيكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ (تكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة) .

ولهذا قال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) .

- **قال السعدي** : أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه. (تفسير السعدي) .

- وفي ترك الجهاد يفوت مصالح عظيمة للمسلمين ، منها الأجر والثواب والشهادة والمغنم والتربية الإيمانية التي لا تحصل بدون الجهاد ودفع شر الكفار وإذلالهم .
- **قال ابن تيمية** : فَإِذَا تَرَكَ النَّاسُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ يَبْتَلِيهِمْ بِأَنْ يُوقِعَ بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ حَتَّى تَقَعَ بَيْنَهُمْ الْفِتْنَةُ كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ إذَا اشْتَغَلُوا بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَمَعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَأَلَّفَ بَيْنَهُمْ وَجَعَلَ بَأْسَهُمْ عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّهِم .

وقال رحمه الله : نفع الجهاد عامٌ لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ، فإنه مشتملٌ من محبة الله تعالى ، والإخلاص له ، والتوكل عليه ، وتسليم النفس والمال له ، والصبر والزهد ، وذكر الله ، وسائر أنواع العمل : على ما لا يشتمل عليه عملٌ آخر .

الفوائد :

١- وجوب جهاد الكفار بكل وسيلة وطريقة .

٢-نستفيد الحث على مجاهدة المشركين بالمال والنفس واللسان .

٣- أن الجهاد يكون فرض عين إذا استنفر الإمام .

٤- فضل الجهاد في سبيل الله .

٥- أن الجهاد في سبيل الله فيه خير الدنيا والآخرة .

٦- ذم التقاعس والتكاسل عن الجهاد في سبيل الله .

(لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)) .

[التوبة : ٤٢] .

يول تعالى موبِّخًا للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا عن النبي ﷺ بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال:

(**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا**) قال ابن عباس: غنيمة قريبة .

- **قال الخازن** : فيه إضمار تقديره : لو كان ما تدعوهم إليه عرضاً يعني غنيمة سهلة قريبة التناول ، والعرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها.

يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر .

- **قال القرطبي** : العَرَض : ما يعرض من منافع الدنيا.

(**وَسَفَرًا قَاصِدًا**) أي: قريباً أيضاً .

- **قال الرازي** : قال الزجاج : أي سهلاً قريباً.

وإنما قيل لمثل هذا قاصداً ، لأن المتوسط ، بين الإفراط ، والتفريط ، يقال له : مقتصد.

(**لاتَّبَعُوكَ**) أي: لكانوا جاءوا معك لذلك .

قال البقاعي : أي لأجل رجاء العرض مع سهولة السفر لأن هممهم قاصرة ومنوطة بالحاضر .

نظير هذه الآية من السُّنة : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ يُحْتَطَبُ ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيَؤُمَّ النَّاسَ ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهم أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا ، أَوْ مَرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ) متفق عليه .

يقول : لو علم أحدهم أنه يجد شيئاً حاضراً معجّلاً يأخذه لأتى المسجد من أجله.

(**وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ**) أي: المسافة إلى الشام .

والشقة : هي السفر البعيد سمّيت شقة لأنّها تشقّ على الإنسان .

- **قال الخازن** : ومعنى الآية : لو كان العرض قريباً والغنيمة سهلة والسفر قاصداً لاتبعوك طمعاً في تلك المنافع التي تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيداً وكانوا يستعظمون غزو الروم لا جرم أنهم تخلفوا لهذا السبب .
- **قال الرازي** : والمعنى : بعدت عليهم الشاقة البعيدة ، والسبب في هذا الاسم أنه شق على الإنسان سلوكها.
- وهذه الآية نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، ومعنى الكلام أنه لو كانت المنافع قريبة والسفر

قريباً لاتبعوك طمعاً منهم في الفوز بتلك المنافع ، ولكن طال السفر فكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة ، بسبب أنهم كانوا يستعظمون غزو الروم ، فلهذا السبب تخلفوا.

(**وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ**) أي: لكم إذا رجعتم إليهم .

(**لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ**) أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم .

(**يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ**) أي : بهذا الحلف الذي يريدون به حياتها لأنهم كذبوا فيه فانتهكوا حرمة اسم الله .

- وهذا يدل على أن الأيمان الكاذبة توجب الهلاك .

(**وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) في قولهم ما كنا نستطيع الخروج ، فإنهم كانوا مستطيعين الخروج.

الفوائد :

١- أن المنافق قليل الإيمان بالغيب .

٢- أن المنافق لا يريد من عمله الصالح إلا غرضاً دنيوياً .

٣- أن المنافق لا ينصر الدين .

٤- خطر فتنة الدنيا ونسيان الآخرة والعمل لها .

٥- من صفات المنافقين الحلف بالله كذباً .

٦- أن المنافق يعتذر عن كل أمر فيه نصرة للدين .

٧- أن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها .

- **قال ابن عاشور** : وفي هذه الآية دلالة على أنّ تعمد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك ، ويؤيّده ما رواه البخاري في كتاب الديات من خبر الهذليين الذين حلفوا أيمان القسامة في زمن عُمر ، وتعمّدوا الكذب ، فأصابهم مطر فدخلوا غاراً في جبل فانهجم عَليهم الغار فماتوا جميعاً.

(عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)) .

[التوبة : ٤٣- ٤٥] .

(**عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ**) وذلك أن بعض المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ بالتخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر ، فأذن لهم رسول الله ﷺ .

- **قال ابن عطية** : هذه الآية في صنف مبالغ في النفاق واستأذنوا دون اعتذار ، منهم عبد الله بن أبيّ والجد بن قيس ورفاعة بن التابوت ومن اتبعهم فقال بعضهم إيذن لي ولا تفتني وقال بعضهم إيذن لنا في الإقامة فأذن لهم رسول الله ﷺ استيفاء منه ﷺ ، وأخذاً بالأسهل من الأمور وتوكلاً على الله .

وقال مجاهد إن بعضهم قال نستأذنه فإن أذن في القعود قعدنا وإلا قعدنا فنزلت الآية في ذلك.

وقالت فرقة : إن رسول ﷺ ، أذن لهم دون أن يؤمر بذلك فعفي عنه ما يلحق من هذا ، وقدم له ذكر العفو

قبل العتاب إكراماً له ﷺ .

- وهذا عتاب لطيف من اللطيف الخبير سبحانه لحبيبه ﷺ على ترك الأولى وهو التوقف عن الاذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال .
- **قال ابن عاشور** : وافتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم ، ولطافة شريفة ، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعِتاب.

وفي هذا الافتتاح كناية عن خفّة موجِب العتاب لأنّه بمنزلة أن يقال : ما كان ينبغي ، وتسمية الصفح عن ذلك عَفْواً ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة : حسنات الأبرار سيّئاتُ المقرَّبين.

(**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا**) أي: في إبداء الأعذار .

(**وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**) يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنوك، فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو [وإن لم تأذن لهم فيه. ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو] أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال:

(**لا يَسْتَأْذِنُكَ**) أي: في القعود عن الغزو .

(**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**) نفي عن المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ، في التخلف دون عذر كما فعل الصنف المذكور من المنافقين .

لأن أولئك يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا. .

وكان الخلص من المهاجرين والأنصار لا يستأذنون النبي ﷺ أبداً ، ويقولون : لنجاهدن معه بأموالنا وأنفسنا.

- **قال ابن الجوزي** : قال ابن عباس : هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا في القعود.

قال الزجاج : أعلم الله عز وجل نبيَّه ﷺ أنَّ علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان.

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**) الذين يتقون الله سراً وعلانية .

(**إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ**) أي: في القعود ممن لا عذر له .

(**الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**) أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم .

- **قال أبو السعود** : تخصيصُ الإيمان بهما في الموضعين للإيذان بأن الباعثَ على الجهاد ببذل النفسِ والمالِ إنما هو الإيمانُ بهما إذ به يتسنى للمؤمنين استبدالُ الحياةِ الأبدية والنعيمِ المقيمِ الخالدِ بالحياة الفانية والمتاعِ الكاسد .
- **وقال الآلوسي** : وتخصيص الإيمان بهما في الموضعين للايذان بأن الباعث على الجهاد والمانع عنه الإيمان بهما وعدم الإيمان بهما فمن آمن بهما قاتل في سبيل دينه وتوحيده وهان عليه القتل فيه لما يرجوه في اليوم الآخر من النعيم المقيم ومن لم يؤمن بمعزل عن ذلك ، على أن الإيمان بهما مستلزم للإيمان بسائر ما يجب الإيمان به .

(**وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ**) أي: شكت في صحة ما جئتهم به .

- **قال الآلوسي** : ولعلّ أعظم ارتيابهم كان في عاقبة غزوة تبوك لأنّهم لكفرهم ما كانوا يقدّرون أنّ المسلمين

يغلبون الروم ، هذا هو الوجه في تفسير قوله (وارتابت قلوبهم) .

(**فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**) أي: يتحيرون، يُقَدِّمُون رجلا ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هَلْكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا.

الفوائد :

١- اعلم أن في تصديره تعالى فاتحة الخطاب ببشارة العفو ، دون ما يوهم العتاب ، من مراعاة جانبه ﷺ ، وتعهده بحسن المفاوضة ، ولطف المراجعة ما لا يخفى على أولي الألباب .

قال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف : بدأ بالعفو قبل ذلك المعفوّ .

٢- مكانة النبي ﷺ الرفيعة عند ربه .

٣- أن من حكم شرعية الجهاد أن يتبين الصادق من الكاذب .

٤- عند المحن والشدائد يظهر الصادق من الكاذب .

٥- أن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الحوافز للعمل الصالح .

٦- أنه كلما ضعف إيمان العبد باليوم الآخر ضعف عمله وتقواه .

٧- أن الجهاد في سبيل الله من أعلى علامات الإيمان الصادق .

٨-قال الرازي : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأني ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة في التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحق من التقريب أو الإبعاد .

(وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)) .

[التوبة : ٤٦- ٤٧] .

(**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ**) أي: معك إلى الغزو .

(**لأعَدُّوا لَهُ عُدَّةً**) أي: لكانوا تأهبوا له .

- المعنى : ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك – يا محمد – إلى تبوك لأعدوا لهذا الخروج عدته اللازمة له من الزاد والراحلة ، وغير ذلك من الأشياء التي لا يستغنى عنها المجاهد في سفره الطويل ، والتي كانت في مقدورهم وطاقتهم.

(**وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ**) أي: أبغض أن يخرجوا معك قَدرًا .

- لأن الله تعالى كره خروجهم معك ، فحبسهم عنه ، لما يعلمه سبحانه من نفاقهم وقبح نواياهم ، وإشاعتهم للسوء في صفوف المؤمنين.

(**فَثَبَّطَهُمْ**) أي: أخرهم ، من التثبيط : وهو رد الإنسان عن الفعل الذي هم به عن طريق تعويقه عنه ومنعه منه.

(**وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ**) تذييل المقصود منه ذمهم ووصفهم بالجبن الخالع ، والهمة الساقطة ، لأنهم بقعودهم هذا سيكونون مع النساء والصبيان والمرضى والمستضعفين الذين لا قدرة لهم على خوض المعارك والحروب.

- **قال ابن عاشور** : القعود : مستعمل في ترك الغزو تشبيهاً للترك بالجلوس.

والقول : الذي في (وقيل اقعدوا) قول أمر التكوين : أي كُوّن فيهم القعود عن الغزو.

وزيادة قوله (مع القاعدين) مذمّة لهم : لأنّ القاعدين هم الذين شأنهم القعود عن الغزو ، وهم الضعفاء من صبيان ونساء كالعُمي والزمنى. أ هـ

- ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين ، وهي إرادة الله سلامة المسلمين من أضرار وجود هؤلاء بينهم ، لأنّهم كانوا يضمرون المكر للمسلمين فيخرجون مرغمين ، ولا فائدة في جيش يغزو بدون اعتقاد أنّه على الحقّ .

(**لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا**) أي: لأنهم جبناء مخذولون .

- **قال القرطبي** : هو تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم ، والخبال : الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف.

وهذا استثناء منقطع ؛ أي ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال .

والمعنى : أي : لو خرج هؤلاء المنافقون معكم أيها المؤمنون إلى تبوك ما زادوكم شيئاً من الأشياء إلا اضطرابا في الرأي وفساداً في العمل ، وضعفاً في القتال ، لأن هذا هو شأن النفوس المريضة التي تكره لكم الخير ، وتحب لكم الشر.

- **قال الرازي** : واعلم أن حاصل الكلام هو أنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً ، والخبال هو الإفساد الذي يوجب اختلاف الرأي وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب لأن عند حصول الاختلاف في الرأي يحصل الانهزام والانكسار على أسهل الوجوه.

(**وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ**) أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة .

المعنى : أي لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا شرا وفسادا ، ولأسرعوا بينكم بالإشاعات الكاذبة ، والأقوال الخبيثة ، حال كونهم باغين وطالبين لكم الافتتان في دينكم ، والتشكيك في صحة عقائدكم ، والتثبيط عن القتال ، والتخويف من قوة أعدائكم ، ونشر الفرقة في صفوفكم.

- **قال ابن عاشور** : وهو هنا تمثيل لحالة المنافقين حين يبذلون جهدهم لإيقاع التخاذل والخوف بين رجال الجيش ، وإلقاء الأخبار الكاذبة عن قوّة العدوّ ، بحال من يُجهد بعيره بالسير لإبلاغ خبر مهمّ أو إيصال تجارة لسوق ، وقريب من هذا التمثيل قوله تعالى (فجاسوا خلال الديار) وقوله (وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان) .

- قوله تعالى (وَلأَوْضَعُوا) الإيضاع كما يقول القرطبي. سرعة السير قال الراجز.

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع .

يقال : وضع البعير. إذا أسرع في السير ، وأوضعته. حملته على العدو .
والخلل الفرجة بين الشيئين.
فالمراد بالفتنة هنا : كل ما يؤدى إلى ضعف المسلمين في دينهم أو في دنياهم.
(**وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ**) أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.
وقال مجاهد، وزيد بن أسلم، وابن جرير (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَفِيكُمْ سماعون لَهُمْ) فيه قولان :

الأول : المراد : فيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم .
وهذا قول مجاهد وابن زيد.
والثاني : قال قتادة : فيكم من يسمع كلامهم ويقبل قولهم ، فإذا ألقوا إليهم أنواعاً من الكلمات الموجبة لضعف القلب قبلوها وفتروا بسببها عن القيام بأمر الجهاد كما ينبغي.

- **قال ابن عاشور** : وقال قتادة وجهور المفسّرين : معناه وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم
- **قال ابن عاشور** : وهذه الجملة اعتراض للتنبيه على أنّ بغيهم الفتنةَ أشدّ خطراً على المسلمين لأنّ في المسلمين فريقاً تنطلي عليهم حيلهم ، وهؤلاء هم سذج المسلمين الذين يعجبون من أخبارهم ويتأثّرون ولا يبلُغون إلى تمييز التمويهات والمكائد عن الصدق والحقّ.
- وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وضحت أن هناك ثلاث مفاسد كانت ستترتب على خروج هؤلاء المنافقين مع المؤمنين إلى تبوك.

أما المفسدة الأولى : فهي زيادة الاضطراب والفوضى في صفوف المجاهدين.
وأما المفسدة الثانية : فهي الإسراع بينهم بالوشايات والنمائم والإشاعات الكاذبة.
وأما المفسدة الثالثة : فهي الحرص على تفريق كلمتهم ، وتشكيكهم في عقيدتهم.
وهذه المفاسد الثلاث ما وجدت في جيش إلا وأدت إلى انهزامه وفشله. (التفسير الوسيط) .
(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**) تهديد لكل ظالم ، وأعظم الظلم الشرك بالله ، لأنه وضع للعبادة في غير موضعها .

- لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه , والمشرك ظالم , لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده , وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر .

كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم ...) .
وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ) قال : بشرك , ثم تلا قول لقمان (إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيم) .
وقال تعالى (وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) .

◆ الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الشرك .

وهو أعظم الظلم وأشده .

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي : من المشركين .

قال ابن رجب : فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق , فعبده وتألهه , فوضع الأشياء في غير موضعها , وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين , إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

والثاني : ظلم العبد نفسه بالمعاصي .

كما قال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث : ظلم العبد لغيره .

كما في الحديث (قال الله تعالى : إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم .

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام, كحرمة يومكم هذا, في شهركم هذا, في بلدكم هذا) متفق عليه .

وعن ابن عمر . قال : قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه .

الفوائد :

١-أن للإمام أن يمنع من يتهم بمضرة المسلمين من الخروج للجهاد حماية لهم من شروره ومفاسده.

٢-أن إعداد العدة للجهاد أمر واجب ، وقد قال – تعالى – في آية أخرى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة) .

٣--أن عدة الحرب ، من الكُراع والسلاح وجميع ما يستعان به على العدوّ ، من جملة الجهاد .

٤- أن خبث النية سبب لعدم التوفيق وخذلان الله للعبد .

٥- أن التكاسل عن الطاعات عقوبة من الله .

٦-أن التوفيق للطاعات وتيسيرها من توفيق الله لعبده .

٧-ذم القعود عن الجهاد .

٨- ذم المنافقين وتكاسلهم عن كل أمر فيه نصرة للدين .

٩- خطر المنافقين ، وأنه يسعون في تدمير المجتمع المسلم وتفكيكه .

١٠- وجوب الحذر وأخذ الحيطة من المنافقين .

١١- أن بعض المسلمين قد يسمع لكلام المنافقين وينخدع به ويعجب به .

١٢- علم الله الواسع ، وأنه يعلم الذي لن يقع لو وقع كيف يقع .

ولهذا قال تعالى (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا) فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

وقال تعالى (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) .

(**لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)**) .

[التوبة : ٤٦- ٤٨] .

لَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ (جلَّ وعلا) للنبيِّ والمسلمينَ أنه ثَبَّطَ عنهم عظماءَ المنافقينَ للمصلحةِ، وأنهم لو خَرَجُوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، أي: فسادًا ومشيًا بالنميمةِ وتثبيطًا وإلقاءً للأراجيفِ، بَيَّنَ أن هذا الذي ينطوي عليه المنافقونَ من الشرِّ كان موجودًا فيهم قبلَ ذلك، قبل أن يُنْزِلَ القرآنَ في شأنِهم وأن تَطَّلِعُوا عليهم؛ لأن عظماءَ المنافقينَ بالمدينةِ كعبدِ اللَّهِ بن أُبَيِّ بنِ سلولَ، والجدِّ بنِ قيسٍ أخي بني سلمةَ، عندما جاء رسولُ اللَّهِ ﷺ المدينةَ وَآمَنَ الأنصارُ شَقَّ ذلك عليهم وَعَظُمَ، وَأَبَوْا أن يؤمنوا، وصاروا يفكرونَ في الحالةِ التي يبطلونَ بها دعوةَ دينِ الإسلامِ ويخرجوا النبيَّ ﷺ ويمنعونَ الناسَ من الإيمانِ، فلما جاءت غزوةُ بدرٍ عرفوا قوةَ المسلمينَ. قال لهم ابنُ أُبَيٍّ: هذا أَمْرٌ مُستَقبِلٌ فَآمِنُوا ظاهرًا . وَهُمْ في الباطنِ يتربصونَ بهم الدوائرَ، يُجِيلُونَ أفكارَهم في الحالةِ التي يَضُرُّونَهُمْ بها.

(**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ**) أي : طلبوا لكم الفتنةَ قبلَ هذا من رَدِّ الناسِ عن الدينِ، وإبطالِ الدينِ، وعدمِ اتباعِ النبيِّ ﷺ، والإفسادِ بينَ المسلمينَ.

- **قال ابن عطية** : ومعنى قوله (من قبل) ما كان من حالهم من وقت هجرة رسول الله ﷺ ورجوعهم عنه في أحد وغيرها .

(**وَقَلَّبُوا لَكَ الأمُورَ**) العربُ تقولُ: قَلَّبَ الأمورَ، وَقَلَّبَ الأمرَ. معناه: أن يتفكر بدقةٍ ويدبِّر في الأمور ويقلبَها وَجْهًا إلى ظَهْرٍ، وظهرًا إلى وجهٍ ليتأملَ في الحالةِ التي يحصِّل بها مقصودَه. فمعنَى قَلَّبُوا الأمورَ: أَجَالُوا الأفكارَ ونظروا في الدهرِ جنبًا إلى جنبٍ من هذا الأمر إلى هذا، واحتمال هذا وهذا لِيَصِلُوا بذلك إلى رَدِّ الناس عن النبيِّ ﷺ، والقعودِ في وجهِ الدعوةِ إلى الله (جلَّ وعلا)،

- **قال ابن كثير** : أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخمادهِ مدة طويلة ، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا في الإسلام ظاهرًا .

(**حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ**) وهو نصرُ اللهِ لنبيِّه بدينِ الإسلامِ، وقتلِ صناديدِ قريشٍ يومَ بَدْرٍ.

(**وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ**) أي : غَلَبَ دينُ اللَّهِ وظهرَ انتصارُه واستقبالُه، فعند ذلك أَسْلَمُوا إسلامًا غيرَ حقيقيٍّ، وهم

يتربصونَ الدوائرَ بالمؤمنينَ في باطنِهم.

(**وَهُمْ كَارِهُونَ**) أي : الحالُ هم كارهونَ – قبحهم اللَّهُ – لأن كُلَّ ما ينالُه المسلمونَ من نصرٍ وفتحٍ وخيرٍ يكرهونَه ويسوؤهم، وكلّ ما جاءهم من شَرٍّ يفرحونَ به، وهذه عادةُ الكفارِ، لاَ يزالونَ يحاولونَ رَدَّ المؤمنينَ عن الدينِ حتى يُقَنّطَهُمُ اللَّهُ من ذلك، كما قال اللَّهُ في الكفارِ (وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) وَبَيَّنَ أنهم لم يستطيعوا في قوله: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ) كذلك المنافقونَ كانوا يطمعونَ في ضياعِ الدعوةِ، وأن النبيَّ ﷺ يضمحلُ أمرُه حتى جاء الحقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارهونَ ذلك – قبحهم الله – وهذه من خسائسِ المنافقينَ يُظْهِرُهَا اللَّهُ لنبيه ﷺ، وَمِنْ أسماءِ هذه السورةِ العظيمةِ: (الفاضحةُ) لأنها فَضَحَتْ أسرارَ المنافقينَ كما تَقَدَّمَ، وسيأتي فيها كثيرًا.

الفوائد :

١- خطر المنافقين الشديد .

٢- على كل مسلم أن يحذر ويُحَذِّر من المنافقين .

٣- جهل البعض ممن يعمل بالدعوة وتوجيه الناس في عدم تحدثه وكلامه عن المنافقين في المجتمع وخطرهم .

٤- خطر المنافقين مُنْصب في حرب الإسلام وأهله ، وبث الشبه والافتراءات على الإسلام .

٥- خطر مشاهدة القنوات المنافقة التي تبث كل ما يشكك في دين الله .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)) .

[التوبة : ٤٩] .

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ**) يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد:

(**ائْذَنْ لِي**) في القعود

(**وَلا تَفْتِنِّي**) بالخروج معك، بسبب الجواري من نساء الروم .

- **قال الشنقيطي** : أي: ائْذَنْ لي في القعودِ ولا تُكَلِّفْنِي بالشخوصِ إلى غزوةِ تبوكَ. وهذه الآيةُ نَزَلَتْ في الجدِّ بنِ قيسٍ الخبيثِ المنافقِ أخِي بَنِي سلمةَ، كان رجلاً سَيِّدًا فيهم، وَلَمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ قال لِبَنِي سلمةَ: مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سلمةَ؟ قالوا: الجدُّ بنُ قَيْسٍ على أَنَّا نُبَخِّلُهُ؛ لأنه بخيلٌ لا يجودُ بالمالِ. فقال: وَأَيُّ داءٍ أدوأُ من البخلِ؟ إنما سيدُكم هذا الشابُّ الأبيضُ الجعدُ ، يعني بشرَ بنَ البراءِ بنِ معرورٍ.

وجمهورُ العلماءِ يقولون: هي في الجَدُّ بنُ قيسٍ، وهو عذرُ نفاقٍ لا شَكَّ فيه، وهو لاَ عذرَ له، وإنما يتلمسُ الأعذارَ الكاذبةَ ليجلسَ، قَبَّحَهُ اللَّهُ.

(**أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا**) أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا .

- **قال ابن تيمية** : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) يَقُولُ نَفْسُ إعْرَاضِهِ عَنْ الْجِهَادِ الْوَاجِبِ وَنُكُولِهِ عَنْهُ وَضَعْفِ إيمَانِهِ وَمَرَضِ قَلْبِهِ الَّذِي زَيَّنَ لَهُ تَرْكَ الْجِهَادِ: فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ سَقَطَ فِيهَا ، فَكَيْفَ يَطْلُبُ التَّخَلُّصَ مِنْ فِتْنَةٍ صَغِيرَةٍ لَمْ تُصِبْهُ بِوُقُوعِهِ فِي فِتْنَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ أَصَابَتْهُ؟ وَاَللَّهُ يَقُولُ (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ

الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) فَمَنْ تَرَكَ الْقِتَالَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ لِئَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ: فَهُوَ فِي الْفِتْنَةِ سَاقِطٌ بِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ رَيْبِ قَلْبِهِ وَمَرَضِ فُؤَادِهِ وَتَرْكِهِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْجِهَادِ. فَتَدَبَّرْ هَذَا .

- **وقال ابن كثير** : إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم .
- **وقال السعدي** : إنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، فإن في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظمى محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجرؤ على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص.
- وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلِمَة ، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لهم: من سيدكم يا بني سلمة ؟ قالوا: الجد بنُ قيس، على أنا نُبَخِّله فقال رسول الله ﷺ : وأي داء أدوأ من البخل، ولكن سَيِّدكم الفتى الأبيض الجَعْد بِشْر بن البراء بن مَعْرُور .

(**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**) لأنها تُهْلِكُهُمْ وتغشاهم فتحتوي عليهم من جميعِ الجهاتِ، وتُغَلَّقُ أبوابُها عليهم، وُيضَيَّق عليهم فيها كما بَيَّنَ تعالى ذلك في آياتٍ كثيرةٍ، .

قال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وقولُه تعالى في الكهفِ (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ) .

وقال تعالى (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ) .

وقال تعالى (لَهُم مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الدالةِ .

الفوائد

١- فضح الله للمنافقين وكذبهم .

٢- من صفات المنافقين التقاعس عن الجهاد ونصرة دين الله .

٣- ذم الجبن ، وأنه من صفات المنافقين .

٤- أن أهل النفاق يعتذرون عن نصرة دين الله وعن الجهاد بأعذار كاذبة .

٥- أن المنافق يعتذر بأعذار يوهم غيره أنه صادق ويريد الحق .

٦- أن المنافقين دائماً وأبداً في مقدمة من يخذل دين الله .

٧-في هذه الآيةِ الكريمةِ وعيدٌ شديدٌ للمنافقين .

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)) .

[التوبة : ٥٠-٥١] .

يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له ، واستمرار في فضح أسرار المنافقين لنبيه ﷺ .

(**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ**) أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه .

(**تَسُؤْهُمْ**) ساءهم ذلك .

- لأن العدوَّ الشديدَ العداوةِ يسوؤه ما ينال عدوَّه من الخيرِ، معناه: إن غَزَوْتُمْ وَنَصَرَكُمُ اللَّهُ وغلبتُم وظفرتُم ساءهم ذلك وحزنوا من أجلِه

(**وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ**) كأن يُقْتَلَ قومُك، أو لا يُنْصَرُوا، أو يأتيَك شيءٌ يؤذيك ويؤذي قومَك

يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ } أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا .

- **قال الشنقيطي** : نحن خِفْنَا من هذا وَأَخَذْنَا لأنفسِنا بالاحتياطِ فَاسْتَأْذَنَّا حتى جَلَسْنَا وَسَلِمْنَا من تلك البلايا التي نالتهم من القتلِ والجراحِ .

(**وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ**) مسروروں من جهتين :

أنكم أصابكم ذلك السوءُ، وأنهم هم ما كانوا معكم – سَلِمُوا منه .

- فأرشد الله تعالى رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال:

(**قُلْ**) أي: لهم .

(**لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**) أي : لن يصيبَنا أَذًى من الأَذَى لا قتل ولا جراح ولا مصيبة كائنة ما كانت إلا ما كَتَبَهُ لنا ربُّنا في أَزَلِهِ.

- **قال الشنقيطي** : وقد أَوْضَحَ اللَّهُ لنا في سورةِ الحديدِ أن جميعَ المصائبِ وجميعَ الأمورِ لاَ يصيبُ الإنسانَ منها إلا شيءٌ كان مُقَدَّرًا قبل أن يَخْلُقَ الخلقَ، وقبلَ أن توجدَ المصيبةُ، وربُّنا يقولُ لنا في آيةِ الحديدِ الآتيةِ ما معناه: بَيَّنْتُ لكم أن جميعَ الأمورِ كتبتُها وحسمتُها عندي لِتَتَحَصَّلُوا على أَمْرَيْنِ:

أحدُهما: أن لا تَفْرَحُوا بشيءٍ أَتَاكُمْ فإنه آتِيكُمْ لاَ محالةَ، ولا تَحْزَنُوا على شيءٍ فَاتَكُمْ لأنه فائتٌ لا محالةَ، وهذا نَصَّ عليه تعالى بقولِه (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا) أي: أن نَخْلُقَهَا (إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) إنما بَيَّنَّا لكم هذا القَدَرَ السابقَ الأَزَلِيَّ (لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ) لاَ تَحْزَنُوا على شيءٍ فاتكم فهو فائتٌ لا محالةَ؛ لأن اللَّهَ كَتَبَ ذلك وَقَدَّرَهُ (وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) فهو آتٍ لاَ محالةَ.

(**هُوَ مَوْلانَا**) أي: سيدنا وملجؤنا .

(**وَعَلَى اللَّهِ**) وحده .

(**فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**) أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

- والتوكل على الله له فضائل :

أولاً : أنه سبب لدخول الجنة .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال ﷺ (... يدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ... وعلى ربهم يتوكلون) .

وقال ﷺ (يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير) .

حكى النووي في هذا الحديث : أن المراد بهؤلاء القوم هم المتوكلون .

ثانياً : أهل التوكل هم أهل محبة الله عز وجل .

قال تعالى (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين) .

ثالثاً : التوكل من شيم أنبياء الله ورسله وأوليائه .

قال تعالى في نوح (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ).

وقال تعالى عن هود (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

رابعاً : أهل التوكل هم أهل الإيمان .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أي : وعلى الله وحده فليعتمد ولْيثق المؤمنون .

قال ابن القيم : فجعل التوكل شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وكلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد .

خامساً : التوكل على الله مجلبة للرزق .

عن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)

سادساً : المتوكلون ليس عليهم للشيطان سبيل .

قال تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

سابعاً : المتوكلون الله حسبهم وكافيهم .

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً، وكفاه ونصره . (بدائع الفوائد)

ثامناً : أهل التوكل على الله هم أهل العزة والاستعلاء .

قال تعالى (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

- والتوكل لا ينافي فعل الأسباب .

قال تعالى (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) مع أنه تعالى لو أراد أسقطه لها بدون هز منها .

ومن أوضح الأدلة قول يعقوب (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

(يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ) محافظة عليهم من العين ثم قال (وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

فقد أخذ بالسبب والحيطة ، وصرح بان الاعتماد على الله وحده .

قال ابن القيم أيضاً : فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له ، يكون توكلك عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله .

التحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

قال شيخ الإسلام : وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك ، قال تعالى (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

وقال : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

وقال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه .

وقال ابن القيم – رحمه الله –ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته لأزاله .

قيل لحاتم الأصم : على ما بنيت أمرك في التوكل ؟ قال : على خصال أربعة :

علمت أن رزقي لا يأكله غيري ... فاطمأنت به نفسي .   وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ... فأنا مشغول به .

وعلمت أن الموت يأتي بغتة ... فأنا أبادره .   وعلمت أني لا أخلو من عين الله ... فأنا مستحيٍ منه .

قال بعض العلماء لا تتكلن على غير الله فيكلك الله إلى من اتكلت عليه .

قال منصور بن عمار : قلوب المتوكلين أوعية الرضا .

وقال بعضهم : علامة التوكل انقطاع المطامع : أي في الخلق والأسباب .

وقال آخر : التوكل إسقاط رؤية الوسائط والتعلق بأعلى العلائق .

ومنها: أن الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس له: أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين؛ لقول شعيب: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) .

الفوائد :

١- بيان شيء من حقد وبغض المنافقين للإسلام وأهله .

٢- خطر المنافقين على المجتمعات المسلمة .

٣-يجب بغض المنافقين والغلظة عليهم .

٤- أنه لا يقع شيء بالكون إلا وهو مكتوب عند الله .

٥- أن من أعظم علامات اطمئنان القلب وسكونه يقينه بأن كل شيء يقع مكتوب .

٦- من تيقن أن كل شيء يحدث بالكون مكتوب ، فإنه الدنيا تهون عليه ، ولا تعظم بقلبه .

٧-وجوب التوكل على الله .

٨- أن من أعظم علامات الإيمان التوكل على الله .

٩- أنه كلما قوي إيمان العبد قوي توكله على ربه ، وكلما ضعف إيمانه ضعف توكله بربه .

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢))

[التوبة : ٥٢] .

يرد الله تعالى بهذه الآية على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين، ويفرح إن أصابتهم مصيبة، فيأتي قول الحق سبحانه ليوضح : إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال :

(**قُلْ**) لهم يا محمد .

(**هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا**) أي: تنتظرون بنا .

- **قال أبو السعود** : التربُّصُ التمكّثُ مع انتظار مجيءِ شيءٍ خيراً كان أو شراً .

(**إلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**) شهادَة ، أو ظَفَرٌ بكم ، وغنيمة .

- **قال أبو حيان** : أي ما ينتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين ، كل واحدة منهما هي الحسنى من العواقب : إما النصرة ، وإما الشهادة.

أي : إما النصر والفتح مع الأجر الكبير ، وإمّا القتل والشهادة وفيه الفوز الكبير.

- وذلك أن المسلم إذا ذهب إلى الغزو والجهاد في سبيل الله إما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة والأجر العظيم في الآخرة وإما أن يقتل في سبيل الله فتحصل له الشهادة وهي الغاية القصوى ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال (تكفل الله وفي رواية تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة) .
- **قال الماوردي** : قوله تعالى (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ) يعني النصر أو الشهادة وكلاهما حسنة لأن في النصر ظهور الدين ، وفي الشهادة الجنة.
- **قال ابن عطية** : فالمعنى في هذه الآية الرد على المنافقين في معتقدهم في المؤمنين، وإزالة ظنهم أن المؤمنين تنزل بهم مصائب، والإعلام بأنها حسنى كيف تصرفت .
- **قال الرازي** : اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن فرح المنافقين بمصائب المؤمنين ، وذلك لأن المسلم إذا ذهب إلى الغزو ، فإن صار مغلوباً مقتولاً فاز بالاسم الحسن في الدنيا والثواب العظيم الذي أعده الله للشهداء في الآخرة ، وإن صار غالباً فاز في الدنيا بالمال الحلال والاسم الجميل ، وهي الرجولية والشوكة والقوة ، وفي الآخرة بالثواب العظيم.

(**وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا** })أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما أن يصيبكم الله بقارعة من عنده أو بأيدينا، بسبي أو بقتل .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ) أي : عقوبة تهلككم ؛ كما أصاب الأمم الخالية من قبلكم

(أَوْ بِأَيْدِينَا) أي يؤذن لنا في قتالكم.

- **قال ابن عاشور** : والمعنى لا تنتظرون من حالنا إلاّ حسنة عاجلة أو حسنة آجلة ، فأمّا نحن فننتظر من حالكم أن يعذبكم الله في الآخرة بعذاب النار ، أو في الدنيا بعذاب على غير أيدينا من عذاب الله في الدنيا : كالجوع والخوف ، أو بعذابٍ بأيدينا ، وهو عذاب القتل ، إذا أذن الله بحربكم ، كما في قوله (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم) .

(**فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ**) وعيد وتهديد.

قال الحسن : فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه.

الفوائد :

١-فضل الجهاد في سبيل الله ، لأنه إما نصر وإما شهادة .

٢-فضل الإسلام وأحكامه .

٣- فضل الشهادة في سبيل الله ، فهذه الآية من أعظم فضائل الشهادة في سبيل الله .

٤- الحث الأكيد الدائم على جهاد الأعـــداء .

٥-تشجيع وتحفيز المسلمين على قتال الأعداء .

٦-تهديد لكل كافر محارب لله تعالى ، إما يعذبه الله بعقاب من عنده ، أو يسلط المسلم عليه .

قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)) .

[التوبة : ٥٣-٥٤] .

(**قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا**) أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين

(**لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ**) النفقة .

- **قال ابن عطية** : سببها : أن الجد بن قيس حين قال (ائذن لي ولا تفتني) قال إني أعينك بمال فنزلت هذه الآية فيه وهي عامة بعده ، والطوع والكره يعمان كل إنفاق .
- **قال ابن عاشور** : وكأنّهم قالوا ذلك مع شدّة شُحّهم لأنّهم ظنّوا أنّ ذلك يرضي النبي ﷺ عن قعودهم عن الجهاد.

(**إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ**) والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) .

- **قال ابن عاشور** : والمراد بالفاسقين : الكافرون ، ولذلك أعقب بقوله (وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنّهم كفروا بالله وبرسوله) .

وإنّما اختير وصف الفاسقين دون الكافرين لأنّهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، فكانوا كالمائِلين عن الإسلام إلى الكفر.

والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاع بما بذلوه من أموالهم ، فلعلّهم كانوا يحسبون أنّ الإنفاق في الغزو ينفعهم على تقدير صدق دعوة الرسول ﷺ وهذا من شكّهم في أمر الدين ، فتوهّموا أنّهم يعملون أعمالاً تنفع المسلمين يجدونها عند الحشر على فرض ظهور صدق الرسول.

(**وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ**) التي ينفقونها .

(**إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ**) أي: قد كفروا والأعمال إنما تصح بالإيمان .

فالإيمان شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان، فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به.

- فالإيمان شرط لقبول الأعمال وصحتها .

كما في هذه الآية .

وكما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) .

وقال تعالى (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَاب) .

- فأعمال الكافر مردودة غير مقبولة .

قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) .

وقال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) .

- **قال ابن عطية** : فاختصار القول في ذلك أن في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال (إن ثواب الكافر على أفعاله البرة هو في الطعمة يطعمها) ونحو ذلك ، فهذا مقنع لا يحتاج معه إلى نظر .

وأما ينتفع بها في الآخرة فلا ، دليل ذلك أن عائشة أم المؤمنين قالت للنبي ﷺ يا رسول الله : أرأيت عبد الله بن جدعان أينفعه ما كان يطعم ويصنع من خير فقال : " لا إنه لم يقل يوماً ، رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين .

(**وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى**) جمع كسلان ، يعني متثاقلين في الإتيان إلى الصلاة وذلك لأنهم لا يرجون على فعلها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً فلذلك ذمهم مع فعلها .

كما قال سبحانه (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً) .

- وهذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، كما قال تعالى (وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ).

وقال ﷺ (أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً) .

- **قال الرازي** : يعني وإذا قاموا إلى الصلاة مع المسلمين قاموا كسالى، أي متثاقلين متباطئين وهو معنى الكسل في اللغة، وسبب ذلك الكسل: أنهم يستثقلونها في الحال ولا يرجون بها ثواباً ولا من تركها عقاباً، فكان الداعي للترك قوياً من هذه الوجوه، والداعي إلى الفعل ليس إلا خوف الناس، والداعي إلى الفعل متى كان كذلك وقع الفعل على وجه الكسل والفتور.
- قال ﷺ ذاماً لمن أخّر الصلاة (تلك صلاة المنافقين ثلاثاً يجلس أحدهم يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان أو على قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً) .
- **قال ابن عاشور** : والكسل في الصلاة مؤذن بقلّة اكتراث المصلّي بها وزهده في فعلها .
- فالكسل في الطاعة من صفات المنافقين، لأنهم لا يؤمنون بما عند الله، ولذلك قال ﷺ (.. ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ..) ولذلك استعاذ النبي ﷺ منه كما في حديث أنس أنه ﷺ كان يقول (اللهم إني أعوذ بك من الكسل والعجز).
- **قال أبو حيان** : وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما الصلاة والنفقة ، واكتفى بهما وإن كانوا أفسد حالاً في سائر أعمال البر ، لأنّ الصلاة أشرف الأعمال البدنية ، والنفقة في سبيل الله أشرف

الأعمال المالية ، وهما وصفان المطلوب إظهارهما في الإسلام ، ويستدل بهما على الإيمان ، وتعداد القبائح يزيد الموصوف بها ذماً وتقبيحاً.

(**وَلا يُنْفِقُونَ**) نفقة .

(**إِلا وَهُمْ كَارِهُون**) لأنهم لا يرجون ثواباً .

- فالإمساك وعدم الإنفاق من أعظم المنافقين .

قال تعالى (والْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

الفوائد :

١-أن من شروط قبول العمل الصالح الإيمان .

٢- أن الكافر لا يقبل منه عمل .

٣-الحذر من التكاسل في أداء الطاعات وخاصة الصلاة ، لأن ذلك من صفات المنافقين .

٤- المسلم – لإيمانه بالله وبوعده – يكون نشيطاً في طاعاته وعباداته .

٥- أنه كلما قوي إيمان العبد بلقاء الله وبما عند الله كان أنشط في أمور طاعاته .

٦- على المسلم أن يدعو الله دائماً وأبداً أن يعيذه من العجز والكسل .

٧- من علامات المنافق الإمساك وعدم الإنفاق لشحه وقلة يقينه بوعد الله .

٨- المسلم الحق يكون حريصاً على الإنفاق في سبيل الله ، لأنه يؤمن بوعد الله ويثق بما عند الله .

٩- على المسلم أن تكون نفسه طيبة عند أداء الزكاة والإنفاق في سبيل الله ، لأن الله تعالى ذم المنافقين بكراهتهم الإنفاق ، وهذا معنى قوله ﷺ (أدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم) فإن أداها وهو كاره لذلك كان من علامات النفاق .

(فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)) .

[التوبة : ٥٥] .

يقول تعالى لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه :

(**فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ**) هذا الخطاب وإن كان مختصاً بالنبي ﷺ إلا أن المرد به جميع المؤمنين والمعنى فلا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم والإعجاب السرور بالشيء مع نوع من الافتخار به مع الاعتقاد أنه ليس لغيره مثله وهذا يدل على استغراق النفس بذلك الشيء ويكون سبب انقطاعه عن الله فينبغي للإنسان أن لا يعجب بشيء من أمور الدنيا ولذاتها فإن العبد إذا كان من الله في استدراج كثر ماله وولده فيكثر إعجابه بماله وولده فيبطر ويكفر نعم الله عليه

كما قال تعالى (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ

وَأَبْقَى) .

وقال (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ) .

- **قال أبو حيان** : وقدم الأموال على الأولاد لأنها كانت أعلق بقلوبهم ، ونفوسهم أميل إليها ، فإنهم كانوا يقتلون أولادهم خشية ذهاب أموالهم.

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) اختلف في وجه التعذيب :

فقيل : بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله.

وهذا قول الحسن ، واختاره ابن جرير .

وقيل : هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها [في الآخرة .

وقيل : بالمصائب فيها .

وقيل التعب في جمعه ، والوجل في حفظه وحبه .

- **قال ابن القيم** : والصواب ، والله أعلم ، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها ، والتعب العظيم في جمعها ومقاساة أنواع المشاق في ذلك ، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه ، وهو حريص بجهده على تحصيلها. والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب ، كقوله ﷺ: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ" وقوله: "إِنَّ المَيّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ".

أي يتألم ويتوجع ، لا أنه يعاقب بأعمالهم ، وهكذا من كانت الدنيا كل همه أو أكبر همه كما قال ﷺ في الحديث الذى رواه الترمذي وغيره من حديث أنس ﷺ (مَنْ كانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ.

وَمَنْ كانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يأْتِهِ مِنَ الدُّنْيا إلا مَا قُدِّرَ لَه) ، ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل وتفرق القلوب ، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه ، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب .

- **وقال ابن عاشور** : ومعنى هذه الآية : أنّ الله كشف سرّاً من أسرار نفوس المنافقين بأنّه خلق في نفوسهم شحّاً وحرصاً على المال وفتنة بتوفيره والإشفاق من ضياعه ، فجعلهم بسبب ذلك في عناء وعذاب من جرّاء أموالهم ، فهم في كَبَد من جمعها.

وفي خوف عليها من النقصان ، وفي ألم من إنفاق ما يلجئهم الحال إلى إنفاقه منها ، فقد أراد الله تعذيبهم في الدنيا بما الشأن أن يكون سبب نعيم وراحة ، وتمّ مراده.

وهذا من أشدّ العقوبات الدنيوية وهذا شأن البخلاء وأهل الشحّ مطلقاً ، إلاّ أنّ المؤمنين منهم لهم مسلاة عن الرزايا بما يرجون من الثواب على الإنفاق أو على الصبر.

- **وقال السعدي** :والمراد بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن ، فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي -لما ألهتهم عن

الله وذكره- صارت وبالا عليهم حتى في الدنيا ، ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإرادتهم لا تتعداها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم ولا يبقى في قلوبهم للآخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا (وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) فأي عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة الملازمة.

(**وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**) أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياذا بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

الفوائد :

١-نهي المسلم أن يعجب بما عند الكفار من زينة الدنيا .

٢- أن الأموال والأولاد يجعلها الله عذاباً على الكفار .

٣-أن كثرة المال والأولاد ليس علامة لرضا الله .

قال تعالى (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) .

٤-أن الأموال والأولاد فتنة .

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧))

[التوبة : ٥٦ -٥٧] .

يخبر الله تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم

(**ويَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ**) يمينًا مؤكدة ، أنهم من جملة المسلمين .

(**وَمَا هُمْ مِنْكُمْ**) فأكذبهم الله بقوله : وما هم منكم.

(**وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ**) يخافون القتل ، فأظهروا الإيمان وأسروا النفاق ، وهو كقوله تعالى (وَإِذَا لَقُواْ الذين ءامَنُواْ قَالُوا ءامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شياطينهم قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مستهزؤون) والفرق الخوف ، ومنه يقال : رجل فروق ، وهو الشديد الخوف .

- **قال ابن عاشور** : والفَرَق : الخوف الشديد.

(**لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً**) أي: حصنا يتحصنون به، وحرزا يحترزون به .

(**أَوْ مَغَارَاتٍ**) وهي التي في الجبال .

- **قال ابن الجوزي** : مغارات : جمع مغارة ، وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان ، أي : يستتر فيه.

(**أَوْ مُدَّخَلا**) وهو السَّرَب في الأرض والنفَق. قال ذلك في الثلاثة ابنُ عباس، ومجاهد، وقتادة:

- والمعنى : أنهم لو جدوا مكاناً على أحد هذه الوجوه الثلاثة ، مع أنها شر الأمكنة (لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ) أي رجعوا إليه.

(**لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ**) أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغَمٍّ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزّ ونصر ورفعة؛ فلهذا كلما سُرّ المؤمنون ساءهم ذلك، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين .

- **قال القرطبي** : والمعنى : لو وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المذكورة لولّوْا إليه مسرعين هرباً من المسلمين .
- **وقال ابن عاشور** : والمعنى : أنهم لخوفهم من الخروج إلى الغزو لو وجدوا مكاناً مّما يختفي فيه المختفي فلا يشعر به الناس لقصدوه مسرعين خشية أن يعزم عليهم الخروج إلى الغزو .

الفوائد :

١- أن أهل النفاق أهل أيْمان كاذبة .

٢- أن المنافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر لتسلم لهم دنياهم .

٣- أن المنافق لا يبالي بكثرة الحلف ، لعدم تعظيمه لربه .

٤- أن كثرة الحلف من صفات المنافقين .

٥-بغض المنافقين للإسلام وأهله ، وأنهم لو يجدون مكاناً يختفون فيه لهربوا إليه ولا يلقون المسلمين .

(وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)) .

[التوبة : ٥٨ – ٥٩] .

(**وَمِنْهُمْ**) أي ومن المنافقين .

- **قال الرازي** : اعلم أن المقصود من هذا ، شرح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم ، وهو طعنهم في الرسول ﷺ بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء ، ويقولون إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبونه إلى أنه لا يراعى العدل .
- ذَكَرَ كثيرٌ من أهلِ العلمِ أن هذه الآيةَ نَزَلَتْ في حرقوصَ بنِ زهيرٍ ذِي الخويصرةِ التميميِّ رأسِ المنافقينَ. قالوا: وَجَدَ النبيَّ ﷺ يُقَسِّمُ مالاً فقال: يا نَبِيَّ اللَّهِ اعْدِلْ؛ فإنك لَمْ تَعْدِلْ – قَبَّحَهُ اللَّهُ – وَقِصَّةُ ذِي الخويصرةِ معروفةٌ ثابتةٌ في الصحيحِ

ولكن الذي يظهرُ أن هذه الآيةَ ليست نازلةً فيه، وإن زَعَمَ كثيرٌ من كبراءِ المفسرينَ أنها نازلةٌ في ذِي الخويصرةِ، وإنما قُلْنَا إن الأظهرَ أنها نازلةٌ في غيرِه أن المعروفَ أن القسمةَ التي قال فيها حرقوصُ بنُ زهيرٍ التميميُّ المعروفُ بذي الخويصرةِ أصلُ الخوارجِ – قَبَّحَهُ وَقَبَّحَهُمُ اللَّهُ – أن ذلك في قَسْمِ النبيِّ لغنائمِ حنينٍ، قال ذلك فيه، وهذه الآيةُ يُصَرِّحُ اللَّهُ فيها بأنهم لَمَزُوهُ في قسمِ الصدقاتِ وهي الزكواتُ والصدقاتُ غير الغنائم ، فالأظهرُ أن الأصوبَ

فيها هو ما قاله ابنُ جريجٍ (رحمه الله) وغيرُه أنها نَزَلَتْ في رجلٍ من الأنصارِ من المنافقينَ حَضَرَ النبيَّ ﷺ يُقَسِّمُ مالاً من الصدقاتِ فقال: يا نَبِيَّ اللهِ، اعْدِلْ فإنك لم تَعْدِلْ – قَبَّحَهُ اللَّهُ – فَنَزَلَتْ هذه الآيةُ فيه .

(**مَنْ يَلْمِزُكَ**) أي: يعيبك ويطعن عليك في قسمة الصدقات وغيرها من الأموال ، مأخوذ من اللمز وهو العيب ، يقول هذه قسمةٌ ما أُرِيدَ بها وجهُ اللَّهِ، ولم يُرَاعَ فيها العدلُ كما ينبغي.

(**فِي**) قَسْم .

(**الصَّدَقَاتِ**) إذا فرقتها ، زاعمين أنك لست عادلا في قسمتك.

(**فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**) بيان لفساد لمزهم وطعنهم ، وأن الدافع إليه إنما هو الطمع والشره في حطام الدنيا ، وليس الغضب من أجل إحقاق الحق : أو من أجل نشر العدالة بين الناس.

أي : أن هؤلاء المنافقين إن أعطيتهم يا محمد من تلك الصدقات ، رضوا عنك ، وحكموا على هذا العطاء بأنه عدل حتى ولو كان ظلماً ، وإن لم تعطهم منها سخطوا عليك ، واتهموك بأنك غير عادل ، حتى ولو كان عدم عطائهم هو الحق بعينه ، فهم لا يقولون ما يقولونه فيك غضباً للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين ، وإنما يقولون ما يقولون من أجل مطامعهم الشخصية ، ومنافعهم الذاتية.

- قال ابن عاشور : عرف المنافقون بالشحّ كما قال الله تعالى (أشحة عليكم) وقال (أشحة على الخير) ومن شحّهم أنّهم يودّون أنّ الصدقات توزع عليهم فإذا رأوها تُوزّع على غيرهم طعنوا في إعطائها بمطاعن يُلقونها في أحاديثهم ، ويظهرون أنّهم يغارون على مستحقّيها ، ويشمئزّون من صرفها في غير أهلها ، وإنّما يرومون بذلك أن تقصر عليهم .

ثم بين تعالى المنهج الصحيح للمسلم الحق :

(**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**) أي : ولو أن هؤلاء المنافقين الذين يلمزونك يا محمد في الصدقات ، رضوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء .

(**وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ**) وقالوا – على سبيل الشكر والقناعة — (حسبنا الله) أي : يكفينا الله .

(**سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ**) أي : سيعطينا الله في المستقبل الكثير من فضله وإحسانه ، وسيعطينا رسوله من الصدقات وغيرها .

(**إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ**) أي : إنا إلى الله راغبون في أن يوسع علينا من فضله ، فيغنينا عن الصدقات وغيرها من أموال الناس ومن صلاتهم ، لأنه سبحانه له خزائن السموات والأرض ، لأن المؤمنَ بمعناه الصحيحِ رغبتُه إلى اللهِ؛ لأنه يطيعُ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ وَيَرْغَبُ فيما عند الله (جلَّ وعلا) من الخيرِ، كما قال تعالى مَادِحًا للأنبياءِ: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) وقال لنبينا ﷺ (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) لأن الرغباتِ كُلَّهَا إلى اللهِ (جلَّ وعلا)؛ لأنه هو الذي بيدِه الخيرُ، وَكُلُّ شيءٍ بيدِه، فرغبةُ المؤمنِ إليه (جلَّ وعلا) يستنزلُ رحماتِ اللهِ وَمَا يرجو من اللهِ بطاعةِ اللهِ (جلَّ وعلا) وَتَقْوَاهُ.

- وجواب « لو » محذوف. والتقدير : ولو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرا لهم.

الفوائد :

١- خبث المنافقين في طعنهم في الدين وفي الرسول ﷺ .

٢- خطر المنافقين على المجتمع المسلم .

٣- أن المنافقين يبحثون عن كل أمر يشكك في دين الله ، وفي أمر رسوله ﷺ .

٤-وجوب الرضا بأوامر الله

٥- قال الرازي : والآية تدل على أن من طلب الدنيا - بطمع وشراهة - آل أمره في الدين إلى النفاق ، وأما من طلب الدنيا بتوسط وبغرض التوسل إلى مصالح الدين ، فهذا هو الطريق الحق ، والأصل في هذا الباب أن يكون راضيا بقضاء الله.

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ « إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) متفق عليه .

٦-الْمُؤْمِنُ تُرْضِيهِ كَلِمَةُ الْحَقِّ لَهُ وَعَلَيْهِ ، وَتُغْضِبُهُ كَلِمَةُ الْبَاطِلِ لَهُ وَعَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْحَقَّ وَالصِّدْقَ وَالْعَدْلَ وَيُبْغِضُ الْكَذِبَ وَالظُّلْمَ

٧- قال السعدي : ... وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاه وغضبه، تابعا لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعا لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

٨- هذه الآية تدل على ركاكة أخلاق أولئك المنافقين ودناءة طباعهم ، وذلك لأنه لشدة شرههم إلى أخذ الصدقات عابوا الرسول فنسبوه إلى الجور في القسمة ، مع أنه كان أبعد خلق الله تعالى عن الميل إلى الدنيا.

٩-خطر الشح .

١٠-الحذر من الاتصاف بصفات المنافقين .

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ . قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ثَلاَثٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلاَةِ يَمْنَعُهُ مِنِ ابْنِ السَّبِيلِ وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلاً بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ لأَخَذَهَا بِكَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلاَّ لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ) رواه مسلم .

١١-أن الحسب والرغبة لله وحده تعالى .

قال ابن تيمية : فجَعَلَ الْإِيتَاءَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) فَأَمَرَهُمْ بِإِرْضَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَأَمَّا فِي الحسب فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا (حَسْبُنَا اللَّهُ) لَا يَقُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ . وَيَقُولُوا (إنَّا إلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) لَمْ يَأْمُرْهُمْ أَنْ يَقُولُوا : إنَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ رَاغِبُونَ فَالرَّغْبَةُ إلَى اللَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) فَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَجَعَلَ الْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وقال رحمه الله (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ) وَلَمْ يَقُلْ (وَرَسُولُهُ) فَإِنَّ الحسب هُوَ الْكَافِي وَاَللَّهُ وَحْدَهُ كَافٍ عِبَادَهُ

الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أَيْ : هُوَ وَحْدَهُ حَسْبُكَ وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ . هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّوَابُ الَّذِي قَالَهُ جُمْهُورُ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ كَمَا بُيِّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ .

ثم أمرهم أن يقولوا (... إنا إلى الله غبون) يَجْعَلُوا الرَّغْبَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ) (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) وَهَذَا لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَمْلِكُ لِلْمَخْلُوقِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا . وَهَذَا عَامٌّ فِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ قَالَ تَعَالَى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) .

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)) .

[التوبة : ٦٠] .

قال الإمام ابن كثير: لما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات؛ بين سبحانه أنه هو الذي قسمها، وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين، كما رواه أبو داود في سننه عن زياد بن الحارث الصدائي قال. أتيت النبي ﷺ فبايعته، فأتى رجل فقال. أعطني من الصدقة فقال له. « إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره. في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » .

(**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ**) والمراد بالصدقات هنا – عند كثير من العلماء – الزكاة المفروضة.

(**لِلْفُقَرَاء**) وهم من لم يجدوا شيئاً أو يجدون نصف الكفاية (هم أشد حاجة من المساكين) .

(**وَالْمَسَاكِينِ**) وهم الذين يجدون نصف الكفاية أو أكثرها، سموا بذلك لأن الفقر أسكنهم .

(**وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا**) وهم جباتها وحفاظها، وهم السعاة الذين يبعثهم الإمام لأخذ الصدقات من الأغنياء.

(لا يشترط أن يكونوا فقراء، بل يعطون ولو كانوا أغنياء، لأنهم يعملون لمصلحتها، فهم يعملون للحاجة إليهم، وفي الحديث: لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: للعامل عليها..) .

- **العامل يشترط فيه شروط:**
  - أن يكون مسلماً، لأنها ضرب من الولاية.
  - أن يكون مكلفاً (بالغاً عاقلاً) .
  - أن يكون أميناً، قال تعالى (إن خير من استأجرت القوي الأمين) .
  - أن يكون أهلاً للعمل.

(**وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ**) جمع مُؤَلَّف ، من التأليف ، وهو جمع القلوب ، والمراد به : السيد المطاع في عشيرته كما ذهب إليه بعض العلماء .

(لا يشترط أن يكون سيداً مطاعاً في قومه كما ذهب إليه بعض العلماء، لأن الحكمة المتحققة في السيد المطاع

متحققة في غيره) .

- **أقسامهم:**
  - أن يكون كافراً يرجى إسلامه فيعطى (لا بد من قرائن تدل على رغبته في الإسلام) .
  - أن يكون كافراً يخشى شره فهذا يعطى إذا كان له سلطة ونفوذ.
  - أن يرجى بعطيته قوة إيمانه، كأن يكون حديث عهد بإسلام .

- هذا الصنف – المؤلفة قلوبهم – منهم من يعطى للحاجة إليه ، كمن يعطى لكف شره ، ومنهم من يعطى لحاجة نفسه ، كمن يعطى لقوة إيمانه ورجاء إسلامه .
- وسهم المؤلفة قلوبهم باقٍ بعد وفاة النبي ﷺ – على القول الراجح – وهذا مذهب أكثر العلماء ، لوجود العلة .

(**وَفِي الرِّقَابِ**) ويشمل صور:

- إعطاء المكاتب : وهو الرقيق الذي اشترى نفسه من سيده ، فهذا يعطى من الزكاة ليكون حراً .
- أن يشترى من أموال الزكاة أرقاء يعتقون .
- فكاك الأسير المسلم ، فيعطى الأسير من الزكاة لفكاكه من الأسر ، لأن في ذلك فك رقبةٍ من الأسر ، فهو كفك رقبة من الرق ، ولأن في ذلك إعزازاً للدين .

(**وَالْغَارِمِينَ**) وهو من عليه دين.

وهو ينقسم إلى قسمين:

- من تدين لمصلحة نفسه كأن يستدين لزواج أو غيره، فهذا يعطى إذا كان فقيراً.
- من تدين لإصلاح ذات البين، فهذا يعطى من الزكاة ولو كان غنياً ، مثاله : كانت هناك عداوة وفتنة بين جماعتين ، فدخل زيد للإصلاح بينهم ، لكن لا يتمكن من الصلح بينهم إلا ببذل مال ، فيقول : أنا ألتزم لكل واحد منكما بمبلغ وقدره كذا من أجل الصلح ، فيوافقون على ذلك ، فهذا الرجل يعطى من الزكاة ما يدفعه في هذا الإصلاح ، فيعطى هذا المبلغ الذي اشترطه على نفسه .

(**وَفِي سبيل الله**) وهم الغزاة المتطوعة ويشمل أيضاً ما يتعلق بالجهاد كآلات الحرب، وكل ما يتعلق بالجهاد.

- قول بعض العلماء: إن (في سبيل الله) يشمل أيضاً جميع القرب كعمارة المساجد والطرق وغيرها، هذا القول ضعيف والصحيح أنه مقصور بالمجاهدين الغزاة، لأن كثيراً من الناس لو علموا لبنوا المساجد وتركوا كثيراً من المستحقين).

(**وابن السبيل**) وهو المسافر الذي انقطع به الطريق (يعطى ما يوصله إلى حاجته ويرده إلى بلده) .

- (يشترط أن يكون السفر مباحاً، لأننا لو قلنا يجوز في سفر المعصية لكان ذلك من باب التعاون على الإثم) .
- (لا يشترط أن يكون فقيراً، حتى لو كان غنياً في بلده) .

(**فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ**) أي : حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقَسمِه .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) أي : عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده .

(**حَكِيمٌ**) فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به .

الفوائد :

١- أن الزكاة لا تدفع إلا إلى هؤلاء .

٢- حكمة الشرع في تخصيص الزكاة بهؤلاء دون غيرهم .

٣- حكمة الشرع في فرض الزكاة ، حيث فيها من الفوائد والحكم الشيء الكثير : تطهير أصحاب الأموال من الشح والبخل، تقوية روابط المجتمع ، تزيد المحبة والمودة بين أفراد المجتمع، وأيضاً فيها امتحان للنفس ، لأن المال محبوب للنفس ، والنفس تبخل به ، إعانة الضعفاء وكفاية أصحاب الحاجة ، وتكفر الخطايا وتدفع البلاء ، ومجلبة للمحبة .

٤- لا يجوز إعطاء الغني من الزكاة .

قال ابن قدامة : ولا خلاف في هذا .

أ-لقوله ﷺ (إن الصدقة لا تحل لغني ولا لذي مرةٍ سوي) رواه مسلم .

ب-وعن عبيد بن عدي (أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة ، فقلب فيهما البصر ورآهما جلْدَيْن فقال : إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب) رواه أحمد .

ج-وأيضاً لآية الصدقة (إنما الصدقات للفقراء ..) فمفهومه أنها لا تحل لغني .

د-ولأن أخذ الغني منها يمنع وصولها إلى أهلها، ويخل بحكمة وجوبها وهو إغناء الفقراء بها .

فائدة : ضابط الغنى : هو من يكون له كفاية على الدوام ، إما بصناعة أو بكسب أو أجرة من عقار .

٥- يجوز أن يدفع الزكاة لصنف واحد من هؤلاء الثمانية ولا يجب أن يعممهم، وهذا القول هو الصحيح من أقوال أهل العلم.

لحديث (... صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) والفقراء صنف واحد من الأصناف الثمانية .

ولأن النبي ﷺ (أمر بني زُرَيْق بدفع صدقتهم إلى سلمة بن صخر) رواه ابن خزيمة .

وقال ﷺ لقَبِيصة (أقم يا قبيصة حتى تأتينا الصدقة ، فنأمر لك بها) رواه مسلم .

٦-أن دفع الزكاة دليل على صدق إيمان صاحبها .

٧-أن الزكاة فرض بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

وقال تعالى (وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) .

وقال تعالى (فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) .

ولحديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة...) متفق عليه .

ولحديث الباب (وأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم) متفق عليه.

وأجمع المسلمون على وجوبها، فمن جحد وجوبها وهو ممن عاش بين المسلمين فإنه كافر، لأنه مكذب لله ولرسوله ولإجماع المسلمين.

٨- عموم علم الله تعالى وحكمته في تخصيص هؤلاء بالزكاة دون غيرهم .

٩- حكمة الله في شرعية الزكاة .

١٠- أن أحكام الله لحكمة .

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)) .

[التوبة : ٦١] .

(**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ**) يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يُؤذون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه .

(**وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**) أي: من قال له شيئاً صدقه، ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا.

- ومرادهم أنه يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد – كما سمي الجاسوس عيناً .

رجل أذن – إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوي فيه الواحد والجمع – .

- **قال البقاعي** : ومرادهم أنه ﷺ لا يعرف مكر من يمكر به وخداع من يخادعه وكذبوا ، هو أعرف الناس بذلك ، ولكنه يعرض عند المصالح ، لا يليق بمحاسن الدين غيرها .
- وهذا منهم تنقيص للرسول ﷺ ، إذ وصفوه بقلة الحزامة والانخداع.

(**قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ**) أي: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب .

أي : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتبكيت : سلمنا كما تزعمون أني كثير السماع والتصديق لما يقال ، لكن هذه الكثرة ليست للشر والخير بدون تمييز وإنما هي للخير ولما وافق الشرع فحسب.

(**يُؤْمِنُ بِاللَّهِ**) تفسير وتوضيح لكونه ﷺ أذن خير لهم لا أذن شر عليهم.

أي : أن من مظاهر كونه ﷺ أذن خير، أنه « يؤمن بالله » إيمانا حقاً لا يحوم حوله شيء من الرياء، أو الخداع أو غيرهما من ألوان السوء .

(**وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**) أي : يصدقهم فيما يقولونه من أقوال توافق الشرع لأنهم أصحابه الذين أطاعوه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، فهم أهل للتصديق والقبول دون غيرهم من المنافقين والفاسقين.

(**وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ**) أي: وهو أيضاً رحمة للمؤمنين ، قد أرسله الله رحمة للعالمين ، وهو حجة على الكافرين .

- وقد ثبت في صحيح مسلم أنه قال ﷺ (إنما بعثت رحمة) . ومن أسمائه نبي الرحمة .
- والآيةِ سؤالٌ معروفٌ ، أن الله قال هنا (وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا) فَقَيَّدَ كونَه رحمةً للذين آمنوا، وفي سورةِ الأنبياءِ قال: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) فلم يُقَيِّدْ كونه رحمةً بالإيمانِ، بل قال لجميعِ العالمينَ .

والجواب: قال ابن القيم في تفسير الآية (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) قال: أصح القولين في هذه الآية: أنها

على عمومها: وفيها على هذا التقدير وجهان :

أحدهما : أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته .

أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة .

وأما أعداؤه المحاربون له : فالذين عُجِّل قتلهم وموتهم خير لهم ، لأن حياتهم زيادة لهم في غليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة ، وهم قد كتب عليهم الشقاء ، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر وأما المعاهدون له : فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته ، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له .

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها.

الوجه الثاني : أنه رحمة لكل أحد ، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وآخرة ، والكفار ردوها ، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم ، لكن لم يقبلوها ، كما يقال : هذا دواء لهذا المرض ، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض .

(**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم**) أي : والذين يؤذون رسول الله بأي لون من ألوان الأذى ، لهم عذاب أليم في دنياهم وآخرتهم لأنهم بإيذائهم له يكونون قد استهانوا بمن أرسله الله رحمة للعالمين.

- وقد بَيَّنَ في الأحزابِ أن ذلك العذابَ مصحوبٌ باللعنةِ أيضًا في قولِ (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) .

الفوائد :

١- خبث المنافقين .

٢- أن المنافقين يطعنون في النبي ﷺ .

٣- إن إيذاء النبي ﷺ بقول أو فعل نفاق وخبث .

٤- على العبد أن يكون أذن خير لا أذن شر .

٥-أن الرسول رحمة للناس .

٦- التهديد الشديد لمن آذى النبي ﷺ .

(**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)**) .

[التوبة : ٦٢-٦٣] .

(**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ**) خطاب للمؤمنين الذين كان المنافقون يذكرونهم بالسوء ، ثم يأتون إليهم بعد ذلك معتذرين.

- **قال الآلوسي** : الخطاب للمؤمنين وكان المنافقون يتكلمون بما لا يليق ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون

معاذيرهم بالأيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم.

- **قال أبو حيان** : الظاهر أنّ الضمير في يحلفون عائد على الذين يقولون : هو أذن أنكره وحلفوا أنهم ما قالوه.

وقيل : عائد على الذين قالوا : إن كان ما يقول محمد حقاً ، فنحن شر من الحمير ، وتقدم ذكر ذلك.

وقيل : عائد على الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما رجع الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون اعتذروا وحلفوا واعتلوا ، قاله : ابن السائب ، واختاره البيهقي.

- قال ابن عطية المراد جميع المنافقين الذين يحلفون للرسول والمؤمنين أنهم معهم في الدين وفي كل أمر وحرب ، وهم يبطنون النفاق ، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر ، وهذا قول جماعة من أهل التأويل.
- **قال ابن الجوزي** : قال ابن السائب : نزلت في جماعة من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما رجع النبي ﷺ ، أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم ، ويحلفون ويعتلّون.

وقال مقاتل : منهم عبد الله بن أُبيّ ، حلف لا يتخلَّف عن رسول الله ﷺ ، ولَيكونَنَّ معه على عدوِّه.

وقد ذكرنا في الآية التي قبلها أنهم حلفوا أنهم ما نطقوا بالعيب.

- قال الخازن : والمعنى : يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعني فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله ﷺ .
- **قال ابن عاشور** : والمراد : الحلف الكاذب ، بقرينة قوله (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أي بتركهم الأمور التي حلفوا لأجلها ، على أنّه قد عُلِم أنّ أيمانهم كاذبة ممّا تقدّم في قوله (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) .

(**وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ**) أي : هم يحلفون لكم. والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء منكم لأن الله تعالى هو خالقهم ورازقهم ومالك أمـرهم ، وهو العليم بما ظهر وبطن من أحوالهم. ولأن رسوله ﷺ هو المبلغ لوحيه – عز وجل .

- فإرضاء الله بالإيمان به وبرسوله وتعظيمِ رسوله ، وإرضاءُ الرسول بتصديقه ومحبّته وإكرامه.

قال أبو السعود : أي أحقُّ بالإرضاء ولا يتسنى ذلك إلا بالطاعة والمتابعةِ وإيفاءِ حقوقِه عليه الصلاة والسلام في باب الإجلالِ والإعظامِ مَشهداً ومَغيباً .

- قوله تعالى (**أَن يُرْضُوهُ**) قال بعضُ العلماء : إنما اكْتَفَى بالضميرِ الواحدِ لأَنَّ إرضاءَ اللَّهِ إرضاءٌ لرسولِه، وإرضاءُ الرسولِ إرضاءُ اللَّهِ (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) فلما تَلاَزَمَا صارا كأنهما شيءٌ واحدٌ.

وأمثلةُ حذفِ أحدِ الضميرينِ اكتفاءً عنه بالآخَرِ كثيرةٌ في كلامِ العربِ وفي القرآنِ العظيم .

فَمِنْ أمثلتِها في القرآنِ في المتعاطفاتِ بالواوِ كما هنا: قولُه (يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا) .

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا) .

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ) وأمثالُ ذلك كثيرةٌ في القرآنِ .

قال الزجاج : لم يقل أحق أن يرضوهما ، لأن في الكلام دليلاً عليه ، لأن في رضى الله تعالى رضى الرسول ﷺ ،

فحذف تخفيفاً.

ومعناه والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه .

وقيل : ليس في الكلام محذوف ، والتقدير ، والله أحق أن يرضوه ورسوله ، على التقديم والتأخير.

(**أَلَمْ يَعْلَمُوا**) أي : أولئك المنافقون ، والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة مع علمهم بما سمعوا من الرسول ﷺ بو خامة عاقبتها.

- **قال ابن عاشور** : الاستفهام مستعمل في الإنكار والتشنيع ، لأنّ عدم علمهم بذلك محقّق بِضرورة أنّهم كافرون بالرسول ، وبأنّ رضى الله عند رضاه ولكن لما كان عدم علمهم بذلك غريباً لوجود الدلائل المقتضية أنّه ممّا يحقّ أن يعلموه ، كان حال عدم العلم به حالاً منكراً.

وقد كثر استعمال هذا ونحوه في الإعلام بأمر مهمّ ، كقوله في هذه السورة (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وقوله (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم) .

(**أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) أي: يُشَاقِّ اللَّهَ ويخالفه ويعصيه. وأصلُ المحادَّةِ: من الحدِّ؛ لأن المحادَّ يكونُ في الحدِّ الذي ليس فيه من حاده، تقول: زيد مُحَادٌّ لعمرو. أي: مشاقٌّ له ومعادٍ له ومعاندٌ؛ لأنه في الحدِّ الذي ليس فيه، فهذا في الحدِّ الذي ليس فيه هذا وذلك بعكس ذلك أيضًا. وهذا معنًى معروفٌ في كلامِ العربِ، وأعظمُ محادةٍ لله هي إيذاءُ نَبِيِّهِ ﷺ والتجرؤُ على ذلك بالأيمانِ الباطلةِ الكاذبةِ.

- قال الزجاج : هو أن يكون هذا في حد وهذا في حد ،

(**فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ**) أضافَ النارَ إلى جهنمَ لأن جهنمَ طبقةٌ من طبقاتِها.

(**خَالِدًا فِيهَا**) خلود لا انقطاع فيه البتة .

- التحقيقَ في خلودُ أهل الجنةِ وخلودُ أهلِ النارِ أنه خلودٌ أبديٌّ لاَ انقطاعَ له أبدًا لا يزولُ ولا يحولُ فهو باقٍ بقاءً سرمديًّا لا انقطاعَ له .

أما خلودُ أهلِ الجنةِ فقد صَرَّحَ الله به في آياتٍ من كتابِه .

كقولِه (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) . (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ) وقولُه تعالى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) إلى غيرِ ذلك من الآياتِ .

وأما خلودُ أهلِ النارِ فجاءت فيه آياتٌ كثيرةٌ .

كقولِه تعالى (لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا) .

وقوله تعالى (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى) (وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا) (كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً) .

وقال تعالى (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى) .

وقال تعالى (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى . وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) .

قال ابن كثير : أي لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ، بل هي مضرة عليه ، لأن بسببها يشعر ما يعاقب

به من أليم العذاب وأنواع النكال .

- وقد ذكر الله أبدية النار في ثلاثة مواضع:

في سورة النساء:

قال تعالى (وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً. إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً).

وفي سورة الأحزاب:

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً).

وفي سورة الجن:

قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

والحاصلُ أن مَنْ قال من السلفِ: «إن النار تَفْنَى ويبقى محلُّها لا أحدَ فيه» يجبُ حملُها كما صَرَّحَ به البغويُّ في تفسيرِه على الطبقةِ التي كان فيها عصاةُ المسلمين؛ لأن اللَّهَ يخرجُهم بعد أن تطهرهم النارُ فيؤولون إلى الجنةِ فتبقى طبقتُهم التي كانوا فيها خاويةً، أما الكفارُ فهم باقونَ معذبونَ لا يموتونَ ولا يخففُ عنهم العذابُ ولا تفنى النارُ عنهم .

(**ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ**) أي : الخلودُ في النار– عياذاً بالله – بسببِ مُحَادَّةِ اللَّهِ ومشاقتِه، والخزيُ العظيمُ أي: الذلُّ الأكبرُ والهوانُ الأعظمُ. فالخزيُ في لغةِ العربِ: غايةُ الذلِّ والهوانِ والانسفالِ. وقد صَرَّحَ اللَّهُ (جلَّ وعلا) بأن مَنْ حَادَّ اللَّهَ في غايةِ الذلِّ والمهانةِ والسفالةِ .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ) .

فقولُه (أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ) يُبَيِّنُ أن الخزيَ هنا – عياذًا بالله – يتضمنُ أعلى الذلِّ والحقارِ والصغارِ .

وقال تعالَى (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) .

وذلك الكبتُ ملتزمٌ لأصنافِ الذلِّ والمهانةِ .

وَاللَّهُ (جل وعلا) يقولُ: (رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَه) أي: أَذْلَلْتَهُ وأهنتَه .

الفوائد :

١– أن أهل النفاق أهل حلف وأيمان كاذبة .

٢–قلة تعظيم الله عند هؤلاء .

٣–أن المنافق غايته أن يرضى الناس عنه .

٤– أن المؤمن غاية همه رضا الله ورضا رسوله ، ولو غضب من غضب .

٥–أن رضا الله بالإيمان بالله ، ورضا الرسول ﷺ بطاعته .

٦–التحذير الشديد لمن يحادد الله ورسوله .

٧– أن الكافر مصيره إلى النار .

٨– أن أهل النار وأصحابها الكفار مخلدون فيها .

٩– أن دخول النار هو الخزي الكبير .

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤)

) .

[التوبة : ٦٤] .

(**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ**) يعني يخشى المنافقون (أن تنزل عليهم سورة) يعني على المؤمنين (تنبئهم) يعني تخبر المؤمنين (بما في قلوبهم) يعني بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين ، وذلك أن المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويسترونه ويخافون الفضيحة ونزول القرآن في شأنهم.

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا هذا.

- فهذا إخبار من الله تعالى عن حذرهم ، قاله الحسن وقتادة.

وقد قال بعض العلماء : إنه أمر من الله تعالى لهم بالحذر ، وتقديره ليحذر المنافقون ، قاله الزجاج.

(**قُلِ اسْتَهْزِئُوا**) أمر تهديد ، كقوله تعالى (اعملوا ما شئتم) .

(**إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ**) أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم .

كما قال (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ) إلى قوله (**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ).

ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة "الفاضحة"، فاضحة المنافقين.

وعن الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الحفارة ، حفرت ما في قلوب المنافقين وأظهرته

الفوائد :

١- قلق وخوف المنافقين من نزول سورة تخبر بعداوتهم وبغضهم للمسلمين .

٢-علم الله بالسرائر والظواهر .

٣- أن الله مطلع على ما في القلوب .

٤- الحذر من إضمار الشر والنفاق .

٥-علو الله تعالى .

٦- تهديد لكل منافق وكافر .

٧- أن الله سيفضح كل منافق .

(**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)**) .

[التوبة : ٦٥-٦٦] .

(**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ**) أي : المنافقين المستهزئين .

(**لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ**) في الحديث .

(**وَنَلْعَبُ**) أي : نهزأُ ونضحكُ فيما بينَنا لا نقولُ ذلك عن جِدٍّ وَقَصْدٍ

- نزلت هذه الآيةُ في غزوةِ تبوكَ بإطباقِ المفسرينَ في قومٍ استهزؤوا بالله وآياتِه ورسولِه.

قال بعضُ العلماءِ: كان النبيُّ ﷺ يسيرُ في غزوةِ تبوكَ وأمامُه ركبٌ من المنافقينَ، فكان بعضُهم يقولُ لبعضٍ: «يَظُنُّ هذا أنه يفتحُ قصورَ الشامِ ويقدرُ على بلادِ بنِي الأصفرِ، هيهاتَ هيهاتَ" فَأَطْلَعَ اللَّهُ نبيَّه على ذلك فاستوقفهم فسأَلَهم: «لِمَ قُلْتُمْ هَذَا؟» قالوا: كنا نخوضُ ونلعبُ، لم نقل هذا عن طريقِ الجدِّ، وإنما قلناه عن طريقِ الهزلِ واللعبِ. فأجابهم اللَّهُ (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم) .

وذكر بعضُ العلماءِ أن النبيَّ ﷺ ضَلَّتْ راحلتُه في غزوةِ تبوكَ فقال جماعةٌ من المنافقينَ: انْظُرُوا إلى هذا الرجلِ يَدَّعِي أنه يعلمُ علمَ الغيبِ، وأنه ينزلُ عليه الوحيُ وهو لا يدرِي أينَ ذَهَبَتْ ناقتُه!! وأن جبريلَ أتاه فأخبرَه بموضعِها، أَمْسَكَتْهَا شجرةٌ كذا بِزِمَامِهَا، فناداهم وقال: «لِمَ قُلْتُمْ مَا قُلْتُمْ؟» قالوا: كنا نخوضُ ونلعبُ .

سبب ثالث : عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة — دخل حديث بعضهم في بعض — : أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثلَ قرائناً هؤلاء، أرغبُ بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء . يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القرّاء . فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق. فقال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه — وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب — فيقول له رسول الله ﷺ: (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُم تَسْتَهْزِؤُنَ) ما يتلفت إليه وما يزيده عليه.

- وعلى كُلِّ حالٍ فلا خلافَ بين العلماءِ أن هذه الآيَةَ من سورةِ براءة نَزَلَتْ في غزوةِ تبوكَ في قومٍ استهزؤوا بالنبيِّ ﷺ واستَخَفُّوا به، فسألهم رسولُ اللَّهِ ﷺ فأجابوا معتذرينَ اعتـذارًا كاذبًا قالوا (إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ) في الحـديثِ (وَنَلْعَبُ) نهزأُ ونضحكُ فيما بينَنا لا نقولُ ذلك عن جِدٍّ وَقَصٍ .

(**قُلْ**) لهم يا نَبِيَّ اللَّهِ .

(**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**) يعني تستهزئونَ بالله وبرسوله وبآياته؟! فالاستهزاءُ بالله وبآياتِه وبرسولِه كفرٌ بواحٌ لاَ عذرَ لصاحبِه البتَّة.

قال بعضُ العلماء : يؤخذُ من هذه الآيةِ الكريمةِ أن مَنِ استهزأَ بِاللَّهِ وبرسولِه وبآياتِه ولو كان هازلاً مازحًا أنه يكون كافرًا؛ لأنه لا هَزْلَ في الكفر .

(**لَا تَعْتَذِرُوا**) بتلك الأيْمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم .

(**قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**) أي: بعدَ إظهارِكم الإيمانَ وإعلانِكم إياه.

(**إِن نَّعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ**) تَابَتْ إلى اللَّهِ وَأَنَابَتْ إليه ورجعت عن النفاقِ إلى الإيمانِ الخالصِ والتوبةِ النصوحِ .

(**نُعَذِّبْ طَائِفَةً**) أخرى لم يتوبوا بل كانوا مُصِرِّينَ على النفاقِ والاستهزاءِ باللَّهِ وآياتِه ورسولِه بسبب أنهم (**كَانُوا مُجْرِمِينَ**) مُرْتَكِبِينَ الجريمةَ ، وهي الإصرارُ على الكفرِ والنفاقِ من غيرِ إقلاعٍ ولا توبةٍ عنه، والمجرمون

جَمْعُ المجرمِ، والمجرمُ مرتكبُ الجريمةِ، والجريمةُ هي الذنبُ العظيمُ الذي يستحقُّ صاحبُه النكالَ العظيمَ .

الفوائد :

١-أن الاستهزاء بالدين وأهله كفر .

٢-أن الاستهزاء صفة من صفات الكافرين .

قال تعالى (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ..) .

وصفة صفة من صفات المنافقين .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ) .

وقال تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) .

وقد ذكر الله عز وجل أن الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين سبب في دخول نار جهنم وعدم الخروج منها ، فعندما ينادي أهل النار قائلين (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُون) يقول تعالى جواباً عنهم (قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُون) .

٣-أنه يجب على كل مسلم أن لا يجالس المستهزئين بدين الله لئلا يكون منهم ، قال تعالى (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) .

٤-أن أعظم الكفر الاستهزاء بالله وآياته ورسله .

٥-قوله (أبالله ... لا تعتذروا) أي فليس لكم عذر ، لأن هذا لا يدخله الخوض واللعب وإنما تحترم هذه الأشياء وتعظم ويخشع عندها إيماناً بالله ورسوله وتعظيماً لآياته وتصديقاً وتوقيراً ، والخائض واللاعب منتقض لها .

٦-أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها .

٧-المبادرة بالإنكار والشدة على المنافقين .

٨-أن المنافقين أكذب الناس .

قال تعالى (والله يشهد إنهم لكاذبون) .

وقال رسول الله ﷺ : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، ...) . متفق عليه

٩-عدم قبول عذر المبطلين .

١٠-وجوب التشدد في ردع المستهزئين بالدين .

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)) .

[التوبة : ٦٧] .

(**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ**) هذا شرح نوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم ، والمقصود بيان أن إناثهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة .

(**بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ**) أي : شكل بعض وعلى دين بعض ، يعني إنهم صنف واحد وعلى أمر واحد .

- **قال الخازن** : يعني أنهم على أمر واحد ودين واحد مجتمعون على النفاق والأعمال الخبيثة كما يقول الإنسان لغيره أنا منك وأنت مني أي أمرنا واحد لا مباينة فيه .
- **قال القرطبي** : ومعنى (بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ) أي هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدِّين.

هذه الآيةُ تَضَمَّنَتْ تكذيبَ المنافقينَ المذكورَ في قولِه (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ) وَصَدَّقَتْ قولَه (وَمَا هُم مِّنْكُمْ) كأن اللَّهَ يقول: المنافقونَ يحلفون بالله إنهم لَمِنْكُمْ وما هم منكم. الحقيقةُ هم ليسوا مِنْكُمْ ولكن بعضَهم من بعضٍ، وليسوا منكم ولستُم منهم، بل هم بعضُهم من بعضٍ؛ لأنهم هم المتشابهون في الأخلاقِ والأهدافِ، أخلاقُهم واحدةٌ وغرضُهم واحدٌ، فبعضُهم مِنْ بعضٍ وبعضُهم أولياءُ بعضٍ، وليسوا منكم ولستُم منهم .

(**يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**) أي : يأمرون غيرهم بكل ما تستنكره الشرائع ، وتستقبحه العقول ، وينهونه عن كل أمر دعت إليه الأديان ، وأحبته القلوب السليمة.

- وَالْمُنْكَرُ: اسمُ مفعولِ أَنْكَرَهُ، والمرادُ به كُلُّ ما أنكره الشرعُ ولم يَأْذَنْ فيه. والمعروفُ: اسمُ مفعولِ (عَرَفَهُ) وهو كُلُّ ما عَرَفَهُ الشرعُ ودعا إليه وَأَمَرَ به.

(**وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**) المرادُ بقبضِ اليدِ هنا كناية عن البخلِ وعدمِ مَدِّ الأيدي بما أَلْزَمَ اللَّهُ بإعطائِه، فَهُمْ لاَ يُزَكُّونَ ولاَ ينفقونَ، فالعربُ تقولُ: فلانٌ يَتَعَوَّدُ قبضَ اليدِ، ويدُه مقبوضةٌ، ويقبضُ يدَه يُكَنُّونَ بذلك عن البخلِ. يعنونَ: لا يجودُ. فَبَسْطُ اليدِ معناه الجودُ، وقبضُ اليدِ معناه البخلُ، قال بعضُ العلماءِ: قَبْضُهُمْ أيديَهم: بخلُهم بما يلزمهم من الزكواتِ وسائرِ الإنفاقِ.

أولاً : أنه سبب لتعسير أموره .

قال تعالى (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) .

ثانياً : أنه من صفات المنافقين .

قال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) .

ثالثاً : أن الله لا يحب الله من يبخل .

قال تعالى (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

رابعاً : أن من وقي شح نفسه فقد أفلح .

فقال تعالى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

خامساً : أن من بخل فقد على نفسه .

قال تعالى (فمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ) .

سادساً : وهو من صفات أهل النار .

قال ﷺ (إن أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع) رواه أحمد .

سابعاً : وهو شر ما في الرجل .

قال ﷺ (شر ما في رجل شح هالع وجبن خالع) رواه أحمد .

ثامناً : استعاذ النبي ﷺ منه .

عن أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَات) رواه مسلم .

وعَنْ زَيْد بْن أَرْقَم قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا) رواه مسلم .

تاسعاً : سماه النبي ﷺ داء .

قال رسول الله ﷺ : (من سيدكم يا بني سلمة ؟ قلنا : جدُّ بن قيس إلا أنا نُبخِّله ، قال : وأي داءٍ أدْوأ من البخل ؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح) رواه البخاري في الأدب المفرد .

عاشراً : الملائكة تدعو على الممسك .

قال ﷺ (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه .

الحادي عشر : هو من تصديق الشيطان .

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) .

الثاني عشر : هو سبب للظلم .

قال ﷺ (اتقوا الظلم ... واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) متفق عليه .

ثالثاً : بُعْد النبي ﷺ عن البخل .

قال ﷺ : (... ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً) . رواه البخاري

ولمسلم : (... فلست ببخيل) .

- من كلام الحكماء : الرزق مقسوم ، والحريص محروم ، والحسود مغموم ، والبخيل مذموم .

وقال علي رضي الله عنه : البخل جلباب المسكنة ، وربما دخل السخي بسخائه الجنة .

وقال ابن عبد البر : أجمعت الحكماء على أربع كلمات؛ وهي: لا تحمل قلبك ما لا يطيق، ولا تعمل عملاً ليس لك فيه منفعة، ولا تثقن بامرأة، ولا تغتر بمال وإن كثر .

وقال الماوردي : قد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة- وإن كان ذريعة إلى كل مذمة- أربعة أخلاق

ناهيك بها ذما، وهي: الحرص، والشره، وسوء الظن، ومنع الحقوق، وإذ آل البخيل إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة و الشيم اللئيمة لم يبق معه خير موجود ولا صلاح مأمول . (أدب الدنيا والدين) .

وقال محمد بن المنكدر : كان يقال : إذا أراد الله بقومٍ شراً أمَّر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم .

وقال بعض الحكماء : البخيل ليس له خليل .

وقال آخر : البخيل حارس نعمته وخازن ورثته .

وقال يحيى بن معاذ: ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجاراً ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبراراً .

قال حبيش بن مبشر الثقفي الفقيه: (قعدت مع أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، والناس متوافرون فأجمعوا أنهم لا يعرفون رجلًا صالحًا بخيلاً .

(**نَسُوا اللَّهَ**) المرادُ بالنسيانِ هنا: التركُ عمدًا، معناها: تَرَكُوا أوامرَ اللَّهِ وجعلوها وراءَ ظهورهم.

(**فَنَسِيَهُمْ**) الله : أي تركهم الله من كل خير ومن كل ثواب .

- النسيان في القرآن يطلق على معنيين :

المعنى الأولى : بمعنى الترك : ومنه قوله تعالى (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) نسوا الله : أي : تركوه فلم يقوموا بحقه ، فنسيهم : تركهم سبحانه فلم يجبهم ، ومنه قوله تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) أي تركوه (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أي : جعلهم ينسونها ويغفلون عنها ويتركونها إذا لم يعطوا الله حقه ، ومنه قوله تعالى (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ) أي : نترككم في النار .

المعنى الثاني : الذهول عن الشيء المعلوم ، ومنه قوله تعالى (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) المراد بالنسيان : الذهول عن شيء معلوم ، فالله تعالى أحصاه ، لكن هؤلاء نسوه ، وهذا المعنى لا يوصف به الله تعالى .

(**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**) أي : لخارجونَ عن طاعةِ اللَّهِ خروجًا عظيمًا وإن زعموا أنهم مؤمنون، وَحَلَفُوا للنبيِّ وأصحابِهِ على أنهم مؤمنون مطيعون لله ولرسولِه.

الفوائد :

١- أن أهل النفاق على شكل واحد في نفاقهم وخبثهم .

٢- التحذير من النفاق وأهله .

٣- من صفات المنافقين :

أولاً : الكذب والتكذيب لله ولرسوله ﷺ .

قال تعالى (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) ، وقال تعالى (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) .

ثانياً : أذى الرسول ﷺ أو عيبه أو لمزه .

قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) .

ثالثاً : التولي والإعراض عن حكم الله ورسوله .

قال تعالى (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) .

رابعاً : مظاهرة الكافرين ومعاونتهم على المؤمنين .

قال تعالى (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً) .

خامساً : المسرة بانخفاض دين الرسول أو الكراهية لانتصار دينه .

قال تعالى (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ) .

سادساً : الرياء .

قال تعالى (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً) .

٤- خبث المنافقين في أمرهم بكل منكر ونهيهم عن كل معروف .

٥- أن المنافق من أبخل الناس ، لأنه لا إيمان له بوعد الله ولقائه .

٦- أن من صفات المؤمن الإنفاق في وجوه الخير .

٧-أن من ترك أوامر الله وأعرض عنها تركه الله وأعرض عنه وعاقبه .

٨-الجزاء من جنس العمل ، وهذه قاعدة عظيمة ، ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة :

قال تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) .

وقال تعالى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) .

وقال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) .

وقال تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) .

وقال ﷺ (من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (الراحمون يرحمهم الله). رواه أبو داود

وقال ﷺ من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) رواه مسلم .

وقال ﷺ (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه) رواه البخاري .

وقال ﷺ (من وصل صفاً وصله الله) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (من كان له وجهان في الدنيا ، كان له لسانان من نار يوم القيامة) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (احفظ الله يحفظك) .

(وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨)) .

[التوبة : ٦٨] .

(**وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّار**) المرادُ بـ (الْمُنَافِقِينَ) مَنْ يُظهرون الإسلامَ ويُبطنون الكفرَ. {وَالْكُفَّارَ} أعلنوا كفرَهم فهم كُلُّهُمْ كفارٌ، والفرقُ بينَهم: أن بعضَهم يتظاهرُ بِكُفْرِهِ وبعضُهم يُخْفِي كفرَه، فهؤلاء الكفارُ جميعًا الْمُتَعالِنُونَ بكفرهم والجاحدونَ له وَعَدَهُمُ اللَّهُ جميعًا نارَ جهنمَ،

(**نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**) أي : ماكثين فيها على الدوام .

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) .

- وفي الآية أن المنافقين أشد من الكفار ، لأن الله بدأ بهم ، وكذلك بدأ بهم في قوله تعالى (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ) ، فجميع الآيات التي فيها الجمع بين المنافقين والكفار يقدم الله فيها المنافقين ، إلا في آية واحدة وهي قوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) وذلك لأن جهاد الكفار يكون بالسلاح علناً ، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان وليس بالقتال .

(**هِيَ حَسْبُهُمْ**) أي : كفايتُهم من العقاب.

- **قال الشنقيطي** : معناه: أن الجرائمَ التي ارتكبوها إذا جُوزُوا بالنارِ ففي النارِ كفايةٌ تامةٌ لجزاءِ ذلك السوءِ الذي ارْتَكَبُوهُ؛ لأنها جزاءٌ فظيعٌ (جَزَاءً وِفَاقًا) فَمَنْ عُذِّبَ بالنارِ فقد جُوزِيَ جزاءً بالغًا وافيًا وهو حَسْبُهُ: أي يكفيه؛ لأنه لاَ جزاءَ أعظم منه ولا أشد .

(**وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ**) **أي** : طردهم وأبعدهم من رحمته .

(**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيم**) أي : دائم أبداً ، لا يزول ولا يحول ولا ينقطع .

الفوائد :

١- تهديد المنافقين والكفار بنار جهنم .

٢-أن أهل النار – من الكفار والمنافقين – خالدين فيها لا يخرجون منها أبداً .

٣-أن عذاب النار كافٍ في عذاب هؤلاء الكفار ، لأنها جزاء فظيع وشديد .

٤- أن أهل النار عذابهم مستمر دائم .

(كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)) .

[التوبة : ٦٩] .

(**كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**) أي: حالكم يا معشر المنافقين، كحال من سبقكم من المكذبين، وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب.

(**كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً**) أي : كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً .

(**وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا**) أي : وكانوا أوفر أموالاً ، وأكثر أولاداً ، ومع ذلك أهلكهم الله ، فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم .

- والمعنى : لم ينفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً ولا ينفعكم أموالكم ولا أولادكم أيضاً .
- **قال ابن عاشور** : وكثرة الأموال لها أسباب كثيرة : منها طيب الأرض للزرع والغرس ورَعِي الأنعام والنحلِ ، ومنها وفرة التجارة بحسن موقع الموطن بين مواطن الأمم ، ومنها الاقتراب من البحار للسفر إلى الأقطار

وصيد البحر ، ومنها اشتمال الأرض على المعادن من الذهب والفضّة والحديد والمواد الصناعية والغذائية من النبات ، كأشجار التوابل ولحاء الدبغ والصبغ والأدوية والزراريع والزيوت.

وكثرة الأولاد تأتي من الأمن بسبب بقاء الأنفس ، ومن الخصب المؤثر قوة الأبدان والسلامة من المجاعات المعقبة للموتان ، ومن حسن المناخ بالسلامة من الأوبئة المهلكة ، ومن الثروة بكثرة الأزواج والسراري والمراضع.

والاستمتاع : التمتّع ، وهو نوال أحدٍ المتاعَ الذي به التذاذ الإنسان وملائمه

(**فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ**) أي: تمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا، وكذبوا الرسل، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة فأهلكناهم.

- والخلاقُ في لغةِ العربِ: النصيبُ ، يعني: اسْتَمْتَعُوا بنصيبِهم في الدنيا مُؤْثِرِينَ الدنيا على الآخرةِ، مُغْتَرِّينَ بزخارفِ الدنيا، مُعْرِضِينَ عن اللهِ، مكذبينَ رسلَه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم.

(**فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ**) أي : استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع اولئك الذين سبقوكم بنصيبهم منها .

- **قال الشنقيطي** : (فَاسْتَمْتَعتمْ) أيها الكفارُ والمنافقونَ (بخلاقِكم) أي: بنصيبِكم الدنيويّ مُؤْثِرِينَ الدنيا على الآخرةِ، أو فَرِحِينَ بما عِنْدَكُمْ مِنَ الدينِ زَاعِمِينَ أن ما كان عليه آباؤُكم حَقٌّ، كما قالوا (حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) .

(**وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**) أي : وخضتم في الباطل والضلال ، كما خاضوا هم فيه .

- **قال ابن القيم** : فقوله تعالى (فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ) إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة وقوله (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) إشارة إلى الشبهات وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات ، وكثيراً ما يجتمعان ، فقلّ من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله.
- **قال ابن عاشور** : أي وخضتم في الكفر والاستهزاء بآيات الله ورسوله كالخوض الذي خاضوه في ذلك ، فأنتم وهم سواء ، فيوشك أن يَحيق بكم ما حاق بهم ، وكلامنا في هذين التشبيهين أدقّ ما كتب فيهما.
- **وقال الطبري**: المعنى سلكتم ايها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الامم الذين كانوا من قبلكم، وخضتم في الكذب والباطل على الله، كخوض تلك الامم قبلكم، فاحذروا ان يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم.
- والخوضُ لا تكادُ العربُ تُطْلِقُهُ إلاَّ على الخوضِ في الباطلِ ، وأصلُه الخوضُ في الماءِ؛ لأن الخائضَ في الماءِ يتخبطُ فيه بغيرِ انتظامٍ، ليس كالماشِي على الأرضِ.
- **قال ابن القيم** : والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق فالأول البدع والثاني اتباع الهوى وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء وبهما كذبت الرسل وعصي الرب ودخلت النار وحلت العقوبات فالأول من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات ولهذا كان السلف يقولون: "احذروا من الناس صنفين صاحب هوى فتنه هواه وصاحب دنيا أعجبته

دنياه".
وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.
وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله: عن الدنيا ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها
.
وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) فبالصبر تترك الشهوات وباليقين تدفع الشبهات قال تعالى (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) وقوله تعالى (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ) .
(**أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**) أي : أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال ، ذهبت أعمالهم باطلاً ، فلا ثواب لها إلا النار .
(**وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**) الخسارة الأبدية في نار جهنم .
الفوائد :
١-تهديد لكل كافر ومنافق ، أن الله أهلك من هم أقوى منهم في كل شيء .
٢- أن الله لا يعجزه شيء مهما كان .
٣- الحذر من الدنيا وشهواتها وفتنتها التي تصد عن دين الله .
٤- الحذر من الخوض من الباطل .
٥- خطر إيثار الدنيا على الآخرة .
٦- الحذر من التشبه بالكفار والمنافقين من إيثار الدنيا على الآخرة .
٧- أن الكفر محبط للعمل .
(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)) .
[التوبة : ٧٠] .

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل:
(**أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**) أي: ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ، كيف أهلكناهم ودمرناهم ؟
- النبأ هو الخبر, والنبأ أخص من الخبر, فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ, لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص, وهو الخبر الذي له خطب وشأن, وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم .

وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دَلَّتْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب

الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم مثل ما وقع من الأوَّلِين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا) .

(**قَوْمِ نُوحٍ**) وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح، عليه السلام .

- وقد بَيَّنَ اللَّهُ قصةَ قومِ نوحٍ وَشَرَحَهَا في آياتٍ كثيرةٍ من كتابِه، ذَكَرَ طغيانَهم وتمردَهم، وشدةَ عصيانِهم لنبيِّ اللَّهِ، وطولَ مكثِه فيهم وَهُمْ لاَ يزدادونَ إلا عُتُوًّا، فأهلكهم اللَّهُ هلاكًا مستأصِلاً، وهذا ذَكَرَهُ اللَّهُ في آياتٍ كثيرةٍ مشهورةٍ .

كقولِه (وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً) .

وكقولِه (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) .

(**وَعَادٍ**) كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هودا، عليه السلام .

كما قال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) .

وقال تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) .

وقال تعالى (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) .

(**وَثَمُودَ**) كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام، وعقروا الناقة .

- وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

قال تعالى (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) .

وقال تعالى (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) .

- قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج : هي الزلزلة الشديدة.
- **قال الشنقيطي** : الرجفة هي الاضطراب الشديد ، أي : رجفت بهم الأرض واضطربت اضطراباً شديداً .

ولا منافاة : فالظاهر أن الملك لما صاح بهم اضطربت الأرض من تحتهم فأهلكهم الله بهما جميعاً .

ونجى الله صالحاً ومن معه :

قال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا) .

(**وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ**)كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم النمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله .

- وَذَكَرَ اللَّهُ تفاصيلَ قصتِه مع قومه في آياتٍ كثيرةٍ، وَبَيَّنَ أنه جاء إلى قومٍ يدعوهم إلى التوحيدِ في سورةِ العنكبوتِ في قولِه مصحوبًا بقصةِ نوح (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) (وَإِبْرَاهِيمَ) أي: وَأَرْسَلْنَا إبراهيمَ (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) إلى قولِه (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ

قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ) .

وقد أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أن يتلوَ على هذه الأمةِ قصةَ إبراهيمَ مع قومِه في سورةِ الشعراءِ في قولِه (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ) .

(**وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ**) وهم قوم شعيب، عليه السلام، وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة .

كما قال تعالى (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) .

- وَغَلِطَ بعضُ العلماءِ وبعضُ المؤرخين ، فَزَعَمَ أن شعيبًا كان بعد مُوسَى ، وهذا لا شَكَّ أنه غَلَطٌ؛ لأن شُعَيْبًا قَبْلَ موسى، وقد دَلَّتْ عليه آياتُ القرآنِ في سورةِ الأعرافِ هذه وغيرِها؛ لأن اللَّهَ في سورةِ الأعرافِ هذه لَمَّا ذكرَ قصةَ نوحٍ وقصةَ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ مع قومِهم قال بعدَ ذلك في الآياتِ الآتيةِ (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا) فَدَلَّ على أن بعثَ موسى بآياتِ اللهِ بعدَ هؤلاءِ الرسلِ وَأُمَمِهِمْ، كما هو نَصُّ القرآنِ العظيم .
- وذكر اللهُ في آياتٍ أُخْرَى متعددةٍ – كما سيأتي في سورةِ «الحجراتِ»، وفي سورةِ «الشعراء»، وفي سورةِ «ص» وغيرِ ذلك – أن شعيبًا أرسلَ أيضًا إلى أصحابِ الأيكةِ، كما سيأتِي في قولِه (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) والعلماءُ مختلفونَ: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ كانوا يعبدونَ أيكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللَّهَ سماهم مرةً بنسبهم (مدين) ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه وَمِمَّنِ اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ.
- **قال ابن كثير** : وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها ، وكانوا من أسوإ الناس معاملة ; يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص.

فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر اكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد ، وهو الولي الحميد.

(**وَالْمُؤْتَفِكَاتِ**) هي قرى قوم لوط، وقال في الآية الأخرى (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى) أي: الأمة المؤتفكة .

والغرض: أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا، عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، فقد رفع الله قراهم فجعل عاليها سافلها ، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود .

كما قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) .

وقال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) .

وقال تعالى (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ . مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) .

- (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ) والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللّهَ قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا خَرَقَهُ.

(مَّنضُودٍ) أي : مجعول بعضه فوق بعض .

(مسومة) أي : مجعولاً فيها علامة تميزها ، قيل : على كل حجر اسم من يرمي به .

- وقيل لقرى قومِه: (المؤتفكات) لأن جبريلَ عليه السلام أَفَكَهَا أي: قَلَبَهَا بهم فَاقْتَلَعَهَا من الأرضِ وَرَفَعَهَا إلى السماءِ جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، كما قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) وجَعْلُ العالِي هو السافلَ هو معنَى القلبِ والأَفْكِ؛ لأن العربَ تقولُ: أَفَكَ الشيءَ يأفكه إذا قَلَبَهُ، ومنه سُمِّيَ أسوأُ الكذبِ (إِفْكًا) لأنه قلبٌ للحقيقةِ عن ظاهرِها الصحيحِ إلى شيءٍ آخَرَ بَاطِلٍ.
- اختلف العلماء في المراد بقوله (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) على قولين :

القول الأول : أي وما هذه القرى المهلكة ببعيدة عن قومك (كفار قريش) ، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون .

والثاني : الضمير يعود على الحجارة ، أي : وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم ، ورجحه ابن عطية .

(**أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**) يعني بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها المنافقون والكفار فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم .

- عبر بعض العلماء بالمعجزات : جمع معجزة وهي الأمر الخارق للعادة ، والتعبير بالآية أولى من التعبير بالمعجزات ، **لأمرين** :

أولاً : أن هذا هو اللفظ الموافق للقرآن كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) وقال تعالى (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) وقال صالح لقومه (هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً) .

ثانياً : أن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة ، فتكون من النبي وغير النبي .

(**فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ**) أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل .

(**وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

الفوائد :

١- العبرة والاتعاظ بما حصل للأمم الماضية المكذبة .

٢- أن الاعتبار بما حصل للأمم السابقة يكون : بهلاك المكذبين ، وبنجاة المؤمنين .

٣- أن الله أهلك كثيراً من الأمم .

٤- شدة عقوبة الله وبطشه بالمكذبين .

٥- أن الله لا يعجزه شيء .

٦-أن الله أرسل لكل أمة رسولاً يدعوهم إلى التوحيد ويحذرهم الشرك .

٧- كثرة الرسل .

٨- أن الرسل جاءت بالبينات الواضحات على صدقهم .

٩- أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

١٠-أن الظلم والتكذيب سبب لهلاك الأمم .

١١- نفي الظلم عن الله لكمال عدله .

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)) .

[التوبة : ٧١] .

(**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**) أي: يتناصرون ويتعاضدون .

كما جاء في الصحيح (المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضاً ، وشبك بين أصابعه .

وفي الصحيح أيضاً (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) .

ثم ذكر صفاتهم :

(**يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**) كما قال تعالى (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وفي الآية فضيلة ظاهره للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، لأن خيرية هذه الأمة منوطة بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها بالله ، فإذا تخلت عن إيمانها بالله وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر سُلبتْ منها تلك الخيرية .

- **قال الغزالي** : فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية .
- **من فضائل هذه الشعيرة :**

أولاً : مهمة الرسل .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ...) .

ثانياً : من صفات المؤمنين .

قال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) .

وقال تعالى (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

ثالثاً : أن خيرية الأمة مناطة بهذه الشعيرة .

قال تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) .

رابعاً : من أوصاف سيد المرسلين .

قال تعالى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) .

خامساً : من خصال الصالحين .

قال تعالى (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

سادساً : من أسباب النصر والتمكين .

قال تعالى (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

سابعاً : من أسباب النجاة .

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ قالَ (مَثَلُ القَائِمِ في حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إذَا اسْتَقَوا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنَا، فَإنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أرَادُوا هَلَكُوا جَميعاً، وَإنْ أخَذُوا عَلَى أيدِيهِمْ نَجَوا وَنَجَوْا جَميعاً) . رواه البخاري

وفي الحديث (فمن أنكر فقد سلم).

ثامناً : عظم فضل القيام به .

قال تعالى (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) .

- **الحكمة من الأمر بالمعرف والنهي** :

أولاً : أن يقيم الإنسان عذره أمام ربه ، ويخرج بذلك من عهدة التقصير في الأمر بالمعروف لئلا يدخل في قوله

(كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

وهذه الحكمة أشار لها تعالى بقوله (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) .

ثانياً : هي رجاء انتفاع المذَكَّر .

كما قال تعالى في الآية السابقة (وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ، وذكر الله هذه الحكمة في قوله (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

ثالثاً : هي إقامة الحجة لله على خلقه في أرضه نيابة عن رسله .

لأن الله يقول (رسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) فأهل العلم يقيمون حجة الله على خلقه بإقامة الحجة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(**وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ**) أي ومن صفات المؤمنين أنهم يقيمون الصلاة على وجه مستقيم بشروطها وأركانها ومستحباتها كما جاء عن رسول الله ﷺ .

- قال الشيخ السعدي : لم يقل : يفعلون الصلاة ، أو يأتون الصلاة ، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة ، فإقام الصلاة ، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها ، وإقامتها باطناً بإقامة روحها ، وهو حضور القلب فيها ، وتدبر ما يقوله ويفعله منها .
- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة ، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة) .
- إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها ، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع ، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها ، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض : وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر .

- قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) يشمل صلاة الفرض والنفل .
- قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) فيه دليل على أهمية الصلاة وعظيم منزلتها وأنها من أعظم صفات المتقين ، **ومما يدل على عظيم منزلتها** :

أنها فرضت في أعلى مكان (في السماء ليلة الإسراء والمعراج) .

وفرضت خمس صلوات في اليوم والليلة ، وأول ما فرضت خمسين ثم خففت إلى خمس في العدد ، وهذا يدل على محبة الله لها ، وعنايته بها سبحانه .

أن تاركها كافر يحشر مع فرعون وقارون وأبي بن خلف ، وأعظم العبادات بعد الشهادتين ، وهي عمود الدين .

(**وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**) أي : ويعطون الزكاة المفروضة لأهلها .

- الإيتاء : هو الإعطاء قال تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ) .

- الزكاة : هي : قدر واجب في مال مخصوص ، لطائفة أو جهة مخصوصة .

وسميت بذلك : لأنها تزكي المال ، وتزكي صاحب المال ، كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ) ، بل وتزكي المجتمع كله ، فتنتشر المحبة والوئام والإخاء .

- كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والإنفاق [الزكاة] كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

قيل : إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين : إخلاصه لمعبوده ، وسعيه في نفع الخلق .

وقيل : الصلاة رأس العبادات البدنية ، والزكاة رأس العبادات المالية .

وقيل : الصلاة طهارة للنفس والبدن ، والزكاة طهارة للمال .

- **قال الرازي** : واعلم أنه تعالى لما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض ، ذكر بعده ما يجري مجرى التفسير والشرح له فقال (يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَيُقِيمُونَ الصلاة وويؤتون الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ ورسولهُ) فذكر هذه الأمور الخمسة التي بها يتميز المؤمن من المنافق ، فالمنافق على ما وصفه الله تعالى في الآية المتقدمة يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ، والمؤمن بالضد منه.

والمنافق لا يقوم إلى الصلاة إلا مع نوع من الكسل والمؤمن بالضد منه.

والمنافق يبخل بالزكاة وسائر الواجبات كما قال (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) والمؤمنون يؤتون الزكاة ، والمنافق إذا أمره الله ورسوله بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف بنفسه ويثبط غيره كما وصفه الله بذلك ، والمؤمنون بالضد منهم.

وهو المراد في هذه الآية بقوله (وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ) .

(**وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر .

والطاعة فعل الأمر واجتناب النهي .

وفي الحديث (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ...

وقال ﷺ (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) .

– فينبغي فعل ما أمرنا به النبي ﷺ على قدر الاستطاعة ، **وما أمرنا به ينقسم إلى قسمين** :

القسم الأول : واجبات ، فهذا يثاب فاعله ويعاقب تاركه .

كالصلاة ، والزكاة ، والصيام .

القسم الثاني : مستحبات ، فهذه يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها .

كالسنن الرواتب ، والسواك .

فالواجبات: يجب على المسلم أن يؤديها كما أمر، فإن لم يستطع فعلى قدر استطاعته ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾.

مثال : القيام في الصلاة الفريضة ركن ، فإذا عجز عنه الإنسان فإنه يصلي جالساً .

وأما المستحبات : فالأفضل للمسلم أن يحرص عليها وأن يجتهد في الإكثار منها على حسب استطاعته .

مثال : قيام الليل : فالأفضل أن يصلي من الليل ولو شيئاً قليلاً .

- **فضائل طاعة الله ورسوله :**

أولاً : سبب للرحمة .

قال تعالى : (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

وقال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة:٧١)

ثانياً : مع الذين أنعم الله عليهم .

قال تعالى : (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ) .

ثالثاً : سبب للحياة الحقيقية .

قال تعالى : (اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ) .

رابعاً : سبب للهداية .

قال تعالى : (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) .

خامساً : من علامات الإيمان .

قال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

سادساً : سبب لدخول الجنة .

وقال تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً) .

أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ) لما ذكر الله ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وما أعد لهم في الجنان والسين في قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد .

(**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**) لا يغالب ، له العزة الكاملة .

(**حَكِيمٌ**) **فيما** يفعل ويصنع سبحانه .

الفوائد :

١- أن المؤمنين أولياء بعض بالنصرة والمحبة .

٢- لا ولاية بين مؤمن وكافر .

٣- فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه من أعظم صفات أهل الإيمان .

٤- فضل إقامة الصلاة والإتيان بها على وجه المشروع .

٥- أن المؤمن حريص على أداء الصلاة والاجتهاد بها والنشاط ، بخلاف المنافق فلا يقوم لها إلا بتثاقل وكسل .

٦- عظم منزلة الزكاة .

٧- فضل الكرم وذم البخل .

٨- أن من أعلى علامات الإيمان طاعة الله ورسوله في كل شيء .

٩- أن من قام بهذه الصفات نال رحمة الله .

١٠- إثبات اسم العزيز لله ، المتضمن للعزة الكاملة .

١١- إثبات اسم الحكيم لله ، المتضمن لصفة الحكمة البالغة الكاملة .

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢))

[التوبة : ٧٢] .

(**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**) بالله تعالى ، وبكل ما يجب الإيمان به .

(**جَنَّاتٍ**) جمع جنة ، الجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ).

وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

- قوله تعالى (جنات) دليل على أن الجنات أنوع، كما قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال تعالى (ومن دونهما جنتان) وقال ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما).
- قال الشيخ ابن عثيمين: (جنات) بالجمع، وأحياناً يقال بالإفراد (جنة)، فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس، وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها أنواع الجنات .

(**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**) أي : من تحت أشجارها.

- **قال ابن الجوزي:** أي من تحت شجرها لا من تحت أرضها.
- **قال ابن عاشور:** وأكمل محاسن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر، لأن في الماء طبيعة الحياة، ولأن الناظر يرى منظراً بديعاً وشيئاً لذيذاً.
- **قال ابن القيم:** وهذا يدل على أمور:

أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالثة: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.

- وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى).
- وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص، وتجري من غير أخدود.
- قال ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضانِ

(**خَالِدِينَ فِيهَا**) أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، فلا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها. —

- **قال النسفي** : الخلد والخلود البقاء الدائم الذي لا ينقطع.
- **وقال ابن الجوزي** : والخلود: البقاء الدائم الذي لا انقطاع له.
- وجاءت الآيات الكثيرة بخلود أهل الجنة بالجنة:

فقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

وقال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس، لا تبلى ثيابُه، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم.

وقال ﷺ (يناد مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم.

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح، فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ...) متفق عليه.

- **قال ابن عاشور**: وقوله (وهم فيها خالدون) احتراس مِن تَوَهُّم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال وذلك ينغصها عند المنعم عليه.
- وذكر من نعيم الجنة الخلود، لأنه أعظم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً، كما قال بعض الشعراء:

أحب ليالي الهجر لا فرحاً بها ... عسى الدهر يأتي بعدها بوصالِ

وأبغضُ أيام الوصال لأنني ... أرى كل وصلٍ معقباً بزوالِ

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

(**وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً**) أي: حسنة البناء، طيبة القرار، قد زخرفت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفا في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة، التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح .

- فالمساكن التي ذكرت في القران و الأحاديث النبوية ثلاثة أنواع القصور ،و الغرف ،والخيام.

قال تعالى (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُون) .

وقال في جزاء عباد الرحمن (أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً) .

وقال تعالى واصفاً هذه الغرفات (لكنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَاد) .

- **قال ابن كثير**: أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور أي الشاهقة (مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّة) طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات.

وقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن في الجنة خياماً .

قال تعالى (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَام) .

وهذه الخيام خيام عجيبة، فهي من لؤلؤ، بل هي من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها في السماء ستون ميلاً، وفي بعض الروايات عرضها ستون ميلاً .

ففي (صحيح البخاري) عن عبدالله بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون .

أما القصور ، فإن في الجنة قصور أعدها الله لعباده المؤمنين .

فعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ (دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب فقلت: لمن هذا؟ فقال: لرجل من قريش، فما منعني أن أدخله يا أبن الخطاب إلا ما أعلم من غيرتك، قال: وعليك أغار يا رسول الله؟) متفق عليه .

وبناء هذه القصور في الجنة من الذهب و الفضة وليست من الحجارة لقوله ﷺ (لبنة من ذهب ولبنة من فضة) .

- بيتٌ في الجنة... دعوةٌ سألتها المرأة الصالحة التقية امرأة فرعون (إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّة) .
- بيتٌ في الجنة... بشارةٌ زفَّها المصطفى صلى الله عليه وسلم لأمِّ المؤمنين خديجة رضى الله عنها بأن لها في الجنة بيتًا من قَصَب، لا صَخَبَ فيه، ولا نَصَب فيه.
- أعمال من قام بها بني له بيت في الجنة ؟

بناء المساجد .

قال ﷺ (مَنْ بنى لله مسجدًا؛ بنى الله له بيتًا في الجنة) متفق عليه .

صلاة النوافل القبلية والبعدية .

عن أم حبيبة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول (مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ). رواه مسلم

إطعام الطعام .

عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا ». فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ

فَقَالَ لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « لِمَنْ أَطَابَ الْكَلاَمَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَام) رواه الترمذي .

(**فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ**) أي جنات إقامة , يقال عَدَنَ بالمكان أي أقام به.

قال تعالى (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا).

وقال تعالى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

- **وللجنة أسماء:**

أولاً: الجنة.

وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار , وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور.

ثانياً: دار السلام.

فهي السالمة من كل بلية وآفة ومكروه.

قال تعالى (لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون).

وقال تعالى (وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

ثالثاً: دار الخلد.

وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً كما قال تعالى (عطاء غير مجذوذ).

قال تعالى (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء ومصيراً).

رابعاً: دار المقامة.

لأنهم مقيمون بها أبداً , لا يموتون ولا يتحولون منها أبداً.

قال تعالى حكاية عن أهلها (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ).

خامساً: جنة المأوى.

قال تعالى (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

سادساً: جنات عدن.

أي جنات إقامة , يقال عَدَنَ بالمكان أي أقام به.

قال تعالى (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا).

وقال تعالى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

سابعاً: دار الحيوان.

أي هي الدار التي لا تنغيص فيها ولا نفاد , ولا تفنى ولا تنقطع.

قال تعالى (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

ثامناً: الفردوس.

والفردوس: اسم من أسماء الجنة ومعناه: البستان الذي يجمع كل ما فيه البساتين.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

وقال تعالى (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

(**وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**) أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات، أكبر من نعيم الجنات.

عن أبي سعيد الخُدْري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله، عز وجل، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك، والخير في يدك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) .

- **بعض أسباب رضا الله عن العبد في الدنيا والآخرة:**

أولاً : الإيمان بالله والعمل الصالح .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه) .

ثانياً: بذل النفس لله تعالى ولرسوله، والذب عن دينه، والجهاد في سبيله .

قال تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهَمْ فَتْحاً قَرِيباً).

ثالثاً: البراءة من الشرك والمشركين وإظهار عداوتهم .

قال تعالى (لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُون) .

- قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي – عن الذين اتصفوا بالصفات السابقة في الآية -: لهم أكبر النعيم وأفضله وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات، بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية .

رابعاً : الكلمة الطيبة .

عن بلال بن الحارث ﷺ أن النبي ﷺ قال (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله – عز وجل-، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة) رواه الترمذي .

خامساً: الإحسان والصدقة .

قال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم) .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال (إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً» الحديث، وفي آخره: قال الملك للأعمى:«أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي عنك، وسخط على صاحبيك). متفق عليه

سادساً: حمد الله وشكره على النعم .

كما في حديث الباب .

سابعاً: رضا الوالدين .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال (رضى الرب في رضى الوالد وسخط الرب في سخط الوالد) رواه الترمذي

ثامناً: الرضا بقضاء الله وقدره .

عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط) رواه الترمذي .

تاسعاً: استعمال السواك .

عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال (السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب) رواه أحمد .

- ينبغي للعبد أن يسعى إلى رضا الله، ولو كان ذلك بسخط الناس؛ روى الإمام الترمذي في سننه من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال (من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس) .
- إن من أعظم نعيم أهل الجنة أن يحل الله عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبداً .

كما قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم) .

قوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَر) أي: رضوان الله عليهم أكبر مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضاه عنهم، فرضا الله رب السماوات أكبر من نعيم الجنات .

- قال ابن كثير : قوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي : رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما قال الإمام مالك ، رحمه الله ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخُدْري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال (إن الله ، عز وجل ، يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك يا ربنا وسعديك ، والخير في يدك. فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدا من خلقك. فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) .

وعن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله ، عز وجل : هل تشتهون شيئا فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربنا ، ما خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضواني أكبر) . (تفسير ابن كثير) .

(**ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

الفوائد :

١-وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجنات والنعيم .

٢- فضل الإيمان وأنه سبب لدخول الجنة .

٣-وجود الأنهار في الجنة .

٤-أن من أعظم نعيم الجنة الخلود فيها .

٥-من نعيم الجنة المساكن والغرف .

٦-أن أعظم نعيم هو حلول رضوان الله تعالى .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)) [التوبة : ٧٣] .

(**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**) أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة .

وقوله - سبحانه – (جاهِدِ) من المجاهدة ، بمعنى بذل الجهد في دفع ما لا يرضى ، سواء أكان ذلك بالقتال أم بغيره.

وقوله (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) من الغلظة التي هي نقيض الرقة والرأفة. يقال أغلظ فلان في الأمر إذا اشتد فيه ولم يترفق.

والمعنى : عليك - أيها النبي الكريم - أن تجاهد الكفار بالسيف إذا كان لا يصلحهم سواه ، وأن تجاهد المنافقين - الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر - بما تراه مناسباً لردهم وزجرهم وإرهابهم ، سواء أكان ذلك باليد أم باللسان أم بغيرهما ، حتى تأمن شرهم.

- وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والبيان.

ومن كان مذعنا للإسلام بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر، فهذا ما لهم في الدنيا.

- والضمير المجرور في قوله (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) يعود على الفريقين : الكفار والمنافقين أي : جاهدهم بكل ما تستطيع مجاهدتهم به ، مما يقتضيه الحال ، واشدد عليهم في هذه المجاهدة بحيث لا تدع مجالا معهم للترفق واللين ، فإنهم ليسوا أهلا لذلك ، بعد أن عموا وصموا عن النصيحة ، وبعد أن لجوا في طغيانهم.
- قوله (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) تذييل قصد به بيان سوء مصيرهم في الآخرة بعد بيان ما يجب على المؤمنين نحوهم في الدنيا.

أي : عليك – أيها النبي – أن تجاهدهم وأن تغلظ عليهم في الدنيا ، أما في الآخرة فإن جهنم هي دارهم وقرارهم.

والمخصوص بالذم محذوف والتقدير : وبئس المصير مصيرهم ، فانه لا مصير أسوأ من الخلود في جهنم.

الفوائد :

١– الأمر بجهاد الكفار والمنافقين .

٢– فضل الجهاد في سبيل الله .

٣– الجهاد أحياناً يكون بالسلاح وأحياناً باليد وأحياناً باللسان على حسب الحال .

٤– الأمر بالغلظة على الكفار .

٥– من علامات الإيمان الرحمة وخفض الجناح للمؤمنين ، قال تعالى (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُم) .

٦– أن مصير الكفار والمنافقين جهنم .

(يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (٧٤))

[التوبة : ٧٤] .

(**يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ**) أي : يحلف هؤلاء المنافقون بالله كذبا وزورا أنهم ما قالوا هذا القول القبيح الذي بلغك عنهم يا محمد.

- **قال الرازي** : اعلم أن هذه الآية تدل على أن أقواماً من المنافقين ، قالوا كلمات فاسدة ، ثم لما قيل لهم إنكم ذكرتم هذه الكلمات خافوا ، وحلفوا أنهم ما قالوا ، والمفسرون ذكروا في أسباب النزول وجوهاً :

قيل : أن المراد قَوْل الْجُلَاسِ بْنِ سُوَيْد : إنْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَلَنَحْنُ شَرٌّ مِنْ الْحُمْرِ ، ثُمَّ إنَّهُ حَلَفَ مَا قَالَ ؛ قَالَهُ عُرْوَةُ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ إسْحَاقَ.

وقيل : إنه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ ابْنُ سَلُولَ حِينَ قَالَ (لَئِنْ رَجَعْنَا إلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَل) .

وقيل : قال ابن عباس : " كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر اليكم بعينيّ شيطان ، إذا جاء فلا تكلّموه ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . "

(**وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ**) والحق أنهم قد قالوا « كلمة الكفر » وهي تشمل كل ما نطقوا به من أقوال يقصدون بها إيذاءه ﷺ، كقولهم : « هو أذن » وقولهم. « لئن كان ما جاء به حقا فنحن أشر من حمرنا ... » وغير ذلك من الكلمات القبيحة التي نطقوا بها.

(**وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ**) أي : أظهروا الكفر بعد إظهارهم الإسلام.

- **قال الشوكاني** : أي : كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام ، وإن كانوا كفاراً في الباطن.

والمعنى : أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم.

(**وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ**) أي : حاولوا إلحاق الأذى برسول الله ﷺ ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، لأن الله تعالى عصمه من شرورهم.

(**وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ**) توبيخ لهم على جحودهم وكنودهم ومقابلتهم الحسنة بالسيئة.

ومعنى : نقموا : كرهوا وعابوا وأنكروا ، يقال نقم منه الشيء إذا أنكره ، وكرهه وعابه ، وكذا إذا عاقبه عليه.

والمعنى : أي وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام شيئاً ، إلا أنهم بسببه أغناهم الله ورسوله من فضله بالغنائم وغيرها من وجوه الخيرات التي كانوا لا يجدونها قبل حلول الرسول ﷺ وأصحابه بينهم.

وهذه الجملة الكريمة جاءت على الأسلوب الذي يسميه علماء البلاغة : تأكيد المدح بما يشبه الذم.

- **قال ابن كثير** : أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال، عليه السلام للأنصار: "ألم أجدكم ضُلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟" كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وكما قال، عليه السلام ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله".

(**فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ**) في الدنيا والآخرة ، فإن في التوبة سعادة الدنيا والآخرة .

(**وَإِنْ يَتَوَلَّوْا**) أي: وإن يستمروا على طريقهم .

(**يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا**) أي: بالقتل والهم والغم .

- **قال في التفسير الوسيط** : أما عذاب الدنيا فمن مظاهره : حذرهم وخوفهم من أن يطلع المؤمنون على أسرارهم وجبنهم عن مجابهة الحقائق ، وشعورهم بالضعف أمام قوة المسلمين ، وإحساسهم بالعزلة والمقاطعة من جانب المؤمنين ومعاقبة الرسول ﷺ إياهم بالعقوبة المناسبة لجرمهم ..

(**والآخرة**) أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار .

(**وَمَا لَهُمْ فِي الأرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**) أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيرا، ولا يدفع عنهم شراً

- **قال الشيخ ابن عثيمين** : اعلم أن الولي والنصير إذا اجتمعا صار الولي فيما ينفع ، والنصير في دفع ما يضر ، وأما إذا أفرد أحدهما شمل الآخر .

الفوائد :

١- ان المنافقين أهل أيْمان كاذبة .

٢-تكذيب الله للمنافقين .

٣-أن المنافقين كفار .

٤-أن المنافقين أهل طعن ولمز في الإسلام وأهله .

٥- بغض المنافقين للرسول ﷺ .

٦-سعة رحمة الله تعالى ، حيث يعرض على هؤلاء التوبة .

٧- أن من تاب تاب الله عليه .

٨- فضل التوبة .

٩- استغناء الله عن كل أحد .

(وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨)) .

[التوبة : ٧٥-٧٨] .

(**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ** ...) يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله، عز وجل، يوم القيامة، عياذاً بالله من ذلك.

وقد ذكر بعض العلماء أن سبب نزول هذه الآية قصة ثعلبة بن حاطب، أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له أن يرزقه مالاً، فرزقه الله، فلما كثر ماله تهاون في الصلاة في حضورها، ثم منع الزكاة ... الخ ، فلما نزلت هذه الآية جاء إلى النبي ﷺ تائباً فلم يقبل منه، ثم بع موته ﷺ جاء إلى أبي بكر فلم يقبله منه، ثم بع موته جاء إلى عمر فلم يقبل منه ...الخ القصة، هذه القصة لا تثبت.

والذي نراه أن هذه الآيات الكريمة تحكى صورة حقيقية وواقعية لبعض المنافقين المعاصرين للعهد النبوي. والذين عاهدوا الله فنقضوا عهودهم معه ، وقابلوا ما أعطاهم من نعم بالبخل والجحود ..

- **ومعنى الآيات الكريمة :**

(**وَمِنْهُم**) أي : ومن المنافقين قوم .

(**مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ**) وأكدوا عهودهم بالأيمان المغلظة فقالوا :

(**لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ**) أي : لئن أعطانا الله تعالى من فضله مالاً وفيراً .

(**لَنَصَّدَّقَنَّ**) منه على المحتاجين ، ولنعطين كل ذي حق حقه .

(**وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ**) أي : ولنكونن من عباده الصالحين ، الذين يؤدون واجبهم نحو الله والناس ، والذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون.

(**فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**) أي : فلما أعطى الله تعالى من فضله هؤلاء المنافقين ما تمنوه من مال وفير .

(**بَخِلُوا بِهِ**) أي : بخلوا بهذا المال ، فلم ينفقوا منه شيئا في وجوهه المشروعة ، ولم يعترفوا فيه بحقوق الله أو حقوق الناس ، ولم يكتفوا بذلك بل .

(**وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُون**) أي : أدبروا عن طاعة الله وعن فعل الخير ، وهم قوم دأبهم التولي عن سماع الحق ، وشأنهم الانقياد للهوى والشيطان.

(**فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ**) تصوير للآثار الذميمة التي ترتبت على بخلهم وإعراضهم عن الحق والخير.

أي : فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم إلى يوم يلقونه للحساب ، فيجازيهم بما يستحقون على بخلهم وإعراضهم عن الحق .

(**بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ**) بسبب إخلافهم لوعودهم مع خالقهم ، وبسبب استمرارهم على الكذب ، ومداومتهم عليه.

- والباء في قوله (بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ) للسببية.
- ثم ختم سبحانه هذه الآيات الكريمة ، بتوبيخهم على إصرارهم على المعاصي ، مع علمهم بأنه – عز وجل – عليم رقيب عليهم ، ومطلع على أحوالهم فقال : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

(**أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**) أي : ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله تعالى يعلم ما يسرونه في أنفسهم من نفاق ، وما يتناجون به فيما بينهم من أقوال فاسدة ، وأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ بلى إنهم ليعلمون ذلك علم اليقين ، ولكنهم لاستيلاء الهوى والشيطان عليهم ، لم ينتفعوا بعلمهم.

فالاستفهام في قوله : (أَلَمْ يَعْلَمُوا ...) للتوبيخ والتهديد والتقرير ، وتنبيهم إلى أن الله عليم بأحوالهم ، وسيجازيهم عليها.

الفوائد :

١-أن المنافقين أهل غدر وخيانة .

٢-خطر عدم الوفاء بالعهد والنذر .

٣- التحذير من النذر ، وفي الحديث (النذر لا يأتي بخير) .

٤- أن ابن آدم قد يعقد العزم على أمر من الأمور قبل وقوعه، لكن بعد وقوعه يعجز ويتكاسل، ولهذا كان النبي ﷺ يقول (اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء) .

٥- أن النفس البشرية ضعيفة شحيحة – إلا من عصم الله.

٦- بخل المنافقين .

٧-أن من صفات المنافقين الكذب .

(**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)**) .

(**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ...) .

ثم حكى – سبحانه – موقف هؤلاء المنافقين من المؤمنين الصادقين الذين كانوا يبذلون أموالهم في سبيل الله ، فقال – سبحانه :

- **قال ابن كثير** : وهذه أيضاً من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا.

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري ﷺ ، قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ آيةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيءٍ كَثِيرٍ ، فقالوا : مُراءٍ ، وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ ، فقالُوا : إنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا ! فَنَزَلَت (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إلاَّ جُهْدَهُم). مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، هذا لفظ البخاري.

(لَمَّا نَزَلَتْ آيةُ الصَّدَقةِ) وهي قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة ...) .

(كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا) أي : نحمل على ظهورنا بالأجرة ، ونتصدق من تلك الأجرة ، أو نتصدق بها كلها .

(فقالوا : مُراءٍ) أي : ما فعل هذا إلا إظهاراً لصدقته للناس ليروه .

(فَنَزَلَت (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ) أي : يعيبون .

- وقوله : « يلمزون » من اللمز ، يقال : لمز فلان فلانا إذا عابه وتنقصه.

والمراد بالمطوعين : أغنياء المؤمنين الذين قدموا أموالهم عن طواعية واختيار ، من أجل إعلاء كلمة الله.

والمراد بالصدقات : صدقات التطوع التي يقدمها المسلم زيادة على الفريضة.

والمراد بالذين لا يجدون إلا جهدهم : فقراء المسلمين. الذين كانوا يقدمون أقصى ما يستطيعونه من مال مع قلته ، إذ الجهد : الطاقة ، وهي أقصى ما يستطيعه الإنسان.

والمعنى : إن من الصفات القبيحة – أيضاً– للمنافقين ، أنهم كانوا يعيبون على المؤمنين ، إذا ما بذلوا أموالهم لله ورسوله عن طواعية نفس ، ورضا قلب ، وسماحة ضمير .

وذلك لأن هؤلاء المنافقين – لخلو قلوبهم من الإيمان – كانوا لا يدركون الدوافع السامية، والمقاصد العالية من وراء هذا البذل ..

ومن أجل هذا كانوا يقولون عن المكثر : إنه يبذل رياء ، وكانوا يقولون عن المقل : إن الله غنى عن صدقته ، فهم – لسوء نواياهم وبخل نفوسهم ، وخبث قلوبهم – لا يرضيهم أن يروا المؤمنين يتنافسون في إرضاء الله ورسوله .

(**وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ**) معطوف على قوله : الْمُطَّوِّعِينَ.

أي : أن هؤلاء المنافقين يلمزون الأغنياء المطوعين بالمال الكثير ، ويلمزون الفقراء الباذلين للمال القليل لأنه هو مبلغ جهدهم ، وآخر طاقتهم.

(**فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ**) أي : إن هؤلاء المنافقين يستهزئون بالمؤمنين عند ما يلبون دعوة رسول الله ﷺ إلى الإنفاق

في سبيل الله.

(**سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ**) وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا أليماً .

(**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) بيان لجزائهم وسوء عاقبتهم في الآخرة .

أي : إن هؤلاء الساخرين من المؤمنين جازاهم الله على سخريتهم في الدنيا ، بأن فضحهم وأخزاهم ، وجعلهم محل الاحتقار والازدراء ، أما جزاؤهم في الآخرة فهو العذاب الأليم الذي لا يخف ولا ينقطع.

- **قال السعدي** : قوله تعالى (سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فقابلهم الله على صنيعهم بأن (سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير :

منها : تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم) .

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى وبغض للدين.

ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي هو إعانته، وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيرا بأنه مراء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي شر أكبر من هذا؟!!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: "الله غني عن صدقة هذا" كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير، بل وغني عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله -وإن كان غنيا عنهم- فهم فقراء إليه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان جزاؤهم أن سخر الله منهم، ولهم عذاب أليم.

الفوائد :

١- بيان شيء من خبث المنافقين على المسلمين وهي الطعن واللمز .

٢-خطر المنافقين على الإسلام وأهله .

٣-أن السخرية من صفات المنافقين .

٤-فضل بذل الأموال في طاعة الله ونصرة لدينه .

٥- فضل الصحابة في تقديم ما يملكون نصرة لهذا الدين .

٦-أن الإنسان لا يكلف إلا ما يطيق .

٧-على المسلم أن لا يستحقر من الأعمال شيئاً مهما صغر .

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)) .

[التوبة : ٨٠] .

(**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**) يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

ثم ذكر السبب المانع من ذلك, **فقال** :

(**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**) والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً .

(**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**) أي: الذين صار الفسق لهم وصفا، بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يبغون به بدلا يأتيهم الحق الواضح فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

- وهنا اشكال : مِثْلُ هذه الآياتِ فيه سؤالٌ معروفٌ للعلماءِ، كقولِه (وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) وقوله (لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) فَاللَّهُ (جلَّ وعلا) نَفَى هدايتَه للفاسقين، وَنَفَى هدايتَه للظالمين، مع أَنَّا نُشَاهِدُ بعضَ الفاسقينَ الظالمينَ يَهْدِيهِ اللَّهُ، وَكَمْ مِنْ كافرٍ شديدٍ في الكفرِ، ظالمٍ فاسقٍ يهديه اللَّهُ. هذا وجهُ الإشكالِ.

وأجابَ العلماءُ عن هذا بِجَوَابَيْنِ :

أحدُهما: أن قولَه (لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) من العامِّ المخصوصِ، وأن المرادَ بها الذين سَبَقَ في علمِ اللَّهِ أنهم لا يهتدونَ من الفسَقَةِ وَالظَّلَمَةِ الذين قال اللَّهُ فيهم (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ).

وقال بعضُ العلماءِ: لا يهديهم ما زالوا مُتَّصِفِينَ بالظلمِ والفسقِ، فإذا نَزَعُوا عن ذلك برحمةِ اللَّهِ وهدايتِه زَالَ عنهم اسمُ الفسقِ والظلمِ، فلا مانعَ إذًا من هُدَاهُمْ. هكذا قَالَهُ بعضُ العلماءِ وَاللَّهُ تعالى أعلمُ. وهذا معنَى قولِه (لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

الفوائد :

١- تحريم الاستغفار للكافر أو المنافق .

٢- أن الله لا يغفر للكافر أو المنافق إذا مات على ذلك .

٣-شدة شفقته ﷺ بأمته ، وحرصه على هدايتها ، وكثرة دعائه لها بالرحمة والمغفرة ، وأنه مع إيذاء المنافقين له كان يستغفر لهم – أملا في توبتهم – إلى أن نهاه الله عن ذلك.

(**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)**) .

[التوبة : ٨١-٨٢] .

(**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ**) يقول تعالى ذامًّا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه .

- والمراد بهم : أولئك المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك بسبب ضعف إيمانهم ، وسقوط همتهم ، وسوء نيتهم ..

قال السعدي : وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

- قال الماوردي :قوله عز وجل (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ) أي المتروكون (بِمَقْعَدِهِم خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ) فيه وجهان :

أحدهما : يعني مخالفة رسول الله ﷺ وهذا قول الأكثرين.

والثاني : معناه بعد رسول الله ﷺ قاله أبو عبيدة وأنشد.

{ **وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا -ولو لعذر- حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

- وإنما فرحوا بهذا القعود ، وكرهوا الجهاد لأنهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهبطت نفوسهم عن الارتفاع إلى معالى الأمور ، وآثروا الدنيا وشهواتها الزائلة على الآخرة ونعيمها الباقي.
- وفي التعبير بقوله (الْمُخَلَّفُونَ) تحقير لهم ، وإهمال لشأنهم ، حتى لكأنهم شيء من سقط المتاع الذي يخلف ويترك ويهمل لأنه لا قيمة له ، أو لأن ضرره أكبر من نفعه.
- **قال الآلوسي** : وإيثار ما في النظم الكريم على أن يقال ، وكرهوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ إيذان بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون ، قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح وهو القعود خلاف رسول الله ﷺ ، وفي الكلام تعريض بالمؤمنين الذين آثروا ذلك وأحبوه .

(**وَقَالُوا**) أي: بعضهم لبعض:

(**لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ**) وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا (لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ) .

- **قال السعدي** : أي: قالوا إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة.

وحذروا من الحر الذي يقي منه الظلال، ويذهبه البكر والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

- **قال في التفسير الوسيط** : هذا حكاية لأقوالهم التي تدل على ضعفهم وجبنهم ، وعلى أنهم قوم لا يصلحون للأعمال التي يصلح لها الرجال.

أي: وقال هؤلاء المنافقون المخلفون لغيرهم ، اقعدوا معنا في المدينة ، ولا تخرجوا للجهاد مع المؤمنين ، فإن الحر

شديد ، والسفر طويل ، وقعودكم يريحكم من هذه المتاعب ، ويحمل غيرنا وغيركم على القعود معنا ومعكم ، وبذلك ننال بغيتنا من تثبيط همة المجاهدين عن الجهاد في سبيل الله.

قال الله تعالى لرسوله:

(**قل**) لهم .

(**نَارُ جَهَنَّمَ**) التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم .

(**أَشَدُّ حَرًّا**) مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ ». قَالُوا وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ « فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا) متفق عليه .

وعن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ . قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ) .

وعن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (أن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلي منهما دماعه) .

والأحاديث في هذا كثيرة .

وقال تعالى (كَلا إِنَّهَا لَظَى نزاعَةً لِلشَّوَى) .

وقال تعالى (يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ) .

- **قال الشنقيطي** : ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ شِدَّةَ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ أَعَاذَنَا اللَّهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا ، وَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَقَوْلِهِ (نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) وَقَوْلِهِ (كَلَّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى) .

وَقَوْلِهِ (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا) .

وَقَوْلِهِ (يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) .

وَقَوْلِهِ (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ) .

وَقَوْلِهِ (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

(**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**) أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حَرَّ جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر :كالمستجير من الرمضاء بالنار .

أي : لو كانوا يفقهون أن نار جهنم أشد حرا ويعتبرون بذلك ، لما فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، ولما كرهوا الجهاد ، ولما قالوا ما قالوا ، بل لحزنوا واكتأبوا على ما صدر منهم ، ولبادروا بالتوبة والاستغفار ، كما فعل أصحاب القلوب والنفوس النقية من النفاق والشقاق.

ثم قال الله تعالى جل جلاله، متوعدا لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا:

(**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) وعيد لهم بسوء مصيرهم ، وإخبار عن عاجل أمرهم وآجله ، من الضحك القليل في الدنيا والبكاء الكثير في الآخرة.

والمعنى : إنهم وإن فرحوا وضحكوا طوال أعمارهم في الدنيا ، فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والمنقطع الفاني قليل بالنسبة إلى الدائم الباقي.

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، عز وجل، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً .

الفوائد :

١- أن من أعظم علامات قبح وخبث القلب وموته فرحه بالمعصية .

٢-أن المؤمن الحقيقي يندم ويبكي إذا حصل منه معصية أو تقصير في طاعة .

٣-أن التخلف عن الجهاد من صفات المنافقين .

٤-أن من أعظم علامات الإيمان إنفاق الأموال والأنفس في سبيل الله .

٥- حر الدنيا ليس بشيء عند حر الآخرة .

٦-شدة حر جهنم .

٧- أن الدنيا زائلة قصيرة ، فلا يليق بالمسلم أن يقدّم الراحة هنا على الراحة الأبدية في الآخرة .

(فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣))

[التوبة : ٨٣] .

(**فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ**) يقول تعالى آمرا لرسوله عليه الصلاة والسلام (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ) أي: ردك الله من غَزْوَتك هذه .

(**إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ**) أي : المنافقين .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ) أي المنافقين.

وإنما قال (إلى طَائِفَةٍ) لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين ، بل كان فيهم معذورون ومن لا عذر له ، ثم عفا عنهم وتاب عليهم ؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا.

(**فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ**) أي: معك إلى غزوة أخرى .

(**فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا**) أي: تعزيراً لهم وعقوبة.

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا) هو عقوبة لهم وإظهار لدناءة منزلتهم وسوء حالهم ، ولا خزي أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع ورده كالجمل الأجرب .
- **قال الشوكاني** : أي : قل لهم ذلك عقوبة لهم ، ولما في استصحابهم من المفاسد ، كما تقدم في قوله (لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً) .

ثم علل ذلك بقوله :

(**إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**) وهذا كقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عُمرة الحديبية (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ) .

(**فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ**) قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة .

- **قال السعدي** : فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة، لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضاً تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان ذلك توبيخاً لهم، وعاراً عليهم ونكالا أن يفعل أحد كفعلهم .

الفوائد :

١- ذم المنافقين .

٢- منع من صحبته تكون سبباً في ضعف الجيش أو تكاسله .

٣-ذم التخلف والتثاقل عن الطاعة ، وأن ذلك من صفات المنافقين .

٤- على الإمام أن يعزر من هو أهل لذلك ، ليرتدع غيره .

(وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤))

[التوبة : ٨٤] .

(**وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ** ...) أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَبْرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه ، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين .

(**إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ**) ومن كان كافراً ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعة الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلى عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ، يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقرراً في المؤمنين.

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ (لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ فَقَامَ

عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ فَقَالَ : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً) وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ قَالَ إِنَّهُ مُنَافِقٌ قَالَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) .

- ما سبب إعطاء النبي ﷺ قميصه ليكفن به هذا المنافق ؟

قيل : لتطييب قلب ابنه . قال النووي : وهو أظهر .

وقيل : لأنه كان قد كسا العباس عم رسول الله ﷺ ثوباً حين أسر يوم بدر , فأعطاه الرسول ﷺ ثوباً بدله لئلا يبقى لكافر عنده فضل .

وقيل : فعل ذلك النبي ﷺ إجابة لسؤال ابنه حين سأله ذلك .   (المجموع) .

- ما سبب صلاته ﷺ على أبيّ بن سلول مع نفاقه وكفره ؟

اختلف العلماء في ذلك :

القول الأول : أن النبي ﷺ استغفر له وصلى عليه بناء على الظاهر ، حيث إن ظاهره هو أنه من المسلمين ، ولم يعلم بباطنه – وأنه مات على الكفر والنفاق – إلا بعد أن نزل النهي عن الصلاة عليه .

وهذا رأي النحاس ، والخطابي ، وابن حزم ، والقاضي عياض ، وابن الجوزي ، والرازي ، وابن جزي ، والحافظ ابن حجر .

قال ابن عطية : وظاهر صلاته عليه أن كفره لم يكن يقيناً عنده ، ومحال أن يصلي على كافر ، ولكنه راعى ظواهره من الإقرار ، ووكل سريرته إلى الله عز وجل ، وعلى هذا كان ستر المنافقين من أجل عدم التعيين بالكفر .

وقال الحافظ ابن حجر : أما جزم عمر بأنه منافق فجرى على ما كان يطلع عليه من أحواله ، وإنما لم يأخذ النبي ﷺ بقوله وصلى عليه إجراء له على ظاهر حكم الإسلام كما تقدم تقريره واستصحاباً لظاهر الحكم ، ولما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته ، ومصلحة الاستئلاف لقومه ، ودفع المفسدة ، وكان النبي ﷺ في أول الأمر يصبر على أذى المشركين ويعفو ويصفح ثم أمر بقتال المشركين فاستمر صفحه وعفوه عمن يظهر الإسلام ولو كان باطنه على خلاف ذلك لمصلحة الاستئلاف وعدم التنفير عنه ، ولذلك قال لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، فلما حصل الفتح ودخل المشركون في الإسلام وقلّ أهل الكفر وذلوا ، أمر بمجاهرة المنافقين وحملهم على حكم مر الحق ، ولا سيما وقد كان ذلك قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على المنافقين وغير ذلك مما أمر فيه بمجاهرتهم ، وبهذا التقرير يندفع الإشكال عما وقع في هذه القصة بحمد الله تعالى .

فائدة : وقد مال بعض أهل الحديث إلى تصحيح إسلام عبد الله بن أبيّ لكون النبي ﷺ صلى عليه ، وذهل عن الوارد من الآيات والأحاديث المصرحة في حقه بما ينافي ذلك ، ولم يقف على جواب شاف في ذلك ، فأقدم على الدعوى المذكورة وهو محجوج بإجماع من قبله على نقيض ما قال ، وإطباقهم على ترك ذكره في كتب الصحابة مع شهرته ، وذكر من هو دونه في الشرف والشهرة بأضعاف مضاعفة ، وقد أخرج الطبري من

طريق سعيد عن قتادة في هذه القصة قال فأنزل الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) .قال فذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال : وما يغني عنه قميصي من الله ، وإني لأرجو أن يسلم بذلك ألف من قومه .

القول الثاني :أن المنهي عنه هو الاستغفار الذي تُرجى إجابته ، حتى يكون مقصوده تحصيل المغفرة للمستغْفَر له ، كما فعل النبي ﷺ بأبي طالب ، فإنه إنما استغفر له كما استغفر إبراهيم لأبيه ، على جهة أن يجيبهما الله تعالى ، فيغفر للمدعو له ، وهذا النوع هو الذي يتناوله منع الله ونهيه ، وأما الاستغفار لأولئك المنافقين الذي خيّر فيهم فهو استغفار لساني ، علم النبي ﷺ أنه لا يقع ولا ينفع ، وغايته لو وقع تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر لهم .

قاله أبو العباس القرطبي (في المفهم) ، واختاره أبو عبد الله القرطبي في التفسير .

ويدل لهذا القول رواية (لو أعلم أني إن زدتُ على السبعين يُغفر له لزدت عليها) ، وهي صريحة بأن النبي ﷺ قد علم بأن استغفاره لن ينفعه بشيء .

القول الثالث : أن النبي ﷺ لم يصل على عبد الله بن أبيّ ولم يشهد جنازته .

وهذا اختيار أبي جعفر الطحاوي .

والجواب عن هذا : بأنه قد جاء في حديث ابن عمر وابن عباس التصريح بأن النبي ﷺ صلى عليه .

الفوائد :

١- تحريم الصلاة على المنافق الذي علم نفاقه .

٢- تحريم الدعاء له ، لأنه كافر .

٣- أن المؤمن هو الذي يصلى عليه .

٤- حكمة الله ، حيث أن الأب منافق ، والابن رجل صالح .

(وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)) [التوبة : ٨٥] .

(وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا ....) تقدم شرحها .

والمعنى : أي لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا) فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنئون بها ، بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا (وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفئدتهم عليها متحرقة. (السعدي) .

- **قال ابن عطية** : تقدم تفسير مثل هذه الآية ، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته ، إذ هو بإجماع ممن لا تفتنه زخارف الدنيا.

ويحتمل أن يكون معنى الآية ولا تعجبك أيها الإنسان ، والمراد الجنس ، ووجه تكريرها تأكيد هذا المعنى وإيضاحه ، لأن الناس كانوا يفتنون بصلاح حال المنافقين في دنياهم.

الفوائد :

١- الحذر من الاغترار بالكفار وما هم فيه من الأموال والأولاد .

٢-على المسلم أن يعلم أن كثرة المال والأولاد ليس دليلاً على رضا الله ومحبته .

٣-الحذر من أن يمد الإنسان نظره إلى الكفار وما فيه من متع الدنيا حتى لا يفتن .

- ثم بين سبحانه موقف المنافقين وموقف المؤمنين بالنسبة للجهاد ، كما بين عاقبة كل فريق فقال تعالى :

(وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ (٨٧)) .

[التوبة : ٨٦- ٨٧] .

(**وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ**) المراد بالسورة في قوله - سبحانه - (وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ) كل سورة ذكر الله تعالى فيها وجوب الإيمان به والجهاد في سبيله.

أي : أن من الصفات الذميمة لهؤلاء المنافقين ، أنهم كلما نزلت سورة قرآنية ، تدعو في بعض آياتها الناس إلى الإيمان بالله والجهاد في سبيله ، ما كان منهم عند ذلك إلا الجبن والاستخذاء والتهرب من تكاليف الجهاد .

(**اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ**) بيان لحال هؤلاء المنافقين عند نزول هذه السورة.

والطول - بفتح الطاء - يطلق على الغنى والثروة ، مأخوذ من مادة الطول بالضم التي هي ضد القصر.

والمراد بأولى الطول : رؤساء المنافقين وأغنياؤهم والقادرون على تكاليف الجهاد.

أي : عند نزول السورة الداعية إلى الجهاد ، يجيء هؤلاء المنافقون أصحاب الغنى والثروة ، إلى الرسول ﷺ ليستأذنوا في القعود وعدم الخروج ... وليقولوا له بجبن واستخذاء ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ.

أي : اتركنا يا محمد مع القاعدين في المدينة من العجزة والنساء والصبيان ، واذهب أنت وأصحابك إلى القتال.

- وإنما خص ذوى الطول بالذكر ، تخليدا لمذمتهم واحتقارهم لأنه كان المتوقع منهم أن يتقدموا صفوف المجاهدين ، لأنهم يملكون وسائل الجهاد والبذل ، لا ليتخاذلوا ويعتذروا ، ويقولوا ما قالوا مما يدل على جبنهم والتوائهم.

(**رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ**) زيادة في تحقيرهم وذمهم.

والخوالف : جمع خالفة ، ويطلق على المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال لضعفها ، كما يطلق لفظ الخالفة - أيضاً - على كل من لا خير فيه.

والمعنى : رضى هؤلاء المنافقون لأنفسهم ، أن يبقوا في المدينة مع النساء ، ومع كل من لا خير فيه من الناس ، ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته ، وسقطت مروءته ، وألف الذل والصغار.

(**وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُون**) أي : أنه ترتب على رسوخهم في النفاق ، وإصرارهم على الفسوق والعصيان أن ختم الله على قلوبهم ، فصارت لا تفقه ما في الإيمان والجهاد من الخير والسعادة ، وما في النفاق والشقاق من الشقاء والهلاك.

الفوائد :

١-الحث الدائم على الإيمان والجهاد في سبيل الله .

٢- أن أعظم الأعمال الإيمان بالله .

٣- أن الجهاد في سبيل الله من الأعمال العظيمة .

٤-أن المنافق وقت القوة والعمل والجهاد يستأذنون ويتخلفون هروباً من الجهاد .

٥- أن من تخلف عن الجهاد ففيه شعبة من نفاق .

٦- أن المنافق دائماً يتثاقل في أي أمر فيه نصرة للإسلام والمسلمين .

٧- على المسلم أن يحرص أن يكون دائماً نشيطاً قوياً في الطاعة والسير إلى الله .

(**لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)**) .

[التوبة : ٨٩] .

لما شرح تعالى حال المنافقين في الفرار عن الجهاد بين أن حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه ، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه.

يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالله سيغني عنهم، ولله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم (الرَّسُولُ) محمد ﷺ، (وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) غير متثاقلين ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، (وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ) الكثيرة في الدنيا والآخرة، (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب. (السعدي) .

- **قال الخازن** : أي إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم يعني الرسول والمؤمنين (وأولئك لهم الخيرات) منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهي جمع خيرة تخفيف خيرة (وأولئك هم المفلحون) أي الفائزون بالمطالب.
- **قال أبو حيان** : والخيرات : جمع خيرة وهو المستحسن من كل شيء ، فيتناول محاسن الدنيا والآخرة لعموم اللفظ ، وكثرة استعماله في النساء ومنه فيهن خيرات حسان.

وقيل : المراد بالخيرات هنا الحور العين.

وقيل : المراد بها الغنائم من الأموال والذراري.

وقيل : أعدّ الله لهم جنات ، تفسير للخيرات إذ هو لفظ مبهم .

الفوائد :

١- من أعظم علامات الإيمان الجهاد بالنفس والمال .

٢-من علامة المنافق كره الجهاد وضعف الإيمان .

٣-بخل المنافقين .

٤-تبشير أهل الإيمان بالخيرات والفلاح .

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)).

[التوبة : ٩٠] .

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أي: جاء الذين تهاونوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مبالين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية .

ويحتمل أن معنى قوله: (الْمُعَذِّرُونَ) أي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

(وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) . في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم

- ومن هذه الأقوال التي نقلناها عن القرطبي يتبين لنا أن من المفسرين من يرى أن المقصود من المعذرين : أصحاب الأعذار المقبولة.

وقد رجح الإمام ابن كثير هذا الرأي فقال : بين الله تعالى حال ذوى الأعذار في ترك الجهاد ، وهم الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة ... وهذا القول أظهر في معنى الآية لأنه سبحانه قال بعد هذا : (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) .أي : لم يأتوا فيعتذروا .

وعلى هذا الرأي تكون الآية قد ذكرت قسمين من الأعراب : قسماً جاء معتذراً إلى رسول الله ﷺ وقسماً لم يجيء ولم يعتذر ، وهذا القسم هو الذي توعده الله بسوء المصير.

ومنهم من يرى أن المقصود بالمعذرين: أصحاب الأعذار الباطلة، وقد سار على هذا الرأي صاحب الكشاف فقال: «المعذرون» من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد فيه، وحقيقته أنه يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له.

أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ، وهم الذين يعتذرون بالباطل ،كقوله ، يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ...

وعلى هذا الرأي تكون الآية الكريمة قد ذكرت قسمين أيضاً من الأعراب ، إلا أن أولهما قد اعتذر بأعذار غير مقبولة ، وثانيهما لم يعتذر ، بل قعد في داره مصرا على كفره ، ولذا قال أبو عمرو بن العلاء : كلا الفريقين كان سيئا : قوم تكلفوا عذراً بالباطل وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله (وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ) ، وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدوا جرأة على الله وهم المنافقون ، فتوعدهم الله بقوله : (سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) .

والذي يبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب لتناسقه مع ما يفيده ظاهر الآية، لأن الآية الكريمة ذكرت نوعين من الأعراب، أحدهما : المعذرون, أي أصحاب الأعذار ، وثانيهما : الذين قعدوا في بيوتهم مكذبين لله ولرسوله .

(**سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَـفَرُوا مِنْهُـمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) في الدنيا والآخرة .

الفوائد :

١- استحباب الاعتذار عند التخلف عن أمر مهم من الأمور ، ليبعد الإنسان عن نفسه التهمة .

٢- أن الحكم في الدنيا على الظاهر .

٣- أن الرسول لا يعلم الغيب .

٤- طغيان بعض المنافقين ، واستمراره وتعنته ، حيث لم يعتذر عن تخلفه ولو ظاهراً .

(**لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٩٣)**)

[التوبة : ٩١ – ٩٣] .

(**لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء**) في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال .

(**وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى**) وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحمى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

(**وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ**) أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم .

(**حَرَجٌ**) أي : إثم أو ذنب بسبب عدم خروجهم مع النبي ﷺ إلى تبوك لقتال الكافرين .

(**إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ**) بشرط أن ينصحوا لله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

- **قال الصابوني** : أي أخلصوا الايمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم ، ولم يثيروا الفتن ، فليس على هؤلاء حرج ، اذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار .
- **قال الجمل** : ومعنى النصح – هنا – أن يقيموا في البلد ، ويحترزوا عن إنشاء الأراجيف ، وإثارة الفتن ، ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو ، ويقوموا بمصالح بيوتهم ، ويخلصوا الإيمان والعمل لله ويتابعوا الرسول ﷺ ، فجملة هذه الأمور تجرى مجرى النصح لله ورسوله .

(**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**) أي ليس عليهم جناح ، ولا الى معاتبتهم سبيل ، وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله ، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم ، وهذا من بليغ الكلام لان معناه : لا سبيل لعاتب عليهم ، وهو جار مجرى المثل .

- **قال السعدي** : وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في نفسه أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن -وهو المسيء- كالمفرط، أن عليه الضمان.

(**وَاللَّهُ غَفُورٌ**) يغفر الزلات ويسترها ، والغفور : اسم من أسماء الله.

- **قال السعدي** : الغفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب.

(**رَّحِيمٌ**) اسم من أسماء الله دال على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى ، كما قال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

(**وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ**) نزلت في البكائين الذين ارادوا الغزو مع رسول الله ، ولم يجد الرسول (ص) ما يحملهم عليه .

قال البيضاوي : هم " البكاءون ، سبعة من الانصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا اجد ما احملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون .

(**قُلْتَ**) لهم معتذراً .

(**لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**) أي : ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب .

(**تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حزناً**) أي : انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن .

(**أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ**) أي : لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم ، ولم يكن عند الرسول ما يحملهم عليه .

وقد جاء في الحديث عن جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ رضِيَ الله عنْهُمَا قَالَ (كُنَّا مَع النَّبِيِّ ﷺ في غَزَاة فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً ، وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلاَّ كَانُوا مَعكُم حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» وَفِي روايَةٍ : «إِلاَّ شَرَكُوكُمْ فِي الأَجْرِ) رَواهُ مُسْلِم .

ورواهُ البُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ (رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَقْوَاماً خلْفَنَا بالمدِينةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلاَ وَادِياً إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا ، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ) رواه البخاري .

- أنَّ النية الصالحة تبلغ ما يبلغ العمل، وأنَّ من فضل الله عز وجل إثابة العبد إذا عجز عن القربة والطاعة مع عزمه عليها .

قال ابن المبارك : رب عمل قليل تكبره النية .

وقال بعض السلف : أخلص النية يكفك القليل من العمل .

وقال داود الطائي : رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية .

وقال يحيي بن أبي كثير : تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل .

وأوصى الإمام أحمد ابنه بالخير وقال : إنك ما تزال بخير ما نويت الخير .

- **تحسر السلف على فوات الطاعة :**

لما بلغ ابن عمر حديث فضل شهود الجنازة قال : لقد فرطنا قراريط كثيرة .

قال إبراهيم بن أدهم: دخلنا على عابد مريض وهو ينظر إلى رجليه ويبكي. فقلنا: ما لك تبكي؟ فقال: ما اغبرت في سبيل الله.

عن أبي أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. فَقَالَ « وَمَا ذَاكَ ». قَالُوا يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّى وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ وَيُعْتِقُونَ وَلاَ نُعْتِقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ ». قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ « تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ مَرَّةً ». قَالَ أَبُو صَالِحٍ فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ »

بكى أحد السلف فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : على يوم مضى ما صمته , وعلى ليلة ما قمتها .

عاقب عمر بن الخطاب ﷺ نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدّق بأرض قيمتها مائتي ألف درهم.

ابن عمر – رضي الله عنهما – كان إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة.

فاتت ابن أبي ربيعة ركعتا سنة الفجر فأعتق رقبة.

(**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء**) إِنَّمَا السَّبِيلُ يتوجه واللوم يتناول الذين يستأذنوك وهم أغنياء قادرون على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء .

(**رَضُواْ**) لأنفسهم ومن دينهم .

(**بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ**) كالنساء والأطفال ونحوهم.

(**وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**) أي : ختم عليها فلا يدخلها خير .

(**فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**) ما ينفعهم .

- **قال السعدي** : وإنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية (فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) عقوبة لهم، على ما اقترفوا.

الفوائد :

١- أن التكاليف الإسلامية تقوم على اليسر ورفع الحرج .

قال الإمام القرطبي : قوله تعالى (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى ...) هذه الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شيء مسقط عنه ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال. ونظير هذه الآية قوله. تعالى (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها) .

٢-أن الجهاد لا يجب على المريض والعاجز .

٣ –فضل النية الصالحة .

٤- أنه متى وجدت النية الصادقة في فعل الخير. حصل الثواب وإن لم يكن هناك عمل ، بدليل أن المؤمنين الذين لم يخرجوا للجهاد لعذر شرعي ، بشرهم النبي ﷺ بأنهم مشاركون لمن خرج في الأجر.

٥- وجوب النصح لله ولرسوله .

٦ – فضل هؤلاء الصحابة حيث حزنوا على فوات الجهاد في سبيل الله مع رسوله ﷺ .

٧- من علامة الإيمان التحسر على فوات الطاعة .

٨-ذم التخلف عن الجهاد لمن قادراً .

٩- خطر الطبع على القلب .

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤))

[التوبة : ٩٤] .

(**يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ**) أي: يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم .

(**قُلْ**) لهم .

(**لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ**) أي : لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون .

(**قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ**) أي : قد أعلمنا الله أحوالكم .

(**وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ**) أي : سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا .

ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَة) أي : ثم ترجعون بعد مماتكم الى الله تعالى ، الذي يعلم السر والعلانية ، ولا تخفى عليه خافية .

(**فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) أي : فيخبركم بأعمالكم ، خيرها وشرها ، ويجزيكم عليها .

الفوائد :

١- أن أهل النفاق يعتذرون لتخلفهم عن الجهاد ، وهم يعتذرون عن حضور كل أمر في عز للإسلام .

٢- لن ينفع اعتذار الكاذب .

٣- أن الله سيفضح المنافقين .

٤- أن الله يعلم السر وأخفى .

٥- تهديد لكل منافق بيوم القيامة ، حيث سيظهر للناس ما في قلوبهم من الخبث .

٦- إثبات يوم القيامة .

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)) .

[التوبة : ٩٥ – ٩٦] .

(**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ**) يخبر تعالى رسوله والمؤمنين فيقول سيحلف لكم هؤلاء المخلَّفون إذا رجعتم إليهم أي إلى المدينة من أجل أن تعرضوا عنهم .

(**فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ**) احتقاراً لهم .

(**إِنَّهُمْ رِجْسٌ**) أي : خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم .

(**وَمَأْوَاهُمْ**) في آخرتهم .

(**جَهَنَّمُ**) اسم من أسماء النار، سميت بذلك إما لبعد قعرها، من قولهم: بئر جهنام، إذا كانت عميقة القعر، وقيل: مشتقة من الجهومة وهي الغلظة، سميت بذلك لغلظ أمرها في العذاب، فتكون ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي.

(**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) أي : من الآثام والخطايا .

(**يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ**) كرره لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة ، أي : يحلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم .

(**فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**) أي : فإن رضيتم عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم ، لأن الله ساخط عليهم ، لأنهم فسقة ، خرجوا عن طاعة الله وعن طاعة رسوله .

- الفسق : الخروج ، ومنه سميت الفأرة الفويسقة لخروجها من جحرها للإفساد .

الفوائد :

١- أن المنافقين أهل أيمان كاذبة .

٢- قلة تعظيم الله عند المنافقين .

٣- ذم كثرة الحلف .

٤- الإعراض عن هؤلاء المنافقين احتقاراً لهم .

٥- أن هؤلاء المنافقين رجس نجس خبثاء الظاهر والباطن .

٦- أن جزاء هؤلاء النار بسبب كفرهم وذنوبهم .

٧- تحريم الرضا على الفاسق المجاهر بفسقه ، إذ يجب بُغْضه فكيف يُرضى عنه ويُحب؟

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)) .

[التوبة : ٩٧ – ٩٩] .

(**الْأَعْرَابُ**) وهم سكان البادية .

(**أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا**) أي : أشد كفراً وأعظم نفاقاً من كفار ومنافقي الحاضرة .

(**وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ**) أي: وهم أولى بألا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع.

- **قال ابن عاشور** : و (أشد) و (أجدر) اسما تفضيل ولم يذكر معهما ما يدل على مفضل عليه ، فيجوز أن يكونا على ظاهرهما فيكون المفضل عليه أهل الحضر ، أي كفار ومنافقي المدينة ، وهذا هو الذي تواطأ عليه جميع المفسرين.
- **قال أبو حيان** : وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب ، فقد نشأوا كما شاءوا ، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ، ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله ، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة .
- **وقال الرازي** : ... والسبب فيه وجوه :

الأول : أن أهل البدو يشبهون الوحوش.

والثاني : استيلاء الهواء الحار اليابس عليهم ، وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم .

والثالث : أنهم ما كانوا تحت سياسة سائس ، ولا تأديب مؤدب ، ولا ضبط ضابط فنشؤا كما شاؤوا ، ومن كان كذلك خرج على أشد الجهات فساداً.

والرابع : أن من أصبح وأمسى مشاهداً لوعظ رسول الله ﷺ ، وبياناته الشافية ، وتأديباته الكاملة ، كيف يكون مساوياً لمن لم يؤاثر هذا الخير ، ولم يسمع خبره.

- **وقال الخازن** : والسبب في كون الأعراب أشد كفراً ونفاقاً بُعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ .
- **وقال السعدي** : يقول تعالى (الأعْرَابِ) وهم سكان البادية والبراري (أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا) من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة: منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم أحرى (وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم – بسبب هذا العلم– تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية.

وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة، كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال، وأشح فيها.

- **قال ابن كثير** : ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي ، لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) ، ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ ، فردّ عليه أَضعافها حتى رضي قال (لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي) لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف

والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب ، لما في طباع الأعراب من الجفاء .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والحكمة .

(**حَكِيمٌ**) فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق ، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته .

(**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا**) أي : ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء ، من يعد ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به ، غرامة وخسراناً ، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجو له ثواباً ، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً .

- **قال ابن عطية** : هذا نص من المنافقين منهم ، ومعنى (يتخذ) في هذه الآيات أي يجعل مقصده ولا ينوي فيه غير ذلك ، وأصل " المغرم " الدين ، ومنه تعوذ رسول الله ﷺ من المغرم والمأثم ، ولكن كثر استعمال المغرم فيما يؤديه الإنسان مما لا يلزمه بحق ، وفي اللفظ معنى اللزوم ، ومنه قوله تعالى (إن عذابها كان غراماً) أي مكروهاً لازماً .

(**وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ**) أي : ينتظر بكم الحوادث والآفات .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر) يعني الموت والقتل ، أي ينتظر أن تنقلب الأمور عليكم بموت الرسول ، ويظهر عليكم المشركون.
- **قال ابن عطية** : و (الدوائر) المصائب التي لا مخلص للإنسان منها فهي تحيط به كما تحيط الدائرة ، وقد يحتمل أن تشتق من دور الزمان ، والمعنى ينتظر بكم ما تأتي به الأيام وتدور به .
- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر) التربص الانتظار ؛ وقد تقدّم ، والدوائر جمع دائرة ، وهي الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية ، أي يجمعون إلى الجهل بالإنفاق سوء الدخلة وخبث القلب.
- **قال السعدي** : أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم فعليهم دائرة السوء ، وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبى الحسنة،

(**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**) جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك .

(**وَاللَّهُ سَمِيعٌ**) لكل أحد .

- (**عَلِيمٌ**) بكل شيء ، لا تخفي عليه خافية ، يعلم السر وأخفى .
- وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم قسم ممدوح ، ولهذا قال تعالى :

(**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ**) أي : يؤمن بوجوده ، وبربوبيته ، وبألوهيته ، وبأسمائه وصفاته .

(**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) وهو يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه لا يوم بعده .

- **قال ابن عاشور** : هؤلاء هم المؤمنون من الأعراب وفَّاهم الله حقهم من الثناء عليهم ، وهم أضداد الفريقين الآخَرين المذكورين في قوله (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً) وقوله (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مَغرماً) .

(**وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ**) أي: يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه .

- **قال ابن عاشور** : أي يتخذون ما ينفقون تقرباً عند الله.

(**وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ**) أي : (و) يجعلها وسيلة لـ (صَلَوَاتِ الرَّسُولِ) أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم،

(**أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ**) (ألا) اداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر؛ أي: ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة ، تقربهم لرضا ربهم ، حيث انفقوها مخلصين .

(**سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ**) أي : سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين .

- فالمراد بالرحمة هنا الرحمة المخلوقة وهي الجنة ، لأن الرحمة الصفة لا يمكن أن يدخل الناس فيها .

قال ﷺ (قال تعالى للجنة : أنتي رحمتي أرحم بك من أشاء) .

وكما في قوله تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيماً) .

(**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**) فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباده برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات.

الفوائد :

١- ذم الغلظة والجفاء .

٢- أن المنافقين ليسوا على درجة واحدة في عداوتهم وبغضهم للإسلام .

٣-ذم البعد عن العلم وأهله ومكانه .

٤- الحرص على القرب من مواطن العلم والخير .

٥- أن الإنسان يذم بحسب بعده من الخير والعلم .

٦- أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعربهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

٧- أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

٨- فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً ، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

٩- أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا،

١٠- أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً، ولا تكون مغرماً.

١١- أن غلظ القلوب وجلافة الطبع تزيد النفوس السيئة وحشة ونفوراً.

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)) .

[التوبة : ١٠٠] .

(**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ**) الذين سبقوا هذه الأمة بالإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله .

(**مِنَ الْمُهَاجِرِينَ**) الذين هجروا قومهم وعشيرتهم وانتقلوا إلى دار الإسلام .

(**وَالْأَنْصَارِ**) الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه الكفار .

- اختلف في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من هم على أقوال :

فقيل : هم الذين صلوا إلى القبلتين وشهدوا بدراً .

وقيل : هم الذين بايعوا بيعة الرضوان.

وقيل : فيمن أسلم قبل الهجرة .

(**وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ**) بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء، هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله.

قال ابن عاشور : والإحسان : هو العمل الصالح.

والباء للملابسة.

وإنما قيد هذا الفريق خاصة لأن السابقين الأولين ما بعثهم على الإيمان إلا الإخلاص ، فهم محسنون ، وأما الذين اتبعوهم فمن بينهم من آمن اعتزازاً بالمسلمين حين صاروا أكثر أهل المدينة ، فمنهم من آمن وفي إيمانه ضعف وتردد ، مثل المؤلفة قلوبهم ، فربما نزل بهم إلى النفاق وربما ارتقى بهم إلى الإيمان الكامل ، وهم المذكورون مع المنافقين في قوله تعالى:

(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض) فإذا بلغوا رتبة الإحسان دخلوا في وعد الرضى من الله وإعداد الجنات.

(**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**) أي : رضى الله عنهم في إيمانهم وإخلاصهم ، فتقبل أعمالهم ، ورفع درجاتهم وتجاوز عن زلاتهم .

ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة .

- وفيه إثبات رضا الله تعالى .

(**وَرَضُوا عَنْهُ**) بما أسبغه عليهم من نعم جليلة ، وبما نالوه منه. سبحانه. من هداية وثواب.

- **قال الطبري** : رضي الله عنهم لطاعتهم اياه وإجابتهم نبيه ، ورضوا عنه لما اجزل لهم من الثواب على الطاعة والايمان .

(**وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ**) أي : أنه سبحانه بجانب رضاه عنهم ورضاهم عنه في الدنيا ، قد أعد لهم سبحانه في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار .

(**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**) لا يبغون عنها حولا ولا يطلبون منها بدلا لأنهم مهما تمنوه، أدركوه، ومهما أرادوه، وجدوه.

(**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

الفوائد :

١- الثناء على الصحابة ، وتزكيتهم من الله .

والصحابي : من اجتمع بالنبي ﷺ مؤمناً ومات على الإيمان ، ولو تخلل إسلامه ردة . (السفاريني) .

وقد جاءت النصوص الكثيرة بتزكيتهم والثناء عليهم .

قال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) .

قال ابن تيمية : فرضي الله عن السابقين من غير اشتراط إحسان ولم يرضى عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان .

قال تعالى (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) .

وقال تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) .

قال ابن كثير : فعلم ما في قلوبهم : أي : من الصدق والوفاء والسمع والطاعة .

وقال تعالى (لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير) .

وقد استدل ابن حزم بهذه الآية على ان جميع الصحابة بالجنة .

وقال تعالى (لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيم) .

وقد حضر غزوة تبوك جميع من كان حاضراً من الصحابة ، إلا من عذره الله والثلاثة الذين خلفوا وقد نزلت توبتهم .

وعنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ». فَلاَ أَدْرِي فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ قَالَ « ثُمَّ يَتَخَلَّفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ) متفق عليه .

قال النووي : اتفق العلماء على أن خير القرون قرنه ﷺ والمراد أصحابه .

وقال ابن حجر : والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث اصحابه .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ، وَلاَ نَصِيفَه) متفق عليه .

٢-أن المهاجرين أفضل من الأنصار .

أولاً : لأن الله قدمهم في التنزيل فقال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

ثانياً : ولأنهم جمعوا بين الهجرة والنصرة .

٣- قال الجصاص : فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى تَفْضِيلِ السَّابِقِ إلَى الْخَيْرِ عَلَى التَّالِي ؛ لِأَنَّهُ دَاعٍ إلَيْهِ يَسْبِقُهُ وَالتَّالِي تَابِعٌ لَهُ فَهُوَ إمَامٌ لَهُ وَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) وَكَذَلِكَ السَّابِقُ إلَى الشَّرِّ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ التَّابِعِ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى مَنْ سَنَّهُ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) .

٤- فضيلة لأبي بكر لأنه أول من أسلم .

٥- فضل الهجرة في سبيل الله .

٦- فضل نصرة دين الله .

٧-لابد من الإحسان في العمل حتى يكون صالحاً .

٨- إثبات الرضا لله تعالى .

٩- حب الصحابة ، لأن الله أثنى عليهم وزكاهم .

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١))

[التوبة : ١٠١] .

(**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ**) يخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون .

(**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ**) أيضاً منافقون .

(**مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**) أي : تمرنوا عليه ، واستمروا وازدادوا فيه طغياناً .

(**لَا تَعْلَمُهُمْ**) بأعيانهم فتعاقبهم ، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم ، لما لله في ذلك من الحكمة الباهـرة .

(**نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**) لأني عالم السر والعلانية ونعلم نفاقهم ونعرفك حالهم.

(**سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ**) قيل : في الدنيا بالقتل والسبي ، وبعد ذلك بعذاب القبر.

- **قال ابن عطية** : ولا خلاف بين المتأولين أن " العذاب العظيم " الذي يردون إليه هو عذاب الآخرة ، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر .

واختلف في عذاب المرة الأولى :

فقال مجاهد وغيره : هو عذابهم بالقتل والجوع ، وهذا بعيد لأن منهم من لم يصبه هذا .

وقال ابن عباس أيضاً : عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه .

وقال ابن إسحاق : عذابهم هو همهم بظهور الإسلام وعلو كلمته .
وقال ابن عباس وهو الأشهر عنه : عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق .
(**ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**) أي : ثم يعودون ويرجعون إلى خالقهم – سبحانه – يوم القيامة فيعذبهم عذابا عظيما بسبب إصرارهم على النفاق ، ورسوخهم في المكر والخداع.

الفوائد :

١- أن النفاق موجود في كل مكان .

٢- فضح الله للمنافقين .

٣- أن المنافقين ليسوا على درجة واحدة .

٤- أنه لا يعلم ما في القلوب إلا الله .

٥- أن الإنسان في الدنيا يحكم بالظاهر دون الباطن .

٦- تهديد شديد للمنافقين بالعذاب بالدنيا والقبر والآخرة .

(**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)**) .
[التوبة : ١٠٢] .

لما بَيَّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغَزاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكاً ، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال :
(**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ**) أي: أقروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.
وفي المراد بهم قولان :
أحدهما : أنهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم وأخلصوا .
وحجة هذا القول أن قوله تعالى (وآخرون ...) عطف على قوله (وممن حولكم من الأعراب منافقون ...) .
والقول الثاني : وهو قول جمهور المفسرين إنها نزلت في جماعة من المسلمين من أهل المدينة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك

- **قال الآلوسي** : قوله (وآخرون اعترفوا بذنوبهم ...) بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم في أمر الدين ، ولم يكونوا منافقين على الصحيح ، وقيل هم طائفة المنافقين إلا أنهم وفقوا للتوبة فتاب الله عليهم .

والمعنى : ويوجد معكم أيها المؤمنون قوم آخرون من صفاتهم أنهم اعترفوا بذنوبهم ، أي : أقروا بها ولم ينكروها.

- **قال الخازن** : قال أهل المعاني : الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء ومعناه أنهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهي أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على ما فعلوا.

(**خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً**) أي : خلطوا عملهم الصالح وهو جهادهم في سبيل الله قبل غزوة تبوك ، بعمل سيئ وهو تخلفهم عن الخروج إلى هذه الغزوة.

- **قال الرازي** : في هذا العمل الصالح وجوه :

الأول : العمل الصالح هو الاعتراف بالذنب والندامة عليه والتوبة منه ، والسيء هو التخلف عن الغزو.

والثاني : العمل الصالح خروجهم مع الرسول ﷺ إلى سائر الغزوات ، والسيء هو تخلفهم عن غزوة تبوك.

- **قال السعدي** : ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرؤ على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء، بأن يغفر الله لهم .

(**عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**) أي : عسى الله تعالى : أن يقبل توبتهم ، ويغسل ، حوبتهم ، ويتجاوز عن خطاياهم.

وعبر سبحانه بعسى للإشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه ، حتى لا يتكل الشخص ، بل يكون على خوف وحذر.

وقد قالوا إن كلمة عسى متى صدرت عن الله تعالى فهي متحققة الوقوع ، لأنها صادرة من كريم ، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً في شيء لا يعطيه إياه.

- **قال السعدي** : وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة.

والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.

(**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم**) تعليل لرجاء قبول توبتهم ، إذ معناه ، إن الله تعالى كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين.

- **قال القرطبي** : والجمهور أن الآية نزلت في شأن المتخلّفين عن غزوة تبوك ، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبو لُبابة ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقهم ويرضى عنهم ، فقال النبي ﷺ : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رَغبوا عنّي وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين ، فأنزل الله هذه الآية ؛ فلما نزلت أرسل إليهم النبيّ ﷺ فأطلقهم وعذرهم.

قال ابن كثير : وهذه الآية -وإن كانت نزلت في أناس معينين -إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين المتلوثين.

الفوائد :

١- أنه لا يسلم أحد من الذنب .

٢- أن وقوع الإنسان في الذنب ثم توبته لا يعتبر نقصاً .

٣- أن الله يتوب على التائبين ويفرح بذلك .

٤- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : التواب الرحيم .

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)) .

[التوبة : ١٠٣] .

(**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً**) أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخُذَ من أموالهم صدقَة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في "أموالهم" إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئاً .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) .

قال المفسرون : " لما تاب الله عز وجل على أبي لبابة وأصحابه قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، فقال : "ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً" " فنزلت هذه الآية.

وفي هذه الصدقة قولان.

أحدهما : أنها الصدقة التي بذلوها تطوعاً ، قاله ابن زيد ، والجمهور.

والثاني : الزكاة ، قاله عكرمة.

- **وقال الخازن** : ... وقال بعضهم إن الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذها من الأغنياء ودفعها إلى الفقراء وهذا قول أكثر الفقهاء واستدلوا بها على إيجاب أخذ الزكاة.

(**تُطَهِّرُهُمْ**) من الذنوب والأخلاق .

(**وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**) أي: تنميهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة ، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي ، وتنمي أموالهم.

- فضائل الصدقة :

الصدقة فضلها عظيم ، وأجرها كبير ، وجاءت النصوص الكثيرة في فضلها :

أولاً : أنها برهان على صدق إيمان صاحبها .

لحديث أبي مالك الأشعري . قال : قال ﷺ (والصدقة برهان) رواه مسلم .

قال ابن رجب : وأما الصدقة فهي برهان ، ... فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان.

ثانياً : أنها تطهير للنفس.

كما قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) .

ثالثاً : أنها تزيد المال .

قال ﷺ (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم .

رابعاً : أنها تظلل صاحبها يوم القيامة .

كما في حديث (العبد في ظل صدقته يوم القيامة) رواه ابن حبان .

خامساً : مغفرة الذنوب:

وفي الحديث (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) رواه الترمذي.

سادساً : يكون في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله .

كما في حديث (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ) .

سابعاً : سبب للنجاة من النار .

كما قال ﷺ للنساء (تصدقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار) متفق عليه .

وقال ﷺ (اتقوا النار ولو بشق تمرة) متفق عليه .

ثامناً : أن الله يضاعفها ولو كانت قليلة .

كما قال تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) .

وقال ﷺ (إن الله يربي الصدقة كما يربي أحدكم فلوه) متفق عليه .

عن أبي هُرَيْرَةَ قال . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ – وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ – إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ) متفق عليه .

تاسعاً : درجة البر (الجنة) تنال بالإنفاق:

كما قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

وكان ابن عمر إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به .

عاشراً : صاحب الصدقة موعود بالخلف .

كما قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أي يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب .

الحادي عشر : سبب لدعاء الملائكة .

قال ﷺ (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه .

الثاني عشر : أن فيها انشراح الصدر، وراحة القلب وطمأنينته .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدَيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تُغَشِّىَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا » . قَالَ فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِإِصْبَعِهِ فِي جَيْبِهِ فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَوَسَّعُ) متفق عليه .

الثالث عشر : الفضل الكبير .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال (بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ . فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلاَنٌ . لِلاِسْمِ الَّذِي سَمِعَ

فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتاً فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى
مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثاً وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَه) رواه مسلم .

(**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**) أي: ادع لهم واستغفر لهم ، أي: للمؤمنين عموماً وخصوصاً عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم.

كما رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن أبي أوفى قال (كان رسول الله ﷺ إذا أُتِيَ بصدقة قوم صَلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: "اللهم صَل على آل أبي أوفى) .

وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صلّ عليَّ وعلى زوجي. فقال: "صلى الله عليك، وعلى زوجك .

(**إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**) أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم .

(**وَاللَّهُ سَمِيعٌ**) لدعائك، سمع إجابة وقبول.

(**عَلِيمٌ**) أحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمتثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته دعا له وبرَّك.

الفوائد :

١- في الآية :أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها.

٢-وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي، أن يكون جهراً ، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

٣- ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملا صالحا بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك. (تفسير السعدي) .

٤- فضل الصدقة .

٥- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : السميع ، والعليم .

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)) .
[التوبة : ١٠٤] .

(**أَلَمْ يَعْلَمُوا**) أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه .

(**أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**) التائبين من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده، إذا تاب أعظم فرح يقدر.

(**وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**) منهم أي: يقبلها، ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدهم كما يربي الرجل فلوه، حتى تكون التمرة الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « لاَ يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلاَّ أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ قَلُوصَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ) متفق عليه .

(**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ**) أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه المعصية مراراً .

(**الرَّحِيمُ**) الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

- **فضل التوبة :**

أولاً : أنها سبب لمحبة الله .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .

ثانياً : أنها طاعة ومرادة لله تعالى .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) .

ثالثاً : أن التوبة سبب الفلاح، والفوز بسعادة الدارين:

قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يتلذذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه .

رابعاً : بالتوبة تكفر السيئات: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفَّر الله بها جميع ذنوبه وخطاياه.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) .

خامساً : بالتوبة تبدل السيئات حسنات: فإذا حسُنت التوبة بدَّل الله سيئات صاحبها حسنات .

قال تعالى (إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) .

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح .

قال ابن عباس . رضي الله عنهما ما رأيت النبي ﷺ فَرِحَ بشيء فَرَحَهُ بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) .

سادساً : التوبة سبب للمتاع الحسن، ونزول الأمطار، وزيادة القوة، والإمداد بالأموال والبنين .

قال تعالى (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) .

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِين) .

وقال على لسان نوح عليه السلام (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) .

سابعاً : سبب لفرح الله تعالى .

كما في حديث (للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أضلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ) مُتَّفَقٌ عليه .

الفوائد :

١- سعة رحمة الله بتوبته على التائبين .

٢- أن من تاب وندم واستغفر تاب الله عليه مهما عظم ذنبه .

٣-فضل الصدقة .

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)) .

[التوبة : ١٠٥] .

(**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ** ...) قال مجاهد: هذا وَعيد، يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرَضُ عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول، وعلى المؤمنين.

وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) .

وقال تعالى (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) .

وقال تعالى (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) .

وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا .

عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال (لو أن أحدكم يعمل في صخرة صَماء ليس لها باب ولا كُوَّة ، لأخرج الله عمله للناس كائنًا ما كان) .

وقد ورد: أن أعمال الأحياء تُعرَض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ .

- **قال السعدي** : يقول تعالى (وَقُلْ) لهؤلاء المنافقين (اعْمَلُوا) ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك، سيخفى . (فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، (وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

الفوائد :

١- تهديد لكل منافق ومخالف لأوامر الله .

٢- وجوب الخوف من عذاب الله .

٣-إثبات البعث والحساب .

٤- أن يوم القيامة يظهر كل على حقيقته .

٥- أن الله لا يخفى عليه شيء .

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)) .

[التوبة : ١٠٦] .

(**وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ**) أي : وآخرون من المتخلفين ، مؤخرون الى ان يظهر امر الله فيهم ، قال ابن عباس : هم "كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن امية ، لم يسارعوا الى التوبة والاعتذار ، وكانوا من اصحاب بدر ، فنهى النبي (ص) عن كلامهم والسلام عليهم ، فصاروا مرجئين لأمره تعالى الى ان يتجاوز عن سيئاتهم ، فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ، ويتوب على العبد دون غيره .

- **قال ابن كثير** : قال ابن عباس ومجاهدُ وعِكْرِمة، والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كسلا وميلا إلى الدَّعَة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكا ونفاقا، فكانت منهم طائفة رَبَطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ) (وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ [وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) .كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

(**إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ**) أي: هم تحت عفو الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) بأحوال العباد ونياتهم ، عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو .

(**حَكِيمٌ**) في أفعاله وأقواله يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

الفوائد :

١- أن ممن تخلف عن غزوة تبوك بعض الصحابة كسلاً لا نفاقاً .

٢- أن الإنسان — مهما عظم قدره - قد يكسل وقد يقع في بعض المخالفات .

٣- رحمة الله بعباده ولطفه بهم .

٤- سعة رحمة الله بتوبته على هؤلاء الثلاثة .

٥- أن رحمة الله تغلب غضبه .

٦- إثبات علم الله الكامل .

٧- إثبات الحكمة الكاملة لله تعالى .

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى

التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

[التوبة : ١٠٧ – ١٠٨] .

(**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا**) أي : ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجرام ، حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر ، وسموه " مسجدا " مضارة للمؤمنين ، وقد اشتهر باسم " مسجد الضرار .

- **قال الواحدي** : قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعامة أهل التفسير ﷺ : الذين اتخذوا مسجداً ضراراً كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين بنوا مسجداً يضارون به مسجد قباء

(**وَكُفْرًا**) أي : نصرة للكفر الذي يخفونه .

(**وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**) أي : يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين ، ويصرفونهم عن مسجد قباء .

(**وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) أي : ترقباً وانتظاراً لقدوم (أبي عامر الفاسق) الذي قال لرسول الله : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ، ليكون معقلاً له ، قال الطبري في رواية الضحاك : هم ناس من المنافقين بنوا مسجدا بقباء ، يضارون به نبي الله والمسلمين ، وكانوا يقولون : إذا رجع أبو عامر صلى فيه ، واذا قدم ظهر على " محمد " وتغلب عليه .

- قوله تعالى (وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) علة رابعة لاتخاذ هذا المسجد.

أي : واتخذوه ليكون مكاناً يرقبون فيه قدوم « من حارب الله ورسوله » وهو أبو عامر الراهب ، الذي أعلن عداوته لدعوة الإسلام « من قبل » بناء مسجد الضرار.

فإن أبا عامر هذا ، كتب إلى جماعة من قومه. وهو عند هرقل. يعدهم ويمنيهم ، ويطلب منهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه فشرعوا في بناء هذا المسجد .

- **قال الشوكاني** : فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة :

الأوّل : الضرار لغيرهم ، وهو المضارة .

الثاني : الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق .

الثالث : التفريق بين المؤمنين؛ لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء ، فتقلّ جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى .

الرابع : الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله

(**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى**) أي : وليقسمن ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان ، من الرفق بالمسكين ، والتوسعة على المصلين .

(**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) أي: فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه ضِراراً لمسجد قُباء، وكفراً بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: "الراهب" لعنه الله .

(**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**) أي : لا تصل فيه يا محمد أبداً ، لأنه لم يبن إلا ليكون معقلاً لأهل النفاق .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً يعنى مسجد الضرار. لا تقم فيه للصلاة ، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام. يقال : فلان يقوم الليل أي : يصلى ، ومنه الحديث الصحيح : « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ».

وقد روى أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التي فيها هذا المسجد ، وأمر بموضعه أن يتخذ كناسة تلقى فيها الجيف والأقذار .

(**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى**) اللام لام القسم أي : لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته .

- **قال الشوكاني** : ومعنى تأسيسه على التقوى : تأسيسه على الخصال التي تتقى بها العقوبة .

واختلف العلماء في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقالت طائفة : هو مسجد قباء ، كما روي عن ابن عباس والضحاك ، والحسن ، والشعبي ، وغيرهم . وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي ﷺ .

- **قال ابن كثير** : قد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جُبَير، وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذي هو في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى ، وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى .

وقد جاء عند أحمد : عن أبيّ بن كعب: أن النبي ﷺ قال (المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا) .

(**مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ**) متعلق بأسس : أي أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه .

(**أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ**) أي : أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار .

(**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**) أي: في هذا المسجد رجال اتقياء -وهم الأنصار- يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي.

- **قال السعدي** : أي : من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.
- وقد جاء عند أبي داود: عن أبي هريرة، ﷺ، عن النبي ﷺ قال (نزلت هذه الآية في أهل قباء: فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم الآية) .

(**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**) الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

(**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ**) أي : على نية صالحة وإخلاص .

(**وَرِضْوَانٍ**) بأن كان موافقا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة .

(**خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**) الشفا : الحرف والشفير ، وحرف الوادي : جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول ، فيبقى واهياً ، والهار وهو المتصدع الذي أوشك على التهدم ؛ وهار صفة لجرف ، أي جرف موصوف بأنه هائر أي : متساقط.

والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه « خير أم من » أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل « شفا جرف هار » في قلة الثبات والاستمساك.

(**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) ما داموا مصرين على ظلمهم وطغيانهم .

(**لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ**) أي: شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أشرب عابدو العجل حبه.

(**إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**) بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلى ريبهم، ونفاقا إلى نفاقهم.

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) أي: لا يزال هذا إلا أن تتقطع قلوبهم قطعاً ، وتتفرّق أجزاء: إما بالموت أو بالسيف، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء، ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة .

وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**) بجميع الأشياء، ظاهرها، وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنوه.

(**حَكِيمٌ**) لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فللّه الحمد .

الفوائد :

قال السعدي : وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها : أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغيره النية ، فينقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد " قباء" حتى قال الله فيه (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) .

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدا أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين. (تفسير السعدي) .

- **وقال ابن كثير** : فيه دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)) .

[التوبة : ١١١] .

(**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) أي: اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة، وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين.

- **قال ابن عاشور** : والمراد بالمؤمنين في الأظهر أن يكون مؤمني هذه الأمة.

وهو المناسب لقوله بعد (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) .

ويكون معنى قوله (وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل) ما جاء في التوراة والإنجيل من وصف أصحاب الرسول الذي يختِم الرسالة.

وهو ما أشار إليه قوله تعالى (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم إلى قوله ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل إلى قوله (ليغيظ بهم الكفار) .

ويجوز أن يكون جميع المؤمنين بالرسل عليهم الصلاة والسلام وهو أنسب لقوله (في التوراة والإنجيل) ، وحينئذٍ فالمراد الذين أمروا منهم بالجهاد ومن أمروا بالصبر على اتباع الدين من أتباع دين المسيحية على وجهها الحق فإنهم صبروا على القتل والتعذيب.

(**أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم**) فهي السلعة المبيعة .

(**بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**) التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات.

(**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) أي : لإعلاء كلمة الله ، لا لغرض دنيوي أو عصبية .

(**فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**) أي: سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة .

أي : أنهم يقاتلون في سبيل الله ، فمنهم من يقتل أعداء الله ، ومنهم من يقتل على أيدى هؤلاء الأعداء ، وكلا الفريقين القاتل والمقتول جزاؤه الجنة.

- **قال السعدي** : صفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه .

ولهذا جاء في الصحيحين: "وتكفل الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وتصديق برسلي، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة".

- فالجهاد من اسباب دخول الجنة .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ) متفق عليه .

وعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى . قال : قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوف) متفق عليه .

والمعنى : ... وَالسَّبَب الْمُوَصِّل إِلَى الْجَنَّة عِنْد الضَّرْب بِالسُّيُوفِ فِي سَبِيل اللَّه ، وَمَشْي الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيل اللَّه ، فَاحْضُرُوا فِيهِ بِصِدْقٍ وَاثْبُتُوا .

وقال ﷺ (إِنَّ أَبْوَاب الْجَنَّة تَحْت ظِلَال السُّيُوف) قَالَ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ : إِنَّ الْجِهَاد وَحُضُور مَعْرَكَة الْقِتَال طَرِيق إِلَى الْجَنَّة وَسَبَب لِدُخُولِهَا .

قال القرطبي : قوله (... الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوف) هذا الكلام من النفيس البديع الذي جمع ضروب البلاغة مع جزالة اللفظ وعذوبته وحسن استعارته ، وشمول المعاني الكثيرة مع الألفاظ المقبولة الوجيزة بحيث يعجز الفصحاء اللسن البلغاء عن إيراد مثله ، وأن يأتوا بنظيره وشكله ، فإنه استفيد منه مع وجازته الحض على

الجهاد والإخبار بالثواب عليه .
وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال (لا يلجُ النارَ رجلٌ بكى من خشية الله، حتَّى يعودَ اللَّبَنُ في الضّرع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنَّم) رواه الترمذي .
(**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ**) تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

- **قال السعدي** : التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

(**وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ**) أي: ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله ، فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله تعالى (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا) (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا) .
(**فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ**) أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد .
قال السعدي : أي لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضا، ويحث بعضكم بعضاً.
(**وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.
وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.
قال بعض العلماء : : فيه تحريض على القتال ، وإعلام لهم بأنهم رابحون في هذه الصفقة.
والاستبشار : الشعور بفرح البشرى ، شعورا تنبسط له أسارير الوجه.
أي : إذا كان الأمر كذلك فافرحوا ببيعكم الذي بايعتم به غاية الفرح ، وارضوا به نهاية الرضى ، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه.
قال بعض العلماء : ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية لأنه أبرزه في صورة عقد عقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وجعله مسجلاً في الكتب السماوية ، وناهيك به من صك. وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده فنسيئته أقوى من نقد غيره ، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم.
الفوائد :
١- فضل الجهاد في سبيل الله .
٢- أن الجهاد من أسباب دخول الجنة .

٣- الترغيب في الجهاد .

٣- فضل الشهادة في سبيل الله تعالى .

ويروى عن الحسن البصري أنه قرأ هذه الآية فقال : انظروا إلى كرم الله تعالى أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، ثم يكافئنا عليها متى بذلناها في سبيله بالجنة.

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)) .

[التوبة : ١١٢] .

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة:

- **قال أبو حيان** : وهذه أوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إلى التحلي بها عباده ، وليكونوا على أوفى درجات الكمال ، وآية أنّ الله اشترى مستقلة بنفسها ، لم يشترط فيها شيء سوى الإيمان ، فيندرج فيها كل مؤمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وإن لم تكن فيه هذه الصفات.

(**التَّائِبُونَ**) أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

قالَ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً) .

وقَالَ الله تَعَالَى : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

- وحتى تكون التوبة صحيحة يشترط لذلك شروط :

أحَدُها : أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ .

قال ابن القيم : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

والثَّانِي : أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا .

قال ابن القيم : فأما الندم، فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وفي المسند (الندم توبة) .

والثَّالثُ : أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبداً . فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

(**الْعَابِدُونَ**) أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

- يكون العبد محققاً للعبودية بأمرين :

الأول : متابعة الرسول ﷺ .

الثاني : الإخلاص لله تبارك وتعالى .

- - كلما كان العبد أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه ، وأعز له ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق : أعظمهم عبودية لله .

●- **قال ابن تيمية** : أعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق: إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه. **كما قيل**: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، ومتى احتجت إليهم – ولو في شربة ماء – نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به شيئاً.

والرسول ﷺ قال (إنما أنا عبد) ، وقد وصفه الله في وصف العبودية في أعلى المنازل :

فقال تعالى في الإسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً م...) .

وقال تعالى في مقام التحدي (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) .

وقال تعالى في مقام الدعوة (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً) .

وكان ﷺ أعبد الناس لربه وأخشاهم له .

ووصف الله بذلك أكمل خلقه وأحبهم إليه وهم رسله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) .

وقال تعالى (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) .

وقال تعالى عن المسيح (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ) .

وقال عنه وعن الملائكة (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) .

وقال أيضاً عن الملائكة (وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ) .

والعبادة هي الغاية المحبوبة لله تعالى والمرضية له التي خلق الخلق لها ، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ، وبها أرسل جميع الرسل كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

(**الْحَامِدُونَ**) لله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

(**السَّائِحُونَ**) أي : الصائمون ، وهو ترك الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع ، كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى (سَائِحَاتٍ) أي: صائمات .

- **قال الرازي** : قال عامة المفسرين هم الصائمون.
- **وقال الشوكاني** : قيل : هم الصائمون ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قوله تعالى (عابدات سائحات) وإنما قيل للصائم سائح؛ لأنه يترك اللذات ، كما يتركها السائح في الأرض .
- وفسرت السياحة ، الرحلة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام .
- والسياحة في اللغة أصلها : الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء .

- **قال ابن كثير**: ليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال (يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَم يَتْبَع بها شَعفَ الجبال، ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن) .

(**الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ**) أي: المكثرون من الصلاة، المشتملة على الركوع والسجود.

(**الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**) ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

(**وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ**) وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

(**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**) أي :القائمون بما أمر به والمنتهون عما نهى عنه.

- وحدود الله تنقسم إلى قسمين :

حدود أوامر وواجبات يجب فعلها ، وعدم تركها وتعديها كما قال تعالى (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا) .

وحدود نواه ومحرمات وممنوعات يجب تركها والبعد عنها وعدم قربها كما قال تعالى (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا) .

(**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**) لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم، قوة، وضعفاً ، وعملاً بمقتضاه.

الفوائد :

١- فضل التوبة .

٢- على المسلم أن يجدد التوبة دائماً وأبداً .

٣- فضل العبودية لله .

٤- كلما كان الإنسان أكثر عبودية لله كان أعظم منزلة عند الله .

٥-فضل حمد لله في السراء والضراء .

٦- على الإنسان أن يبحث دائماً عن الأسباب التي تؤدي إلى حمد الله وشكره .

٧-فضل عبادة الصيام .

٨- فضل الصلاة وعلو منزلتها .

٩- فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد تقدم فضلهما وما فيهما .

١٠-فضل حفظ حدود الله .

١١- تحريم تعدي حدود الله .

١٢- استحباب تبشير المؤمنين .

(**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)**) .

[التوبة : ١١٣- ١١٤] .

لما بيّن الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً ، وصرّح بأن ذلك متحتم ، ولو كانوا أولي قربى ، وأن القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها .

(**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا**) يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به .

(**أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**) أي: لمن كفر به، وعبد معه غيره .

(**وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى**) أي : ولو كان هؤلاء المشركون من أقرب أقربائهم .

(**مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**) هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار ، والمعنى : أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا ، وعدم الاعتداد بالقرابة ، لأنهم ماتوا على الشرك . وقد قال سبحانه (إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ) . فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده .

- عن سعيد بن الْمُسَيَّب عَنْ أَبِيهِ قَالَ (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « يَا عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَمَا وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ). وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

(**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا**) في قوله (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) وقوله تعالى (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

- **قال الشوكاني** : ذكر الله سبحانه السبب في استغفار إبراهيم لأبيه ، أنه كان لأجل وعد تقدّم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له ، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدوّ لله ، وأنه غير مستحق للاستغفار ، وهذا يدلّ على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار ، ومن أعداء الله .

(**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ**) أي : فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير (تَبَرَّأَ مِنْهُ) موافقة لربه وتأدباً معه.

(**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ**) أي: رجّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار والإنابة إلى ربه.

(**حَلِيمٌ**) الكثير الحلم ، كما تفيده صيغة المبالغة ، وهو الذي يصفح عن الذنوب ، ويصبر على الأذى . وقيل : الذي لا يعاقب أحداً قط إلا لله .

- **صفات إبراهيم عليه السلام :**

الصفة الأولى : أمة .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ...)

قيل معناها هنا : الرجل الجامع لخصال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس , وهذا هو المقصود في حق إبراهيم , وهذه تدلنا على عظيم ما كان يتصف به إبراهيم من عبادة ودعوة وخلق .

وقيل أن المقصود بالأمة هنا : أي الإمام , أي قدوة يقتدى به في الخير , وممن قال به ابن جرير الطبري وابن كثير .

الصفة الثانية : قانت .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً) .

والقنوت : لزوم الطاعة مع الخضوع .

الصفة الثالثة : حنيفاً .

والحَنَف : الميل عن الضلال إلى الاستقامة , والحنيفُ : المائل والجنف : ضده .

والأحنف : مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً , وقيل لمجرد الميل .

قال ابن كثير : الحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد .

وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين , قال تعالى : [ولَمْ يَكُ مِنَ المشْرِكِينَ], وقال : [ومَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ], وهكذا فليكن أولياء الله .

الصفة الرابعة : شاكر .

قال تعالى (**شَاكِراً لأَنْعُمِهِ**) أي قائماً بشكر نعم الله عليه .

نعمة الله على لسان عبده : ثناء واعترافاً , وعلى قلبه : شهوداً ومحبة , وعلى جوارحه : انقياداً وطاعة .

بالقلب , قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .

وباللسان , قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

وبالجوارح , قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) .

الصفة الخامسة : الحلم .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) .

والحلم : ضبط النفس والطبع عن الهيجان عند الاستثارة .

والحليم : الكثير الحلم وموقف إبراهيم من مقالة أبيه (لأَرْجُمَنَّكَ) .

ومن العتاة قوم لوط حينما مرت به الملائكة وأخبرته بما أمرت بها قال (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وجَاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) .

ولم يكن حلم إبراهيم ذريعة يتذرع للسكوت عن المنكر بل كان يعلن الحق وينكر الباطل (وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) .

الصفة السادسة : أوّاه .

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) .

والذي يتحقق من معنى الأوّاه أنه الخاشع الدعّاء المتضرع , وكثرة تأوّه إبراهيم وتضرعه بين يدي ربه قد ذكرت في آيات كثيرة تدل على تحقيق إبراهيم (رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ) وجدير بمن سلك طريق الدعوة أن يجعل تعجيل الإنابة من أبرز سماته ليكسب عون ربه وتسديده ومحبته .

الصفة السابعة : السخاء .

قال تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ) .

فذكر أن الضيف مكرمون لإكرام إبراهيم لهم , ولم يذكر استئذانهم ليدل على أنه قد عرف بإكرام الضيفان , مع أنهم قوم منكرون لا يعرفهم فقد ذبح لهم عجلاً واستسمنه , ولم يعلمهم بذلك بل راح : أي ذهب خفية حتى لا يُشعر به , تجاوباً لضيافة , فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيئاً للضيفان , وخدمهم بنفسه, فجاء به ومرّ به إليهم ولم يقربهم إليه, وتلطف مبالغة في الإكرام فقال (أَلا تَأْكُلُونَ) .

الصفة الثامنة : الصبر .

كان إبراهيم مثلاً يحتذى في الصبر حتى استحق أن يكون من أولي العزم الذين أمر رسولنا ﷺ أن يصبر كصبرهم (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) .

وكان صبر إبراهيم شاملاً لابتلاءات كثيرة , سيأتي بيان جملة منها بإذن الله .

الصفة التاسعة : شجاعته .

واجه إبراهيم قومه ولم يخش كيدهم وقال مقسماً (وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) وقوله لهم (أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ...) .

الصفة العاشرة : تحقيقه الكامل لعقيدة الولاء والبراء .

قال تعالى (وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

فكل عدو لله وإن قربه النسب تجب البراءة منه , وكل ولي لله وإن باعدت به الأوطان والأزمان تجب موالاته ومحبته وقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم في ذلك (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ ...) .

الصفة الحادية عشرة : سلامة القلب .

قال تعالى (وإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

وسلامة القلب نوعان : كلاهما داخل في مضمون الآية , **أحدهما** : في حق الله وهو سلامة قلبه من الشرك , وإخلاصه العبودية لله , وصدق التوكل عليه .

والثاني : في حق المخلوقين بالنصح لهم وإيصال الخير إليهم , وسلامة القلب من الحقد والحسد وسوء الظن والكبر وغير ذلك .

الفوائد :

١-أنه لا يجوز لمسلم أن يستغفر لمشرك بعد موته على الشرك مهما بلغت درجة قرابته له.

٢-هذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار ، وتحريم الاستغفار لهم ، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً .

٣- أهمية عقيدة الولاء والبراء .

٤-خطر الشرك .

٥- أن من مات على الشرك فهو من أهل النار .

٦- أنه لا يجوز موالاة أعداء الله ولو كانوا من أقرب الناس .

٧- تحقيق إبراهيم لعقيدة الولاء والبراء .

٨- الاقتداء بإبراهيم في ذلك .

٩- الثناء على إبراهيم .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)) [التوبة : ١١٥] .

(**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا**) نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين ، فخافوا على أنفسهم من ذلك ، فنزلت الآية تانيساً لهم, أي: ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال .

(**بعد إذ هداهم**) أي : بعد أن وفقهم للإيمان .

(**حتى يبين لهم ما يتقون**) أي : حتى يبين لهم ما يجتنبونه ، فان خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة .

والمعنى : أي: وما كان من شأن الله – تعالى – في لطفه وعدله .. أن يصف قوماً بالضلال عن طريق الحق « بعد إذ هداهم » إلى الإسلام ، لمجرد قول أو عمل صدر عنهم عن طريق الخطأ في الاجتهاد.

- وإنما يصفهم بذلك بعد أن يبين لهم ما يجب اتقاؤه من الأقوال والأفعال ، فلا يطيعون أمره ، ولا يستجيبون لتوجيهه سبحانه .

قال صاحب الكشاف : يعنى سبحانه أن ما أمر باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيرها مما نهى عنه وبين أنه محظور ، لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب. وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ، ولا ببيع الصاع بصاعين قبل التحريم.

(**إن الله بكل شيء عليم**) أي : عليم بجميع الاشياء ومنها انه يعلم من يستحق الهداية ، ومن يستحق الاضلال .

الفوائد :

١- رحمة الله بعباده .

٢- عدل الله تعالى .

٣- أن الله لا يعاقب أحد على فعل أو قول إلا بعد إقامة الحجة عليه .

ففي هذا أدلّ دليل على أن المعاصي إذا ارتكبت وانتهك حجابها كانت سبباً إلى الضلالة والردى ، وسُلَّما إلى ترك الرشاد والهدى.

٤- عموم علم الله تعالى .

(**إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١١٦)**) . [التوبة : ١١٦] .

(**إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي : كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتدبيراً.

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد :

أولاً : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

ويدل لذلك أيضاً ما بينّه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت ، حينما أرسلت إليه ليأتي ، فأرسل يقرأ السلام ويقول : إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب) .

ثانياً : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

ثالثاً : أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك ، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله ، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ..) رواه مسلم .

(**يُحْيِي وَيُمِيتُ**) أي : بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره ، ولا يُزاد في عمُر أحد ولا يُنقص منه إلا بقضائه وقدره .

قال الطبري : يعني جل ثناؤه بقوله : (والله يحيي ويميت) والله المعجِّل الموتَ لمن يشاء من حيث يشاء ، والمميت من يشاء كلما شاء ، دون غيره من سائر خلقه.

وهذا من الله عز وجل ترغيبٌ لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم ، وإخراج هيبتهم من صدورهم ، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله وإعلامٌ منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده ، وأنه لن يموت أحدٌ ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له ونهيٌ منه لهم ، إذ كان كذلك ، أن يجزعوا لموت من مات منهم أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين. أ هـ

(**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**) أي : وما لكم من غير الله من ولي : يرعى شؤونكم ، أو ناصر ينصركم ، فالله نعم الولي ونعم النصير .

ئ

- **قال الشيخ ابن عثيمين:** اعلم أن الولي والنصير إذا اجتمعا صار الولي فيما ينفع، والنصير من يدافع عنك ممن يعتدي عليك، وأما إذا أفرد أحدهما شمل الآخر، فإذا قيل: ولي بدون نصير، فالمراد به من يجلب لك الخير ويدفع عنك الشر .

الفوائد :

١- تقرير ملك الله عز وجل للسماوات والأرض ، لقوله : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

٢-اختصاص ملك السماوات والأرض لله عز وجل لا يملكهما أحد سواه ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .

٣- عموم ملك الله لكل شيء .

٤- الذي بيده الحياة والموت هو الله .

٥- الشجاعة والإقدام وعدم الخوف ، لأن أمر الحياة والموت بيد الله لا بيد المخلوق .

(لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)) .

[التوبة : ١١٧] .

(**لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ**) يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه تَابَ عَلَى النَّبِيِّ محمد ﷺ .

(**وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ**) فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات .

- وللعلماء أقوال في المراد بالتوبة التي تابها الله على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المهاجرين والأنصار :

فمنهم من يرى أن المراد بها قبول توبتهم ، وغفران ذنوبهم ، والتجاوز عن زلاتهم التي حدثت منهم في تلك الغزوة أو في غيرها ، وإلى هذا المعنى أشار القرطبي بقوله :

قال ابن عباس: كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل أنه أذن للمنافقين في القعود، بدليل قوله سبحانه قبل ذلك (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) وكانت توبته على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه؛ أي: إلى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك.

ومنهم من يرى أن المقصود بذكر التوبة هنا التنويه بفضلها، والحض على تجديدها، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال: « تاب الله على النبي » كقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وكقوله : « واستغفر لذنبك ». وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرين والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح .

ومنهم من يرى أن المراد بالتوبة هنا : دوامها لا أصلها ، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله : لقد تاب الله على النبي .. » أي : أدام توبته على النبي والمهاجرين والأنصار. وهذا جواب عما يقال : من أن النبي معصوم من الذنب ، وأن المهاجرين والأنصار لم يفعلوا ذنبا في هذه القضية ، بل اتبعوه من غير تلعثم ، قلنا : المراد بالتوبة في حق الجميع دوامها لا أصلها .

ومنهم من يرى أن ذكر النبي هنا إنما هو من باب التشريف ، والمراد قبول توبة المهاجرين والأنصار فيما صدر عن بعضهم من زلات ، وقد وضح هذا المعنى الإمام الآلوسي فقال : قال أصحاب المعاني : المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار ، إلا أنه جيء في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم تشريفا لهم ، وتعظيما لقدرهم ، وهذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله (فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ..) الآية أي : عفا سبحانه عن زلات صدرت منهم يوم أحد ويوم حنين .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن الآية الكريمة مسوقة لبيان فضل الله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين ، حيث غفر لهم ما فرط منهم من هفوات وقعت في هذه الغزوة وهذه الهفوات صدرت منهم بمقتضى الطبيعة البشرية ، وبمقتضى الاجتهاد في أمور لم يبين الله تعالى حكمه فيها ، فهي لا تنقص من منزلة الرسول ﷺ ولا من منزلة أصحابه الصادقين في إيمانهم. (التفسير الوسيط) .

(**الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**) أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة "تبوك" وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك .

(**فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**) أي : في وقت الشدة والضيق ، وهو وقت غزوة تبوك ، فالمراد بالساعة هنا مطلق الوقت. وقد كانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة ، كما كان الجيش الذي اشترك فيها يسمى بجيش العسرة ، وذلك لأن المؤمنين خرجوا إليها في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وفقر في الزاد والماء والراحلة.

(**مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ**) بيان لتناهى الشدة ، وبلوغها الغاية القصوى.

أي : تاب سبحانه على الذين اتبعوا رسوله من المهاجرين والأنصار ، من بعد أن أشرف فريق منهم على الميل عن التخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك ، لما لابسها وصاحبها من عسر وشدة وتعب.

- وفي ذكر « فريق منهم » إشارة إلى أن معظم المهاجرين والأنصار ، مضوا معه ﷺ إلى تبوك دون أن تؤثر هذه الشدائد في قوة إيمانهم وصدق يقينهم ، ومضاء عزيمتهم ، وشدة إخلاصهم.

(**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ**) أي : ثم تاب عليهم سبحانه بعد أن كابدوا ما كابدوا من العسر والمشقة ومجاهدة النفس.

إنه بهم رءوف رحيم.

قال بعضهم : فإن قلت : قد ذكر التوبة أولا ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار؟

قلت : إنه سبحانه ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلاً منه وتطييباً لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيما لشأنهم ، وليعلموا أنه – تعالى – قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم ، ثم أتبعه بقوله – سبحانه – إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ تأكيداً .

- **وقال القرطبي** : قوله « ثم تاب عليهم » قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ وتلك سنة الحق سبحانه مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ووطنوا أنفسهم على الهلاك ، أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم.

(**إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**) ومن رأفته ورحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

- والرؤوف : اسم من أسماء الله تعالى .

والرأفة أعلى معاني الرحمة .

وقال الخطابي : الرؤوف هو الرحيم العاطف برأفته على عباده .

وقال بعضهم : الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها .

قال الحسن البصري : من رأفته بهم حذرهم نفسه.

فمن رأفته سبحانه وتعالى بنا ، أنه خوفنا من عقوبته وعذابه ، ونهانا عن معصيته ، قبل أن يلقاه العبد يوم القيامة ليستعد للقائه ، ويتجنب سخطه وغضبه (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) .

ومن رأفته أنه أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه ، لينقذ الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والهداية (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .

ومن رأفته أنه يقبل توبة التائبين ، ولا يُرد عن بابه العاصين المنيبين ، مهما كثرت سيئاتهم ، وتعاظمت خطيئاتهم (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .

ومن رأفته : تسخيره لما في السماوات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته ، وخلقه الأنعام ليركب على ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة ، هو ومتاعه وزاده (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .

الفوائد :

١- سعة رحمة الله .

٢- فضل التوبة وعلو منزلتها .
٣- الثناء والتزكية للمهاجرين والأنصار .
٤- فضل المهاجرين والأنصار في نصرتهم لدين الله .
٥-شدة ما صاحب غزوة تبوك من حر وعسر وعدو وبعد .
٦-أن القلوب بيد الله تعالى يقلبها حيث يشاء .
٧- على المسلم أن يدعو الله بثبات قلبه دوماً وأبداً وخاصة عند نزول الفتن .
٨- رحمة الله ورأفته بعباده .

(وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)) .
[التوبة : ١١٨] .

(**وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ**) أي : كذلك لقد تاب الله (عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا) وهم: "كعب بن مالك" وصاحباه، وقصتهم مشهورة معروفة، في الصحاح والسنن.

- **قال الشوكاني** : أي وتاب على الثلاثة الذين خلفوا : أي أخروا ، ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . قال ابن جرير : معنى خلفوا : تركوا ، يقال : خلفت فلاناً فارقته .
- **قال ابن الجوزي** : وفي معنى (خُلّفوا) قولان :

أحدهما : خُلِّفوا عن التوبة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، فيكون المعنى : خُلِّفوا عن توبة الله على أبي لبابة وأصحابه إذ لم يخضعوا كما خضع أولئك.

والثاني : خُلِّفوا عن غزوة تبوك ، قاله قتادة.

- **قال القرطبي** : وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم، واعتذر أقوام فقبل عذرهم، وأخر النبيّ ﷺ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن.

وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخارِيّ وغيرهما.
واللفظ لمسلم قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أُولئك الذين قَبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى اللَّهُ فيه ؛ فبذلك قال الله عز وجل .
وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ) .

- **وقال الرازي** : هذا معطوف على الآية الأولى ، والتقدير : لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، والفائدة في هذا العطف أنا بينا أن من ضم ذكر توبته إلى توبة النبي عليه السلام ، كان ذلك دليلاً على تعظيمه وإجلاله ، وهذا العطف يوجب أن يكون قبول توبة النبي عليه السلام وتوبة المهاجرين والأنصار في حكم واحد ، وذلك يوجب إعلاء شأنهم وكونهم مستحقين لذلك.

- إن هؤلاء الثلاثة هم المذكورون في قوله تعالى (وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله) .
- **قال ابن عطية** : ومعنى (خلفوا) أخروا وترك أمرهم ولم تقبل منهم معذرة ولا ردت عليهم ، فكأنهم خلفوا عن المعتذرين ، وقيل معنى (خلفوا) أي عن غزوة تبوك ، قاله قتادة وهذا ضعيف وقد رده كعب بن مالك بنفسه وقال : معنى (خلفوا) تركوا عن قبول العذر وليس بتخلفنا عن الغزو .

(**حَتَّى إِذَا**)حزنوا حزنا عظيماً .

(**وضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**) أي: على سعتها ورحبها .

- **قال الشوكاني** : معناه : أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية ، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد ، لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم .

وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديباً لهم؛ لينزجروا عن المعاصي .

- سئل بعضهم عن التوبة النصوح ، فقال : أن تضيق على التائب الارضُ ، وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب وصاحبيه

(**وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ**) التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

(**وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ**) أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

- **قال ابن عطية** : وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يطلبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين ، إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر.

وفي هذا يقتضي أن الرجل العالم والمقتدي به أقل عذراً في السقوط من سواه ، وكتب الأوزاعي رحمه الله إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة : واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا عظماً ولا طاعته إلا وجوباً ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكاراً والسلام .

(**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ**) أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها .

(**لِيَتُوبُوا**) **قال ابن القيم** : وتأمل تكريرَه سبحانه توبتَه عليهم مرتين في أول الآية وآخِرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا، تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم ، وهو الذى وفقهم لِفعلها، وتفضَّل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه، وله وفى يديه، يعطيه مَن يشاءُ إحساناً وفضلاً، ويحرمه مَن يشاء حكمةً وعدلاً.

(**إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرحيم**) أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، (الرَّحِيمُ) وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

الفوائد :

١-وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

٢-ومنها: لطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

٣-ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

٤-ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

٥-ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقا تاما، وانقطع عن المخلوقين.

٦-ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: (خُلِّفُوا) إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بُتّ في قبول عذرهم، أو في رده ، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: (تخلفوا) .

٧-ومنها: أن الله تعالى منّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم في الآية التي تليها .

- مختصر قصة كعب بن مالك :

عن كعب قال (لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رسولِ الله ﷺ في غَزْوَةٍ غزاها قط إلا في غزوة تَبُوكَ ، غَيْرَ أنّي قَدْ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهُ ؛ إنَّمَا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ الله تَعَالَى بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ ميعادٍ . ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ لَيلَةَ العَقَبَةِ حينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإسْلامِ ، وما أُحِبُّ أَنَّ لي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وإنْ كَانَتْ بدرٌ أَذْكَرَ في النَّاسِ مِنْهَا . وكانَ مِنْ خَبَرِي حينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لم أَكُنْ قَطُّ أَقْوى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عنهُ في تِلكَ الغَزْوَةِ ، وَالله ما جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا في تِلْكَ الغَزْوَةِ وَلَمْ يَكُنْ رسولُ الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إلاَّ وَرَّى بِغَيرِها حَتَّى كَانَتْ تلْكَ الغَزْوَةُ، فَغَزَاها رسولُ الله ﷺ في حَرٍّ شَديدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَراً بَعِيداً وَمَفَازاً، وَاستَقْبَلَ عَدَداً كَثِيراً، فَجَلَّى للْمُسْلِمينَ أمْرَهُمْ ليتَأهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهمْ فأَخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ، والمسلِمونَ مَعَ رسولِ الله كثيرٌ وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ (يُرِيدُ بذلِكَ الدِّيوَانَ) قَالَ كَعْبٌ : فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أنَّ ذلِكَ سيخْفَى بِهِ ما لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ الله ، وَغزا رَسُول الله ﷺ تِلْكَ الغَزوَةَ حِينَ طَابَت الثِّمَارُ وَالظِّلالُ ، فَأنَا إلَيْهَا أَصْعَرُ ، فَتَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ وَالمسْلِمُونَ مَعَهُ وطَفِقْتُ أغْدُو لكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ ، فأرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئاً ، وأقُولُ في نفسي : أنَا قَادرٌ عَلَى ذلِكَ إِذَا أَرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمادى بي حَتَّى اسْتَمَرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ ، فأصْبَحَ رسولُ الله ﷺ غَادياً والمسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئاً ، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيئاً ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حَتَّى أسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ ، فَهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ ، فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ ، ثُمَّ لم يُقَدَّرْ ذلِكَ لي ، فَطَفِقْتُ إذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أنِّي لا أرَى لي أُسْوَةً ، إلاّ رَجُلاً مَغْمُوصاً عَلَيْهِ في النِّفَاقِ ، أوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الضُّعَفَاءِ ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ... فَلَمَّا بَلَغَنِي أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي ، فَطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الكَذِبَ وأقُولُ : بِمَ أخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَداً ؟

وأسْتَعِيْنُ عَلى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رأْيٍ مِنْ أَهْلِي ، فَلَمَّا قِيْلَ : إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِماً ، زَاحَ عَنّي البَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيءٍ أَبَداً ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وأَصْبَح رَسُولُ الله ﷺ قَادِماً ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالمسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلِكَ جَاءهُ المخَلَّفُونَ يَعْتَذِرونَ إِلَيْه ويَحْلِفُونَ لَهُ ، وَكَانُوا بِضْعاً وَثَمانينَ رَجُلاً ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلى الله تَعَالَى ، حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المغْضَبِ. ثُمَّ قَالَ : (تَعَالَ) ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فقالَ لِي : (مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟) قَالَ : قُلْتُ : يَا رسولَ الله ، إنّي والله لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأيتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ؛ لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً ، ولَكِنِّي والله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليوم حَدِيثَ كَذبٍ تَرْضَى به عنّي لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَكَ عَلَيَّ ، وإنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إنّي لأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى الله ﷻ ، والله ما كَانَ لي مِنْ عُذْرٍ، واللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ . قَالَ: فقالَ رسولُ الله ﷺ : (أَمَّا هَذَا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فيكَ)

فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلاَمِنا ، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ الله تَعَالَى مِنَّا ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أوفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوتِهِ : يَا كَعْب بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ ، فَخَرَرْتُ سَاجِدا ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ . فآذَنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله ﷻ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الفَجْر فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا ، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَساً وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي ، وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبشارته، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبسْتُهُما ، وانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رسولَ الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجاً فَوْجاً يُهنِّئونَني بالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي : لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ . حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رسولُ الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَه النَّاسُ ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ ﷺ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَني وَهَنَّأَنِي ، والله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ المهَاجِرِينَ غَيْرُهُ – فَكَانَ كَعْبٌ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ ...) .

- **في قصة كعب بن مالك فوائد :**

منها : أن الإنسان لا ينبغي له أن يتأخر عن فعل الخير ، بل يتقدم ولا يتأخر ، وفي الحديث قال ﷺ (لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله) .

قال ابن القيم : إنّ الرّجُلَ إِذَا حَضَرَتْ لَهُ فُرْصَةُ الْقُرْبَةِ وَالطّاعَةِ فَالْحَزْمُ كُلّ الْحَزْمِ فِي انْتِهَازِهَا وَالْمُبَادَرَةِ إلَيْهَا وَالْعَجْزِ فِي تَأْخِيرِهَا وَالتّسْوِيفِ بِهَا، وَلَا سِيّمَا إذَا لَمْ يَثِقْ بِقُدْرَتِهِ وَتَمَكّنِهِ مِنْ أَسْبَابِ تَحْصِيلِهَا، فَإِنّ الْعَزَائِمَ وَالْهِمَمَ سَرِيعَةُ الِانْتِقَاضِ قَلّمَا ثَبَتَتْ وَاَللّهُ سُبْحَانَهُ يُعَاقِبُ مَنْ فَتَحَ لَهُ بَابًا مِنْ الْخَيْرِ فَلَمْ يَنْتَهِزْهُ بِأَنْ يَحُولَ دَعَاهُ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ وَإِرَادَتِهِ فَلَا يُمْكِنُهُ الِاسْتِجَابَةُ بَعْدَ ذَلِكَ . قَالَ تَعَالَى (يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) وَقَدْ صَرّحَ اللّهُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا فِي قَوْلِهِ (وَنُقَلّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوّلَ مَرّةٍ) وَقَالَ تَعَالَى (فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ) . وَقَالَ (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتّى يُبَيّنَ لَهُمْ مَا يَتّقُونَ إِنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ . (زاد المعاد) .

وقال رحمه الله : حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء :

أحدهما : رد الحق لمخالفته هواك .

فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأساً ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك .

قال تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك .

والثاني : التهاون بالأمر إذا حضر وقته .

فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك .

قال تعالى (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) .

فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة . (بدائع الفوائد) .

ومنها : خطورة التسويف ، وأنه يفسد على العبد أمر دينه ودنياه .

قال بعض العلماء : سوف أحد جنود إبليس .

وقال ابن الجوزي : إياك والتسويف فإنه أعظم جنود إبليس .

وقال الغزالي : إن التسويف يسبب أربعة أشياء : ترك الطاعة والكسل فيها ، وترك التوبة وتأخيرها ، والحرص على الدنيا والاشتغال بها ، وقسوة القلب ونسيان الآخرة .

وقال الحسن : إياك والتسويف ، فإنك بيومك ولست بغدك ، فإن يكن غداً لك فكن في غد كما كنت في اليوم ، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم .

- الحديث دليل على استحباب تبشير المسلم بما يسره .

قال تعالى (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال تعالى (وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ) .

وقال معاذ للرسول (أفلا أبشر الناس ؟) متفق عليه .

- الحديث دليل على استحباب سجود الشكر لقوله (فخررتُ ساجداً) .

قال النووي : فيه دليل للشافعي وموافقيه في استحباب سجود الشكر بكل نعمة ظاهرة حصلت أو نعمة ظاهرة اندفعت .

ومما يدل على الاستحباب :

أ-حديث أَبِي بَكْرَةَ ﷺ (أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ خَرَّ سَاجِداً لِلَّهِ) رواه أبو داود .

ب- وَعَنْ عَبْدِ اَلرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ قَالَ (سَجَدَ اَلنَّبِيُّ ﷺ فَأَطَالَ اَلسُّجُودَ , ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : إِنَّ جِبْرِيلَ آتَانِي , فَبَشَّرَنِي , فَسَجَدْت لِلَّهِ شُكْرًا) رَوَاهُ أَحْمَد .

ج- وَعَنْ اَلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا- (أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ عَلِيًّا إِلَى اَلْيَمَنِ - فَذَكَرَ اَلْحَدِيثَ - قَالَ : فَكَتَبَ عَلِيٌّ ﷺ بِإِسْلَامِهِمْ , فَلَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ اَلْكِتَابَ خَرَّ سَاجِدًا) رَوَاهُ اَلْبَيْهَقِيُّ .

وقد روي عن أبي بكر أنه سجد لما جاءه خبر فتح اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب . رواه عبد الرزاق

وروي أن أمير المؤمنين عمر ، سجد لما جاءه خبر بعض الفتوحات في عهده .

وسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حين وجد ذا الثدية مع قتلى الخوارج بعد وقعت النهروان بينه وبينهم ، لأنه عرف أنه على الحق ، لأن النبي ﷺ أخبر عن الخوارج أنهم شرّ الناس ، وأن سيماهم : أن منهم رجلاً ليس له ذراع ، وعلى رأس عضده مثل ملحة الثدي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)) .

[التوبة : ١١٩] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ) بفعل أوامره واجتناب نواهيـه .

(وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ) بألسنتهم وقلوبهم وأحوالهم .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَكُونُواْ مَعَ الصادقين) هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذُهب بهم عن منازل المنافقين.

قال مُطرِّف : سمعت مالك بن أنس يقول : قلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

- **قال أبو حيان** : هذا خطاب للمؤمنين ، أمروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن ربقة النفاق.

- الصدق يكون :

في الأقوال : ومعناه : استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها .

وفي الأعمال : ومعناه : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد .

وفي الأحوال : ومعناه : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص .

عن ابن مسعود ﷺ ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قَالَ : (إنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إِلَى البرِّ ، وإنَّ البر يَهدِي إِلَى الجَنَّةِ ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً .

- **فضائل الصدق ، وللصدق فضائل :**

أولاً : أنه سبب للطمأنينة .

كما في الحديث الآتي (فإن الصدق طمأنينة) .

ثانياً : هو المميز بين المؤمن والمنافق .

قال ﷺ (آية المنافق ثلاث : . وإذا حدث كذب ...) .

ثالثاً : لا ينفع يوم القيامة إلا الصدق :

قال تعالى (قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) .

رابعاً : الصدق أصل كل بر .

قال ﷺ (إن الصدق يهدي إلى البر) متفق عليه .

خامساً : أن مجاهدة النفس على تحري الصدق توصلها إلى مرتبة الصديقية .

قال ﷺ : (... ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً) .

سادساً : الصدق سبب للبركة .

كما قال ﷺ (البيعان بالخيار ... فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما) .

قال عمر بن الخطاب : عليك بالصدق وإن قتلك .

وقال بشر بن الحارث : مَنْ عامل الله بالصدق استوحش من الناس .

وقال جعفر بن محمد : الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك، فقال تعالى (هو اجتباكم) .

وقال بعض العلماء : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض : الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله في الأعمال ، وطيب المطعم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والصدق أساس الحسنات وجماعها ، والكذب أساس السيئات ونظامها .

قال ابن القيم : الصادق مطلوبه رضى ربه ، وتنفيذ أوامره ،وتتبع محابه ، فهو متقلب فيها ، يسير معها أينما توجهت ركائبها ، ويستقل معها أينما استقلت مضاربها ، فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع المنافع.

قال ابن تيمية : الصديقية : كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر ظاهراً وباطناً .

قال ابن القيم : لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره .

قال ابن القيم رحمه الله : إن الصادق لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضا محبوبه ، ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه وتدنيه منه , لا لعلة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها.

الفوائد :

١- الأمر بتقوى الله .

٢- الحث على الصدق بالقول والفعل والنية .

٣- الحث والحرص على الأسباب التي تؤدي إلى الصدق .

(مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢١)) .

[التوبة : ١٢٠-١٢١] .

(مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ) عتاب لمن تخلف عن (غزوة تبوك) اي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي ان يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ .

قال الشوكاني : ... زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ ، وتحريم التخلف عنه : أي ما صح وما استقام لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب التخلف .

- **قال الشوكاني** : وإنما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا ، فلم ينفروا ، بخلاف غيرهم من العرب ، فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ .

(**وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ**) أي : لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه ، بأن يكرهوا لها المكاره ، ولا يكرهون ذلك له عليه السلام ، بل عليهم ان يفدوه بالمهج والارواح ، وان يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب ، قال الزمخشري : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وان يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علما بأنها اعز نفس على الله واكرمها عليه ، لا ان يضنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهي بليغ ، وتهييج لمتابعته عليه السلام .

- **قال الشوكاني** : أي : وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، فيشحون بها ويصونونها ، ولا يشحون بنفس رسول الله ، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها ، يقال : رغبت عن كذا : أي ترفعت عنه ، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق . ويبذلوا أنفسهم دون نفسه؛ وفي هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيده إيراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم ، والتقريع الشديد ، والتهييج لهم ، والإزراء عليهم
- **قال ابن عاشور** : وفيه تعريض بالذين تخلفوا من أهل المدينة ومن الأعراب.

وذلك يدل على إيجاب النفير عليهم إذا خرج النبي ﷺ للغزو.

وقال قتادة وجماعة : هذا الحكم خاص بخروج النبي ﷺ دون غيره من الخلفاء والأمراء فهو مُحكم غير منسوخ.

وبذلك جزم ابن بَطال من المالكية.

قال زيد بن أسلم وجابر بن زيد : كان هذا حكماً عاماً في قلة الإسلام واحتياجه إلى كثرة الغزاة ثم نسخ لما قوي الإسلام بقوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) فصار وجوب الجهاد على الكفاية.

وقال ابن عطية : هذا حكم من استنفرهم الإمام بالتعيين لأنه لو جاز لهؤلاء التخلف لتعطل الخُروج.

واختاره فخر الدين.

(**ذَلِكَ**) الإشارة بقوله (ذلك) إلى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب ، وأصناف الشدائد .

(**بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ**) أي ذلك النهي عن التخلف ، بسبب أنهم لا يصيبهم عطش .

(**وَلاَ نَصَبٌ**) أي : ولا تعب .

(**وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ**) أي : ولا مجاعة .

(**وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ**) أي : لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأقدامهم ، أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم ، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار . والموطئ : اسم مكان .

(وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً) أي : يصيبون من عدوّهم قتلاً أو أسراً أو هزيمة أو غنيمة .

(**إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**) أي : إلا كان ذلك قربة لهم عند الله .

إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) أي : لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً) معطوف على ما قبله : أي ولا يقع منهم الإنفاق في الحرب ، وإن كان شيئاً صغيراً يسيراً .

- **قال ابن عطية** : قدم الصغيرة للاهتمام أي إذا كتبت الصغيرة فالكبيرة أحرى ، و" الوادي " ما بين جبلين كان فيه ماء أو لم يكن ، وجمعه أودية .
- **وقال الآلوسي** : وذكر الكبيرة بعد الصغيرة وان علم من الثواب على الأولى الثواب على الثانية لأن المقصود التعميم لا خصوص المذكور إذ المعنى ولا ينفقون شيئاً ما فلا يتوهم أن الظاهر العكس .

(**وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا**) في ذهابهم إلى عدوهم .

(**إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ**) يعني كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم .

(**لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) قال العلماء : فيه وجهان :

الأول : أن الأحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح.

والثاني : أن الأحسن صفة للجزاء أي يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب .

الفوائد :

١-ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

٢- وفي الآية دليل على فضل الجهاد وأنه من أحسن أعمال العباد .

٣- وجوب الجهاد إذا استنفر الإمام ، وتحريم التخلف .

٤-أن التخلف عن الجهاد من صفات أهل النفاق .

٥-الترغيب الشديد في الجهاد في سبيل الله .

٦-أن كل ما يصيب المجاهد في جهاد له أجر عليه .

٧-أن إغاظة الكفار محبوبة ومرغوبة للشارع .

(**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)**) .

[التوبة : ١٢٢] .

(**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً**) أي : لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو بحيث تخلو منهم البلاد .

روي عن ابن عباس انه تعالى لما شدد على المتخلفين ، قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً ، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعاً الى الغزو ، وتركوه وحده بالمدينة ، فنزلت هذه الآية .

وقيل : المراد أن ينفروا لطلب العلم ، والأول أصح .

(**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ**) **أي** : فإذا لم يصلح نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة ، فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة

(**لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ**) أي : ليصبحوا فقهاء ، ويتكلفوا المشاق في طلب العلم .

(**وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**) أي : وليخوفوا قومهم ويرشدوهم اذا رجعوا اليهم من الغزو ، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال اوامره واجتناب نواهيه .

- **قال ابن القيم** : وقد اختلف في الآية :

فقيل: المعنى ان المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين فيكون النفير على هذا نفير تعلم والطائفة تقال على الواحد فما زاد .

وقالت طائفة أخرى : المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم ، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد ، وفرقة تقعد تتفقه في الدين ، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام .

وعلى هذا فيكون قوله (ليتفقهوا ولينذروا) للفرقة التي نفرت منها طائفة .

وهذا قول الأكثرين .

وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله ، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد .

قال الله تعالى (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) .

وقال تعالى (إلا تنفروا يعذبكم ...) .

وقال النبي ﷺ (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) . (تفسير ابن القيم) .

- على هذا التفسير الذي سار عليه جمهور العلماء يكون الضمير في قوله « ليتفقهوا ولينذروا » يعود إلى الطائفة الباقية مع الرسول ﷺ أما الضمير في قوله « لعلهم يحذرون » فيعود على الطائفة التي خرجت للجهاد ثم عادت.

الفوائد :

١- أن الجهاد فرض كفاية ، ولا يجب تعييناً إلا في حالات معينة .

٢-فضل طلب العلم والتفقه في الدين .

٣-أنه ينبغي على الإنسان بطلبه للعلم أن ينوي :

أولاً : رفع الجهل عن نفسه .

لقوله (ليتفقهوا) .

ثانياً : أن يرفع الجهل عن غيره .

لقوله (ولينذروا) .

٤- أنه على طالب العلم أن يعمل بعلمه ، وأن يقوم ببثه ونشره للناس .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣))

[التوبة : ١٢٣] .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**) تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد :

الأولى : العناية والاهتمام به والتنبيه .

الثانية : الإغراء ، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان ، كما تقول يا ابن الأجود جُد .

الثالثة : أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان ، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان . (ابن عثيمين) .

والمعنى : : يا أيها الذين آمنوا بقلوبهم وانقادوا وعملوا بجوارحهم .

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات ، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي ، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وبكل ما يجب الإيمان به . (الشنقيطي) .

(**قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ**) أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب .

- **قال الرازي** : اعلم أنه نقل عن الحسن أنه قال : هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافة ، ثم إنها صارت منسوخة بقوله (قَاتِلُواْ المشركين كَافَّةً) وأما المحققون فإنهم أنكروا هذا النسخ وقالوا : إنه تعالى لما أمر بقتال المشركين كافة أرشدهم في ذلك الباب إلى الطريق الأصوب الأصلح ، وهو أن يبتدؤا من الأقرب فالأقرب ، منتقلاً إلى الأبعد فالأبعد.

ألا ترى أن أمر الدعوة وقع على هذا الترتيب قال تعالى (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين) وأمر الغزوات وقع على هذا الترتيب لأنه عليه السلام حارب قومه ، ثم انتقل منهم إلى غزو سائر العرب ثم انتقل منهم إلى غزو الشام ، والصحابة رضي الله عنهم لما فرغوا من أمر الشأم دخلوا العراق.

- قال القرطبي : في الآية أنه سبحانه عرّفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدوّ ؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بالعرب ، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام .
- **قال الرازي** : وإنما قلنا : إن الابتداء بالغزو من المواضع القريبة أولى لوجوه :

الأول : أن مقابلة الكل دفعة واحدة متعذرة ، ولما تساوى الكل في وجوب القتال لما فيهم من الكفر والمحاربة وامتنع الجمع ، وجب الترجيح ، والقرب مرجح ظاهر كما في الدعوة ، وكما في سائر المهمات ، ألا ترى أن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الابتداء بالحاضر أولى من الذهاب إلى البلاد البعيدة لهذا المهم ، فوجب الابتداء بالأقرب.

والثاني : أن الابتداء بالأقرب أولى لأن النفقات فيه أقل ، والحاجة إلى الدواب والآلات والأدوات أقل.

الثالث : أن الفرقة المجاهدة إذا تجاوزوا من الأقرب إلى الأبعد فقد عرضوا الذراري للفتنة.

الرابع : أن المجاورين لدار الإسلام إما أن يكونوا أقوياء أو ضعفاء ، فإن كانوا أقوياء كان تعرضهم لدار الإسلام أشد وأكثر من تعرض الكفار المتباعدين ، والشر الأقوى الأكثر أولى بالدفع ، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاء المسلمين عليهم أسهل ، وحصول عز الإسلام لسبب انكسارهم أقرب وأيسر ، فكان الابتداء بهم أولى.

الخامس : أن وقوف الإنسان على حال من يقرب منه أسهل من وقوفه على حال من يبعد منه ، وإذا كان كذلك كان اقتدار المسلمين على مقاتلة الأقربين أسهل لعلمهم بكيفية أحوالهم وبمقادير أسلحتهم وعدد عساكرهم.

السادس : أن دار الإسلام واسعة ، فإذا اشتغل أهل كل بلد بقتال من يقرب منهم من الكفار كانت المؤنة أسهل ، وحصول المقصود أيسر .

- وقال الجصاص : خصَّ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ لِلَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنْ الْكُفَّارِ ، وَقَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) فَأَوْجَبَ قِتَالَ جَمِيعِ الْكُفَّارِ ، وَلَكِنَّهُ خَصَّ بِالذِّكْرِ الَّذِينَ يَلُونَنَا مِنْ الْكُفَّارِ ؛ إذْ كَانَ مَعْلُومًا أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُنَا قِتَالُ جَمِيعِ الْكُفَّارِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَأَنَّ الْمُمْكِنَ مِنْهُ هُوَ قِتَالُ طَائِفَةٍ فَكَانَ مِنْ قَرُبَ مِنْهُمْ ، أَوْلَى بِالْقِتَالِ مِمَّنْ بَعُدَ ؛ لِأَنَّ الِاشْتِغَالَ بِقِتَالِ مَنْ بَعُدَ مِنْهُمْ مَعَ تَرْكِ قِتَالِ مَنْ قَرُبَ لَا يُؤْمَنُ مَعَهُ هَجْمُ مَنْ قَرُبَ عَلَى ذَرَارِيِّ الْمُسْلِمِينَ وَنِسَائِهِمْ وَبِلَادِهِمْ إذَا خَلَتْ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ ، فَلِذَلِكَ أَمَرَ بِقِتَالِ مَنْ قَرُبَ قَبْلَ قِتَالِ مَنْ بَعُدَ ، وَأَيْضًا لَا يَصِحُّ تَكْلِيفُ قِتَالِ .

الْأَبْعَدِ ؛ إذْ لَا حَدَّ لِلْأَبْعَدِ يُبْتَدَأُ مِنْهُ الْقِتَالُ كَمَا لِلْأَقْرَبِ.

وَأَيْضًا فَغَيْرُ مُمْكِنٍ الْوُصُولُ إلَى قِتَالِ الْأَبْعَدِ إلَّا بَعْدَ قِتَالِ مَنْ قَرُبَ وَقَهْرِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ فَهَذِهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا تَقْتَضِي تَخْصِيصَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ الْأَقْرَبِ.

(**وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**) أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم .

فأمر تعالى المؤمنين بالغلظة على الكفار والشدّة عليهم كما قال تعالى : (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وذلك ليكون ذلك أهيب وأوقع للفزع في قلوبهم.

- فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقا لأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر .

كما قال تعالى (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) .

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال (أنا الضَّحوك القَتَّال) يعني: أنه ضَحُوك في وجه وليه .

(**وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**) فضل عظيم للتقوى وأهلها ، وقد تقدم فضائل التقوى في أول السورة .

- **قال ابن كثير** : أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.
- **قال السعدي** : أي: ليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا تقوى الله، يُعِنْكُم وينصركم على عدوكم .

الفوائد :

١- وجوب مقاتلة الكفار .

٢- أنه كلما ضعف إيمان الشخص ضعفت مقاتلته للأعداء .

٣- أن للقتال طرق وأساليب ، كما في هذه الآية ، حيث يبدأ بالأقرب فالأقرب .

ومنها ، أن يمنع الإمام المخذل والمرجف .

٤- الغلظة على الكفار أمر محبوب للشرع .

٥-الحرص على التقوى ، وأنه على قدر تقوى العبد يكون الله معاه .

(وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥))

.

[التوبة : ١٢٤- ١٢٥] .

(**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ**) من سور القرآن على النبي ﷺ .

(**فَمِنْهُم**) أي : من المنافقين .

(**مَّن يَقُولُ**) بعضهم لبعض .

- **قال ابن عطية** : يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم ، ويحتمل أن يكون لقوم من قراباتهم من المؤمنين يستنيمون إليهم وثقون بسترهم عليهم ويطعمون في ردهم إلى النفاق .
- قال أبو السعود (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ) من سور القرآن (فَمِنْهُمْ) أي من المنافقين (مَن يِقُولُ) لإخوانه ليثبّتهم على النفاق أو لعوامّ المؤمنين وضعفتهم ليصُدّهم عن الإيمان .

(**أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا**) أي : يقول ذلك استهزاء ، أيكم زادته هذه إيماناً ؟ على وجه الاستخفاف بالقرآن .

- **قال ابن عطية** : قصدهم الاستخفاف والتحقير لشأن السورة كما تقول أي غريب في هذا ، أو أي دليل .
- **قال ابن عاشور** : خطاب بعضهم لبعض على سبيل التهكم بالمؤمنين وبالقرآن ، لأن بعض آيات القرآن مصرحة بأن القرآن يزيد المؤمنين إيماناً قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) .

ولعل المسلمين كانوا إذا سمعوا القرآن قالوا : قد ازددنا إيماناً ، كقول معاذ بن جبل للأسود بن هلال : اجلس بنا نُؤمن ساعة ، يعني بمذاكرة القرآن وأمور الدين .

قال تعالى مبيناً موقف المؤمن والمنافق من الآيات :

(**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ**) حق الإيمان .

(**فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا**) بالعلم بها، وفهمها، واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :قراءة القرآن على الوجه المأمور به : تورث القلب الإيمان العظيم ، وتزيده يقيناً وطمأنينة وشفاء .

(**وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**) يعني أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيئاً بعد شيء لأنهم كلما نزل ازدادوا إيماناً وذلك يوجب مزيد الثواب في الآخرة كما تحصل الزيادة في الإيمان بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة في الكفر وهو قوله سبحانه (وأما الذين في قلوبهم مرض) .

أي: يبشر بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها ، وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

(**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**) أي : شك ونفاق .

- **قال الخازن** : قوله سبحانه (وأما الذين في قلوبهم مرض) أي شك ونفاق سمي الشك في الدين مرضاً لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج كالمرض في البدن إذا حصل يحتاج إلى العلاج

(**فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ**) أي: مرضاً إلى مرضهم، وشكا إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك .

كما قال تعالى (وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا) .

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُـدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) .

وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً .

(**وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ**) وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

الفوائد :

١- أن الإيمان يزيد وينقص .

قال تعالى (وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً) .

وقال تعالى (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً) .

وقال تعالى (فزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) .

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ) .

وقال ﷺ (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن ...) متفق عليه .
وقال ﷺ (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) رواه أبو داود .
وعن ابن مسعود أنه قال (اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً) .رواه ابن بطة بإسناد صحيح .
وعن أبي الدرداء أنه كان يقول (الإيمان يزداد وينقص) رواه ابن ماجه .
وكان عمر يقول لأصحابه : هلموا نزدد إيماناً ، فيذكرون الله .
وكان معاذ بن جبل يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن ساعة .
٢- تلاوة القرآن الكريم وتدبره سبب لزيادة الإيمان .
٣- على المسلم أن يحرص على الأسباب التي تزيد إيمانه وتقويه .
٤- أن القلوب تمرض كما تمرض الأجساد ، تمرض بالنفاق والشك .
٥-أن الآيات لا يستفيد منها كل أحد .
قال تعالى (وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .
وقال تعالى (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ) .

(أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)) .
[التوبة : ١٢٦] .

(أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ) توبيخ لهم على قسوة قلوبهم ، وانطماس بصيرتهم ، وغفلتهم عما يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ.
أي : أبلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء ، أنهم صاروا لا يعتبرون ولا يتعظون بما حاق من فتن واختبارات وابتلاءات ، تنزل بهم في كل عام مرة أو مرتين؟
ومن هذه الفتن والامتحانات : كشف مكرهم عن طريق اطلاع رسول الله ﷺ على ما يضمرونه من سوء ، وما يقولونه من منكر ، وما يفعلونه من أفعال خبيثة ، وحلول المصائب والأمراض بهم ، ومشاهدتهم لانتصار المؤمنين وخذلان الكافرين.
(ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ) أي : ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون .
أي: ثم بعد كل هذه الفتن النازلة بهم، لا يتوبون من نفاقهم «ولا هم يذكرون» ويتعظون ، بل يصرون على مسالكهم الخبيثة، وأعمالهم القبيحة ، مع أن من شأن الفتن والمصائب والمحن ، أنها تحمل على الاعتبار والاتعاظ ، والرجوع عن طريق الشر إلى طريق الخير.

- **قال ابن كثير** : يقول تعالى: أولا يرى هؤلاء المنافقون (أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ) أي: يختبرون (فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم .

وقال السعدي : قال تعالى -موبخا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق-(أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ) بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

(ثُمَّ لا يَتُوبُونَ) عما هم عليه من الشر (وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم، فيتركونه.

فالله تعالى يبتليهم -كما هي سنته في سائر الأمم- بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

- **قال ابن عاشور** : والغرض من هذا الإنكار هو الاستدلال على ما تقدم من ازدياد كفر المنافقين وتمكنه كلما نزلت سورة من القرآن بإيراد دليل واضح يُنَزَّلُ منزلة المحسوس المرئيّ حتى يَتوجه الإنكار على من لا يراه.

والفتنة : اختلال نظام الحالة المعتادة للناس واضطرابُ أمرهم ، مثل الأمراض المنتشرة ، والتقاتل ، واستمرار الخوف.

- **قال البقاعي** : (ثُمَّ لا يَتُوبُونَ) وذلك موجب للتوبة للعلم بأن من علم سرائرهم - التي هم مجتهدون في إخفائها - عالم بكل شيء قادر على كل مقدور ، فهو جدير بأن تمتثل أوامره وتخشى زواجره.
- قوله تعالى (يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ) بالمرض في كل عام مرة أو مرتين ، ثم لا يتوبون من ذلك النفاق ولا يتعظون بذلك المرض ، كما يتعظ بذلك المؤمن إذا مرض ، فإنه عند ذلك يتذكر ذنوبه وموقفه بين يدي الله ، فيزيده ذلك إيماناً وخوفاً من الله ، فيصير ذلك سبباً لاستحقاقه لمزيد الرحمة والرضوان من عند الله.

وقيل : بالقحط والجوع.

الثالث : قال قتادة : يفتنون بالغزو والجهاد فإنه تعالى أمر بالغزو والجهاد فهم إن تخلفوا وقعوا في ألسنة الناس باللعن والخزي والذكر القبيح ، وإن ذهبوا إلى الغزو مع كونهم كافرين كانوا قد عرضوا أنفسهم للقتل وأموالهم للنهب من غير فائدة.

- **وقال ابن عطية** : والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي بكشف الله تعالى أسرارهم وإفشائه عقائدهم ، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤيته وترك التوبة .
- **قال الآلوسي** : والمراد من المرة والمرتين - على ما صرح به بعضهم - مجرد التكثير ، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور.
- وقوله (ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) بيان لرسوخهم في الجهل والجحود.

الفوائد :

١- أن المسلم يتوب ويرجع عند الابتلاءات والمحن .

٢- أن المنافق لا يتعظ ولا يعتبر بالآيات ، وذلك لقسوة قلوبهم وفسادها .

قال تعالى (فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) .

٣-أن عدم الاتعاظ والاعتبار بالآيات من صفات المنافقين .

٤- الآية ذامة لهم على عدم التوبة بإصابة المصائب لعدم تذكر أنه سبحانه ما أصابهم بها إلا بذنوبهم .
(وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون (١٢٧)) .
[التوبة : ١٢٧] .

(وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ) ثم تصور السورة الكريمة تصويراً معجزاً ، مشهدهم عند ما تنزل السورة القرآنية على الرسول ﷺ وهم حاضرون في مجلسه فتقول : وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أو آيات منها ، على الرسول ﷺ وهم موجودون في مجلسه نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ في ريبة ومكر ، وتغامزوا بعيونهم وجوارحهم في لؤم وخسة ثم تساءلوا : هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ، أي : هل يراكم من أحد من المسلمين إذا ما قمتم من هذا المجلس ، قبل أن يتلو الرسول ﷺ هذه السورة أو الآيات التي قد تفضحكم وتكشف عما أسررتموه فيما بينكم.

ثُمَّ انْصَرَفُوا من مجلس الرسول ﷺ متسللين في حذر حتى لا يراهم أحد من المسلمين.

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (ثُمَّ انْصَرَفُوا) أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه كما قال تعالى (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) .

وقال تعالى (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ) أي: ما لهؤلاء القوم يتقللون عنك يميناً وشمالاً هروباً من الحق، وذهاباً إلى الباطل.

(صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم) كقوله تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله ...) .

(بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون) أي : صرف الله قلوبهم عن الهداية والرشاد ، بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما فيه خيرهم ونفعهم. وإنما يفقهون ما فيه شقاؤهم وتعاستهم.

الفوائد :

١-رعب وخوف المنافقين من الفضيحة وكشف أسرارهم .

٢-أن المنافق لا يحب أن يستمع للقرآن الكريم .

٣- أن المؤمن يحب الاستماع لكلام الله ، لأنه يفرح به ويستبشر .

٤-أن الجزاء من جنس العمل ، فكما انصرفوا عن الحق صرفهم الله تعالى عن الهداية .

(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)) .
[التوبة : ١٢٨] .

(**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**) يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم، عليه السلام (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ) .

وقال تعالى (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) .

- وجمهور المفسرين على أن الخطاب في قوله تعالى (لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) للعرب : فهو كقوله (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) .

أي : لقد جاءكم – يا معشر العرب – رسول كريم « من أنفسكم » أي : جنسكم ، ومن نسبكم ، فهو عربي مثلكم ، فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ترغيب العرب في الإيمان بالنبي ﷺ وفي طاعته وتأييده ، فإن شرفهم قد تم بشرفه ، وعزهم بعزه، وفخرهم بفخره ، وهم في الوقت نفسه قد شهدوا له في صباه بالصدق والأمانة والعفاف وطهارة النسب ، والأخلاق الحميدة.

- **قال القرطبي** : قوله « من أنفسكم » يقتضى مدحاً لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها ، وفي صحيح مسلم عن وائلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺيقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قرش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم» وعنه ﷺ أنه قال : «إني من نكاح ولست من سفاح ».

وقال الزجاج: إن الخطاب في الآية الكريمة لجميع البشر، لعموم بعثته ﷺ، ومعنى كونه ﷺ «من أنفسكم» أنه من جنس البشر.

ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح لأن الآية الكريمة ليست مسوقة لإثبات رسالته صلى الله عليه وسلم وعمومها ، وإنما هي مسوقة لبيان منته وفضله سبحانه على العرب، حيث أرسل خاتم أنبيائه منهم، فمن الواجب عليهم أن يؤمنوا به، لأنه ليس غريبا عنهم، وإذا لم يؤمنوا به تكون الحجة عليهم ألزم، والعقوبة لهم أعظم.

قال ابن عطية : مخاطبة للعرب في قول الجمهور وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك ، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام ، وقال الزجّاج : هي مخاطبة لجميع العالم ، والمعنى لقد جاءكم رسول من البشر والأول أصوب .

- وكونه من جنسهم أتم في النعمة ، لأنه لو كان من الملائكة ما أَلِفَه الناس ولا ركنوا إليه وربما لا يقبلون منه .
- قوله تعالى (**رسولاً منهم**) أن يكون ذلك المبعوث منهم لا من غيرهم لوجوه :

أحدها : أنه إذا كان منهم فإنهم يعرفون مولده ومنشأه فيقرب الأمر عليهم في معرفة صدقه وأمانته.

وثانيها : أنه إذا كان منهم كان أحرص الناس على خيرهم وأشفق عليهم من الأجنبي لو أرسل إليهم .

(**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**) أي: يعز عليه الشيء الذي يَعْنَتُ أمته ويشق عليها؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال (بعثت بالحنيفية السمحة) .

وفي الصحيح (إن هذا الدين يسر) وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه.

(**حَرِيصٌ عَلَيْكُم**) أي: على هدايتكم وإيمانكم وعزتكم ، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

والحرص على الشيء معناه : شدة الرغبة في الحصول عليه وحفظه.

عن أبي ذر قال. تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علماً .

قال: وقال ﷺ : ما بقي شيء يُقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم .

بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) أي : شديد الرأفة والرحمة بكم – أيها المؤمنون – والرأفة عبارة عن السعي في إزالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعي في إيصال النفع ، فهو ﷺ يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين ، وفي إزالة كل مكروه عنهم.

الفوائد :

١-ترغيب العرب في نصرة النبي ﷺ والإيمان به ، فإنه تم شرفهم بشرفه ، وعزتهم بعزته ، وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والأمانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والأخلاق الجميلة .

٢- الثناء على النبي ﷺ من ربه بهذه الصفات الكريمة .

٣-بيان حرص النبي ﷺ على أمته .

٤-التنبيه على أن هذا النبي منّا ، وهذه نعمة أخرى عظيمة .

٥-رأفة النبي عليه السلام بالمؤمنين ، وغلظته على الكفار والمنافقين .

(**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)**) .

[التوبة : ١٢٩] .

ثم انتقل سبحانه من خطاب المؤمنين إلى خطابه ﷺ فقال :

(**فَإِن تَوَلَّوْاْ**) أي : فإن أعرضوا عن الإيمان بك ، وتركوا طاعتك ، فلا تبتئس ولا تيأس ، بل قل :

(**فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ**) أي : هو كافيني ونصيري .

(**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**) أي : لا إله بحق إلا الله .

فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبداً لربه، ممتثلا أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة .

- في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر .

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة ، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى .

- **قال ابن رجب** : قَوْل : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، تَقْتَضِي أَلَّا يُحِبَّ سِوَاهُ ، فَإِنَّ اَلْإِلَهَ هُوَ اَلَّذِي يُطَاعُ ، مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً . وَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ اَللَّهُ ، أَوْ كَرِهَ شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ لَمْ يَكْمُلْ تَوْحِيدُهُ وَلَا صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلْخَفِيِّ بِحَسْبِ مَا كَرِهَهُ

مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ ، وَمَا أَحَبَّهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ . قَالَ تَعَالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) .

- **فضائل كلمة التوحيد :**

أولاً : هِيَ كَلِمَةُ اَلْإِخْلَاصِ ، وَشَهَادَةُ اَلْحَقِّ وَدَعْوَةُ اَلْحَقِّ ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ اَلشِّرْكِ ، وَلِأَجْلِهَا خُلِقَ اَلْخَلْقُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

ثانياً : وَلِأَجْلِهَا أُرْسِلَتْ اَلرُّسُلُ وَأُنْزِلَتْ اَلْكُتُبُ

قَالَ تَعَالَى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

وقال تعالى (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) .

ثالثاً : هي ثَمَنُ اَلْجَنَّةِ .

قال ﷺ (مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ دَخَلَ اَلْجَنَّةَ) رواه أبو داود .

رابعاً : وهي نَجَاةٌ مِنْ اَلنَّارِ .

وَسَمِعَ اَلنَّبِيَّ ﷺ مُؤَذِّنًا يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، فَقَالَ (خَرَجَ مِنْ اَلنَّارِ) . خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ

خامساً : وهي أَحْسَنُ اَلْحَسَنَاتِ :

قَالَ أَبُو ذَرٍّ : (قُلْتُ : يَا رَسُولَ اَللَّهِ ! عَلِّمْنِي عَمَلاً يُقَرِّبُنِي مِنَ اَلْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنْ اَلنَّارِ، قَالَ : إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً، فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا قُلْتُ : يَا رَسُولَ اَللَّهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ مِنَ اَلْحَسَنَاتِ ؟ قَالَ هِيَ أَحْسَنُ اَلْحَسَنَات) .

سادساً : وَهِيَ : تُجَدِّدُ مَا دُرِسَ مِنَ اَلْإِيمَانِ فِي اَلْقَلْبِ .

كما فِي اَلْمُسْنَدِ أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ (جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ قَالُوا كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ : قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

سابعاً : وَهِيَ اَلَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ فِي اَلْوَزْنِ ، فَلَوْ وُزِنَتْ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ رَجَحَتْ بِهِنَّ .

كَمَا فِي اَلْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ : آمُرُكَ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اَللَّهُ ، فَإِنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ كُنَّ فِي حَلْقَةٍ مُبْهَمَةٍ قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو . عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ : يَا رَبُّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوك بِهِ ، قَالَ : يَا مُوسَى ! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، قَالَ : يَا رَبِّ ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا . قَالَ : قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ . فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ . قَالَ : يَا مُوسَى ! لَوْ أَنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ فِي كِفَّةٍ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ فِي كِفَّةٍ ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

ثامناً : وَهِيَ أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ .

كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ اَلْمَرْفُوعِ (أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه). رواه الترمذي .

تاسعاً : ومن أعظم فضائلها :

ما جاء فِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ اَلنَّبِي ﷺ مَنْ قَالَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ اَلْمُلْكُ وَلَهُ اَلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ اَلشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِك) .

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ أَبِي أَيُّوب ، عَنْ اَلنَّبِي ﷺ قال (مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيل) .

عاشراً : وَمِنْ فَضَائِلِهَا أَنَّهَا تَفْتَحُ لِقَائِلِهَا أَبْوَابَ اَلْجَنَّةِ اَلثَّمَانِيَةِ .يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ .

كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَر . قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ, فَيُسْبِغُ اَلْوُضُوءَ, ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ, وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ, إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ اَلْجَنَّةِ") أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ

وَفِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَال (مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اَللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ اَلْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ اَلنَّارَ حَقٌّ وَأَنَّ اَللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي اَلْقُبُورِ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ مِنَ اَلْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا .

(**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**) أي : عليه اعتمدت وفوضت أمري .

- والتوكل لا ينافي فعل الأسباب .

قال تعالى (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) مع أنه تعالى لو أراد أسقطه لها بدون هز منها .

ومن أوضح الأدلة قول يعقوب (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

(يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ) محافظة عليهم من العين ثم قال (وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

فقد أخذ بالسبب والحيطة ، وصرح بان الاعتماد على الله وحده .

قال ابن القيم أيضاً : فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له ، يكون توكلك عليه ، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله .

التحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

قال شيخ الإسلام : وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فإنه مشرك ، قال تعالى (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) .

وقال : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله .

وقال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه .

وقال ابن القيم – رحمه الله –ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته

لأزاله .

(**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**) أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وَقَدَره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

- **قال القرطبي** : خصّ العرش لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيه ما دونه إذا ذكره.

الفوائد :

١- أن الرسول عليه البلاغ فقط .

٢-أن هداية التوفيق بيد الله تعالى .

٣- فضل هذه الكلمة : حسبي الله .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، قَالَ : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، قَالَهَا إبرَاهيمُ ﷺ حِينَ أُلقِيَ في النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا : إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيْمَاناً وَقَالُوا : حَسْبُنَا الله ونعْمَ الوَكيلُ . رواه البخاري .

وفي رواية لَهُ عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ : كَانَ آخر قَول إبْرَاهِيمَ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ : حَسْبِيَ الله ونِعْمَ الوَكِيلُ

٤- تسلية للدعاة في استمرارهم وصبرهم في دعوتهم ، حيث أن النبي ﷺ لم يستطع هداية الجميع .

٥- وجوب التوكل على الله .

٦-إثبات العرش .

والعرش : لغة عبارة عن السرير الذي للملك ، سمي عرشاً لارتفاعه عليه .

وشرعاً : هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم ، وهو سقف هذه المخلوقات ، **وقد وصفه الله بأوصاف عظيمة** .

وصفه بالعظمة :

قال تعالى (ورب العرش العظيم) .

ووصفه بأنه كريم :

قال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم) .

ومدح نفسه سبحانه بأنه ذو عرش :

كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش) .

وأخبر سبحانه أن للعرش حملة :

قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله ...) .

وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) .

وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض :

قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) .

وأخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس :

قال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن) .

وله قوائم :

قال ﷺ (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ...).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سورة يونس

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية / رفحاء

www.almotaqeen.net

مقدمة

سورة يونس سورة مكية .

- سبب تسميتها بذلك :

سميت السورة " سورة بونس " لذكر قصته فيها ، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا ، بعد ان كاد يحل بهم البلاء والعذاب ، وهذا من الخصائص التي خص الله بها (قوم يونس) لصدق توبتهم وايمانهم [فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين] !!

- **موضوعها :**

أ-سورة يونس من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الاسلامية (الايمان بالله تعالى ، والايمان بالكتب والرسل ، والبعث والجزاء) .

ب-بيان حقيقة " الألوهية " و " العبودية " واساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرفت الناس بربهم الحق الذي ينبغي ان يعبدوه ، وان يسلموا وجوههم اليه ، فهو وحده الخالق الرازق ، المحي المميت ، المدبر الحكيم .

ج-وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن ، وذكرت ان هذا القرآن هو (المعجزة الخالدة) الدالة على صدق النبي الأمي ، وأنه يحمل برهانه في تفرده المعجز ، حيث تحداهم ان يأتوا بسورة من مثله فعجزوا .

د-وتحدثت السورة عن قصص بعض الانبياء ، فذكرت قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون الجبار ، وذكرت قصة نبي الله " يونس " الذي سميت السورة باسمه - وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في اهلاك الظالمين ، ونصرة المؤمنين .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١))

[يونس : ١] .

(**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ**) أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين .

(**الكتاب**) أي : القرآن الكريم .

وسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

(**الْحَكِيمِ**) وصف للقرآن .

وقد وصف الله كتابه بأنه (حكيم) في عدة آيات : كقوله تعالى (يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) ، وقوله تعالى (الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) .

- والحكيم بمعنى محكِم ، أو بمعنى مُحكَم ، أو بمعنى حاكم ، كلها تحتمل .

فالقرآن حاكم : لأنه يجب الرجوع إليه .

قال تعالى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) .

وبمعنى محكِم : لأنه متقن للأشياء .

وبمعنى محكَم: لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه، فليس فيه تناقض ولا تعارض (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا).

وأيضاً هو مشتمل على الحكمة .

وإذا كان حكيماً فإننا نعلم أنه :

أولاً : حكيم في ترتيبه .

ثانياً : حكيم في أحكامه ، فأحكامه كلها عدل ، موافقة للفطرة وللعقل الصريح .

ثالثاً : حكيم في أسلوبه .

ينتقل من أسلوب إلى آخر ، من ترغيب إلى ترهيب ، وغير ذلك من الحكمة . (تفسير سورة يس للعثيمين)

- وقد ذكر السعدي شيئاً من إحكام آيات القرآن الحكيم فقال :

من إحكامها: أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها، وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها، نبي من الأنبياء .

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرا ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته فائدته، والنهي عن الشيء، مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض، ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبرا، وأعمل فيها العقل تفكرا، انبهر عقله، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزما لا يمترى فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن –مع أنه حكيم– يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

- ومن صفات القران :

منها : المجيد .

قال تعالى (بل هو قران مجيد) .

ومنها : الكريم .

قال تعالى (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون) .

ومنها : العزيز .

قال تعالى (إنه لكتاب عزيز) .

ومنها : المبارك .

قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك) .

الفوائد :

١- إعجاز القرآن .

٢- بيان أن هذا القرآن الذي أعجز البشر لم يكن بدعاً من لسانهم ، وإنما هو من الحروف التي يتحدثون بها .

٢-من أسماء القرآن الكتاب .

٤- الثناء على القرآن بأنه حكيم .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢))

[يونس : ٢] .

(**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ** ...) أي : أكان عجباً لأهل مكة إيحاؤنا إلى رجل منهم هو " محمد ﷺ ؟ والهمزة للإنكار؛ أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة ، أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله .

- كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: (أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا) .

وقال هود وصالح لقومهما (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ) .

وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) .

- وقد بَيَّنَ تعالى فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ عَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ فِي عَجَبِ قَوْمِ نَبِيِّنَا ﷺ مِنْ ذَلِكَ (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) وَقَالَ (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) .

وَقَالَ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

وَقَالَ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ) .

وَقَالَ (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) .

وَصَرَّحَ بِأَنَّ هَذَا الْعَجَبَ مِنْ إِرْسَالِ بَشَرٍ مَانِعٌ لِلنَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) .

وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ – جَلَّ وَعَلَا – فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ : أَنَّ اللَّهَ مَا أَرْسَلَ لِبَنِي آدَمَ إِلَّا رُسُلًا مِنَ الْبَشَرِ ، وَهُمْ رِجَالٌ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَيَتَزَوَّجُونَ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ ; كَقَوْلِهِ هُنَا (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) .

وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، وَقَوْلِهِ : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) .

- **قال القرطبي**: لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقاربته وما أنسوا به , ولداخلهم من الرعب والاتقاء له ما يكفهم من كلامه , ويمنعهم عن سؤاله , فلا تعم المصلحة , ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

(**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ**) أي : وعملوا الصالحات . كما قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) .

هذا أمر من الله لنبيه محمد ﷺ بإبلاغ بشارته خلقه الذين آمنوا به وبمحمد ﷺ ، وبما جاء به من عند ربه ، وصدقوا إيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة ، أن له جنات تجري من تحتها الأنهار خاصة .

- التبشير الإخبار بما يسر .
- قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) فيه استحباب تبشير المسلم بما يسره، لأن البشارة مما تسر المسلم وتفرحه، وقد قال تعالى (فبشرناه بغلام حليم) وقال تعالى (وبشروه بغلام عليم) .
- قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) التبشير : الإخبار بما يسر ، وسمي بذلك لأنه يظهر أثره على البشرة وهو ظاهر الجلد، والغالب أنه يستعمل في التبشير بالخير، وقد يستعمل في الشر تهكماً كقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم).

(**أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ**) أي : بأن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الاعمال .

وهذا كقوله تعالى (لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) .

(**قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**) أي : ومع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن ، قال المشركون :

إن محمداً لساحر ظاهر السحر ، مبطل فيما يدعيه .

- **قال البيضاوي**: وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة، معجزة إياهم عن المعارضة، وهو اعتراف من حيث لا يشعرون، بأن ما جاء به خارج عن طوق البشر .

وهكذا طريقة الأمم المكذبة : اتهام الرسل والدعاء بالسحر أو الجنون .

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ).

الفوائد :

١- تعجب الكفار من إرسال رسول من البشر .

٢- تعنت الكفار في خلق أعذار للتكذيب بالرسل .

٣- حكمة الله في جعل الرسول من البشر .

٤- أن من مهمة الرسول تبشير المؤمنين بكل خير .

٥- فضل الإيمان .

٦- من أساليب الداعية تبشير المؤمنين وتثبيتهم بذكر ما أعد الله لهم من الأجور الكبيرة على إيمانهم .

٧- الاقتداء بالنبي ﷺ بالصبر في الأذى القولي أو الفعلي الذي قد يواجهه من الأعداء .

وقد قال تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) .

(وَأُوذُوا) بالقول والفعل , فقد أوذي أنبياء الله بالقول والفعل.

بالقول: فقد كان يقال لكل واحد منهم: ساحر , ومجنون , وكذاب.

بالفعل: منهم من ضرب , ومن قتل.

لأن من قام بدين الإسلام ودعا الناس إليه , فقد تحمل أمراً عظيماً , وقام مقام الرسل في الدعوة إلى الله.

والدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر, ذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم ومألوفاتهم, وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة , فلهذا يقاومونها بكل قوة , ويحاربون دعاتها بكل سلاح , مدلين بأنهم أكثر مالاً وأعز نفراً , وأقوى نفوذاً , وأوسع سلطاناً.

فأذية الداعية طبيعة البشر:

قال الله تعالى لنبيه (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا).

والرسل أوذوا بالقول والفعل , قال الله (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون).

بل إن منهم من تعرض للقتل, قال سبحانه (أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُون).

ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم , قال سبحانه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً).

وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا

يَعْمَلُونَ).

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٣))

[يونس : ٣] .

(**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**) أي : أوجدهما من العدم على وجه الإحكام والإتقان.

- **قال ابن كثير**: يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة – وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.
- الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.
- ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.
- قوله تعالى (**الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**) أي: الذي أوجدها على تقدير محكم, لأن الأصل أن الخلق لغة هو التقدير.

والله يحمد على ذلك كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) .

- وإنما ذكر السموات والأرض , لأنهما من أعظم المخلوقات .
- وخلقهما بالحق .

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي: وليس عبثاً , فإن الله منزه عن العبث , فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة , فالحق ضد الباطل , فالله خلقهما لحكم باهرة , لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً .

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون).

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جل وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان , صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق , قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً).

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق .

ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض , تعليمه لخلقه أنه تعالى على كل شيء قدير , وأنه قد أحاط بكل شيء علماً , كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق, وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ثم جزاؤهم على أعمالهم, كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً , لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء , هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيئ فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) .

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً , فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقوله تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ) أي: تنزه وتعاظم وتقدس عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

- قوله تعالى (السماوات) فيه دليل على أن السموات سبع , وهذا منصوص عليه في القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) .

وأما الأرض فهي سبع أيضاً لظاهر القرآن وصريح السنة , قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وأما السنة فقوله ﷺ (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) متفق عليه .

- قوله تعالى (**فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.
- **قال ابن عطية:** وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء.
- **وقال القرطبي**: قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.
- **وقال ابن كثير**: والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة –وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.
- وقد اختلف في مقدار هذه الأيام:

فقيل: كأيامنا هذه.

لأن الله أطلقها، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه.

وقيل: كل يوم مقدار خمسين ألف سنة.

وقيل: المراد باليوم لحظة.

والراجح الأول.

- فإن قيل: أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

فمن المقرر عند أهل الإيمان الراسخ والتوحيد الكامل أن المولى جل وعلا قادر على كل شيء، وقدرته سبحانه ليس لها حدود، فله سبحانه مطلق القدرة وكمال الإرادة، ومنتهى الأمر والقضاء، وإذا أراد شيئاً كان كما أراد وفي الوقت الذي يريد، وبالكيفية التي أرادها سبحانه وتعالى.

وقد تواترت النصوص القطعية من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ على تقرير هذا الأمر وبيانه بياناً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض.

قال تعالى (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (يبين بذلك تعالى كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن _ أي: مرة واحدة _ فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (... قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (هو الذي يحي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر).

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسيره هذه الآية (٤/ ٢٦١): (وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال: (وما أمرنا إلا واحدة) أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى توكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قولة فيكون) أ. هـ.

- وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين:

الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها.

الحكمة الثانية: أن الله علم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه.

- هذه الأيام أربعة منها للأرض، ويومان للماء، كما فصل ذلك في سورة فصلت: (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ).
- **قال الإمام القرطبي**: وذكر هذه المدة – أي ستة أيام – ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد:
  - أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.

o ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء ....

o وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً، وبيّن بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً ... .

- **وقال ابن الجوزي:** فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).

والرابع: أنه علّم عباده التثبت، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق) ا.هـ

- وقال القاضي أبو السعود (... وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور) ا.

(**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**) أي: علا وارتفع على العرش، وأما كيفية ذلك فالله أعلم بكيفيته.

- والعرش: ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، وهو من أعظم المخلوقات.
- وفي الآية إثبات العرش.

والعرش: لغة عبارة عن السرير الذي للملك، سمي عرشاً لارتفاعه عليه .

وشرعاً: هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات، **وقد وصفه الله بأوصاف عظيمة:**

وصفه بالعظمة:

قال تعالى (ورب العرش العظيم).

ووصفه بأنه كريم:

قال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

ومدح نفسه سبحانه بأنه ذو عرش:

كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش).

وأخبر سبحانه أن للعرش حملة:

قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله ...).

وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية).

وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض.

قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء).

وأخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس.

قال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن).

وله قوائم.

قال ﷺ (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ...).

- في هذه الآية إثبات أن الله مستو على عرشه، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، استواء يليق بجلاله من غير تكييف.

وقد ذكر الله استوائه على العرش في سبع مواضع من القرآن.

وقد فسر أهل التعطيل الاستواء بمعنى الاستيلاء، واستدلوا بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو درهم راق

لكن هذا البيت لا يعرف قائله.

(**يُدَبِّرُ الأَمْرَ**) أي: يدبر أمر الخلائق ، في العالم العلوي والسفلي من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزه خاضعون لعظمته وسلطانه.

كما قال تعالى (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ) ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلّطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار .

وقال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(**مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**) فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

كقوله تعالى (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ) .

وكقوله تعالى (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى)

وقوله (وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

(**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ**) أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له .

(**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**) الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

الفوائد :

١ - أن الخالق لكل شيء هو الله.

٢ - أن الذي لا يخلق لا يستحق أن يعبد.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ).

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ).

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ).

٣ – إثبات استواء الله على عرشه استواء يليق بجلاله.

٤ – إثبات علو الله تعالى.

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (٤)) .

[يونس : ٤] .

(**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**) يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه. كما قال تعالى (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) .

(**وَعْدَ اللهِ حَقًّا**) تأكيد ، أي : وعداً من الله لا يتبدل ، وفيه رد على منكري البعث حيث قالوا (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) .

(**إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**) أي : أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) .

- ثم ذكر ما يترتب على الإعادة :

(**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ**) بالله وصدقوا في إيمانهم .

(**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**) أي : وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات ، إخلاصاً لله ، ومتابعة للرسول .

(**بِالْقِسْطِ**) أي : بعدله الجزاء الطيب الذي أعده لهم .

(**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ**) بآيات الله ، وكذبوا رسله .

(**لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ**) أي : لهم في جهنم شراب من ماء شديد الحرارة يشوي الوجوه ، ويقطع الأمعاء .

- **قال الشنقيطي** : وَالْحَمِيمُ : الْمَاءُ الْحَارُّ ، وَذَكَرَ أَوْصَافَ هَذَا الْحَمِيمِ فِي آيَاتٍ أُخَرَ .

كَقَوْلِهِ (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) وَقَوْلِهِ (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) وَقَوْلِهِ (يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) ، وَقَوْلِهِ (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ) ، وَقَوْلِهِ (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) .

وَذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُمْ يُسْقَوْنَ مَعَ الْحَمِيمِ الْغَسَّاقَ ، كَقَوْلِهِ (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) ، وَقَوْلِهِ (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) ، وَالْغَسَّاقُ : صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ – أَعَاذَنَا اللَّهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا

(**وَعَذَابٌ أَلِيمٌ**) من سائر أصناف العذاب .

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن

تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) .

وقال تعالى (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) .

وقال تعالى (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) .

وقال تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وقال تعالى (يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا) .

وقال تعالى (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) رواه مسلم .

وعَنْ سَمُرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْزَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى عُنُقِهِ) .

وعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِير . قال : قال ﷺ (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُه) .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِى مِنْهُمَا دِمَاغُه) .

(**بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ**) أي : بسبب كفرهم بالله تعالى .

الفوائد :

١-أن مرجع جميع الناس إلى الله تعالى .

٢- إثبات البعث والجزاء .

٣- أن وعد الله حق .

٤- إثبات البعث .

٥- حكمة الله في بعث الناس يوم القيامة لفصل القضاء والحكم بين الناس .

٦-فضل الإيمان والعمل الصالح .

٧-كثيراً ما يقرن الله بين العمل وبين الصلاح ، لأن العمل لا يكون مقبولاً إلا إذا كان صالحاً .

٨-أن الأعمال الصالحات تصدق الإيمان .

٩- تهديد شديد للكفار .

١٠- أن الكفار لهم عذاب شديد في نار جهنم .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)) .

[يونس : ٥] .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا) يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل .

- فالله تعالى وحده هو الذي جعل لكم الشمس ذات ضياء ، وجعل لكم القمر ذا نور ، لكي تنتفعوا بهما في مختلف شئونكم.

قال الجمل : وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور ، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما إذا تساويا لم يعرف الليل من النهار ، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر .

ومما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله تعالى (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً) .

وقوله تعالى (تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً) .

(**وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ**) أي : وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيرًا، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل

إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر .
كما قال تعالى (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) .
وقال تعالى (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) .
(لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) بيان للحكمة من الخلق والتقدير.
فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.
أي : جعل سبحانه الشمس ضياء ، والقمر نوراً ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين التي يفيدكم علمها في مصالحكم الدينية والدنيوية ولتعلموا الحساب بالأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم.
(مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ) أي: لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة .
كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) .
وقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) .
(يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) استئناف مسوق لبيان المنتفعين بهذه الدلائل الدالة على قدرة الله ووحدانيته ورحمته بعباده.
أي : يفصل سبحانه ويوضح البراهين الدالة على قدرته لقوم يعلمون الحق ، فيستجيبون له ، ويكثرون من طاعة الله وشكره على ما خلق وأنعم.
الفوائد :
١- بيان رحمة الله بعباده حيث خلق وأوجد ما فيه مصلحتهم .
٢- بيان شيء من آيات الله العظيمة .
٣- أن الله لا يخلق شيئاً إلا لحكمة .
٤- من حكمة الله يفصل ويوضح وينوّع الآيات للناس لعلهم يتقون .
٥-فضل العلم .
(إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)) .
[يونس : ٦] .

(إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) . [تفسير ابن كثير : ١ / ١٨٧] .
وهذا البرهان ذكره الله تعالى في عدة مواضع :

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وقال تعالى (وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) .

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون) .

(**وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) من أنواع الانس والجن والحيوان والنبات والنجوم وغير ذلك من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى .

كما قال (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون) .

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ) .

(**لآيَاتٍ**) أي : لعلامات ودلالات وبراهين ودلائل عظيمة .

- **قال القاسمي** : عظيمة كثيرة ، فالتنكير للتفخيم كمّاً وكيفاً .

(**لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ**) الله ، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وفي آل عمران (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

أي : العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون .

وقال الله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

- وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة .
- وخص سبحانه المتقين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بنتائج التدبر في هذه الدلائل.
- **قال ابن القيم** : الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين :

أحدهما : النظر في مفعولاته ، **والثاني** : التفكر في آياته وتدبرها ، فتلك آياته المشهودة ، وهذه آياته المسموعة .

فالنوع الأول كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ...) وقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) وهو كثير في القرآن .

والثاني كقوله (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) وقوله (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) وقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) .

قال السعدي : وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن

بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة .

الفوائد :

١- أن من آيات الله العظيمة اختلاف الليل والنهار .

٢- أن آيات الله في السماوات والأرض كثيرة .

٣ – عظمة الله تعالى .

٤- وجوب إفراد الله بالعبادة ، لأن الخالق هو المستحق للعبادة .

٥- رحمة الله بعباده ، حيث أن أراهم الآيات لكي يوحدوه ويفردوه بالعبادة .

٦- فضل التقوى ، حيث أنها سبب في الاعتبار والاتعاظ .

(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨)) .

[يونس : ٧ – ٨] .

(**إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا**) أي : كفروا بلقاء الله يوم القيامة .

والمراد بلقائه – سبحانه – الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء. والمعنى : إن الذين لا يرجون ولا يتوقعون لقاءنا يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم في الدنيا .

(**وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أي : اطمأنوا لها ، وارتضوها بدلاً من الآخرة الباقية ، رضاء جعلهم لا يفكرون إلا في التشبع من زينتها ومتعها .

(**وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا**) أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

(**وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ**) عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها .

- فأنت ترى أن الله تعالى قد وصف هؤلاء الأشقياء بأربع صفات ذميمة :

وصفهم – أولاً – بعدم الرجاء في لقاء الله تعالى بأن صاروا لا يطمعون في ثواب ، ولا يخافون من عقاب ، لإنكار الدار الآخرة.

ووصفهم – ثانياً – بأنهم رضوا بالحياة الدنيا ، بأن أصبح همهم محصوراً فيها ، وفي لذائذها وشهواتها.

ووصفهم – ثالثاً – بأنهم اطمأنوا بهذه الحياة ، اطمئنان الشخص إلى الشيء الذي لا ملاذ له سواه ، فإذا كان

السعداء يطمئنون إلى ذكر الله ، فإن هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير ، وصارت لا تطمئن إلا إلى زينة الحياة الدنيا.

ووصفهم – رابعاً – بالغفلة عن آيات الله التي توقظ القلب ، وتهدى العقل ، وتحفز النفس إلى التفكير والتدبير. وبالجملة فهذه الصفات الأربع تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأشقياء قد آثروا دنياهم على أخراهم ، واستحبوا الضلالة على الهدى ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

- ففي هذا ذم الغفلة عن آيات الله المتنوعة .

قال تعالى (قال الله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى مبيناً فضل التفكر :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .

- والتفكر هو : تكرار تأمل القلب في الشيء مرّات ومرات ، حتى يتعرف العبد على خباياه وأسراره قدر طاقته .

قال ابن القيم : الفكرة هي تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له .

- وقد أمر الله بالتفكر في آياته في مواضع كثيرة .

قال تعالى (وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

قال ابن القيم : إذا غذي القلب بالتذكر ، وسقيَ بالتفكر ، ونُقي من الدعل ، رأى العجائب وألهم الحكمة .

وقال رحمه الله : معرفة الله سبحانه نوعان : الأول : معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي . والثاني : معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه ، وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم .

- ولهذه المعرفة بابان واسعان :

الباب الأول : التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن الله ورسوله .

والباب الثاني : التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط .

وقال رحمه الله : والتذكر والتفكر منزلان يثمران أنواع المعارف ، وحقائق الإيمان والإحسان ، والعارف لا يزال يعود بتفكره على التذكرة ، وبتذكره على تفكره ، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم .

سئلت أم ذر عن عبادة أبي ذر فقالت : التفكر والاعتبار .

وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته فكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو .

وقال الفضيل : الفكرة مرآةُ تريك حسناتِك وسيئاتِك .

وقال ابنُ بَطَّال : إن الإنسان إذا كَمُل إيمانه ، وَكَثُر تفكُّره ، كان الغالِبُ علَيْه الإشفاقَ والخَوْف.

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئٍ قط إلا علِم ، وما علِم امرؤ قط إلا عمِل .

وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله حسن ، والفكرةُ في نِعم الله أفضل العبادة .

وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه قط .

وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ .

بينما أبو شريح يمشي يوماً إذ جلس ، ثم بكى بكاء شديداً ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تفكرت في ذهاب عمري ، وقلة عملي ، واقتراب أجلي .

وقال الشافعي : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكرة .

قال ابن القيم معلقاً : وهذا لأن الفكرة عمل القلب ، والعبادة عمل الجوارح ، والقلبُ أشرف من الجوارح ، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح ، وأيضاً فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه العمل المجرد .

وقال ابن الجوزي : همة المؤمن متعلقةٌ بالآخرة ، فكل ما في الدنيا يحرّكه إلى ذكر الآخرة ، ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته، والنجار إلى السقف، والبناء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط.

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن رأى مؤلماً ذكر العقاب، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثم، وذلك يشغله عن كل ما تم.

قال سفيان بن عيينة : الفكرةُ نورٌ يدخل القلب .

وقال قتادة : من تفكر في خلق نفسه ، علم أنه إنما خلق ولينتْ مفاصله .

وقال بعض الحكماء : أحْيِ قلبك بالمواعظ ، ونوّره بالفكر ، وموّته بالزهد ، وقوّه باليقين ، وذلّه بالموت ، وقرّره بالفناء ، وبصّره فجائع الدنيا .

سئل أعرابي عن دليل على وجود الله فقال : سبحان الله ! سماءٌ ذات أبراج ، وأرضٌ ذات فجاج ، وبحارٌ ذاتُ أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير !!

قال ابن القيم : أنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك

- قوله تعالى (**ورضوا بالحياة الدنيا**) ذم لمن رضي بالدنيا واغتر بها واطمأن لها .

قال ابن القيم : وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا وأطمأن بها وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه .

فقال (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) .

وعير سبحانه من رضى بالدنيا من المؤمنين .

فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

وعلي قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة .

ويكفى في بالزهد في الدنيا :

قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) .

وقوله (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) .

وقوله (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ) .

- فعلى المسلم أن يحذر من التشبه بالكفار بالركون إلى الدنيا والعمل لها ، ويعرف حقيقة الدنيا ، وأنها دار عبور لا دار قرار .

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ).

وقال تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ).

وقال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).

وقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً).

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال ﷺ (إن هذه الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها ...فاتقوا الدنيا ...).

وقال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ...) رواه الترمذي.

وكان النبي ﷺ يستعيذ من فتنة الدنيا:

عنْ مُصْعَبٍ كَانَ سَعْدٌ يَأْمُرُ بِخَمْسٍ وَيَذْكُرُهُنَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهِنَّ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا يَعْنِي فِتْنَةَ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال ﷺ لابن عمر (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري .

وفي رواية عند الترمذي (وعد نفسك من أهل القبور).

هذه وصية النبي ﷺ لابن عمر، وهي في الواقع وصية له وللأمة من بعده رضي الله عنه وأرضاه، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور .

قال النووي رحمه الله في معنى الحديث (لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا، ولا تحدّث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه).

- من أقوال السلف:

قال موسى عليه السلام : الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام ورآهم في ترف فقال لهم: مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون، وتبنون ما لا تسكنون، وتؤمّلون ما لا تأخذون، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمّنتْ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، وبيوتهم قبوراً، فجعل الناس يبكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد.

وقال أبو داود وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل: ما رأيت الإمام أحمد بن حنبل ذكر الدنيا.

وقال: الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج , والسير في طلبها كالسير في أرض مسبعة – أي كثيرة السباع – السباحة فيها كالسباحة في غدير التمساح.

(**أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ**) أي : مصيرهم ومستقرهم نار جهنم .

(**بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**) في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

الفوائد :

١- كفر من كذب لقاء الله وبالبعث .

٢-وجوب الإيمان بلقاء الله وبالبعث والحساب .

٣- ذم من رضي بالدنيا وعاش من أجلها .

٤- الحذر من فتنة الدنيا وزخرفها .

٥- من صفات الكفار العمل للدنيا .

٦- ذم من يغفل عن آيات الله المنوعة .

٧- الحث على التفكر في آيات الله .

٨- أن التفكر في آيات الله سبب في زيادة الإيمان .

٩- أن الكفار مأواهم النار بسبب ما كسبت أيديهم من كفر وتكذيب .

١٠- أن الله لا يظلم أحداً لكمال عدله .

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)**

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)) .
[يونس : ٩ – ١٠] .

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**) هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا، به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم.

فهم جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

(**يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**) يحتمل أن تكون "الباء" هاهنا سببية فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصُوا إلى الجنة .

- **قال السعدي** : فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم

(**تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**) أي : تجري من تحت قصورهم الأنهار ، أو من تحت أسرتهم ، وهم مقيمون في جنات النعيم .

- **قال السعدي** : أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

(**دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ**) أي : دعاؤهم في الجنة (سبحانك اللهم) وفي الحديث (يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس) أي كما يتنفس الانسان بدون تعب ، فكلامهم وذكرهم في الجنة تسبيح الله .

(**وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ**) أي : أَنَّ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ سَلَامٌ ، أَيْ يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِذَلِكَ ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ .

وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى هَذَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ ، كَقَوْلِهِ (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَقَوْلِهِ (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) ، وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا الْآيَةَ) وَقَوْلِهِ (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) . وَقَوْلِهِ (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَمَعْنَى السَّلَامِ : الدُّعَاءُ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْآفَاتِ .

وَالتَّحِيَّةُ : مَصْدَرُ حَيَّاكَ اللَّهُ ، بِمَعْنَى أَطَالَ حَيَاتَكَ .

(**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) أي : وآخر دعائهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين .

- والحمد : وصف المحمود بالجميل محبة وتعظيماً .
- رب العالمين : أي : خالقهم ومالكهم ومدبرهم .

قال ابن كثير : هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأول وفي الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال .

- والله يحمد على كل شيء, ومن ذلك: أنه سبحانه وتعالى يحمد على نصر الرسل وإهلاك الكافرين, فإن بذلك تتبين آياته, وإكرامه لأوليائه , وإهانته لأعدائه , وصدق ما جاءت به المرسلون .

قال تعالى (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

- قال بعض العلماء إن هذه الكلمة (الحمد لله) كلمة كل شاكر ويدل لذلك :

قول أهل الجنة (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) .

وبقول نوح عليه السلام (الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) .

وبقول أهل الجنة أيضاً (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

وبقول إبراهيم عليه السلام (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق) .

وبقول داود وسليمان عليهما السلام (الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) .

الفوائد :

١- فضل الإيمان والعمل الصالح .

٢- يشترط في العمل أن يكون مقبولاً أن يكون صالحاً .

٣- كلما قوي إيمان الشخص كلما ازدادت هداية الله له .

٤- من نعيم الجنة جري الأنهار من تحت قصورهم .

٥- أن في الجنة كل أنواع النعيم .

٦- أن تحية أهل الجنة سلام ، وهم في دار السلام .

٧- أن الله يحمد على كل شيء .

٨-بيان استحقاق لله تعالى للحمد لله .

٩-إثبات الربوبية لله تعالى .

والرب من أسماء الله تعالى ، قال ﷺ (وأما الركوع فعظموا فيه الرب) وقال ﷺ (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب) .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ(١١)) .

[يونس : ١١] .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) قال الطبري : المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر ، وفيما عليهم فيه مضرة ، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به لقضي إليهم أجلهم .

- يُعَجِّلُ من التعجيل بمعنى طلب الشيء قبل وقته المحدد له والاستعجال : طلب التعجيل بالشيء.

والأجل : الوقت المحدد لانقضاء المدة. وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانتهاء عمره.

- والمراد بالناس هنا – عند عدد من المفسرين – : المشركون الذي وصفهم الله تعالى قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها.

ولقد حكى القرآن في كثير من آياته ، أن المشركين قد استعجلوا الرسول ﷺ في نزول العذاب .

قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ) .

وقال تعالى (وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ) .

والمعنى: ولو يعجل الله تعالى لهؤلاء المشركين العقوبة التي طلبوها، تعجيلاً مثل استعجالهم الحصول على الخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أي: لأميتوا وأهلكوا جميعاً، ولكن الله تعالى الرحيم بخلقه، الحكيم في أفعاله، لا يعجل لهم العقوبة التي طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها فقد يكون من بين هؤلاء المتعجلين للعقوبة من يدخل في الإسلام، ويتبع الرسول ﷺ.

ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم ، وأن الآية الكريمة تحكى لوناً من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم.

ومن المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه في تفسيرهم ابن كثير .

- **قال ابن كثير** : يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم –والحالة هذه – لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي: لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك .
- **قال السعدي** : قوله تعالى (لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي: لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا، أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حليم حكيم.

- **قال الماوردي** : قوله عز وجل (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) فيه وجهان :

أحدهما : ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة ، قاله ابن إسحاق.

الثاني : معناه أن الرجل إذا غضب على نفسه أو ماله أو ولده فيدعو بالشر فيقول : لا بارك الله فيه وأهلكه الله ، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب منه الخير لقضي إليهم أجلهم أي لهلكوا.

فيكون تأويلاً على الوجه الأول خاصاً في الكافر ، وعلى الوجه الثاني عاماً في المسلم والكافر.

- **قال القرطبي** : فالآية نزلت ذامّة لخُلق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر ؛ فلو عجّل لهم لهلكوا.
- **قال الرازي** : ... أنه تعالى سمى العذاب شراً في هذه الآية ، لأنه أذى في حق المعاقب ومكروه عنده كما أنه سماه سيئة في قوله : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة) وفي قوله (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) .

(**فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**) أي : لا نعجل للناس ما طلبوه من عقوبات ، وإنما نترك الذين لا يرجون لقاءنا إلى يوم القيامة ، على سبيل الإمهال والاستدراج في الدنيا في طغيانهم يتحيرون ويترددون ، بحيث تلتبس عليهم الأمور فلا يعرفون الخير من الشر.

أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله، (فِي طُغْيَانِهِمْ) أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

(**يَعْمَهُونَ**) يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

الفوائد :

١- رحمة الله ولطفه تعالى بعباده .

٢- أن الله لا يعجل العذاب على الناس لحكمة .

٣- أن الله لو يؤاخذ الناس بأعمالهم لأهلكهم .

٤- أن من أسباب الطغيان عدم الإيمان بلقاء الله .

٥- أن الإيمان بلقاء الله سبب للاطمئنان .

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢)) .

[يونس : ١٢] .

(**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ**) أي : وإذا أصاب الإنسان الضر من مرض أو فقر أو نحو ذلك .

(**دَعَانَا**) بإلحاح وتضرع لكي نكشفه عنه .

(**لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا**) أي : دعانا في جميع الحالات : مضطجعاً او قاعداً او قائماً ، لكشف ذلك الضر عنه .

- **قال ابن الجوزي** : واللام في قوله (لجنبه) بمعنى "على".
- يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء (مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ) .
- **قال القرطبي** : قوله تعالى (دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً) وإنما أراد جميع حالاته ؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة.
- **وقال الشوكاني** : قوله تعالى (أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) وكأنه قال : دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها ، وخصّ المذكورة بالذكر؛ لأنها الغالب على الإنسان ، وما عداها نادر كالركوع والسجود ، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعاً غير قادر على القعود ، وقاعداً غير قادر على القيام ، وقائماً غير قادر على المشي ، والأوّل : أولى .
- **قال الرازي** : فإن قالوا : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟

قلنا : معناه : إن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء إلى أن يزول عنه الضر ، سواء كان مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً.

(**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ**) أي : فلما أزلنا ما به من ضر استمر على عصيانه ، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه ، وهو عتاب لمن يدعو الله عند الشدة ، ويغفل عنه عند العافية .

(**مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ**) مضى واستمر في غفلته الأولى حتى لكأنه لم تنزل به كروب ، ولم يسبق له أن دعانا بإلحاح لكشفها.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ) أي : استمر على كفره ولم يشكر ولم يتّعظ.

قلت: وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصي؛ فالآية تعمّ الكافر وغيره .

- **قال الشوكاني** : وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر ، بل تتفق لكثير من المسلمين ، تلين ألسنهم بالدعاء وقلبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم . فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرّع ، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم ، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضرّ ، ودفع ما أصابهم من المكروه . وهذا مما يدلّ على أن الآية تعمّ المسلم والكافر ، كما يشعر به لفظ الناس ، ولفظ الإنسان ، اللهم أوزعنا شكر نعمك ، وأذكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء ، حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطيق سواه ، ولا نقدر على غيره ، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ) .
- **قال الرازي** : المقصود من هذه الآية ، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء ، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء ، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً مجتهداً في

ذلك الدعاء طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحنة ، وتبديلها بالنعمة والمنحة ، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر ، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام ، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره ، وذلك يدل على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن هذه الطريقة مذمومة ، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء شاكراً عند الفوز بالنعماء ، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية.

حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحن

(**كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) أي : كما زين لذلك الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء كذلك زين للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام ، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الهدى ، ومتابعة الشهوات .

- **قال ابن كثير** : فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك،كما قال تعالى (إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) وكقول رسول الله ﷺ (عجبا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له"، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن) .

الفوائد :

١-ذم من يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة .

٢- أن اللائق بحال الكامل التضرع إلى مولاه في السراء والضراء فإن ذلك أرجى للإجابة ففي الحديث (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) .

٣- وجوب الرجوع الى الله في الضراء والسراء .

٤- أنه لا يكشف الضر إلا الله .

٥- شدة طغيان ابن آدم حيث ينسى ربه وقت السراء .

(**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣)**) .

[يونس : ١٣] .

(**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ**) أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادوا في الغى والضلال .

فالمراد بالظلم هنا الشرك .

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ) مثل قوم نوح. وعاد ، وثمود ، وهو جمع قرن بفتح القاف أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران كأن أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم ، وقيل : القرن

أربعون سنة وقيل : ثمانون وقيل مائة وقيل هو مطلق الزمان ، والمراد هنا المعنى الأول وكذا في قوله ﷺ : " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " وقوله :إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم...

- **قال ابن عطية** : هذه الآية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم ، أي كما فعل هؤلاء فعلكم فكذلك يفعل بكم ما فعل بهم .
- **وقال ابن عاشور** : وهذه الآية تهديد وموعظة بما حل بأمثالهم.

(**وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**) الواضحات التي تدل على صدقهم .

(**وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ**) أي : وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل ، أي : أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب اهلاكهم شيئان : ظلمهم ، وعدم ايمانهم .

(**كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**) أي : مثل ذلك الجزاء – يعني الاهلاك – نجزي كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ﷺ .

الفوائد :

١- في هذه الآية يخبر الله تعالى أنه أهلك كثيراً من القرى بسبب ظلمهم وشركهم بعدما قامت عليهم الحجة .

وما ذكره الله تعالى هنا من أنه أهلك كثيراً من القرى أخبر به في آيات كثيرة :

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ...).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً).

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ).

قال تعالى (وكم من قرية أهلكناها ...) .

وأخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم :

كما قال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

وقال تعالى (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً).

وقال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

وقال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ).

وأخبر تعالى أنه لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل :

قال تعالى (ومَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

وأخبر سبحانه أنه يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ :

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

وقال تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا).

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)) .

[يونس : ١٤] .

(**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم**) أي : ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة ، من بعد إهلاك أولئك القرون ، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها .

(**لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**) أي لننظر أتعملون خيراً ام شراً فنجازيكم على حسب عملكم ، قال القرطبي : والمعنى : يعاملكم معاملة المختبر اظهاراً للعدل .

- **قال الرازي** : لخطاب للذين بعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناهم، لننظر كيف تعملون، خيراً أو شراً، فنعاملكم على حسب عملكم.
- **وقال في التسهيل** : معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة والغرض ان الله تعالى عالم بأعمالهم من قبل ذلك ، ولكن يختبرهم ليتبين في الوجود ، ما علمه تعالى أزلا .

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيم).

وقال تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً).

وقال تعالى (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).

وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إن الدنيا حُلْوَة خَضِرَة وإن الله مُسْتَخْلِفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء).

الفوائد :

١- أن الله قد استخلف الناس في هذه الدنيا للاختبار والابتلاء .

فعبادة الله وإحسان العمل هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم

بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) . ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم .

٢- الحكمة من هذه الدنيا الابتلاء والاختبار .

٣- وجوب الابتعاد عن الفتن وأسبابها ، وقد جاء في الحديث (إن السعيد لمن جنب الفتن) رواه أبو داود .

٤- الحرص على الجد والاجتهاد في هذه الدار الفانية بالعمل الصالح .

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٦)) .

[يونس : ١٥- ١٦] .

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ) أي: وإذا قُرئَ على مُشركِي قُريشٍ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال الذين يكَذِّبونَ بالبَعثِ، ولا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمعونَ في ثَوابِنا: أحضِرْ- يا محمَّدُ- قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نَكرَهُ مِن التَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، وعَيبِ آلهَتِنا، وذِكرِ البَعثِ والنُّشورِ، أو غيِّرْ هذا القُرآنَ بنَفسِك على الوَجهِ الذي نُحِب .

- **قال الجزائري** : قوله تعالى (إئت بقرآن غير هذا) أي بأن يكون خالياً من عيب آلهتنا وانتقاصها . أو أبقه ولكن بدل كلماته بما يسونا فاجعل مكان آية فيها ما يسوءنا آية أخرى لا إساءة فيها لنا .

وقولهم هذا إما أن يكون من باب التحدي ، أو الاستهزاء والسخرية ، وإما أن يكون من باب توهمهم أن الرسول ﷺ يأتي به من تلقاء نفسه إلا أن هذا الاحتمال ضعيف .

- **قال الماوردي** : وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم سألوه الوعد وعيداً ، والوعيد وعداً ، والحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، قاله ابن جرير الطبري.

الثاني : أنهم سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، قاله ابن عيسى.

الثالث : أنه سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ، قاله الزجاج.

- **وقال الجصاص** : وَكَانَ سُؤَالُهُمْ لِذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالتَّحَكُّمِ ؛ إذْ لَمْ يَجِدُوا سَبَبًا آخَرَ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ مَوْقُوفًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ وَتَحَكُّمِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ عَالِمِينَ بِالْمَصَالِحِ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يَأْتِيَ بِغَيْرِهِ ، أَوْ يُبَدِّلَهُ بِقَوْلِهِمْ لَقَالُوا فِي الثَّانِي مِثْلَهُ فِي الْأَوَّلِ وَفِي الثَّالِثِ مِثْلَهُ فِي الثَّانِي فَكَانَ يَصِيرُ دَلَائِلُ اللَّهِ تَعَالَى تَابِعَةً لِمَقَاصِد السُّفَهَاءِ ، وَقَدْ قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يُقْنِعُهُمْ ذَلِكَ مَعَ عَجْزِهِمْ

فَالثَّانِي وَالثَّالِثُ مِثْلُهُ.

- **قال ابن الجوزي** : والفرق بين تبديله والإتيان بغيره، أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيانُ بغيره قد يجوز أن يكون معه.

(**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي**) أي: قل لهم يا محمد: ما ينبغي ولا يصح لي أن أغير او أبدل شيئاً من قبل نفسي.

(**إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ**) أي: قُلْ- يا مُحَمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ليس لي إلَّا أن أتَّبعَ ما يُوحيه اللَّهُ إليَّ ويأمُرُني به، مِن غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تحريفٍ

(**إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي**) بتبديل كلامه .

(**عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) أي: إنِّي أخشى- إن خالَفْتُ أمْرَ اللهِ، وبدَّلْتُ شَيئًا مِن كِتابِه- عذابَ يومِ القيامةِ العظيمِ الأهوال .

- يوم القيامة يوم رهيب عظيم .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) .

وقال تعالى (وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) .

- وهذا كالتعليل لما سبق .

(**قُل لَّوْ شَاء اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ) أي** : قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لو أراد اللَّهُ ما تَلَوتُ عليكم القُرآنَ؛ فاللهُ وَحْدَه هو الذي أنزَلَه عليَّ، وأمَرَني بتِلاوَتِه عليكم، فهو ليس من قِبَلي، ولا أقدِرُ على ذلك، ولا أقدِرُ على الإتيانِ بقرآنٍ غَيرِه .

(**وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ**) أي: ولو أراد اللهُ لَمَا أعلَمَكم بالقرآنِ، ولا أخبَرَكم به، لكِنَّه أدْراكم به بعد أنْ لم تكونوا كذلك، فلو كان كَذِبًا وافتراءً كما تقولونَ، لأمكَنَ لِغَيري أن يَتلوَه عليكم، وتَدرونَ به مِن جِهَتِه؛ لأنَّ الكَذِبَ لا يَعجِزُ عنه البشَرُ، وأنتم لم تَدْروا بهذا مِن قَبْلُ، ولم تَسمَعوه مِن بشَرٍ غَيري .

(**فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**) أي: فقد أقمْتُ فيكم- يا أهلَ مَكَّةَ- حينًا طويلًا مِن عُمُري- أربعينَ سنةً- قبلَ أن يُوحَى إليَّ هذا القرآنُ، ما جرَّبتُم عليَّ كذبًا قطُّ، تَعرِفونَ صدقي وأمانتي، وأنِّي لستُ ممَّن يقرأُ أو يكتبُ، ثمَّ جِئتُكم بالقُرآنِ، أفلا تَعقِلونَ بذلك أنَّه وحيٌ مِن عندِ الله تعالى .

الفوائد :

١- مشروعية تلاوة كتاب الله على الناس .

٢- أن عدم الإيمان بلقاء الله سبب للتكذيب والتعنت .

٣- وجوب الإيمان بلقاء الله .

٤- أن القرآن وحي من الله لرسوله .

٥- أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يغير شيئاً من القرآن ، لأنه مبلغ عن الله .

٦-تخويف العصاة بيوم القيامة وما فيه من شدائد وأهوال .

٧- أن يوم القيامة يوم عظيم .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)) .

[يونس : ١٧] .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما (**مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**) وتَقَوّل على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظُلما من هذا .

ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذباً ، فلا بد أن الله يَنصب عليه من الأدلة على برِّه أو فُجُوره ما وأظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لعنة الله لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حنْدس الظلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفعاله يَستدّل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العَنْسي.

قال عبد الله بن سلام (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول : يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام) .

ولما قَدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له من رفع هذه السماء؟ قال: "الله". قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: "الله". قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: "الله". قال: فبالذي رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسَطَح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: "اللهم نعم" ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص.

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه .

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذَوي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة.

(**أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ**) وكذلك من كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث : أعتى الناس على الله رجلٌ قتل نبياً، أو قتله نبي .

فالتكذيب بآيات الله عدم تصديقها .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) .

- والآية تطلق في القرآن على معنيين:

الأول : آيات كونية : (وهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها) .

وهي ما نصبه الله – جل وعلا – ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة ، كالشمس والسماء والأرض ونحوها ، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة .

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي : لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون ، وهو المعبود وحده .

القسم الثاني : آيات شرعية (وهي الوحي المنزل) .

ومنه قوله تعالى (رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) .

والتكذيب بها بعدم تصديقها .

(**إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ**) أي : لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجرام ، وكذب الرسل الكرام .

والمجرمون جمعُ المجرِمِ، والمجرمُ مرتكبُ الجريمةِ، والجريمةُ: الذنبُ الذي يستحقُّ صاحبُه العذابَ والنكالَ .

الفوائد :

١- أنه لا أظلم ممن كذب الله .

٢- شدة ذنب من كذب على الله .

٣- أن الكذب درجات ، فأعظمه الكذب على الله ، ثم الكذب على رسوله .

٤- ومن أعظم الظلم أيضاً الكذب في آيات الله .

٥- وجوب الإيمان بآيات الله .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)) .

[يونس : ١٨] .

(**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ**) أي : ويَعبُدُ المشركونَ مِن دُونِ الله آلهةً مِن الأصنامِ وغَيرِها، لا تَضُرُّهم إن تركوا عِبادتَها، ولا تنفعُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ عَبَدوها ، لأنها جمادات لا قدرة لها

على ذلك.

- والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع : بطلان عبادتها ، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع ، وأن يكون مثيباً على الطاعة ومعاقباً على المعصية.

كما قال تعالى (ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُون) .

وقال تعالى (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم) .

وقال سُبحانه (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِين) .

هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله ، ووصف المدعو من دون الله بأربع أوصاف :

الأولى : عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة .

الثانية : أنهم غافلون عن دعائهم ، إما لأنهم أموات ، أو جماد لا إحساس لهم ، أو حي مشغول ، أو ملك لا علم له بمن دعاه **الثالثة:** أنهم يكونون أعداءً لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة : أنهم يبرؤون من عبادتهم وينكرونها .

قال البيضاوي رحمه الله : هذا إنكار أن يكون أحدٌ أضل من المشركين ، حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم ، فضلاً أن يعلم سرائرهم ، ويراعي مصالحهم .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِير) .

والقطمير : هو اللفافة التي تكون على نواة التمر ، فنفى الله عنهم مِلكَ شيء حقير ، وهو القطمير ، فأنّى لهم مُلك ما فوقه ، والله تعالى له الملك كله .

ففي هذه الآيات يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه ـ من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها ـ مما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، **وهي** :

الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على الاستجابة .

فمتى لم توجد هذه الشروط تامّة بطلت دعوته ، فكيف إذا عدمت بالكلية .

فنفى عنهم الملك بقوله (ما يملكون من قطمير) [القطمير : اللفافة التي تكون على نواة التمر] .

أي لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) يعني الآلهة التي تدعونها لا يسمعون دعاءكم لأنهم أموات ، أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له ، أو جماد .

ولأنه قد يقول المشرك : هذا في الأصنام ، أما الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون .

فنفى سبحانه ذلك بقوله (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أي : لا يقدرون على ما تطلبونه منكم

وقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) قال ابن كثير : يتبرؤون منكم .

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُون) .

- بين الله تعالى في هذه الآية صفات هؤلاء المعبودين من دون الله ، **وهي أربعة** :

١. أنهم لا يخلقون شيئاً .

٢. أنهم مخلوقون مربوبون .
٣. أنهم لا يستطيعون لهم نصراً .
٤. أنهم لا ينصرون أنفسهم .
وقال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ) .

- يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين على وجه التحدي : اطلبوا من آلهتكم التي زعمتم أنها تنفعكم وتكشف الضر عنكم ، فإنهم لا يقدرون على ذلك .

لأنه لا بد من توفر أربعة شروط في المدعو حتى يقدر على إجابة من دعاه ، **وهم** :
الشرط الأول : الملك .
وقد نفاه الله **بقوله (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا الأرض)** .
الشرط الثاني : إذا لم يكن مالكاً فيكون شريكاً للمالك .
وقد نفاه الله **بقوله (ومالهم فيهما من شرك)** .
الشرط الثالث : إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك ، فيكون عوناً ووزيراً .
وقد نفاه الله **بقوله (وماله منهم من ظهير)** .
الشرط الرابع : إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً ، فيكون شفيعاً .
وقد نفى الله الشفاعة عنده إلا بإذنه .
فبنفي هذه الأمور بطلت دعوة غير الله ، إذ ليس عند غيره من النفع والضر ما يوجب قصده بشيء من العبادة .
كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً) .
(**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**) أي: ويقولُ المشركونَ: هؤلاء الذين نعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عند الله .
والشفعاء : جمع شفيع ، وهو من يشفع لغيره في دفع ضرر أو جلب نفع.
أي : أنهم يدينون بالعبادة لأصنام لا تضرهم إن تركوا عبادتها ، ولا تنفعهم إن عبدوها ، فإذا ما طلب منهم أن يجعلوا عبادتهم لله وحده قالوا : إننا نعبد هذه الأصنام لتكون شفيعة لنا عند الله في دنيانا ، بأن نتوسل إليه بها في إصلاح معاشنا ، وفي آخرتنا إن كان هناك ثواب وعقاب يوم القيامة.
(**قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ**) أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أتخبرون الله تعالى بشريك أو شفيع ، كائن في السموات أو الارض ، لا يعلمه جل وعلا ؟ وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات ؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم .
ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم فقال :
(**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**) أي: تقدَّس اللهُ وتنزَّه عن أن يكونَ له شريك .

الفوائد :

١- تحريم عبادة غير الله من الأصنام وغيرها .

٢- بطلان عبادة الأصنام ، حيث أنها لا تنفع ولا تضر .

٣- أن المستحق للعبادة هو من ينفع ويضر وقادر ، وهذا لا يكون إلا لله تعالى .

٤- ادعاء الكفار أن الأصنام إنما يعبدونها لتكون لهم شفعاء .

٥- الشفاعة لله جميعاً .

٦- تنزيه الله عن كل شرك أو نقص أو عيب .

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)) .

[يونس : ١٩] .

(**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً**) المراد بالناس : الجنس البشرى كله في جملته ، فإنهم كانوا أمة واحدة. ثم كثروا وتفرقوا وصاروا شعوبا وقبائل.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالناس هنا : العرب خاصة ، فإنهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم ، إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحى الذي ابتدع لهم عبادة الأصنام.

قال ابن الجوزي : شرحنا هذا في سورة [البقرة : ٢١٣] وأحسن الأقوال أنهم كانوا على دين واحد موحِّدين ، فاختلفوا وعبدوا الأصنام ، فكان أول من بعث إليهم نوح عليه السلام .

قال تعالى في سورة البقرة (كان النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ) .

قوله (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي : كان الناس على الإيمان والفطرة ، وهذا بين آدم ونوح .

- فالمراد بالناس هنا : الذين هم بين آدم ونوح ، فسار هؤلاء على التوحيد من عهد آدم إلى أن انتشر الشرك في عهد نوح ، وهذا قول أكثر المحققين .

قال ابن عباس : كان بين نوح وآدم عشرون قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

- قال ابن الجوزي : قوله تعالى (كان الناس أمةً واحدةً) في المراد ب «الناس» هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : جميع بني آدم ، وهو قول الجمهور .

قال ابن عاشور : والناس : اسم جمع للبشر ، وتعريفه للاستغراق.

والأمة : الجماعة العظيمة التي لها حال واحد في شيء مَّا.

والمراد هنا أمة واحدة في الدين.

والسياق يدل على أن المراد أنها واحدة في الدين الحق وهو التوحيد لأن الحق هو الذي يمكن اتفاق البشر عليه لأنه ناشئ عن سلامة الاعتقاد من الضلال والتحْريف ، والإنسان لما أنشئ أنشئ على فطرة كاملة بعيدة عن

التكلف.
(**فَاخْتَلَفُوا**) أي : ما بين ضال ومهتد ، فبعث الله إليهم رسله ، ليبشروا المهتدين بجزيل الثواب ، ولينذروا الضالين بسوء العقاب.
(**وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) أي : ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير القضاء بين الطائعين والعاصين إلى يوم القيامة ، لقضى بينهم سبحانه في هذه الدنيا. فيما كانوا يختلفون فيه وذلك بأن يعجل للكافرين والعصاة العقوبة في الدنيا قبل الآخرة ، ولكنه سبحانه اقتضت حكمته عدم تعجيل العقوبة في الدنيا ، وأن يجعل الدار الآخرة هي دار الجزاء والثواب والعقاب.
والمراد بالكلمة في قوله (وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ...) ما قضاه الله تعالى وأراده من تأخير الحكم بين المؤمنين وغيرهم إلى يوم القيامة.
الفوائد :
١- أن الناس كانوا على الفطرة والتوحيد .
٢- حكمة الله في وجود الاختلاف بين الناس .
٣- إثبات الحكمة لله تعالى في كل شيء .
٤- حكمة الله في تأخير العقوبات عن العاصين .

(وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)) .
[يونس : ٢٠] .

(**وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ**) أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: "لولا أنزل على محمد آية من ربه"، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهبا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله .
ولقد حكى القرآن – في آيات أخرى كثيرة – المطالب المتعنتة التي طلبها المشركون من النبي ﷺ والتي تدل على عنادهم وجحودهم .
ومن ذلك قوله تعالى (وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ. قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا) .
كما حكى أيضاً سبحانه أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا ، لأنهم معاندون جاحدون فقال تعالى إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيم) .

وقال سبحانه : (وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) . يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيَّر رسول الله ﷺ بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه .

- ومرادهم بالآية التي طلبوها : آية كونية سوى القرآن الكريم ، بأن تكون معه ﷺ ناقة كناقة صالح عليه السلام أو تكون معه عصا كعصا موسى عليه السلام وكأنهم لا يعتبرون القرآن آية كبرى ، ومعجزة عظمى على صدقه ﷺ .

ومرادهم بإنزالها عليه : ظهورها على يديه ﷺ حتى يروا ذلك بأعينهم.
ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد والتثبت ، قال تعالى (وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّه) .

- قال تعالى إرشادا لنبيه إلى الجواب عما سألوا :

(**فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ**) أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور .
(**فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِين**) أي : إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم.
هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه ، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا .
ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتثبّتا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد .
كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الأَلِيمَ) . وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) .

- والجملة الكريمة تهديد لهم على تعنتهم وجهلهم، وتهوينهم من شأن القرآن الكريم، مع أنه أصدق معجزة للرسول ﷺ وأعظمها.

الفوائد :

١- شدة تعنت الكفار وطغيانهم .

٢- أن النبي ﷺ عبد يؤمر وينهى .

٣- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب .

٤- وجوب رد علم الغيب لله تعالى .

٥- تهديد الكفار بوعيد الله لهم .

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ

مَا تَمْكُرُونَ(٢١)).

[يونس : ٢١] .

(**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْـدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ**) يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك .

- **قال السعدي** : ... كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.
- أسند إذاقته الرحمة إلى ضمير الجلالة، وأسند المساس إلى الضراء، رعاية للأدب مع الله تعالى، لأنه وإن كان كل شيء من عنده، إلا أن الأدب معه سبحانه يقتضى إسناد الخير إليه والشر إلى غيره كما في قوله تعالى: وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وفي الحديث : « اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك) .

(**إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا**) أي : يسعون بالباطل، ليبطلوا به الحق.

كما قال (وَإِذَا مَسَّ الإنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ) .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء -مطر- أصابهم من الليل ثم قال: "هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟" قالوا الله ورسوله أعلم. قال: "قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب .

- وسمى سبحانه إنكارهم لآياته واستهزاءهم بها مكراً ، لأنهم كانوا كثيرا ما يتجمعون سرا ، ليتشاوروا في المؤامرات التي يعرقلون بها سير الدعوة الإسلامية ، وفي الشبهات التي يوجهونها إلى النبي ﷺ .

(**قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا**) أي: أشد استدراجاً وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه .

فالمكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة .

(**إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُـونَ مَا تَمْكُرُونَ**) أي : والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ، ويحصونه عليه، ثم يعرضون على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل والنقير والقِطْمير .

الفوائد :

١- حكمة الله بعباده حيث يصيبهم مرة بالضراء ومرة بالسراء .

٢-طغيان ابن آدم وقلة شكره .

٣- وجوب القيام بشكر الله على نعمه وخاصة إذا كانت بعد الضراء .

٤- ذم من لا يشكر نعم الله .

٥- تهديد من لا يشكر نعم الله ، ويقومون بحرب الله .

٦- إثبات الملائكة .

٧- أن من أعمال الملائكة كتابة الأعمال .

٨- لا يخفى شيء على الله .

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)) .

[يونس : ٢٢- ٢٣] .

(**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**) أي: هو سبحانه الذي يسيركم بقدرته ورحمته في البر والبحر، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير، أو ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرهما مما تستعملونه في سفركم، وكل ذلك من أجل مصلحتكم ومنفعتكم.

(**حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ**) أي : السفن البحرية .

(**وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا**) موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة.

- المراد بالريح الطيبة : الريح المناسبة لسير السفن ، والموافقة لا تجاهها.

(**جَاءتْهَا**) أي : تلك السفن .

(**رِيحٌ عَاصِفٌ**) أي : شديدة .

(**وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ**) أي : اغتلم البحر عليهم .

(**وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ**) أي : هلكوا ، أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدَعَوْه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

- أُحِيطَ بِهِمْ ، أي : أحاط بهم البلاء من كل ناحية. يقال لمن وقع في بلية : قد أحيط به.

(**دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت.

أي في تلك الساعات العصيبة ، واللحظات الحرجة، توجهوا إلى الله وحده قائلين: نقسم لك يا ربنا، ويا من لا يعجزك شيء، لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التي نحن فيها، لنكونن من الشاكرين لك ، المطيعين لأمرك ، المتبعين لشرعك.

أي : لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردونه بالدعاء والابتهال .

(**لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ**) أي : هذه الحالة .

(**لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**) أي : لا نشرك بك أحداً ، ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا .

(**فَلَمَّا أَنجَاهُم**) أي : من تلك المصيبة والأزمة .

قال ابن القيم : التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه؛ فأما اعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون, وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ولذلك فزع اليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات, وفزع اليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة, ولما فزع اليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه, لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل, هذه سنة الله في عباده, فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يلقى في الكرب العظام الا الشرك ولا ينجى منها الا التوحيد, فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها وبالله التوفيق .

- **الاخلاص سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب .**

كما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة ، فسبب نجاتهم دعوتهم لله تعالى بخالص أعمالهم ، فكان كل واحد منهم يقول (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ...) .

- **وهو سبب يصرف الفتنة عن القلب .**

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (٦٠/١) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل. ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها .

- **وهو أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس .**

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

- **وهو سبب للنجاة من النار .**

قال ﷺ (فإن الله حرم على النار يبتغي بذلك وجه الله) .

- **قال ابن رجب رحمه الله** : ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر : أن الكربَ إذا اشتد وعظُمَ وتناهى ، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين ، وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال الفضيل : لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كل ما تريد . (جامع العلوم والحكم) .

(**إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**) أي : كأن لم يكن من ذلك شيء .

كما قال تعالى (كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) .

- أي : فحين أنجاهم الله تعالى بفضله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذي كانوا فيه ، إذا هم يسعون في الأرض فساداً. ويرتكبون البغي الفاضح الذي لا يخفى قبحه على أحد.

وقيد البغي بكونه بغير الحق، لأنه لا يكون إلا كذلك، إذا البغي معناه: تجاوز الحق، يقال: بغى الجرح إذا تجاوز حده في الفساد.

فقوله : بِغَيْرِ الْحَقِّ تأكيد لما يفيده البغي من التعدي والظلم ، فهو بغى ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد.

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم**) أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم .

كما جاء في الحديث: "ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يَدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم" .

(**مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة .

أي : واعلموا أن هذا البغي إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التي لا بقاء لها ، وإنما هي إلى زوال وفناء.

(**ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ**) أي : مصيركم ومآلكم .

أي : اعلموا كذلك أن مردكم إلينا بعد هذا التمتع الفاني. فنخبركم يوم الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بالجزاء الذي تستحقونه.

(**فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون**) أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

الفوائد :

١- نعمة الله العظيمة بتيسير السير في البر والبحر .

٢-فضل الإخلاص لله ، وأنه سبب للنجاة من الشدائد .

٣- أن الإله الحق هو الله .

٤- وجوب عبادة الله وحده ، لأنه هو النافع الضار .

٥- أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله وحده عند المصائب والمحن .

٦- ذم من يدعو الله عند الضراء وينساه عند الرخاء .

٧-فضل الشكر لله تعالى .

٨- أن عدم الشكر لله من صفات الكفار .

٩- إيمان الكفار بوجود الله .

١٠-شدة طغيان هؤلاء الكفار ، حيث أنجاهم الله ثم بعد ذلك يتكبرون ولا يشكرون .

١١- أن بغي الإنسان راجع على نفسه .

١٢- أن الدنيا متاع زائل .

١٣- إثبات الرجوع إلى الله والبعث والحساب .

١٤- أن الله لا تخفى عليه خافية .

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)) .

[يونس : ٢٤] .

(**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أي : صفة الحياة الدنيا ، وحالها العجيبة في فنائها وزوالها ، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها .

- **قال ابن الجوزي** : هذا مثل ضربه الله للدنيا الفانية .
- **قال السعدي** : هذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

(**كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ**) كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات ، مختلط بعضها ببعض ، قال ابن عباس : اختلط فنبت بالماء كل لون .

(**مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ**) أي : مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول ، والانعام من الكلأ والتبن والشعير .

(**حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا**) أي : أخذت حسنها وبهجتها .

(**وَازَّيَّنَتْ**) أي : تزينت بالحبوب والثمار والازهار ، وهو تمثيل لها بالعروس اذا تزينت بالحلي والثياب .

- **قال السعدي** : أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

(**وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ**) أي : وظن أصحابها انهم متمكنون من الانتفاع بها ، محصلون لثمرتها وغلتها .

(**أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا**) أي : جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات ، إما ليلاً وإما نهاراً .

(**فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا**) أي : محصودة مقطوعة لا شيء فيها ، كالذي حصد بالمناجل .

(**كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**) أي : كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الارض قبل ذلك .

(**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) أي : مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا ، نبين الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال .

- **قال الالوسي** : وتخصيصهم بالذكر لانهم المنتفعون بالمواعظ .

مباحث :

أولاً : هذا مثل ضربه الله تعالى للدنيا وزينتها وسرعة انقضائها .

- **قال ابن القيم** : شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغتراراً منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفراً منها فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس .
- **وقال ابن عاشور** : شبهت حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطاماً ومصيره حصيداً.
- **وقال السمرقندي** : ... فكذلك الدنيا والإنسان يجمع المال ويشتري الضياع ويبني البنيان ، فيظن أنه قد نال مقصده ، فيأتيه الموت فيصير كأنه لم يكن أو رجل ولد له مولود ، فإذا بلغ فظن أنه قد نال مقصوده ، فيموت ويصير كأنه لم يكن.
- **قال ابن عطية** : ومعنى الآية التحذير من الاغترار بالدنيا ، إذ هي معرضة للتلف وأن يصيبها ما أصاب هذه الأرض المذكورة بموت أو غيره من رزايا الدنيا ، وخص " المتفكرين " بالذكر تشريفاً للمنزلة وليقع التسابق إلى هذه الرتبة.

ثانياً : وقد ذكر الله تعالى في سورة الكهف :

قال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) .

وقال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) .

- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم .

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال موسى عليه الصلاة والسلام: الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

ثالثاً : لطيفة في تشبيه الدنيا بالماء:

لأن الماء لا يستقر في موضع، وكذلك الدنيا.

ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تَفْنى.

ولأن الماء لا يَقْدِر أحدٌ أنْ يدخلَه ولا يَبْتل، كذلك الدنيا لا يَسْلم أحدٌ دَخَلها من فِتنتها وآفتها.

ولأن الماء إذا كان بقَدرٍ كان نافعًا مُنْبِتًا، وإذا جاوَزَ المقدار، كان ضارًّا مُهْلِكًا، وكذلك الدنيا: الكَفاف منها ينفع، وفضولُها يَضرُّ.

ولأن الماء مَهْمَا حاولتَ أنْ تمسكه بكفِّك، تفلَّتَ منك، وكذلك الدنيا مَهْمَا حرصتَ عليها وتشبَّثْتَ بها، فلا بد أن تفوتَك.

رابعاً : ذكر فريق من أهل العلم بعض الحِكَم من تشبيه الحياة الدنيا بالزرع:

أحدها: أن عاقبة الاغترار بالدنيا، وما يبذله المرء لأجل تحصيلها، كعاقبة النبات؛ حيث علق صاحبه على جني محصوله أملاً كبيرًا، لكن سرعان ما خاب أمله، لما نزل بمحصوله من الهلاك؛ وهذا الغالب على المتمسك بالدنيا، واللاهث وراء مكاسبها، أن يأتيه الموت من حيث لا يحتسب. وهو معنى قوله تعالى (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) .

ثانيها: أن يكون وجه التشبيه مثل قوله سبحانه (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) أي: كما صار سعي هذا الزارع هشيمًا تذروه الرياح، بسبب حدوث الآفات المهلكة، فكذلك سعي المغتر بالدنيا، لا جدوى منه ولا فائدة .

ثالثها: أن الزارع لما أتعب جسمه، وكد نفسه، وعلق قلبه؛ أملاً في الانتفاع بزرعه، وطمعًا في جني محصوله؛ فإذا حدث ما أهلك زرعه، وذهب به، حصل له من الشقاء والحسرة الكثير؛ فكذلك حال من أسلم قلبه للدنيا، وأتعب نفسه في تحصيلها، إذا مات، وفاته كل ما ناله منها، صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا، سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة .

خامساً : وقد تضمن هذا المثل القرآني بعض اللطائف :

منها : أن التمتع في هذا الحياة الدنيا، إنما هو لفترة قصيرة محدودة، ثم هو صائر إلى زوال؛ وعلى العاقل أن لا يغتر بما هو زائل وفان، وأن يسعى لتحصيل ما هو دائم وباق .

ومنها : أن انقضاء الدنيا سريع ومفاجئ ويكون من غير سابق إنذار، فإن الإنسان لا يدري، متى ينقضي أجله في هذه الحياة، ومتى يصبح في عداد الموتى، بعد أن كان يشكل رقمًا فوقها؛ وهكذا سنة الحياة، لا تعرف كبيرًا ولا صغيرًا، ولا غنيًا ولا فقيرًا، ولا حاكمًا ولا محكومًا، ولا عالما ولا جاهلاً، فالكل في قانون الموت سواء (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)

سادساً : في قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) بيان لسبب اغترار كثير من الناس بهذه الحياة الدنيا، حتى تصبح الحياة الدنيا – بمغرياتها ولذاتها وشهواتها – همهم الوحيد؛ فشبهها سبحانه الأرض بالعروس التي تُزفُّ إلى زوجها ليلة العرس، بعد أن تكون قد تزينت له أجمل زينة، وتهيأت له أفضل ما يكون التهيؤ؛ وهكذا الدنيا تتزين لأهلها وطالبيها غاية التزين؛ بحيث تكون أشد إغراء لأهلها، وأكثر إغواء لطالبيها، فيتهافتون على النيل من زخرفها، ويتسابقون إلى الأخذ من نعيمها ما أمكنهم .

الفوائد :

١- تحقير الله للدنيا .

٢- سرعة زوال الدنيا وانقضائها .

٣- من أكبر عيوب الدنيا سرعة انقضائها .

٤- أنه على العاقل أن يعمل بالدنيا للآخرة الباقية .

٥- الحذر من فتنة الدنيا .

٦- على العاقل أن يتأمل ويتدبر آيات القرآن الكريم التي تبين حقيقة الدنيا وأنها دار عبور لا دار مستقر .

(**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)**) .

[يونس : ٢٥] .

(**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ**) معطوف على محذوف يدل عليه السياق.

والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إيثار متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله تعالى يدعو الناس جميعا إلى الإيمان الحق الذي يوصلهم إلى دار كرامته.

والمقصود بدار السلام: الجنة التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، وسميت بذلك، لأنها الدار التي سلم أهلها من كل ألم وآفة. أو لأن تحيتهم فيها سلام، أو لأن السلام من أسماء الله تعالى فأضيفت إليه تعظيما لشأنها، وتشريفا لقدرها، كما يقال للكعبة: بيت الله.

سميت بذلك: لأنها الدار التي سلمت من كل آفة وبلية ومكروه وكدر وهم وغم.

- **قال ابن الجوزي:** وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال:

أحدها: أن السلام , هو الله , وهي داره , قاله ابن عباس , والحسن , وقتادة , والسدي.

والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع , قاله الزجاج.

والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام , ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام, ففي ابتداء دخولهم (ادخلوها بسلام) وبعد استقرارهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وقوله (إلا قيلاً سلاماً سلاماً) وعند لقاء الله (سلام قولاً من رب رحيم) وقوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام).

وقال ابن القيم: ... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه , وهي دار الله , واسمه سبحانه وتعالى السلام , الذي سلمها وسلم أهلها , وتحيتهم فيها سلام , والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم , والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم).

- وللجنة أسماء:

أولاً: الجنة.

وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار , وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور.

قال تعالى (سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً).

وقال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ).

ثانياً: دار السلام.

فهي السالمة من كل بلية وآفة ومكروه.

قال تعالى (لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون).

وقال تعالى (وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

ثالثاً: دار الخلد.

وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً كما قال تعالى (عطاء غير مجذوذ).

قال تعالى (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء ومصيراً).

رابعاً: دار المقامة.

لأنهم مقيمون بها أبداً , لا يموتون ولا يتحولون منها أبداً.

قال تعالى حكاية عن أهلها (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ).

خامساً: جنة المأوى.

قال تعالى (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

سادساً: جنات عدن.

أي جنات إقامة , يقال عَدَنَ بالمكان أي أقام به.

قال تعالى (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً).

وقال تعالى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

سابعاً: دار الحيوان.

أي هي الدار التي لا تنغيص فيها ولا نفاد , ولا تفنى ولا تنقطع.
قال تعالى (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).
ثامناً: الفردوس.
والفردوس: اسم من أسماء الجنة ومعناه: البستان الذي يجمع كل ما فيه البساتين.
قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).
(**وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) أي : والله يهدي من يشاء من خلقه إلى صراطه المستقيم وهو دين الإسلام عم بالدعوة أولاً إظهاراً للحجة وخص بالدعوة ثانياً استغناء عن الخلق وإظهاراً للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين .
والصراط المستقيم هو الإسلام .

- **قال ابن الجوزي** : واعلم أن الله عمَّ بالدعوة ، وخصَّ بالهداية من شاء ، لأن الحكم له في خلقه.
- قوله تعالى (من يشاء) فيه إثبات المشيئة لله ، وليعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، أي : أنه ليست مشيئة الله مجردة هكذا تأتي عفواً ، لا ، هي مشيئة مقرونه بالحكمة ، والدليل على ذلك ، قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله ، بيّن أن ذلك مبني عن علم وحكمة .

الفوائد :
١- أن الهداية بيد الله .
٢- استحباب طلب الهداية من الله وفي الحديث القدسي (فاستهدوني أهدكم) .
٣- إثبات مشيئة الله .
(**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا**) .
[يونس : ٢٦] .

(**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ**) أي : أحسنوا في عبادة ربهم ، وأحسنوا إلى الخلق بكل أنواع الإحسان .
الإحسان نوعان:
إحسان في عبادة الخالق، إحسان إلى المخلوق.
في عبادة الله، إخلاصاً لله تعالى، ومتابعة للرسول ﷺ، كما قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ).
فالإحسان في عبادة الله: أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة.
والإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

- **قال السعدي**: والإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق: فسرها النبي ﷺ بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).
وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده. (تفسير السعدي)

(**الْحُسْنَى**) وهي الجنة .

(**وَزِيَادَةٌ**) النظر إلى وجه الله الكريم .

عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ – قَالَ – يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ – قَالَ – فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

- **قال ابن رجب** : قوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ، وقد ثبت في " صحيح مسلم " عنِ النَّبِيِّ ﷺ تفسيرُ الزّيادةِ بالنّظرِ إلى وجهِ الله عز وجل في الجنة ، وهذا مناسبٌ لجعلِه جزاءً لأهلِ الإحسّانِ ؛ لأنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمنُ ربّه في الدُّنيا على وجهِ الحُضورِ والمراقبةِ، كأنّه يراهُ بقلبِهِ وينظرُ إليه في حال عبادتِهِ ، فكانَ جزاءُ ذلك النَّظرَ إلى الله عياناً في الآخرة، وعكس هذا ما أخبرَ الله تعالى به عَنْ جَزاءِ الكُفَّار في الآخرةِ (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) ، وجعلَ ذلك جزاءً لحالهم في الدُّنيا ، وهو تراكُم الرَّانِ على قُلوبِهم ، حتّى حُجِبَتْ عن معرفتِهِ ومُراقبته في الدُّنيا ، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبوا عن رُؤيته في الآخرة .

(**وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ**) أي : قتام وسواد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة .

(**وَلاَ ذِلَّةٌ**) أي : هوان وصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ، ولا في الظاهر .

كما قال تعالى في حقهم (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) أي : نضرة في وجوههم ، وسروراً في قلوبهم .

- **قال السعدي** : أي: لا ينالهم مكروه، بوجه من الوجوه، لأن المكروه، إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء فهم كما قال الله عنهم (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) .

- **قال الرازي** : واعلم أنه تعالى لما شرح ما يحصل لأهل الجنة من السعادات ، شرح بعد ذلك الآفات التي صانهم الله بفضله عنها ، فقال (وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ) والمعنى : لا يغشاها قتر ، وهي غبرة فيها سواد (وَلاَ ذِلَّةٌ) ولا أثر هوان ولا كسوف.

فالصفة الأولى : هي قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) .

والصفة الثانية : هي قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) والغرض من نفي هاتين الصفتين ، نفي أسباب الخوف والحزن والذل عنهم ، ليعلم أن نعيمهم الذي ذكره الله تعالى خالص غير مشوب بالمكروهات ، وإنه لا يجوز عليهم ما إذا حصل غير صفحة الوجه ، ويزيل ما فيها من النضارة والطلاقة ، ثم بين أنهم خالدون في الجنة لا يخافون الانقطاع.

(**أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**) الملازمون لها .

(**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) لا يحولون ولا يزولون، ولا يتغيرون.

الفوائد :

١- فضل الإحسان وعلو منزلته ، وأن من فضائله دخول الجنة ، ورؤية وجهه الكريم .

- وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى، ولذلك قال النبي ﷺ في تعريفه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك).

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً). ولم يقل أيكم أكثر عملاً.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

فالإحسان: أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون

- فضائل الإحسان:

أولاً: أن من أحسن إلى الناس أحسن الله إليه.

قال تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).

ثانياً: لهم في الدنيا حسنة.

قال تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة).

ثالثاً: رحمة الله قريبة من المحسنين.

قال تعالى (إن رحمت الله قريب من المحسنين).

رابعاً: لهم الجنة ونعيمها.

قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة).

خامساً: تبشير المحسنين.

قال تعالى (وبشر المحسنين).

سادساً: أن الله معهم.

قال تعالى (وإن الله لمع المحسنين).

سابعاً: إن الله يحب المحسنين.

قال تعالى: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين).

ثامناً: إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

قال تعالى (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) .

٢- من فضائل الإحسان دخول الجنة .

٣- إثبات رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة .

٤- من تمام نعيم أهل الجنة أنه لا يصيبهم أي أذى أو مكروه .

(وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)) .

[يونس : ٢٧] .

(**وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا**) أي : والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي لهم جزاء السيئة التي عملوها بمثلها من عقاب الله في الآخرة .

- **قال ابن كثير** : لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك . (انتهى) .

كما قال تعالى (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون) .

وقال تعالى (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) .

وفي الصحيحين: عن عبدِ اللهِ بنِ عباسِ بن عبد المطلب رضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسُول الله ﷺ، فيما يروي عن ربهِ، تبارك وتعالى، قَالَ (إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إِلَى سَبْعمئةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثيرةٍ، وإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلةً، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) .

- فائدة: قوله ﷺ في حديث ابن عباس السابق (وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) أي: من همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة إذا كان تركها من خشية لله كما في رواية لمسلم (إنما تركها من أجلي أو من جرائي).

ومثل قصة الذي همّ بابنة عمه بسوء فتركها لله، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفرجت الصخرة.

- فإن تركها بسبب عدم القدرة عليها مع الاشتغال بتحصيل أسبابها، فهذا يعاقب كمن عمِل، فتكتب عليه سيئة.

قال الشيخ ابن عثيمين: من همّ بالسيئة وسعى في تحصيلها لكن عجز عنها، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملاً، دليل ذلك، قول النبي ﷺ (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه).

- وقوله (السيئات) جمع سيئة ، سميت سيئة لأنها تسوء صاحبها في الدنيا وفي الآخرة , في الدنيا بظهور آثارها عليه من الهمّ والضيق في الصدر والخلق والرزق , فيفقد من السعادة في الحياة بقدر ما عمل من السوء , قال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقال تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ). وتسوؤه آجلاً بعد موته لمعاقبته عليها إن لم يتب منها أو يتداركه الله بعفوه.

وربما تسوء غيره بأن يتعدى ضررها إلى الغير مباشرة، أو بأن يكون لها أثرها السيء على البلاد والعباد عامة بمحق البركات وقلة الخيرات، كما قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقال ﷺ (ما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء) رواه ابن ماجه .

- والسيئات في الأصل تطلق على الكبائر والصغائر ، قد يراد بها الصغائر إذا قرنت مع الكبائر كما في قوله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً).

(**وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**) أي: تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها .

كما قال تعالى (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ) .

وقال تعالى (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) .

(**مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**) أي: من مانع ولا واق يقيهم العذاب .

كما قال تعالى (يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ *كَلا لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) .

(**كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا**) إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة .

كما قال تعالى (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وكما قال تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَة) .

- بين في هذه الآية الكريمة أن من أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة كسب السيئات .

وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر بعد الإيمان .

وذلك في قوله (فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) الآية.

وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكذب على الله :

وهو قوله تعالى (وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) .

وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر والفجور :

وهو قوله تعالى (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أولئك هُمُ الكفرة الفجرة) .

وهذه الأسباب في الحقيقة شيء واحد عبر عنه بعبارات مختلفة ، وهو الكفر بالله تعالى ، وبين في موضع آخر شدة تشويه وجوههم بزرقة العيون وهو قوله (وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً) وأقبح صورة أن تكون الوجوه مسوداً والعيون زرقاً .

(**أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) تقرير لمصيرهم والعياذ بالله وهو ملازمة النار وعدم الخروج منها بخلودهم فيها .

الفوائد :

١- بيان عاقبة السيئة وما تورثه من ذل وهوان وحسرة .

٢-بيان عدل الله بعباده ، حيث أن من عمل سيئة فعقوبتها سيئة من غير مضاعفة .

٣- أن الكفر سبب للذل .

٤- تهديد للكفار ، وأنه لا عاصم ولا منقذ من أمر الله .

٥- من صفات الكفار يوم القيامة اسوداد الوجه .

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٣٠)) .

[يونس : ٢٨- ٣٠] .

(**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا**) أي: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن وبر وفاجر .

كما قال (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) .

- في هذا إثبات الحشر والجمع يوم القيامة.

والحشر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ).

وقال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وقال تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ).

وقال تعالى (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).
وقال تعالى (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).
وقال ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفْراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد) متفق عليه.

- ويحشر كل شيء حتى البهائم ، ودل على حشر البهائم عدة أدلة:

أ- قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ).
ب- قوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).
جـ- وحديث أبي ذر (أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟ قال: قلت: لا , قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد.
د- وحديث (مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأوه بأظلافها). متفق عليه
هـ- الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض , ثم يقول لها: كوني تراباً , فتكون تراباً , فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت تراباً).

- كيف يحشر الناس؟

يحشرون حفاة عراة غرلاً.
لحديث عائشة. قالت: قال رسول الله ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً , قالت: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) متفق عليه.
وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال (إنكم تُحشرون حفاة عراة غُرلاً , ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) وأول من يُكسَى يوم القيامة إبراهيم) متفق عليه.
حفاة: جمع حاف وهو من ليس عليه نعال.
عراة: جمع عار وهو من ليس عليه ثياب.
غرلاً: أي غير مختونين.

- أول من يكسى إبراهيم.

لقوله ﷺ (وأول من يكسى إبراهيم عليه السلام).
والحكمة في ذلك:
قيل: لم يكن في الأولين والآخرين لله عز وجل عبد أخوف من إبراهيم فتعجل له كسوته أماناً له ليطمئن قلبه.
وقيل: لأنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر.
وقيل: أن الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس , فلما صبر واحتسب وتوكل على الله جازاه على ذلك بأن جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة , وهذا أحسنها.

- أرض المحشر الشام.

عن سهل بن سعد. قال: قال رسول الله ﷺ: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي , ليس فيها معلم لأحد) رواه البخاري.

عفراء: أي ليس بياضها ناصع. ... كقرصة النقي: الدقيق الخالص من الغش.

ليس فيها معلم لأحد: أي: شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة والبناء.

(**ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ**) أي : ثم نقول للمشركين منهم في هذا اليوم العصيب ، الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاءه فيكم .

- **قال أبو السعود** : قوله تعالى (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ) أي نقول للمشركين من بينهم ولأن توبيخَهم وتهديدَهم على رؤوس الأشهادِ أفظعُ والإخبارُ بحشر الكلِّ في تهويل اليومِ أدخل ، وتخصيصُ وصفِ إشراكهم بالذكر في حيز الصلةِ من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخِ والتقريعِ عليه مع ما فيه من الإيذان بكونه معظمَ جناياتِهم وعمدةَ سيئاتِهم .

(**فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ**) أي : ففرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا .

كما قال تعالى (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) .

وقال (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ) .

وفي الآية الأخرى (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) أي: يصيرون صِدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء ، ولهذا قيل: ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: "نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس .

- **قال السعدي** : أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضًا وعداوة.
- فزيلنا : من التزييل بمعنى التمييز والتفريق ، يقال : زيلت الشيء أزيله إذا نحيته وأبعدته ، ومنه قوله تعالى: (لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً) أي : لو تميزوا وتفرقوا.

(**وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ**) المراد بالشركاء كل ما عبد من دون الله من إنس وجن وأوثان وغير ذلك.

أي : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم في العبادة مع الله تعالى: إنكم أيها المشركون لم تكونوا لنا عابدين في الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم فانقدتم له بدون تدبر أو تعقل.

والمقصود بقولهم هذا ؛ التبري من المشركين ، وتوبيخهم على أفكارهم الفاسدة.

- **قال الشوكاني** : والمعنى : وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه ما كنتم إيانا تعبدون، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم، وشياطينكم الذين أغووكم، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، لكونهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية. وقيل: لكونهم شركاؤهم في هذا الخطاب، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفاً لما قد وقع من المشركين من عبادتهم، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة.

- اختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء.

فقال بعضهم : هم الملائكة .

واستشهدوا بقوله تعالى (يَوْمِ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ للملائكة أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ) .

ومنهم من قال : بل هي الأصنام ، والدليل عليه : أن هذا الخطاب مشتمل على التهديد والوعيد ، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين ، ثم اختلفوا في أن هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام.

فقال بعضهم : إن الله تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق فيها ، فلا جرم قدرت على ذكر هذا الكلام.

وقال آخرون إنه تعالى يخلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى يسمع منها ذلك الكلام ، وهو ضعيف ، لأن ظاهر قوله : (وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ) يقتضي أن يكون فاعل ذلك القول هم الشركاء.

والقول الثالث : إن المراد بهؤلاء الشركاء ، كل من عبد من دون الله تعالى ، من صنم وشمس وقمر وأنسي وجني وملك.

- **قال الشوكاني** : والمراد بالشركاء هنا : الملائكة . وقيل الشياطين ، وقيل الأصنام ، وإن الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت . وقيل : المسيح ، وعزير ، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائناً ما كان .

قال الخازن : قوله (وقال شركاؤهم) يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله وإنما سماهم شركاءهم، لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم أو لأنه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله: مكانكم فقد صاروا شركاء في هذا الخطاب (ما كنتم إيانا تعبدون) تبرأ المعبودون من العابدين.

فإن قلت : كيف صدر هذا الكلام من الأصنام وهي جماد لا روح فيها ولا عقل لها؟

قلت : يحتمل أن الله تعالى خلق لها في ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام .

- **وقال الآلوسي** : والمراد بهؤلاء الشركاء قيل : الأصنام فإن أهل مكة إنما كانوا يعبدونها وهم المعنيون بأكثر هذه الآيات ، ونسبة القول لها غير بعيد من قدرته سبحانه فينطقها الله الذي أنطق كل شيء في ذلك الموقف فتقول لهم (مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) والمراد من ذلك تبريهم من عبادتهم وأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم الداعية لهم وما أعظم هذا مكان الشفاعة التي كانوا يتوقعونها منهم.

وقيل : المراد بهم الملائكة والمسيح عليهم السلام .

لقوله تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَّقُولُ للملائكة أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ) وقوله سبحانه : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم) إنما أضاف الشركاء إليهم لوجوه :

الأول : أنهم جعلوا نصيباً من أموالهم لتلك الأصنام ، فصيروها شركاء لأنفسهم في تلك الأموال ، فلهذا قال تعالى : (وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ) .

الثاني : أنه يكفي في الإضافة أدنى تعلق ، فلما كان الكفار هم الذين أثبتوا هذه الشركة ، لا جرم حسنت إضافة الشركاء إليهم.

الثالث : أنه تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله : (مَكَانَكُمْ) صاروا شركاء في هذا الخطاب.

(**فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**) أي : تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة : حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم ، فهو سبحانه يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا في غفلة عن عبادتكم لنا ، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا رضينا بها.

إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ) أي : ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين ، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ، لأنا كنا جماداً لا روح فينا .

- **قال السعدي** : فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة ويتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

- المعبودون يتبرؤون من عابديهم .

قال تعالى (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَاب . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

أي : (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا) تبرأ الذين عُبدوا من دون الله كالأوثان والملائكة والجن والشيطان والرؤساء وعليه عليه السلام ، فكل من عُبِد من دون الله يتبرأ من عابديه (مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) أي : من أتباعهم .

فالملائكة تتبرأ : كما قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) .

وكذلك الشيطان يتبرأ من تابعيه : : كما قال تعالى عنه (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وكذلك الأوثان تتبرأ من عابديها : قال تعالى (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

والجن تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم : كما قال تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) . [بعض العلماء حمل هذه الآية على أن المعبودين من دون الله هم الجن] .

وقال تعالى (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً) أي : سيخونوهم أحوج ما يكونون إليهم .

وقال الخليل لقومه (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

وكذلك الجبابرة والرؤساء والظلمة يتبرأون : قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) .

(**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ**) أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من [عملها من] خير وشر .

كما قال تعالى (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) .

وقال تعالى (يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) .

وقال تعالى (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

- **قال الشنقيطي** : وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ «تَتْلُو» بِتَاءَيْنِ فَفِي مَعْنَى الْآيَةِ وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا تَتْلُو بِمَعْنَى تَقْرَأُ فِي كِتَابِ أَعْمَالِهَا جَمِيعَ مَا قَدَّمَتْ ، فَيَرْجِعُ إِلَى الْأُولَى .

وَالثَّانِي : أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ عَمَلَهَا ، لِقَوْلِهِ ﷺ (لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُهُ فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ» الْحَدِيثَ .

(**وَرُدُّواْ إِلَى اللَّهِ**) أي: رد لخلائق كلهم إلى يوم القيامة فيحكم بينهم بعدله .

كما قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) .

وقال تعالى (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً).

(**مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ**) أي: خالقهم وراقهم وباعثهم ومالكم (الحق) الذي لا شك فيه , فلا شك في وجوده , ولا يسع أحداً إنكاره لظهور دلائل إثباته , فهو سبحانه حق في ذاته , حقٌّ في صفاته , حق في أقواله , حق في أفعاله , كامل الصفات والنعوت , فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والكمال والجمال موصوفاً.

ولهذا قال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

وفي الحديث كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال (اللهم لك الحمد , ... أنت الحق , ووعدك الحق , ولقاؤك حق , وقولك حق , والجنة حق , والنار حق ...) متفق عليه.

- والمراد بالولاية هنا العامة , لأن الولاية تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة: بمعنى أن يتولى شؤون عباده , وهذا للكفار والمؤمنين.

ودليلها قوله تعالى في سورة الأنعام (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) .

وقوله تعالى كما في هذه الآية (وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

ولاية خاصة , وهذه للمؤمنين.

كما قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) .

وقال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ).

مقتضى النوع الأول: أن لله تعالى كمال السلطان , والتدبير في جميع خلقه.

ومقتضى النوع الثاني: الرأفة , والرحمة , والتوفيق.

(**وَضَلَّ عَنْهُمْ**) أي: ذهب عن المشركين .

(**مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**) أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

الفوائد :

١- إثبات الحشر يوم القيامة .

٢- أن الحشر لجميع الخلائق .

٣- بيان تبرؤا ما عُبِد من دون الله من عابديه .

٤- يوم القيامة تعلم كل نفس ما أسلفت وما قدمت من خير أو شر .

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٣٣))

.

[يونس : ٣١ – ٣٣] .

(**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ**) يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله فقال :

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: مَن يرزقكم من السماء، بما يُنزله من المطر، ومن الأرض بما ينبته فيها من أنواع النبات والشجر تأكلون منه أنتم وأنعامكم؟

- **قال ابن عاشور**: تذكير بأحوال الرزق ؛ ليكون أقوى حضوراً في الذهن ، فالرزق من السماء المطر ، والرزق من الأرض النبات كله من حب وثمر وكلأ.
- **قال ابن كثير** : أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقًا بقدرته ومشيئته، فيخرج منها (حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) ، أإله مع الله؟ فسيقولون: الله (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) ؟

(**أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ**) أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كما قال تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ) .

وقال (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ) .

- **قال أبو حيان** : ثم ذكر ملكه لهاتين الحاستين الشريفتين : السمع الذي هو سبب مدارك الأشياء ، والبصر الذي يرى ملكوت السموات والأرض ، ومعنى ملكهما أنه متصرف فيهما بما يشاء تعالى من إبقاء وحفظ وإذهاب.
- وخص هاتين الحاستين بالذكر، لأن لهما أعظم الأثر في حياة الإنسان، ولأنهما قد اشتملتا في تركيبهما

على ما بهر العقول، ويشهد بقدرته تعالى وعجيب صنعه في خلقه .

- **قال الشوكاني** : وَخُصَّ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ بِالذِّكْرِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ الصَّنْعَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ الْعَظِيمَةِ، أَيْ: مَنْ يَسْتَطِيعُ مَلْكَهُمَا وَتَسْوِيَتَهُمَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْخِلْقَةِ الْغَرِيبَةِ حَتَّى يَنْتَفِعُوا بِهِمَا هَذَا الِانْتِفَاعَ الْعَظِيمَ، وَيُحَصِّلُونَ بِهِمَا مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرِ الْحَاصِرِينَ

(**وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ**) أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة .

وهذا دليل ثالث على قدرة الله ووحدانيته.

أي: وقل لهم كذلك من سوى الله- تعالى- يملك إخراج النبات وهو كائن حي من الأرض الميتة، وإخراج الإنسان وهو كائن حي من النطفة وبالعكس، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس.

- **قال القرطبي** : أي النباتَ من الأرض ، والإنسان من النطفة ، والسُّنْبُلَةَ من الحبّة ، والطيرَ من البيضة ، والمؤمنَ من الكافر.

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَمَن يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي) وفيه وجهان :

الأول : أنه يخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة (وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي) أي يخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر.

والثاني : أن المراد منه أنه يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والأكثرون على القول الأول ، وهو إلى الحقيقة أقرب ،

وقال الشوكاني : قوله تعالى (وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) الْإِنْسَانَ مِنَ النُّطْفَةِ، وَالطَّيْرَ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَالنَّبَاتَ مِنَ الْحَبَّةِ، أَوِ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) أَيِ: النُّطْفَةَ مِنَ الْإِنْسَانِ، أَوِ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ: عَمَّنْ يُحْيِي وَيُمِيتُ .

- **وقال السعدي** : قوله تعالى(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) عكس هذه المذكورات .

(**وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ**) أي : ومَن يدبّر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمر الخليقة جميعًا؟

- وهذا دليل رابع على قدرة الله ووحدانيته أي: وقل لهم- أيضا- من الذي يتولى تدبير أمر هذا الكون من إحياء وإماتة، وصحة ومرض، وغنى وفقر، وليل ونهار، وشمس وقمر ونجوم ...

هذه الجملة الكريمة من باب التعميم بعد التخصيص، لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها.

- **قال ابن كثير** : أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسْألُون (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه .

(**فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ**) أي : فسوف يجيبونك بأن الذي يفعل ذلك كله هو الله ، أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون

به .

(**فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**) أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

أي: أتعلمون وتعترفون بأن الله تعالى هو الخالق لكل ما سبق، ومع ذلك تشركون معه آلهة في العبادة، دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة .

إن مسلكك هذا إنما يدل على ضعف في التفكير، وانطماس في العقول، وجهالة ليس بعدها جهالة.

قال الشنقيطي : صرَّحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، بِأَنَّ الْكُفَّارَ يُقِرُّونَ بِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا ، هُوَ رَبُّهُمُ الرَّزَّاقُ الْمُدَبِّرُ لِلْأُمُورِ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي اعْتِرَافِهِمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَمَعَ هَذَا أَشْرَكُوا بِهِ جَلَّ وَعَلَا .

وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مُقِرُّونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلِكَ لِإِشْرَاكِهِمْ مَعَهُ غَيْرَهُ فِي حُقُوقِهِ جَلَّ وَعَلَا – كَثِيرَةٌ ، كَقَوْلِهِ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) .

وَقَوْلِهِ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) .

وَقَوْلِهِ (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ إِلَى قَوْلِهِ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَلِذَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

وَالْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الِاعْتِرَافَ بِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا لَا يَكْفِي فِي الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِتَحْقِيقِ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا .

وأَمَّا تَجَاهُلُ فِرْعَوْنَ – لَعَنَهُ اللَّهُ – لِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا ، فِي قَوْلِهِ (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) فَإِنَّهُ تَجَاهُلُ عَارِفٍ ; لِأَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ) وَقَوْلِهِ (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) .

(**فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ**) أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، وغيره من الآلهة باطل ليس بشيء.

وقد جاء في الحديث : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ ...) .

والحَقُّ اسْمٌ للهِ سُبْحَانَهُ هُوَ المتَّصِفُ بِالوُجودِ الدَّائِمِ وَالحَيَاةِ وَالقَيُّومِيَّةِ وَالبَقَاءِ، فَلَا يَلْحَقُهُ زَوَالٌ أَوْ فَنَاءٌ، وَكُلُّ أَوْصَافِ الحَقِّ كَامِلَةٌ لِلكَمَالِ وَالجَمَالِ، وَالعَظَمَةِ وَالجَلَالِ، قَالَ سبحانه وتعالى :(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) [الحج: ٦٢]، وَكَقَوْلِهِ :(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رحمه الله تَعَالَى: "الحَقُّ" فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، فَهُوَ وَاجِبُ الوُجُودِ، كَامِلُ الصِّفَاتِ وَالنُّعُوتِ، وُجُودُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَلَا وُجودَ لِشَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ إِلَّا بِهِ، فَهُوَ الذِي لَمْ يَزَلْ وَلا يَزَالُ بِالجَلَالِ وَالجَمَالِ وَالكَمَالِ مَوْصُوفًا، وَلَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِالإِحْسَانِ مَعْرُوفًا.

فَقَوْلُهُ حَقٌّ، وَفِعْلُهُ حَقٌّ، وَلِقَاؤُهُ حَقٌّ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ، وَكُتُبُهُ حَقٌّ، وَدِينُهُ هُوَ الحَقٌّ، وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الحَقٌّ، وَكُلُّ شَيءٍ يُنْسَبُ إِلَيْهِ فَهُوَ حَقٌّ.

(**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ**) أي: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له.

أي : فذلكم الذي فعل ما فعل من رزقكم ومن تدبير أمركم، هو الله المربى لكم بنعمه، وهو الذي لا تحق العبودية والألوهية إلا له وحده.

إذا كان الأمر كذلك فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ؛ أي لا يوجد غير الحق شيء يتبع سوى الضلال، فمن ترك الحق وهو عبادة الله وحده، فقد وقع في الباطل والضلال وهو عبادة غيره من الآلهة الأخرى.

(**فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**) أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؟

- **قال السعدي** : (فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتبا لمن أشرك به، وويحًا لمن كفر به، لقد عدموا عقولهم، بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم.

(**كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**) الكاف للتشبيه بمعنى مثل. وحقت بمعنى وجبت وثبتت.

والمراد بالكلمة هنا: حكمه وقضاؤه سبحانه .

والمعنى: مثل ما ثبت أن الله تعالى هو الرب الحق، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال، ثبت أيضاً الحكم والقضاء منه سبحانه على الذين فسقوا عن أمره، وعموا وصموا عن الحق، أنهم لا يؤمنون به، لأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً.

فالمراد بالفسق هنا: التمرد في الكفر، والسير فيه إلى أقصى حدوده.

- **قال ابن كثير** : أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله (قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

الفوائد :

١- أن الرازق هو الله .

٢- أنه ينبغي طلب الرزق ممن يملكه وهو الله .

٣- أن طلب الرزق من الله يكون بأمرين :

الأول : بسؤال الله ذلك .

والثاني : فعل الأسباب التي تجلب الأرزاق .

كصلة الأرحام – وتقوى الله – والتوكل على الله .

٤- يجب معرفة نعمة السمع والبصر .

٥- أن شكر نعمة السمع والبصر يكون بطاعة الله بهما وعدم معصيته .

٦- آية من آيات الله العظيمة وهي إخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي .

٧- أن الكفار يقرون بتوحيد الربوبية ، لكن لا يكفي ذلك حتى يقروا بتوحيد الألوهية .

٨- أن الإله الحق هو الله .

٩- أن كل آلة غير الله فهو باطل .

١٠- كل شيء وكل عمل لغير الله فهو باطل .

(قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)) .

[يونس : ٣٤- ٣٦] .

(**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**) يقول تعالى مبينًا عجز آلهة المشركين، وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أي : قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع : هل من الأوثان والأصنام من ينشيء الخلق من العدم ثم يفنيه ، ثم يعيده ويحييه ؟

(**قُلِ اللَّهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**) هو الذي يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له .

قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، أما شركاؤكم فهم أعجز من أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ...

- **قال السعدي** : (قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) من غير مشارك ولا معاون له على ذلك.

قال الشنقيطي : أَلْقَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ حَجَرًا ، بِأَنَّ الشُّرَكَاءَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ بِالْإِحْيَاءِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَأَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .

وَصَرَّحَ بِمِثْلِ هَذَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ :

كَقَوْلِهِ (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) .

وَقَوْلِهِ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) .

وَقَوْلِهِ (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) .

وَقَوْلِهِ (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ) .

وَقَوْلِهِ (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) .

وَقَوْلِهِ (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ) .

وَالْآيَاتُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَسْوِيَةَ مَا لَا يَضُرُّ ، وَلَا يَنْفَعُ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مَعَ مَنْ بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ الْمُتَصَرِّفِ بِكُلِّ مَا شَاءَ , لَا تَصْدُرُ إِلَّا مِمَّنْ لَا عَقْلَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ ذَلِكَ (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

- **قال الشوكاني** : هَذَا الْقَوْلُ الذي قاله النبي ﷺ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُ هُوَ نِيَابَةٌ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْجَوَابِ :

إِمَّا: عَلَى طَرِيقِ التَّلْقِينِ لَهُمْ، وَتَعْرِيفِهِمْ كَيْفَ يُجِيبُونَ، وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَا يَقُولُونَ .

وَإِمَّا: لِكَوْنِ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ بَلَغَ فِي الْوُضُوحِ إِلَى غَايَةٍ لَا يُحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى إِقْرَارِ الْخَصْمِ، وَمَعْرِفَةِ مَا لَدَيْهِ .

وَإِمَّا: لِكَوْنِ الْمُشْرِكِينَ لَا يَنْطِقُونَ بِمَا هُوَ الصَّوَابُ فِي هَذَا الْجَوَابِ فِرَارًا مِنْهُمْ عَنْ أَنْ تَلْزَمَهُمُ الْحُجَّةُ، أَوْ أَنْ يُسَجِّلَ عَلَيْهِمْ بِالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ إِنْ حَادُوا عَنِ الْحَقِّ .

(**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**) أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟!

والمعنى : وإذا كان الأمر كذلك من الوضوح والظهور فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ والإفك الصرف والقلب عن الشيء. يقال: أفكه عن الشيء يأفكه أفكاً، إذا قلبه عنه وصرفه.

أي فكيف ساغ لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق، إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر؟!.

- وجعل سبحانه إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم في التدليل على قدرته مع عدم اعترافهم بها، للإيذان بسطوع أدلتها، لأن القادر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال تعالى(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) .

فلما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد أو المكابرة، نزل إنكارهم لها منزلة العدم

(**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ**) توبيخ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين : هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالاً ؟ أو يهدي حائرا ؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة ؟ فينزل كتاباً ، أو يرسل رسولاً ، أو يشرع شريعة، أو يضع نظاماً دقيقاً لهذا الكون. أو يحث العقول على التدبر والتفكر في ملكوت السموات والأرض ... ؟

(**قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ**) **أي** : قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي يفعل كل ذلك، أما شركاؤكم فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من ذلك أو من غيره.

- **قال ابن كثير** : أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله، الذي لا إله إلا هو.
- **قال الشوكاني** : وَهِدَايَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ إِلَى الْحَقِّ هِيَ: بِمَا نَصَبَهُ لَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِرْسَالِهِ لِلرُّسُلِ، وَإِنْزَالِهِ لِلْكُتُبِ، وَخَلْقِهِ لِمَا يَتَوَصَّلُ بِهِ الْعِبَادُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ.

- **وقال السعدي** : (قُلِ اللَّهُ) وحده (يَهْدِي لِلْحَقِّ) بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

(**أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى**) أي : أفمن يرشد الى الحق وهو الله سبحانه وتعالى أحق بالإتباع ، أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً ؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلا عن هداية غيرها ؟

كما قال تعالى إخبارًا عن إبراهيم أنه قال (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) .

وقال لقومه (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون) إلى غير ذلك من الآيات.

- **قال البغوي** : إِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ: "إِلَّا أَنْ يُهْدَى"، وَالصَّنَمُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَهْتَدِيَ وَلَا أَنْ يُهْدَى؟.

قِيلَ: مَعْنَى الْهِدَايَةِ فِي حَقِّ الْأَصْنَامِ الِانْتِقَالُ، أَيْ: أَنَّهَا لَا تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ إِلَّا أَنْ تُحْمَلَ وَتُنْقَلَ، يَتَبَيَّنُ بِهِ عَجْزُ الْأَصْنَامِ.

وَجَوَابٌ آخَرُ وَهُوَ: أَنَّ ذِكْرَ الْهِدَايَةِ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا اتَّخَذُوا الْأَصْنَامَ آلِهَةً وَأَنْزَلُوهَا مَنْزِلَةَ مَنْ يَسْمَعُ وَيَعْقِلُ عَبَّرَ عَنْهَا بِمَا يُعَبَّرُ عَمَّنْ يَعْلَمُ وَيَعْقِلُ، وَوُصِفَتْ بِصِفَةِ مَنْ يَعْقِلُ.

(**فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**) أي: فما بالكم يُذْهَبُ بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خَلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

- قوله تعالى (**فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**) استفهام قصد به التعجيب من أحوالهم التي تدعو إلى الدهشة والغرابة.

أي: ما الذي وقع لكم، وما الذي أصابكم في عقولكم حتى صرتم تشركون في العبادة مع الله الخالق الهادي، مخلوقات لا تهدى بنفسها وإنما هي في حاجة إلى من يخلقها ويهديها.

- **قال الرازي** : واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولا ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة في القرآن، فقد حكى سبحانه عن إبراهيم أنه ذكر ذلك فقال (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) .

وعن موسى أنه قال (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) .

وأمر محمداً ﷺ بذلك فقال (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) .

وهو في الحقيقة دليل شريف، لأن الإنسان له جسد وله روح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية، فهاهنا أيضا لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهو قوله (مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية .

- **وقال الشوكاني** : وَالِاسْتِدْلَالُ بِالْهِدَايَةِ بَعْدَ الِاسْتِدْلَالِ بِالْخَلْقِ وَقَعَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) وَقَوْلِهِ: (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وَقَوْلِهِ: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) .

(**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا**) توبيخ آخر لهم على انقيادهم للأوهام والظنون، وتسلية للرسول ﷺ عما أصابه

منهم من إساءات.

أي: إن هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوتك يا محمد، لا يتبعون في عقائدهم وعبادتهم لغير خالقهم سوى الظنون والأوهام التي ورثها الأبناء عن الآباء.

- **قال البغوي** : (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا) مِنْهُمْ، يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَصْنَامَ آلِهَةٌ، وَإِنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ، لَمْ يَرِدْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا رَسُولٌ، وَأَرَادَ بِالْأَكْثَرِ: جَمِيعَ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ .
- وخص أكثرهم بالذكر، لأن هناك قلة منهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم لا يتبعونه عناداً وجحوداً وحسداً ، كما قال تعالى (فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) .

ويجوز أن يكون سبحانه خص أكثرهم بالذكر، للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق، وستتبعه في الوقت الذي يريده الله تعالى.

(**إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**) أيْ: لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا. وَقِيلَ: لَا يَقُومُ مَقَامَ الْعِلْمِ .

(**إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**) تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

الفوائد :

١- آية من آيات الله وهو الخلق والإماتة والبعث .

٢- إثبات البعث .

٣- أن المستحق للعبادة هو من يخلق ويهدي .

٤- ذم من لا يتامل ويتفكر في الآيات والمعجزات .

٥- عموم علم الله تعالى .

٦- تهديد الكفار بأن عليم بهم وسيجازيهم على عملهم .

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِـن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧))

[يونس : ٣٧] .

(**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ**) وما كان يتهيَّأ لأحد أن يأتي بهذا القرآن مِن عند غير الله، لأنه لا يقدر على ذلك أحد من الخلق .

فليس من شأن هذا القرآن المعجز، أن يخترعه أو يختلقه أحد من الإنس أو الجن أو غيرهما لأن ما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة وتشريعات حكيمة، وآداب قويمة، وهدايات جامعة ... يشهد بأنه من كلام خالق القوى والقدر.

- **قال ابن كثير** : هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله تعالى الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في أقواله،

فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّه .

- **قال الشوكاني** : أَيْ: وَمَا صَحَّ وَمَا اسْتَقَامَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى الْحُجَجِ الْبَيِّنَةِ، وَالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ يُفْتَرَى مِنَ الْخَلْقِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُفْتَرًى، وَقَدْ عَجَزَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْهُ الْقَوْمُ الَّذِينَ هُمْ أَفْصَحُ الْعَرَبِ لِسَانًا وَأَدَقُّهُمْ أَذْهَانًا .

(**وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**) أي : ولكن الله أنزله مصدِّقا للكتب التي أنزلها على أنبيائه; لأن دين الله واحد .

ومراد بالذي بين يديه: الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل والزبور.

وقوله (بَيْنَ يَدَيْهِ) فيه نوع مجاز لأن ما بين يدي الشيء يكون أمامه، فوصف سبحانه ما مضى من الكتب بأنها بين يدي القرآن لشدة ظهورها واشتهارها .

ومعنى تصديق القرآن للكتب السابقة: تأييده لما اشتملت عليه من دعوة إلى وحدانية الله تعالى، ومن أمر باتباع الرسول ﷺ عند ظهوره.

- وتصديق القرآن للكتب السابقة من وجهين :

الوجه الأول: أنه حاكماً لها بالصدق، أي: حكم بأنها صدق من عند الله عز وجل.

الوجه الثاني: أنه صدقها لأنها أخبرت به فوقع مصدقاً لها، فإن الكتب السابقة أخبرت بهذا القرآن، وأن سينزل، ووصفت النبي ﷺ الذي سينزل عليه بأوصافه التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.

- **قال ابن كثير**: وكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله.
- **قال الرازي** : قوله (ولكن تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ) وتقرير هذه الحجة من وجوه :

أحدها : أن محمداً عليه السلام كان رجلاً أمياً ما سافر إلى بلدة لأجل التعلم ، وما كانت مكة بلدة العلماء ، وما كان فيها شيء من كتب العلم ، ثم إنه عليه السلام أتى بهذا القرآن ، فكان هذا القرآن مشتملاً على أقاصيص الأولين ، والقوم كانوا في غاية العداوة له ، فلو لم تكن هذه الأقاصيص موافقة لما في التوراة والإنجيل لقدحوا فيه ولبالغوا في الطعن فيه ، ولقالوا له إنك جئت بهذه الأقاصيص لا كما ينبغي ، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه ، وعلى تقبيح صورته ، علمنا أنه أتى بتلك الأقاصيص مطابقة لما في التوراة والإنجيل ، مع أنه ما طالعهما ولا تلمذ لأحد فيهما ، وذلك يدل على أنه عليه السلام إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحي من قبل الله تعالى.

الحجة الثانية : أن كتب الله المنزلة دلت على مقدم محمد عليه السلام ، على ما استقصينا في تقريره في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى (وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) وإذا كان الأمر كذلك كان مجيء محمد عليه السلام تصديقاً لما في تلك الكتب ، من البشارة بمجيئه ﷺ ، فكان هذا عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

الحجة الثالثة : أنه عليه السلام أخبر في القرآن عن الغيوب الكثيرة في المستقبل، ووقعت مطابقة لذلك الخبر، كقوله تعالى: (الم غُلِبَتِ الروم) الآية، وكقوله تعالى (لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرؤيا بالحق) وكقوله (وَعَدَ الله الذين ءامَنُواْ

مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الارض) وذلك يدل على أن الإخبار عن هذه الغيوب المستقبلة ، إنما حصل بالوحي من الله تعالى، فكان ذلك عبارة عن تصديق الذي بين يديه ، فالوجهان الأولان : إخبار عن الغيوب الماضية والوجه الثالث : إخبار عن الغيوب المستقبلة ، ومجموعها عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

قال الشوكاني : وَنَفسُ هَذَا التَّصْدِيقِ مُعْجِزَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، لِأَنَّ أَقَاصِيصَهُ مُوَافِقَةٌ لِمَا فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺلَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ وَلَا تَعَلَّمَهُ وَلَا سَأَلَ عَنْهُ وَلَا اتَّصَلَ بِمَنْ لَهُ عِلْمٌ بِذَلِكَ،

وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ) أي : وفي هذا القرآن بيان وتفصيل لما شرعه الله لأمة محمد ﷺ، لا شك في أن هذا القرآن موحىً من رب العالمين.

أن يكون مفصلاً وموضحاً لما اشتملت عليه هذه الكتب من تشريعات وآداب وأحكام.

- والتّفصيل: التَّبْيِينُ أَيْ: يُبَيِّنُ مَا فِي كُتُبِ اللَّهِ المتقدّمة، والكتاب: للجنس ، وقيل: أراد مَا بُيِّنَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَحْكَامِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ: الْقُرْآنَ .
- **قال ابن عاشور** : والظاهر أن تعريف الكتاب تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلها.

ومعنى كون القرآن تفصيلاً لها أنه مبين لما جاء مجملاً في الكتب السالفة ، وناسخ لما لا مصلحة للناس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضل بها أهل الكتاب، فكل ذلك داخل في معنى التفصيل، وهو معنى قوله تعالى (ومهيمناً عليه) في سورة العقود .

(**لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**) أي: هذا الكتاب لا ريب ولا شك في كونه منزلا على رسوله محمد ﷺ من الله تعالى رب العالمين .

الريب هو الشك مع القلق فهو أخص من الشك .

فالقرآن لا شك ولا ريب أنه موحى من عند الله ، كما قال تعالى (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) .

والقرآن لا شك أنه يبعث على عدم الريب والشك .

والقرآن لا شك ولا ريب أنه واقع موقعه .

والقرآن لا يتضمن أموراً تبعث على الريب والشك .

والقرآن لا يوجد فيه متناقضات .

والقرآن لا ريب فيه وإن ارتاب فيه المرتابون .

- **قال الشيخ السعدي** : لا ريب فيه : ونفي الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين، المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة : أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه .
- فيه دليل على أنه لا ينبغي للمسلم أن يرتاب في هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله إلى قيام الساعة .
- هذا التنويه بهذا القرآن في كماله وعدم تناقضاته يستوجب حمد الله تعالى (الحمد لله الذي أنزل على عبده

الكتاب ولم يجعل له عوجاً) .

(**رَبِّ الْعَالَمِينَ**) الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

قال السعدي : ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

- **قال الشيخ السعدي رحمه الله** : وتربيته تعالى لخلقه نوعان : عامة وخاصة :

فالعامة : هي خلقه للمخلوقين ، ورزقهم ، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا .

والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيربيهم بالإيمان ، ويوفقهم له ، ويكملهم ، ويدفع عنهم الصوارف ، والعوائق الحائلة بينهم وبينه ، وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر .

- **العالمين** : اختلف ما المراد بالعالمين على أقوال :

قيل : كل موجود سوى الله ، وهذا قول قتادة ورجحه القرطبي وابن كثير .

وقيل : أهل كل زمان عالم لقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) أي من الناس .

وقيل : الجن والإنس ، لقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيراً) .

وقيل : العالَم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين .

والصحيح الأول ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، ودليله قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما) .

- **العالمين : جمع عالَم** :

قيل : مأخوذ من العَلامة ، لأنهم عَلَمٌ على خالقهم وصانعهم ، وهذا هو الصحيح

فإن هذا الخلق في كل فرد منه ، وفي جزء منه ، آية تدل على وحدانية الله وعلى عظمتة وعلى انفراده بالملك .

قال الشاعر :

فوا عجباً كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كـــل شيءٍ لـه آيـــةٌ تـــدل عـلى أنه واحدُ

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وسئل بعض الأعراب عن وجود الله فقال : إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ألا يدل على وجود اللطيف الخبير .

جسمك وروحك فيه من الآيات ما يبهر العقول .

وقيل : مأخوذ من العِلم ، لأن هذا الخلق لا يصدر إلا عن علم ومعرفة بأحوالهم .

- **العالمين** : تطلق أحياناً ويراد به الإنس والجن :

كما قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وأحياناً تطلق على البشر :

كقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) .

- قال بعض العلماء : واعلم أن تربيته تعالى مخالفة لتربية غيره ، وبيانه من وجوه :

الأول : أنه تعالى يربي عبيده لا لغرض نفسه ، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم .

الثاني : أن غيره إذا ربى فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه وفي ماله وهو متعال عن النقصان والضرر ، كما قال تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) .

الثالث : أن غيره من المحسنين إذا ألح الفقير عليه أبغضه وحرمه ومنعه ، والحق تعالى بخلاف ذلك ، كما قال ﷺ : (إن الله تعالى يحب الملحين في الدعاء) .

الرابع : أن غيره من المحسنين ما لم يطلب منه الإحسان لم يعط ، أما الحق تعالى فإنه يعطي قبل السؤال ، ألا ترى أنه رباك حال كنت جنيناً في رحم الأم ، وحال ما كنت جاهلاً غير عاقل ، لا تحسن أن تسأل منه ، ووقاك وأحسن إليك مع أنك ما سألته وما كان لك عقل ولا هداية .

الخامس : أن غيره من المحسنين ينقطع إحسانه إما بسبب الفقر أو الغَيبة أو الموت ، والحق تعالى لا ينقطع إحسانه البتة .

السادس : أن غيره من المحسنين يختص إحسانه بقوم دون قوم ولا يمكنه التعميم ، أما الحق تعالى فقد وصل تربيته وإحسانه إلى الكل ، كما قال : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) .

الفوائد :

١- أنه لا يمكن لهذا القرآن أن يكون من بشر .

٢- وجوب الإيمان بأن هذا القرآن كلام رب البشر .

٣-لا أحد يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن .

٤- أن القرآن مصدق للكتب السابقة .

٥- أن هذا القرآن لا ريب فيه أنه من رب العالمين .

٦- أن التمسك بالقرآن يدعو إلى الثبات والبصيرة والاطمئنان .

٧- إثبات ربوبية الله تعالى .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)) .

[يونس : ٣٨- ٣٩] .

(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**) بل أيقولون: إن هذا القرآن افتراه محمد من عند نفسه؟ فإنهم يعلمون أنه بشر مثلهم .

(**قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**) أي : قل لهم: يا محمد على سبيل التبكيت والتحدي: إن كان الأمر كما زعمتم من أني أنا الذي اختلقت هذا القرآن، فأتوا أنتم يا فصحاء العرب بسورة مثل سوره في البلاغة والهداية وقوة التأثير، وقد أبحت لكم مع ذلك أن تدعوا لمعاونتكم

ومساعدتكم في بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله تعالى .

وجاءت كلمة (سورة) منكرة، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه.

والضمير في (مِثْلِهِ) يعود إلى القرآن الكريم، والمراد بمثله هنا: ما يشابهه في حسن النظم، وجمال الأسلوب، وسداد المعنى، وقوة التأثير.

وكلمة مَنِ في قوله (مَنِ اسْتَطَعْتُمْ) تشمل آلهتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة.

- وقد وقع التحدي بالقرآن على أوجه :

تحداهم أن يأتوا بقرآن بمثل هذا القرآن :

قال تعالى (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) وقال تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) .

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله :

كما في هذه الآية .

وفي قوله تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقوله (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قيل : أعوانكم ونصراءكم ، وقيل : آلهتكم ، وقيل : ائتوا بشهداء يشهدون لكم أن ما أتيتم به يعادل القرآن أو يقاربه .

وهذا غاية التحدي لهم . وهذا كما يقول المعجز المتحدي لمن عانده وتحداه : اذهب وائت بمن تستطيع من أصحابك وأعوانك وأوليائك لتستعين بهم .

- **قال ابن كثير** : ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى ، ... فكلٌ من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى ، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ، ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ... لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء .

- فلا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه ، كما قال تعالى (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) أي معيناً .

(**بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ**) أي : بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم ، وسارعوا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه .

قال الشوكاني : وَهَكَذَا صَنَعَ مَنْ تَصَلَّبَ في التقليد ولم يبال لما جَاءَ بِهِ مَنْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ وَتَمَسَّكَ بِذُيُولِ الْإِنْصَافِ، بَلْ يَرُدُّهُ بِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ لَمْ يُوَافِقْ هَوَاهُ، وَلَا جَاءَ عَلَى طَبَقِ دَعْوَاهُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ مَعْنَاهُ، وَيَعْلَمَ مَبْنَاهُ، كَمَا

تَرَاهُ عَيَانًا، وَتَعْلَمُهُ وُجْدَانًا. وَالْحَاصِلُ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِالْحُجَّةِ النَّيِّرَةِ وَالْبُرْهَانِ الْوَاضِحِ قَبْلَ أَنْ يُحِيطَ بِعِلْمِهِ، فَهُوَ لَمْ يَتَمَسَّكْ بِشَيْءٍ فِي هَذَا التَّكْذِيبِ إِلَّا مُجَرَّدَ كَوْنِهِ جَاهِلًا لِمَا كَذَّبَ بِهِ غَيْرُ عَالِمٍ بِهِ، فَكَانَ بِهَذَا التَّكْذِيبِ مُنَادِيًا عَلَى نَفْسِهِ بِالْجَهْلِ بِأَعْلَى صَوْتٍ، وَمُسَجِّلًا بِقُصُورِهِ عَنْ تَعَقُّلِ الْحُجَجِ بِأَبْلَغِ تَسْجِيلٍ، وَلَيْسَ عَلَى الْحُجَّةِ وَلَا عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا مِنْ تَكْذِيبِهِ شَيْءٌ:

مَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ .

- **قال ابن عاشور** : والمعنى أنهم سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه.

وإنما يكون مثل هذا التكذيب عن مكابرة وعداوة لا عن اعتقاد كونه مكذوباً.

(**وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**) أي : والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) فيه وجهان :

أحدهما : علم ما فيه من البرهان.

الثاني : ما يؤول إليه أمرهم من العقاب.

قال الشوكاني : وَالْمَعْنَى: أَنَّ التَّكْذِيبَ مِنْهُمْ وَقَعَ قَبْلَ الإحاطة بعلمه، وقبل أن يعرفوا ما يؤول إِلَيْهِ مِنْ صِدْقِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ حِكَايَةِ مَا سَلَفَ مِنْ أَخْبَارِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْأُمَمِ السَّابِقِينَ، وَمِنْ حِكَايَاتِ مَا سَيَحْدُثُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا قَبْلَ كَوْنِهَا، أَوْ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمُوهُ حَقَّ الْفَهْمِ وَتَتَعَقَّلَهُ عُقُولُهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوهُ كُلِّيَّةَ التَّدَبُّرِ لَفَهِمُوهُ كَمَا يَنْبَغِي، وَعَرَفُوا مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الدَّالَّةِ أَبْلَغَ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ وعلى هذا: فمعنى: تأويله، ما يؤول إِلَيْهِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ مِنَ الْمَعَانِي الرَّشِيقَةِ وَاللَّطَائِفِ الْأَنِيقَةِ .

- وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن (من جهل شيئاً عاداه) قال نعم ، في موضعين : "بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ" وقوله (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) . (تفسير القرطبي) .

(**كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**) أي : مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم

أي: كما كذب المشركون نبيهم محمدا ﷺ عن جهل وجحود: كذب الذين من قبلهم أنبياءهم، كقوم نوح وعاد وثمود، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

- **وقال الشوكاني** : أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ التَّكْذِيبِ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ عِنْدَ أَنْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ بِحُجَجِ اللَّهِ وَبَرَاهِينِهِ، فَإِنَّهُمْ كَذَّبُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ تَأْوِيلُهُ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ بِالْخَسْفِ، وَالْمَسْخِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِمْ، كَمَا حَكَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ عَنْهُمْ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ كُتُبُ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةُ عَلَيْهِمْ.

- **قال ابن عاشور** : ومما يقصد من هذا التشبيه أمور:

أحدها : أن هذه عادة المعاندين الكافرين ليعلم المشركون أنهم مماثلون للأمم التي كذبت الرسل فيعتبروا بذلك.
الثاني : التعريض بالنذارة لهم بحلول العذاب بهم كما حل بأولئك الأمم التي عرف السامعون مصيرها وشاهدوا ديارها.
الثالث : تسلية النبي ﷺ بأنه ما لقي من قومه إلا مثل ما لقي الرسل السابقون من أقوامهم.
(**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**) أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوا، وكفرا وعنادًا وجهلا فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.
الفوائد :
١- إعجاز هذا القرآن .
٢- عظمة القرآن حيث تحدى الله كفار قريش أن يأتوا بمثله .
٣- وجوب العناية بالقرآن حفظاً وتدبراً وفهماً .
٤- أن من أعظم آيات النبي ﷺ هذا القرآن العظيم .
٥- لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن .
٦- ذم من لا يتأمل ويتثبت .
٧- أن كثيراً من الأمم كذبت رسلها .
٨- على المسلم أن ينظر بعينه وبقلبه ما وقع للأمم المكذبة من عقاب الله .
٩-فضل الاعتبار والتفكر في آيات الله المتنوعة .
(**وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)**)
[يونس : ٤٠] .

(**وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِه**) أي : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ومنهم من لا يؤمن به أبداً لاستحبابه العمى على الهدى.
وعليه يكون المراد بمن يؤمن به، أولئك الذين وفقهم الله لا تباع الحق عن يقين وإذعان.
وقيل : إن المعنى ، ومن قومك يا محمد أناس يؤمنون في قرارة نفوسهم بأن هذا القرآن من عند الله، ولكنهم يكذبونك جحوداً وعناداً ، ومنهم من لا يؤمن به أصلاً ، لانطماس بصيرته، وإيثاره الغي على الرشد.
وعلى هذا التفسير يكون المراد بمن يؤمن به: أولئك الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكن الغرور والجهل والحسد حال بينهم وبين اتباعه.
(**وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ**) أي : وربك أعلم بالمفسدين في الأرض بالشرك والظلم والفجور، وسيحاسبهم على ذلك يوم الدين حساباً عسيراً ، ويذيقهم العذاب الذي يستحقونه، فالمراد بالعلم هنا لازمه وهو الحساب والعقاب.
- **قال ابن كثير** : أي: ومن هؤلاء الذين بُعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما

أرسلت به، (وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ) بل يموت على ذلك ويبعث عليه (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلاً ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

الفوائد :

١- حكمة الله في انقسام الناس إلى مؤمن وكافر .

٢-الناس إذا جاءهم الرسول يدعوهم انقسموا إلى فريقين ، مصدق ومكذب .

٣-تهديد لكل مفسد .

٤- علم الله الكامل بالمفسدين ، وسيجازيهم على ذلك .

(وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُم عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)) .

[يونس : ٤١] .

(وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي ...) إرشاد من الله تعالى لنبيه ﷺ إذا ما استمر أعداؤه في طغيانهم.

أي : وإن تمادى هؤلاء الأشرار في طغيانهم وفي تكذيبهم لك يا محمد، فقل لهم: أنا مسئول عن عملي أمام الله، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه سبحانه, وأنتم بريئون مما أعمله فلا تؤاخذوني عليه، وأنا بريء كذلك من أعمالكم فلا يؤاخذني الله عليها.

فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من قومه. وإعلام له بأن وظيفته البلاغ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله تعالى .

- **قال ابن كثير** : يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبك هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عملهم فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ،

كقوله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) .

وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين (إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) .

- **قال الشنقيطي** : أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، أَنْ يُظْهِرَ الْبَرَاءَةَ مِنْ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ الْقَبِيحَةِ إِنْكَارًا لَهَا ، وَإِظْهَارًا لِوُجُوبِ التَّبَاعُدِ عَنْهَا .

وَبَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون - إِلَى قَوْلِهِ : وَلِيَ دِين) . وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَأَتْبَاعِهِ لِقَوْمِهِ (إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) .

وَبَيَّنَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ اعْتِزَالَ الْكُفَّارِ ، وَالْأَوْثَانِ ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْهُمْ مِنْ فَوَائِدِهِ تَفَضُّلُ اللَّهِ تَعَالَى بِالذُّرِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ الصَّالِحَةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي «مَرْيَمَ» (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً).

الفوائد :

١-تسلية للرسول ﷺ .

٢- تعليم الله لنبيه ﷺ الرد على هؤلاء المكذبين .

٣- تسلية لكل داعية إلى الحق إذا كذّب من قِبل الناس ، فإن الرسل قبله قد كذبوا .

٤- وجوب البراءة من المشركين .

٥- قوة النبي ﷺ في الصدع بالحق .

٦- أن الرسول مهمته التبليغ ، والهداية بيد الله .

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)) .

[يونس : ٤٢- ٤٤] .

(**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ**) أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة ، ولكنهم لا يهتدون.

(**أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ**) أفأنت تَقْدر على إسماع الصم؟ فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله هدايتهم; لأنهم صمٌّ عن سماع الحق، لا يعقلونه.

- **قال السعدي** : فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك ممتنع إسماعك إياهم، إسماعًا ينتفعون به.

وأما سماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير .

(**وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ**) أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوءتك لأولي البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم .

- أي : ومِنَ الكفار مَن ينظر إليك وإلى أدلة نبوتك الصادقة، ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان .

(**أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ**) أفأنت -أيها الرسول- تقدر على أن تخلق للعمي أبصارًا يهتدون بها؟ فكذلك لا تقدر على هدايتهم إذا كانوا فاقدي البصيرة، وإنما ذلك كلُّه لله وحده.

- **قال ابن كثير** : ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً) .

- فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من قومه. وإعلام له بأن وظيفته البلاغ، أما حسابهم على

أعمالهم فعلى الله تعالى .

- **قال السعدي** : ودل قوله (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ) الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

(**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا**) وذلك لكمال عدله ، فلا ينقصون من حسناتهم ، ولا يزاد عليهم في السيئات، ولا يعاقبون بظلم غيرهم .

قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً). ظلماً: أي: زيادة في السيئات (ولا هضماً) أي نقصاً في الحسنات.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً).

كما قال تعالى (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) فلا ينقص من ثوابهم شيئاً، ولا يزاد في عذابهم، ولا يعاقبون بجريرة غيرهم.

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) ظلماً: أي: زيادة في السيئات (ولا هضماً) أي نقصاً في الحسنات.

وقال تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

وقال تعالى (وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً) أي: من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء، والفتيل: هو الخيط الذي يكون في بطن النواة.

قال تعالى (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً).

- فالله عز وجل لا يظلم أحداً لكمال عدله لا لعجزه عن الظلم.

(**وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) بالكفر والمعاصي والتكذيب ومخالفة أمر الله تعالى .

الفوائد :

١- أن الهداية بيد الله .

٢- أن من لم يرد الله هدايته ، فلن يهتدي ولو رأى من الآيات الشيء الكثير .

٣- أن في النظر إلى النبي ﷺ وسماع حديثه من أعظم الآيات التي تدل على صدقه .

٤- أن العمى عمى البصيرة لا البصر .

٥-تنزيه الله عن الظلم لكمال عدله .

٦- أن من أنواع الظلم ظلم العبد نفسه بالمعاصي والتكذيب .

(**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللَّهِ وَمَا كَانُواْ**
مُهْتَدِينَ (٤٥)).

[يونس : ٤٥] .

(**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ**) ويوم يَحشر الله هؤلاء المشركين يوم البعث والحساب، كأنهم قبل ذلك لم يمكثوا في الحياة الدنيا إلا قدر ساعة من النهار، يعرف بعضهم بعضًا كحالهم في الدنيا .

- **قال ابن كثير** : يقول تعالى مُذكِّرًا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عَرَصات القيامة: كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا (إلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ) .

كما قال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ ....) .

كما قال تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) .

وقال تعالى (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا يَوْمًا) .

وقال تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) .

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

وقوله: (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) أي: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه .

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ) .

وقال تعالى (وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الأرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ *كَلا) .

- **قال ابن القيم** : ويكفى في بالزهد في الدنيا :

قوله تعالى (أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون) .

وقوله (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) .

وقوله (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) .

وقوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها) .

وقوله (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) .

وقوله (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ . قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) .

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) هذا التعارف توبيخ وافتضاح، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر، وليس تعارف شفقة ورحمة وعطف ... والصحيح أنه لا ينقطع هذا التعارف التوبيخي عند مشاهدة أهوال القيامة، لقوله تعالى (وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ ...) ، فأما قوله (وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (وأشباهه فمعناه: لا يسأله سؤال رحمة وشفقة...

قال الشنقيطي : ... وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ هَذِهِ الْمُعَارَفَةَ لَا أَثَرَ لَهَا ، فَلَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا شَيْئًا ، كَقَوْلِهِ (وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبَصَّرُونَهُمْ) وَقَوْلِهِ (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُون)

.

فإن قيل: إن هناك بعض الآيات ذكرت أنهم عند ما يسألون يحسبون بأنهم لبثوا في الدنيا يوماً أو بعض يوم، أو عشية أو ضحاها كما في قوله تعالى (قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) .

وكما في قوله تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها) .

فكيف نجمع بين هذه الآيات التي اختلفت إجابتهم فيها؟.

فالجواب: أن أهل الموقف يختلفون في تقدير الزمن الذي لبثوه في الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم، وعلى حسب أهوال كل موقف، فإن في يوم القيامة مواقف متعددة بعضها أشد من بعض.

(**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ**) قد خسر الذين كفروا وكذَّبوا بلقاء الله وثوابه وعقابه، وما كانوا موفَّقين لإصابة الرشد فيما فعلوا.

- **قال الشنقيطي** : وَقَدْ أَقْسَمَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ هَذَا الْخُسْرَانَ لَا يَنْجُو مِنْهُ إِنْسَانٌ إِلَّا بِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ :

الْأَوَّلُ : الْإِيمَانُ .

الثَّانِي : الْعَمَلُ الصَّالِحُ .

الثَّالِثُ : التَّوَاصِي بِالْحَقِّ .

الرَّابِعُ : التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ .

وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ ... .

وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ الْمَفْعُولَ الْمَحْذُوفَ الْوَاقِعَ عَلَيْهِ الْخُسْرَانُ هُوَ أَنْفُسُهُمْ، كَقَوْلِهِ فِي «الْأَعْرَافِ» (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الْمُؤْمِنُونَ» (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «هُودٍ» (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

وَزَادَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ خُسْرَانَ الْأَهْلِ مَعَ النَّفْسِ ، كَقَوْلِهِ فِي «الزُّمَرِ» :كقوله تعالى (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الشُّورَى» (وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ).

وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ خُسْرَانَ الْخَاسِرِينَ قَدْ يَشْمَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ :

وَهُوَ قَوْلُهُ (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) .

الفوائد :

١-إثبات الحشر .

٢- أن الكفار يوم القيامة يظنون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا لحظات .

٣- شدة ندم الكفار على تضييع الحياة الدنيا .

٤-خطر التكذيب بالحشر والمعاد .

٥- الحث على التزود في هذه الدنيا بالأعمال الصالحة ، فهي قصيرة زائلة .

٦- شدة خسارة من كذب بلقاء الله .

٧- وجوب الإيمان باليوم الآخر .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)) [يونس : ٤٦] .

(**وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ**) أي : إمَّا نرينَّك -أيها الرسول- في حياتك بعض الذي نَعِدُهم من العقاب في الدنيا .

(**أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**) أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك فيهم .

(**فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ**) فإلينا وحدنا يرجع أمرهم في الحالتين .

- **قال القرطبي** : والمقصود إن لم ننتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً.

(**ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ**) أي : ثم الله شهيد على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، لا يخفى عليه شيء منها، فيجازيهم بها جزاءهم الذي يستحقونه.

وقوله سبحانه (بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ) للإشارة إلى أن ما ينزل بهم من عذاب دنيوي، هو جزء من العذاب المدخر لهم في الآخرة.

- وقد أنجز الله تعالى وعده لنبيه ﷺ فسلط عليهم القحط والمجاعة، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن بينهم وبين السماء دخانا. ونصر المسلمين عليهم في غزوتي بدر والفتح، وكل ذلك حدث في حياة النبي ﷺ .

هذا، وفي معنى هذه الآية وردت آيات أخرى منها :

قوله تعالى (وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ، فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِساب) .

وقوله تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُون) .

الفوائد :

١- تسلية الله لرسوله ﷺ ، بأنه سيعاقب أعداءه .

٢- تسلية لكل داعية صادق ، بأن الله سينتصر له ولدعوته .

٣-أن الرسول يموت كما يموت البشر .

٤- أن المرجع إلى الله .

٥- تهديد لكل مكذب وظالم أن المرجع إلى الله .

٦- أن الله لا يخفى عليه شيء .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٤٧))

[يونس : ٤٧] .

(**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ**) أي : ولكل أمة خَلَتْ قبلكم -أيها الناس- رسول أرسلتُه إليهم، كما أرسلت محمدًا إليكم يدعو إلى دين الله وطاعته .

- **قال الشنقيطي** : صَرَّحَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ، وَبَيَّنَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ : كَقَوْلِهِ تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا) .

وَقَوْلِهِ (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) .

وَقَوْلِهِ (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَقَدْ بَيَّنَ ﷺ أَنَّ عَدَدَ الْأُمَمِ سَبْعُونَ أُمَّةً فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ الْقُشَيْرِيِّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ) .

(**فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**) أي : فإذا جاء رسولهم في الآخرة قُضِيَ حينئذ بينهم بالعدل، وهم لا يُظلمون مِن جزاء أعمالهم شيئًا.

- **قال ابن كثير** : فكل أمة تعرض على الله تعالى بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير أو شر شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة، يفصل بينهم ويقضى لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق، فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها- صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

الفوائد :

١- إثبات الرسل .

٢- إثبات أن لكل أمة رسول أرسله الله إليها .

٣- رحمة الله بعباده بإرسال الرسل .

٤- حكمة الله في إرسال الرسل للناس .

٥- أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وذلك بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين .

٦- أن أول الرسل نوح ، وآخرهم محمد ﷺ .

٧- إثبات الحساب والجزاء يوم القيامة .

٨- أن كل رسول شاهد على قومه يوم القيامة .

٩- أن الله يقضي بين الناس يوم القيامة بالقسط .

١٠ – نفي الظلم عن الله تعالى لكمال عدله .

فائدة :

أطلقت الأمة في القرآن على عدة معان :

أ-بمعنى الطائفة.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً ...).

ب-بمعنى الإمام.

كما قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً).

ج-بمعنى الملة.

كقوله تعالى عن المشركين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ...).

د-بمعنى الزمن.

كما قال تعالى (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ...).

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)) .

[يونس : ٤٨] .

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِين) حكاية لأقوالهم الدالة على طغيانهم وفجورهم.

أي : أن هؤلاء لم يكتفوا بالإعراض عن دعوة الحق، بل قالوا لرسولهم ﷺ الذي حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا في كفرهم: متى يقع علينا هذا العذاب الأليم الذي تهددنا؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت أنت وأصحابك من الصادقين في دعواكم أن هناك عذابا ينتظرنا.

وهذا القول منهم يدل على توغلهم في الكفر والجحود، وعدم اكتراثهم بما يخبرهم به الرسول ﷺ .

- ودائماً الكفار يستعجلون العذاب استبعاداً منهم له:

كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ).

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ).

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ).

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ).

وقال تعالى عن قوم هود (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

الفوائد :

١- شدة طغيان الكفار وتمردهم باستعجالهم العذاب .

٢-حكمة الله في تأخير العذاب عن الكفار إلى أجل معلوم عنده سبحانه .

٣- حلم الله عن الكفار حيث لا يعاجلهم بالعقوبة .

(قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَـرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَـــاء اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَـــلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)) .

[يونس : ٤٩] .

(**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ**) أي : قل لهم – أيها الرسول –لا أقول إلا ما علَّمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يُطلعني عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها،

- **وقال بعض العلماء** : أي : قل لهم –أيها الرسول-: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًا، ولا أجلب لها نفعًا، إلا ما شاء الله أن يدفع عني مِن ضرٍّ أو يجلب لي من نفع.

(**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ**) أي : لكل قوم وقت لانقضاء مدتهم وأجلهم .

- **قال ابن كثير** : (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) أي: لكل قرن مدَّة من العمر مقدَّرة فإذا انقضى أجلهم .

والأجل، هو الوقت الموقت المضروب لانقضاء المهْلَة.

- **قال ابن عاشور:** والمراد بالأمّة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك أو في تكذيب الرّسل، كما يدلّ عليه السّياق من قوله تعالى (وأن تشركوا بالله) إلخ وليس المراد بالأمّة، الجماعةَ التي يجمعها نسب أو لغة إذ لا يتصوّر انقراضها عن بكرة أبيها.

وفي هذه الآية قولان:

القول الأول: أن المعنى أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين لعذاب الاستئصال، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة.

وهو قول ابن عباس، والحسن، ومقاتل.

والقول الثاني: أن المراد بهذا الأجل العمر، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه، والقول الأول: أولى، لأنه تعالى قال (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) ولم يقل: ولكل أحد أجل.

- **قال ابن عطية:** قوله تعالى (ولكل أمة أجل) يتضمن الوعيد والتهديد، والمعنى ولكل أمة أي فرقة وجماعة، وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس، أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيتها الأمة , كذلك قاله الطبري وغيره.

(**إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُون**) أي : إذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم، فلا يستأخرون عنه ساعة فيُمْهلون، ولا يتقدم أجلهم عن الوقت المعلوم.

كما قال تعالى (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) .

وقال تعالى (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) .

وَقَال تعالى (إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون) .

والمراد أنه لا يتأخر عن ذلك الأجل المعين لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة إلا أنه تعالى ذكر الساعة لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات.

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة، وإنما المراد بها الوقت الذي هو في غاية القلة.

الفوائد :

١ – تهديد الأمم الكافرة.

٢ – أن تأخير العذاب عن الأمم الطاغية لحكمة .

٣ – أن أفعال الله صادرة عن حكمة.

٤ – أن عذاب الله إذا جل وحلّ لا يتأخر ولا يتقدم.

٥ – إمهال الله الأمم الكافرة.

٦ – تسلية لأهل الإيمان وطمأنينة لهم.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)) .

[يونس : ٥٠- ٥٢] .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) أي : قل –أيها الرسول– لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلاً أو نهارًا، فأي شيء تستعجلون أيها المجرمون بنزول العذاب؟

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) أي : أبعد ما وقع عذاب الله بكم –أيها المشركون– آمنتم في وقت لا ينفعكم فيه الإيمان؟ وقيل لكم حينئذ: آلآن تؤمنون به، وقد كنتم من قبل تستعجلون به؟

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ) يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) .

وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

(ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ) أي: ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله: تجرَّعوا عذاب الله الدائم لكم أبدًا.

- **قال ابن كثير** : أي يوم القيامة يقال لهم هذا، تبكيتاً وتقريعًا، كقوله (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

(**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ**) فهل تُعاقَبون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم من معاصي الله؟

الفوائد :

١- تهديد هؤلاء الذين يستعجلون نزول العذاب .

٢- أن الكافر إذا وقع العذاب ورأى الحق آمن ، لكن لا ينفعه الإيمان الآن .

٣- أن الإيمان الاضطراري لا يقبله الله .

كما أن التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها ، وعند الغرغرة لا تقبل .

وعن أبي موسَى عبدِ اللهِ بنِ قَيسٍ الأشْعريِّ ﷺ ، عن النَّبيِّ ﷺ ،قَالَ : (إنَّ الله تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) رواه مسلم

وعن أبي هُريرةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ تَابَ قَبْلَ أنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيهِ) رواه مسلم

وعن أبي عبد الرحمان عبد الله بنِ عمَرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهما ، عن النَّبي ﷺ، قَالَ : (إنَّ الله ﷻ يَقْبَلُ تَوبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ) رواه الترمذي .

الأول : إذا طلعت الشمس .

قال ابن الجوزي : وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان .

وقال القرطبي : قال العلماء : وإنما لا ينفع نفساً إيمانُها عند طلوعها من مغربها ؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس ، وتَفْتُر كلّ قوّة من قوى البدن ؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدّواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت.

وقال السعدي : والحكمة في هذا ظاهرة ، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة ، ولم يبق للإيمان فائدة ، لأنه يشبه الإيمان الضروري ، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ) .

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويُغلق حينئذ بابُ التوبة.

الثاني : عند الغرغرة .

لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

(**وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣)**) .

[يونس : ٥٣] .

(**وَيَسْتَنبِئُونَكَ**) يقول تعالى: ويستخبرونك .

(**أَحَقٌّ هُوَ**) أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً .

(**قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ**) قل لهم -أيها الرسول- نعم وربي إنه لحق لا شك فيه .

(**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**) أي: ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

قال الشوكاني : قوله تعالى (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) أي : فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع ، والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئاً .

- **قال ابن كثير**: وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد.

في سورة سبأ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) .

وفي التغابن (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) .

الفوائد :

١- إثبات البعث .

٢- إنكار الكفار للبعث .

٣- أمر الله لنبيه أن يقسم على إثبات البعث .

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٥٤)) .

[يونس : ٥٤] .

(**وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ**) أي : ولو أن لكل نفس أشركت وكفرت بالله جميع ما في الأرض، وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب لافتدت به .

- قال القرطبي :قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ) أي أشركت وكفرت.(مَا فِي الأرض) أي ملكاً . (لاَفْتَدَتْ بِهِ) أي من عذاب الله ، يعني ولا يقبل منها ؛ كما قال (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ) .

والظلم هنا الشرك والكفر .

(**وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ**) وأخفى الذين ظلموا حسرتهم حين أبصروا عذاب الله واقعاً بهم جميعًا .

وقال بعض العلماء : الذين أسروا الرؤساء ، أي : وأخفى هؤلاء الظلمة الندم ، لما عاينوا العذاب ، قال الإمام الجلال : أي أخفاها رؤساؤهم عن الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعيير .

- السبب في هذا الإخفاء وجوه :

الأول : أنهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً سوى إسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فإنه يبقى مبهوتاً متحيراً لا ينطق بكلمة.

الثاني : أنهم أسروا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم.

الثالث : أنهم أسروا تلك الندامة لأنهم أخلصوا لله في تلك الندامة ، ومن أخلص في الدعاء أسره ، وفيه تهكم بهم وبإخلاصهم يعني أنهم لما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته لم ينفعهم ، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به في دار الدنيا وقت التكليف .

- **قال القرطبي** : وهذا قبل الإحراق بالنار ، فإذا وقعوا في النار ألْهتهم النار عن التصنع ؛ بدليل قولهم (رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا) .
- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَأَسَرُّواْ الندامة) جاء على لفظ الماضي ، والقيامة من الأمور المستقبلة إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع ، جعل الله مستقبلها كالماضي .
- واعلم أن الإسرار هو الإخفاء والإظهار وهو من الأضداد ، أما ورود هذه اللفظة بمعنى الإخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الإظهار فهو من قولهم سر الشيء وأسره إذا أظهره.

(**وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ**) وقضى الله عز وجل بينهم بالعدل .

(**وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**) لكمال عدل الله ، فإنه سبحانه لا يظلم أحداً .

الفوائد :

١- شدة عذاب يوم القيامة .

٢- أن من شدة عذاب يوم القيامة يتمنى الكافر لو يفتدي منه بكل شيء .

٣- أن أعظم الظلم الشرك بالله .

٤- ندامة الكفار يوم القيامة .

٥- فضيحة الكفار يوم القيامة زيادة في عذابهم .

٦- أن الله يقضي بين الناس يوم القيامة بالعدل .

٧- نفي الظلم عن الله لكمال عدله .

(**أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٥٥)**) .
[يونس : ٥٥] .

(**أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض .

أي : كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتدبيراً .

- **قال أبو بكر الجزائري** : خلقاً وملكاً وتصرفاً .

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على هذا العموم :

قال تعالى (وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

وقال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً) .
وقال تعالى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

- وهذه الجملة تؤيد تفرده سبحانه بالألوهية ، وذلك من جانبين :

الأول : حيث إن الجميع عبيد له جل جلاله ، وليس للعبد أن يعبد غير مالكه ، أو يُشرِك غيره معه في العبادة ، وقد نهاه عن ذلك .

الثاني : وحيث إن الجميع عبيد له، فكيف يُعبد مملوك – كائناً من كان – ويُترك المالك ، أو يُشرَك مملوك في العبادة مع المالك، وقد نهى عن ذلك .

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد :

أولاً : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .
ويدل لذلك أيضاً ما بينّه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي ، فأرسل يقرأ السلام ويقول: (إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب) .

ثانياً : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

ثالثاً : أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك ، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله ، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .
وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ..) رواه مسلم .

(**أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**) أي : إن وعده بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة .

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُون**) أي : ولكن أكثر الناس لقصور عقولهم ، واستيلاء الغفلة عليهم ، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون .

الفوائد :

١- تقرير ملك الله عز وجل للسماوات والأرض .
٢-اختصاص ملك السماوات والأرض لله عز وجل لا يملكهما أحد سواه ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .
٣- عموم ملك الله لكل شيء .
٤- أن وعد الله حق .
٥- أن من أيقن بأن وعد الله حق قوي إيمانه ويقينه وكرمه وشجاعته .
٦- أن أكثر الناس على غير الحق .

٧- فضل العلم الذي يقود إلى معرفة الله والثقة به وخشيته .

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)) .

[يونس : ٥٦] .

(**هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ**) أي: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يُزاد في عمُر أحد ولا يُنقص منه إلا بقضائه وقدره.

- **قال الطبري**: يعني جل ثناؤه بقوله: (والله يحيي ويميت) والله المعجِّل الموتَ لمن يشاء من حيث يشاء، والمميت من يشاء كلما شاء، دون غيره من سائر خلقه.

وهذا من الله عز وجل ترغيبٌ لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم، وإخراج هيبتهم من صدورهم، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله وإعلامٌ منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده، وأنه لن يموت أحدٌ ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له ونهيٌ منه لهم، إذ كان كذلك، أن يجزعوا لموت من مات منهم أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين. أ هـ

(**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) بعد الموت ، فيجازيكم على أعمالكم .

الفوائد :

١- الذي بيده الحياة والموت هو الله .

٢- الشجاعة والإقدام وعدم الخوف ، لأن أمر الحياة والموت بيد الله لا بيد المخلوق .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)) .

[يونس : ٥٧- ٥٨] .

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**) يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) أي: زاجر عن الفواحش .

والوعظ هو التذكير بالعواقب لترق القلوب، فمن أوصاف القرآن أنه موعظة .

- **قال ابن عطية** : هذه آية خوطب بها جميع العالم، والموعظة: القرآن؛ لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف ويزجر ويرقق ويوعد ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز. فما في القرآن من الأوامر والنواهي داع إلى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب.
- وفي قوله (من ربكم ..) هذا لبيان قيمتها وأهميتها، وحث البشر على الاحتفاء بها.

وقد بيّن سبحانه أن القرآن وما فيه من قصص وأحكام موعظة (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) .

وفي آية ثانية قال تعالى (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) .
وفي آية ثالثة أكد سبحانه على أنه إنما يعظنا بالقرآن (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ).

والقرآن مملوء بما يتعظ القارئ به إذا تدبره وفهم معناه، وأرعى له سمعه، وفرغ له قلبه.

(**وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ**) أي: من الشُبَه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودَنَس .

لقد سمى الله القرآن العظيم شفاء في ثلاثة مواضع :

في هذه الآية .

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

وقال تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا).

(**وَهُدًى**) أي: بيان ودلالة، أي: أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

- فالقرآن العظيم يُطلق هداه على الهدى العام، ويطلق هداه على الهدى الخاص، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، ومنه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي: بينا الحق على لسان نبينا صالح، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ). وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه، ويكون سبب دخوله الجنة، ومنه قوله (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي).
- وكون الهدى يُطلق إطلاقًا عامًّا وإطلاقًا خاصًّا إذا فهم الإنسان ذلك زالت عنه إشكالات في كتاب الله، ومناقضات يظنها الجاهل ببعض آيات الله، كقوله تعالى في نبينا ﷺ (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) مع قوله فيه (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فنفى عنه الهدى في آية وأثبته له في آية، فالهدى المثبت له في قوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) هو الهدى بمعناه العام، وهو البيان والإيضاح. وقد بين ﷺ هذه المحجَّة البيضاء حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ﷺ أما الهدى المنفي عنه في قوله (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) فهو التفضل بالتوفيق وسعادة المرء؛ لأن هذا بيد الله وحده (وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شيئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) (إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ).

فالمراد بالهدى هنا الهدى الخاص، وهو التوفيق والتيسير للأعمال التي يحبها الله.

قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

وقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا).

وقوله (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ).

(**وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**) فإن العمل بكتاب الله رحمة وهداية ونور للبشرية، وبها تحصل السعادة والخير الكثير.

كما قال تعالى: (وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا) .

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).

- **قال صاحب الكشاف** : المعنى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة ، والتنبيه على التوحيد ، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة ، ودعاء إلى الحق ، ورحمة لمن آمن به منكم .

(**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ**) قال ابن عباس : فضل الله القرآن ، ورحمته الإِسلام والمعنى : ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله ، من القرآن والإِسلام ، فإنه أولى ما يفرحون به .

وقيل : الفضل القرآن ، والرحمة أن جعلهم من أهله.

- **قال الشوكاني** : المراد بالفضل من الله سبحانه : هو تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر ، والرحمة : رحمته لهم.

وروي عن ابن عباس أنه قال : فضل الله : القرآن ، ورحمته : الإسلام.

وروي عن الحسن والضحاك ، ومجاهد وقتادة ، أن فضل الله : الإيمان ، ورحمته : القرآن.

والأولى : حمل الفضل والرحمة على العموم ، ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً أوّلياً

(**هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**) أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

الفوائد :

١- الثناء العظيم على القرآن العظيم .

٢- أن القرآن شفاء لكل الأمراض الجسدية والنفسية .

٣- الحث على تلاوة القرآن وتدبره .

٤- أن القرآن أعظم موعظة لمن أراد أن يتعظ .

٥- على كل داعية أن يعظ الناس بالقرآن .

٦- أن هذا القرآن هدى لكل طريق خير وسعادة .

٧- ينبغي على المسلم أن يفرح بالإسلام والإيمان والقرآن .

٨- ذم جمع الدنيا والاعتناء بها .

٩- أن حطام الدنيا زائل ، فما يبقى خير مما يزول .

(قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ (٦٠)) .

[يونس : ٥٩- ٦٠] .

(**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ**) خطاب لكفار العرب، والمعنى: أخبروني أيها المشركون، عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال .

(**فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً**) أي : فحرمتم بعضه وحللتم بعضه كالبحيرة ، والسائبة ، والميتة .

قال ابن عباس : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلْون ويحرمون من البحائر والسوائب ، والحرث والأنعام .

(**قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ**) أي قل لهم يا محمد أخبروني : هل حَصَل لكم إذن من الله بالتحليل والتحريم ، فأنتم فيه ممتثلون لأمره ، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال ؟

(**وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أي: ما ظنهم أن يُصنَع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

(**إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**) قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا.

- **قال ابن كثير** : قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم.

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ**) أي : لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون .

- **قال ابن كثير** : بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.
- **قال السعدي** : وَلَكِنَّ أكثر الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما منَّ الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

الفوائد :

١- تقرير الوحي وإثباته للنبي ﷺ .

٢- أن التحريم والتحليل حق لله تعالى دون سائر خلقه .

٣-تحريم الكذب على الله في التحليل والتحريم .

٤- أن الأصل في جميع الأطعمة الحل إلا ما دل الدليل على تحريمه .

٥-إثبات علو الله تعالى على خلقه .

٦- تهديد للذين يكذبون على الله يوم القيامة .

٧- عظم فضل الله على عباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة .

٨- ما أعظم نعم الله على عباده ومع ذلك قليل من يشكر .

٩- علو منزلة من يقوم بشكر الله على نعمه .

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١))

[يونس : ٦١] .

يخبر تعالى، عن عموم مشاهدته، واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم، وسكناتهم، وفي ضمن هذا، الدعوة لمراقبته على الدوام .فقال:

(**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ**) أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية.

(**وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ**) أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

(**وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ**) صغير أو كبير .

(**إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**) أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة، والاجتهاد فيها، وإياكم، وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

(**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ**) أي: ما يغيب عن علمه، وسمعه، وبصره ومشاهدته .

(**مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ**) أي : وما يغيب عن علم ربك -أيها الرسول- من زنة نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء .

والذرة النملة الصغيرة .

(**وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ**) أي : وسواء كانت أصغر من النملة أو أكبر منها.

(**إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**) أي : في كتاب عند ربك ، والمراد به اللوح المحفوظ .

- اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق: سماه القرآن بالكتاب كما في هذه الآية وفي قوله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

وبالإمام المبين , كما في قوله تعالى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ).

وبالكتاب المسطور , كما في قوله تعالى (وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ).

وبأم الكتاب , كما قال تعالى (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ).

- **في هذه الآية عموم علم الله تعالى .**

قال ابن كثير : يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

كقوله (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .

وقال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال الطبري : والآية خبر منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خف في الوزن ، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن ، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم ، فإنا محصوها عليكم ومجازوكم بها .

الفوائد :

١- عموم علم الله تعالى لكل شيء .

أولاً: الله تعالى يعلم كل شيء , يشمل الجزئيات والكليات.

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً).

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ثانياً: يعلم سبحانه الماضي والمستقبل.

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ).

(ما بين أيديهم) الحاضر والمستقبل (وما خلفهم) الماضي.

ثالثاً: الله يعلم الخفايا وما في الصدور:

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ). وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ).

رابعاً: وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً.

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ).

خامساً: ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت.

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).

وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً, لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون, كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ).

سادساً: ويستوي في علم الله السر والعلانية , والصغير والكبير والغيب والشهادة.

قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً).

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

سابعاً: وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان.

قال تعالى (... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى).

وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً).

أما علم ابن آدم فمسبوق بجهل ويلحقه نسيان كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً).

ثامناً: علمنا قليل بالنسبة لعلم الله.

قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً).

٢ - وجوب الخوف من الله.

٣ - الحذر من إبطان الشر والنفاق والرياء في القلب , لأن الله لا يخفى عليه شيء.

٤ - في هذه الآية أعظم زاجر , وأكبر واعظ عن اقتراف المعاصي.

٥- الخوف من الله وخشيته , ومراقبته في السر والعلن , لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره , فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً.

٦- اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض , وللبواطن والظواهر , يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه , كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر.

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤))

[يونس : ٦٢- ٦٤] .

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقيا كان لله ولياً أنه (لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) أي فيما يستقبلون من أهوال القيامة (وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) على ما وراءهم في الدنيا.

والمعنى: ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم، وحسن عملهم، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله سبحانه، فمتى فعلوا ما يؤدى إلى ذلك هان كل ما سواه.

وهم :

(**الَّذِينَ آمَنُواْ**) بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

(**وَكَانُواْ يَتَّقُونَ**) أي : وصدقوا إيمانهم، باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي ، فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله [تعالى] وليًا .

- وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ. لا تزلزله الشكوك، ولا تؤثر فيه الشبهات.
- أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى ، الذين يراقبون الله تعالى في جميع شؤونهم ، فيلتزمون أوامره ، ويجتنبون نواهيه ، كما قال الله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون) .

الولاية متفاوتة بحسب إيمان العبد وتقواه ، فكل مؤمن له نصيب من ولاية الله ومحبته وقربه ، ولكن هذا النصيب يتفاوت بحسب الأعمال الصالحة البدنية والقلبية التي يتقرب بها إلى الله ، وعليه يمكن تقسيم درجات الولاية إلى ثلاث درجات:

أولاً : درجة الظالم لنفسه : وهو المؤمن العاصي ، فهذا له من الولاية بقدر إيمانه وأعماله الصالحة

ثانياً : المقتصد : وهو المؤمن الذي يحافظ على أوامر الله ، ويجتنب معاصيه ، ولكنه لا يجتهد في أداء النوافل : وهذا أعلى درجة في الولاية من سابقه

ثالثاً : السابق بالخيرات : وهو الذي يأتي بالنوافل مع الفرائض ، ويبلغ بالعبادات القلبية لله عز وجل مبالغ عالية ، فهذا في درجات الولاية العالية.

(**لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) زيادة تكريم وتشريف لهم.

والبشرى والبشارة: الخبر السار، فهو أخص من الخبر، وسمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهي ظاهر جلد الإنسان، فيجعله متهلل الوجه، منبسط الأسارير، مبتهج النفس.

واختلف العلماء في المراد في البشرى بالحياة الدنيا :

القول الأول : الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ : (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ) قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ.

القول الثاني : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة .

كما في قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نزلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيم) .

وفي حديث البراء (أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان. فتخرج من فمه، كما تسيل القطرة من فم السقاء) .

القول الثالث : أنها ما بشر الله به في كتابه من جنته وثوابه ، كقوله (وبشر الذين آمنوا) (وأبشروا بالجنة) .

واختار بعض العلماء العموم .

قال الطبري : وَأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ بِالصَّوَابِ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَخْبَرَ أَنَّ لِأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ

الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمِنَ الْبِشَارَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ ؛ مِنْهَا بُشْرَى الْمَلاَئِكَةِ إِيَّاهُ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ ، كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ الْمَلاَئِكَةَ الَّتِي تَحْضُرُهُ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ ، تَقُولُ لِنَفْسِهِ : اخْرُجِي إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ.

وَمِنْهَا : بُشْرَى اللَّهِ إِيَّاهُ مَا وَعْدَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) الآيَةَ . وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مِنْ بُشْرَى اللَّهِ إِيَّاهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَشَّرَهُ بِهَا ، وَلَمْ يُخَصِّصِ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَعْنًى دُونَ مَعْنًى ، فَذَلِكَ مِمَّا عَمَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَالْجَنَّةُ.

وقال السعدي : أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

(**وَفِي الآخِرَةِ**) **قال الثعالبي** : أَمَّا بشرَى الآخرة ، فهي بالجَنَّةِ ؛ بلا خلاف قولاً واحداً ، وذلك هو الفَضْل الكبير .

- **قال السعدي** : وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) .

وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم.

وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

- **قال ابن كثير** : وأما بشراهم في الآخرة، فكما قال تعالى (لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) .

وقال تعالى (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

(**لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**) أي: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة .

- **قال السعدي** : **قوله** تعالى (لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

(**ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب، رتبه الله في الدنيا والآخرة، على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم يقيده.

الفوائد :

١-عظم منزلة ولاية الله .

٢- على المسلم أن يجتهد أن يكون ولياً لله .

٣- أن ولاية الله ليست بالدعاوى والتمني ، وإنما بالإيمان والعمل الصالح .

٤-أنه لا خوف ولا حزن على من كان لله ولياً .

٥- كلما كان الإنسان أكثر ولاية لله كان أكثر أمناً واطمئناناً .

٦- البشرى في الدنيا لمن كان ولياً لله .

٧- الفوز بالجنة هو أعظم فوز .

٨- أنه لا تبديل لكلمات الله وأوامره وأحكامه .

(وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥))

[يونس : ٦٥] .

(**وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ**) أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلى القدح فيك، وفي دينك فإن أقوالهم لا تعزهم، ولا تضرك شيئًا .

كقولهم : لست برسول ، مجنون ، كذاب ونحوها .

والحزن ضد السرور .

(**إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا**) فإن العزة والغلبة والقوة والقهر لله جميعاً ، أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين .

(**هُوَ السَّمِيعُ**) أي: السميع لأقوال عباده .

(**الْعَلِيمُ**) العليم بأحوالهم.

- **قال السعدي** : قوله تعالى (هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أي: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات، فلا يخفى عليه شيء منها.

وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وهو تعالى يسمع قولك، وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلا فاكتف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله، فهو حسبه.

الفوائد :

١- عناية الله برسوله ﷺ حيث يوجهه بما يقابل به الأعداء .

٢- أن كلام الأعداء والطعن في الدعوة لا يضر .

٣- تسلية لكل داعية إلى الله يواجه مصاعب في دعوته من الناس .

٤- أن من أيقن أن العزة لله ، فإنه لا يبالي بكلام الناس وطعنهم ، بل يزداد ثباتاً وقوة .

٥- أن الله سميع لأقوال هؤلاء الأعداء ، وسيجازيهم عليها .

٦- أن الله لا يخفى عليه شيء .

(أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦)) .

[يونس : ٦٦] .

(**أَلا إِنَّ لِلهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ**) خلقاً وملكاً وتدبيراً .

(**وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاء**) أي : وما يتبع هؤلاء المشركون آلهة على الحقيقة ، بل يظنون انها تشفع وتنفع ، وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً .

(**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ**) أي : ما يتبعون إلا ظناً باطلاً .

(**وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**) أي : يكذبون ، يظنون الأوهام حقائق .

الفوائد :

١- عموم ملك الله تعالى .

٢- أن كل آلهة غير الله باطلة .

٣-وجوب عبادة الله تعالى .

٤- أن كل من عبد غير الله فهو متبع لهواه .

(**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)**) .

[يونس : ٦٧] .

(**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ**) أي: يستريحون فيه من نَصَبهم وكلالهم وحَرَكاتهم .

- **قال السعدي** : في النوم والراحة بسبب الظلمة، التي تغشى وجه الأرض، فلو استمر الضياء، لما قروا، ولما سكنوا.

(**وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**) أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**) أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

- **قال السعدي** : قوله تعالى (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) عن الله، سمع فهم، وقبول، واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك لآيات، لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

- وقد ذكر الله تعالى هذه الآية (الليل للسكن والنهار للمعاش) في مواضع من كتابه :

كما قال تعالى (فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) .

وقال تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ).

وقال تعالى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

أيْ : لِتَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بِالنَّهَارِ فِي السَّعْيِ لِلْمَعَاشِ .

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ).

وقال تعالى (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) .

- **قال الشنقيطي** : فالإتيانُ بالليلِ بدلَ النهارِ والإتيانُ بالنهارِ بدلَ الليلِ من أعظمِ آياتِ اللَّهِ – جل وعلا – الدالة على أنه المعبودُ وحدَه، وأنه الربُّ وحدَه، ومع كونِ الليلِ والنهارِ آيتين فَهُمَا أيضًا نعمتانِ عظيمتانِ من أعظمِ نِعَمِ اللَّهِ على خَلْقِهِ، فهما جامعانِ بينَ كونهما آيتين وكونهما نعمتين، وَبيَّنَ أنهما آيتانِ بقولِه (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَار) وَبَيَّنَ أنهما نعمتانِ وآيتانِ في مواضعَ كثيرةٍ من أصرحِها سورةُ القصصِ حيث قال فيها: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) ثم بَيَّنَ أنهما نعمتانِ بعدَ بيانِ أنهما آيتانِ قال: (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) يعني النهار ، فجعل الليلَ مُظْلِمًا مُنَاسِبًا للسكونِ والهدوءِ وعدمِ الحركةِ ليستريحَ الناسُ من كَدِّ الأعمالِ والتعبِ في النهارِ، ثم يجعلُ النهارَ مُضِيئًا مُنِيرًا مُنَاسِبًا لِبَثِّ الناسِ في حوائجِهِم واكتسابِ معايشهم في نورٍ ساطعٍ من غيرِ فتيلةٍ ولاَ زيتٍ ولاَ حاجةٍ إلى مؤنة.

الفوائد :

١- رحمة الله بعباده حيث جعل الليل للسكنى والهدوء ، والنهار مبصراً للمعاش والعمل .

٢- إثبات الحكمة في أفعال الله .

٣-أن جعل الليل مظلماً والنهار مبصراً من أعظم الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى .

٤-أن هذه الآيات لا يعتبر بها إلا من يسمع آيات الله سمع فهم وتدبر وتعقل .

٥- ذم من لا يسمع آيات الله سمع تدبر وتفهم .

٦- أن الله تعالى برحمته يبين لعباده الآيات وينوعها لعلهم يهتدون ويتوبون .

(قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٦٨))

[يونس : ٦٨] .

(**قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**) هذا إخبار عن النصارى عليهم لعائن الله ، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله .

- **قال الشنقيطي** : هذا الولد المزعوم على زاعمه لعائن الله، قد جاء مفصلاً في آيات أخر.

كقوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) وقوله (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ) .

(**سُبْحَانَهُ**) أي: تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد, والنظراء والشركاء.

(**هُوَ الْغَنِيُّ**) الغنَى الكامل ، الذي لا يحتاج إلى أحد ، وكل أحد محتاج إليه سبحانه .

(**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ**) خلقاً وملكاً وتدبيراً .

وفي البقرة (بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ) .

(**إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا**) أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدًا، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تحداهم وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم .

(**أَتقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) فإن هذا من أعظم المحرمات.

مباحث :

- فادعاء لله الولد أمر خطير وكبير.

كما قال تعالى (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً).

وقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ, وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ, فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ , وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ , فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً) رواه البخاري.

وقال ﷺ (لا أحد أصبر على اذى سمعه من الله , إنهم يجعلون له ولداً , وهو يرزقهم ويعافيهم) متفق عليه

- وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به , نزه نفسه عن ذلك , معلماً خلقه في كتابه أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به , جاء موضحاً في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ).

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ).

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ).

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ).

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً).

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

- والله منزه عن الولد لأمور متعددة:

أولاً: لأنه مالك كل شيء , والمالك لا بد أن يكون المملوك مبايناً له في كل الأحوال.

كما في هذه الآية (قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) .

ثانياً: أنه ليس له زوجة , والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة .

كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام (وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم) .

ثالثاً: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء , أي: بقاء النوع باستمرار النسل , والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك , لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعاً: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره, والله سبحانه وتعالى غني .

وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني). ... [قاله الشيخ ابن عثيمين].

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه, فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة, فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم, واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له , وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون, وقال في مريم (ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتُرُون مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سبحانه إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون) وقال أيضاً في آخر هذه السورة (وَقَالُوا اتخذ الرحمن وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً * أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِي السموات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً).

- أن من أسماء الله الغني .

فالله غني عن كل ما سواه , غني في نفسه لكثرة ما عنده , غني عن خلقه , كما قال تعالى (فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) له ملك السموات والأرض , وخزائن السموات والأرض كلها بيده , كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) , فخزائنه عز وجل ملأ , لا يغيضها كثرة الإنفاق , وليس بحاجة إلى خلقه , لا تنفعه طاعة الطائعين , ولا تضره معصية العاصين , وكل شيء فقير إليه.

- قال ابن القيم: هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه , وليس به حاجة إلى أحد.
- وقال السعدي: هو الغني بذاته, الذي له الغنى التام المطلق, من جميع الوجوه, والاعتبارات لكماله, وكمال صفاته, فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه, ولا يمكن أن يكون إلا غنياً, لأن غناه من لوازم ذاته, كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه, فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض, وخزائن الدنيا والآخرة, المغني جميع خلقه غنى عاماً.

قال: ومن كمال غناه: أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك , ولا ولياً من الذل.

وقال الخطابي: الغني: هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه, فليست به حاجة إليهم, وهم إليه فقراء محتاجون.

- فغنى الله يتضمن شيئين: الأول: الغنى الذاتي , لكثرة ما يملكه , إذ كل شيء ملكه , والثاني: الغنى عن الغير , فلا يحتاج إلى أحد وغيره محتاج إليه.
- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم:

أولاً: إفراد الله تعالى بالعبادة , لأنه سبحانه هو الغني الغنى المطلق , والغنى وصف له سبحانه ذاتي وما سواه من الخلائق مفتقر إليه , فالأمر كله له والملك كله له , وجميع الخلق مربوبون مملوكون , فكيف يتخذ منهم معبوداً مع الله تعالى؟

ثانياً: الافتقار التام إلى الله عز وجل , لأن الفقر صفة ذاتية ملازمة للعبد في جميع أحيانه ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى , ولا يستغني عن ربه سبحانه طرفة عين , لأنه سبحانه الغني ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد , وكل أحد محتاج إليه.

ثالثاً: أن هذا الاسم يثمر في قلب المؤمن الغنى القلبي كما في الحديث (ليس الغنى عن كثرة العرض, ولكن الغنى غنى القلب) وهذا يثمر الاستغناء بالله تعالى وحده عن الناس وعزة النفس , والتعفف والزهد بما في أيدي الناس , وعدم التذلل لهم وعدم التعلق بأعطياتهم وإعانتهم , بل يجرد العبد تعلقه وقضاء حوائجه وطلب رزقه بالله الغني الحميد الكريم الوهاب الذي لا تفنى خزائنه.

رابعاً: أن الله غني عن عباده , ومع ذلك فهو محسن إليهم , رحيم بهم , وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته.
أما العباد فإنهم يحسنون إلى بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً.

- ومن غنى الله أنه منزه عن الولد , لأن الولد إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره , والله سبحانه وتعالى غني , وقد أشار إلى ذلك بقوله (قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ).

الفوائد :

١- تنزيه الله عن الولد .

٢-وجوب تنزيه الله عز وجل عن كل عيب ونقص .

٣-بيان غنى الله عن اتخاذ الولد ، حيث أنه سبحانه وتعالى مالك السماوات والأرض وما فيهما .

٤-إثبات اسم الغني من أسماء الله تعالى ، المتضمن لصفة الغنى الكامل .

٥- تحريم القول على الله بغير علم .

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ (٧٠)) .

[يونس : ٦٩ – ٧٠] .

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ) أي :كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح .

- **قال السعدي** : أي: لا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم .

(**مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا**) أي: مدة قريبة .

(**ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ**) أي: يوم القيامة .

(**ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ**) أي: الموجع المؤلم .

(**بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**) أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

- المتاع: ما يتمتع به ويزول، فمتاع هذه الدنيا قليل من حيث نوعه ومن حيث مدته، فمتاع الدنيا يزول، أو أنت تزول عنه، وكذلك نعيمه فهو قليل بالنسبة لنعيم الآخرة.

ومتاع الدنيا قليل .

كما قال تعالى (قل مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

- قال القرطبي: وسماه قليلاً لأنه لا بقاء له.

قال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال ابن رجب: وقال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى.

فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشبيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، فتفارق الأجسام النفوس وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم: هل ترون إلا خرقا تبلى أو لحما يأكله الدود غدا كان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك.

قال ﷺ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ...) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

وقال ﷺ (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال ﷺ لابن عمر (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري وفي رواية (وعد نفسك من أهل القبور).

فائدة :

قال تعالى (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى) أي: آخرة المتقي خير من دنياه.

وقال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى).

- **قال الرازي**: وإنما قلنا: إن الآخرة خير لوجوه:

الأول: أن نعم الدنيا قليلة، ونعم الآخرة كثيرة.

والثاني: أن نعم الدنيا منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة.

والثالث: أن نعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمكاره، ونعم الآخرة صافية عن الكدرات.

الفوائد :

١-تحريم الكذب على الله .

٢- كل من كذب على الله فإنه لن يفلح .

٣-ذم الاغترار بالدنيا .

٤-أن متاع الدنيا قليل .

٥- أن متاع الآخرة هو المتاع الباقي .

٦-تهديد كل مكذب وظالم بأنه سيرجع إلى الله لينال عقابه .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)) .

[يونس : ٧١ – ٧٣] .

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه:

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ**) أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك .

وذلك لفوائد :

الأولى : تسلية للرسول ﷺ .

والثانية : حمله على الصبر .

والثالثة : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص، وعلموا أن العاقبة للمتقين كان ذلك سبباً في انكسار قلوبهم، ووقوع الخوف والوجل في نفوسهم. وحينئذ يقلعون عن أنواع الإيذاء والسفاهة .

وذكر الرازي أيضاً :

منها : ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء ، فإن الرسول إذا سمع أن

معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت.

ومنها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن الجهال ، وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم ، كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سبباً لانكسار قلوبهم ، ووقوع الخوف والوجل في صدورهم ، وحينئذ يقللون من أنواع الإيذاء والسفاهة.

ومنها : أنا قد دللنا على أن محمداً عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علماً ، ولم يطالع كتاباً ثم ذكر هذه الأقاصيص من غير تفاوت ، ومن غير زيادة ومن غير نقصان ، دل ذلك على أنه ﷺ إنما عرفها بالوحي والتنزيل.

- **وقال ابن عاشور** : ... ففي ذكر عاقبة قوم نوح عليه السلام تعريض للمشركين بأن عاقبتهم كعاقبة أولئك أو أنهم إنما يمتعون قليلاً ثم يؤخذون أخذة رابية ، كما متع قوم نوح زمناً طويلاً ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا ، فذكر قصة نوح مع قومه عِظة للمشركين وملقياً بالوجل والذعر في قلوبهم ، وفي ذلك تأنيس للرسول ﷺ وللمسلمين بأنهم إسوة بالأنبياء ، والصالحين من أقوامهم ، وكذلك قصة موسى عليه السلام عقبها كما ينبئ عن ذلك قولهُ في نهاية هذه القصص .

(**نَبَأَ نُوحٍ**) أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودَمّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك.

وقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم يؤمنوا .

ونوح عليه السلام : واحد من أولى العزم من الرسل، وقد ذكر في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعاً .

وكان قومه يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد.

وقد تكررت قصته مع قومه في سورة الأعراف، وهود، والمؤمنون، ونوح ... بصورة أكثر تفصيلاً .

أما هنا في سورة يونس فقد جاءت بصورة مجملة، لأن الغرض منها هنا، إبراز جانب التحدي من نوح لقومه، بعد أن مكث فيهم زماناً طويلاً ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة غيره.

- والمقصود من هذه التلاوة، دعوة مشركي مكة وأمثالهم، إلى التدبر فيما جرى للظالمين من قبلهم، لعلهم بسبب هذا التدبر والتأمل يثوبون إلى رشدهم ويتبعون الدين الحق الذي جاءهم به نبيهم محمد ﷺ .
- **قال السعدي** : فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلا طغيانًا، فتمللوا منه وسئموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم .

(**إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ**) أي: عَظُم عليكم .

(**مَقَامِي**) أي فيكم بين أظهركم .

(**وَتَذْكِيرِي**) إياكم .

(**بِآيَاتِ اللَّهِ**) الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق .

- **قال الخازن** : ... وذلك أنه أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى ويذكرهم بآيات

الله وهو قوله وتذكيري بآيات الله يعني ووعظي بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلي وطردي .

(**فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ**) أي: اعتمدت على الله، في دفع كل شر يراد بي، وبما أدعو إليه، فهذا جندي، وعدتي ، وأنتم، فأتوا بما قدرتم عليه من أنواع العَدَدَ والعُددَ.

(**فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ**) أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صَنَم ووثن .

- **قال ابن عاشور** : وإجماع الأمر العزم على الفعل بعد التردد بين فِعله وفعل ضده.
- **قال الفراء** : الإجماع الإعداد والعزيمة على الأمر ، قال ابن الأنباري : المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير : لا تدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه .
- **قال الخازن** : قوله تعالى (وشركاءكم) يعني وادعوا شركاءكم يعني آلهتكم ، فاستعينوا بها لتجمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وإنما حثهم على الاستعانة بالأصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم .
- **قال ابن عاشور** : ... وزاد ذكر شركائهم للدلالة على أنه لا يخشاها لأنها في اعتقادهم أشد بطشاً من القوم ، وذلك تهكم بهم ، كما في قوله تعالى (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) .

(**ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً**) أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي .

(**ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ**) أي: اقضوا علي بالعقوبة والسوء، الذي في إمكانكم .

وَلاَ تُنظِرُونِ) أي: لا تمهلوني ساعة من نهار.

فهذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

وقد بادأ قومه بتسفيه آرائهم، وفساد دينهم، وعيب آلهتهم. وقد حملوا من بغضه، وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدروا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقًا، وهم الكاذبون فيما يدعون،

كما قال هود لقومه (إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

قال القرطبي : وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان بنصر الله واثقاً ، ومن كيدهم غير خائف ؛ علماً منه بأنهم وآلهتهم لا ينفعون ولا يضرون ، وهو تعزيةٌ لنبيه ﷺ وتقويةٌ لقلبه .

- فأنت ترى في هذه الآية الكريمة كيف أن نوحا- عليه السلام- كان في نهاية الشجاعة في مخاطبته لقومه، بعد أن مكث فيهم ما مكث وهو يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده.

فهو- أولاً- يصارحهم بأنه ماض في طريقه الذي أمره الله بالمضي فيه، وهو تذكيرهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله، وعلى وجوب إخلاص العبادة له سواء أشق عليهم هذا التذكير أم لم يشق، وأنه لا اعتماد له على أحد إلا على الله وحده.

وهو- ثانياً- يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم وأمر شركائهم وأن يأخذوا أهبتهم لكيده وحربه.

وهو- ثالثا- يطالبهم بأن يتخذوا قراراتهم بدون تستر أو خفاء، فإن الأمر لا يحتاج إلى غموض أو تردد، لأن حاله معهم قد أصبح واضحاً وصريحاً.

وهو- رابعاً- يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات وأحكام وأن ينفذوها عليه بدون تريث أو انتظار، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم.

وهكذا نرى نوحاً عليه السلام يتحدى قومه تحديا صريحا مثيرا. حتى إنه ليغريهم بنفسه، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه- إن استطاعوا ذلك-.

وما لجأ عليه السلام إلى هذا التحدي الواضح المثير إلا لأنه كان معتمداً على الله تعالى الذي تتضاءل أمام قوته كل قوة وتتهاوى إزاء سطوته كل سطوة ويتصاغر كل تدبير وتقدير أمام تدبيره وتقديره.

(**فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ**) أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة .

(**فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ**) أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً .

- **قال الرازي** : قال المفسرون : هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالاً على دعوتهم إلى دين الله تعالى ومتى كان الإنسان فارغاً من الطمع كان قوله أقوى تأثيراً في القلب.
- **وقال الآلوسي** : قوله تعالى (فَمَا سَأَلْتُكُمْ) بمقابلة تذكيري ووعظي (مِنْ أَجْرٍ) تؤدونه إلي حتى يؤدي ذلك إليكم إلى توليكم ، إما لاتهامكم إياي بالطمع ، أو لثقل دفع المسؤول عليكم ، أو حتى يضرني توليكم المؤدي إلى الحرمان ، فالأول لإظهار بطلان التولي ببيان عدم ما يصححه ، والثاني لإظهار عدم مبالاته ﷺ بوجوده وعدمه .
- **وقال ابن عاشور** : والمعنى : فإن كنتم قد توليتم فقد علمتُم أني ما سألتكم أجراً فتتهموني برغبة في نفع ينجر لي من دعوتكم حتى تعرضوا عنها شُحًّا بأموالكم أو اتهاماً بتكذيبي ، وهذا إلزام لهم بأن توليهم لم يكن فيه احتمال تهمتهم إياه بتطلب نفع لنفسه ، وبذلك برّأ نفسه من أن يكون سبباً لتولّيهم .

(**إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**) أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل .

والإسلام هو دين جميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم .

كما قال تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) .

قال ابن عباس: سبيلا وسنة.

فهذا نوح يقول (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

وقال يوسف (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) .

وَقَالَ مُوسَى (يَا قَوْمِ إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) .

(**فَكَذَّبُوهُ**) بعد ما دعاهم ليلاً ونهارًا، سرًا وجهارًا، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا .

(**فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ**) أي: على دينه .

(**فِي الْفُلْكِ**) وهي: السفينة ، الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له إذا فار التنور: ف (احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ) ففعل ذلك.

فأمر الله السماء أن تمطر بماء منهمر وفجر الأرض عيونًا، فالتقى الماء على أمر قد قدر (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ) .

(وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ) في الأرض بعد إهلاك المكذبين.

ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته، هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) بعد ذلك البيان، وإقامة البرهان (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) وهو: الهلاك المخزي، واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لوما، ولا ترى إلا قدحًا وذمًا.

فليحذر هؤلاء المكذبون، أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك، والخزي، والنكال

(**وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ**) أي: في الأرض بعد إهلاك المكذبين ، ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته، هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض .

هذه هي عاقبة نوح والمؤمنين معه . أما عاقبة من كذبوه فقد بينها سبحانه في قوله:

(**وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) أي : وأغرقنا بالطوفان الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا.

(**فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**) أي : فانظر وتأمل- أيها العاقل- كيف كانت نتيجة تكذيب هؤلاء المنذرين الذين لم تنفع معهم النذر والآيات التي جاءهم بها نبيهم نوح عليه السلام .

فالمراد بالأمر بالنظر هنا: التأمل والاتعاظ والاعتبار لا مجرد النظر الخالي عن ذلك.

الفوائد :

مباحث تتعلق بقصة نوح :

مبحث : ١

هذه القصة لها شأن عظيم لقوله تعالى (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ) .

والنبأ وهو الخبر, والنبأ أخص من الخبر, فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ, لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص, وهو الخبر الذي له خطب وشأن, وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم.

وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دَلَّتْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم مثل ما وقع من الأوَّلين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا).

مبحث : ٢

وقد دعا نوح على قومه :

قال تعالى (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

وقال تعالى (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً)

وقال تعالى (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ).

مبحث : ٣

فإن قيل لماذا دعا نوح على قومه ؟

فالجواب : دعا نوح على قومه لأمرين :

الأمر الأول: أن الله أخبره أنه لن يؤمن من قومك إلا القليل.

كما قال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ).

الأمر الثاني: أن هؤلاء القوم سيضلون غيرهم.

كما قال تعالى (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً).

مبحث : ٤

ونجى الله نوحاً ومن آمن.

كما قال تعالى (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) .

والمراد بأهله من آمن منهم، أما من لم يؤمن فقد غرق مع من غرق كابنه .

كما قال تعالى (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

مبحث : ٥

وأمره تعالى أن يحمل معه ثلاثة أشياء:

أولاً: قال تعالى (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ).

والمقصود بالزوجين كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى.

ثانياً: قال تعالى (وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ).

والمراد ابنه وزوجته فقد كانا كافرين حكم الله عليهما بالهلاك.

ثالثاً: قال تعالى (وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ)

مبحث : ٦

أهلك الله قوم نوح بالغرق:

كما قال تعالى (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ).

وقال تعالى (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا).

وقال تعالى (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ).

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)) .

[يونس : ٧٤] .

(**ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ**) يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح .

(**رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ**) يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً.

- **قال ابن عاشور** : وقد أُبهم الرسل في هذه الآية ، ووقع في آيات أخرى التصريح بأنهم : هود وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وقد يكون هنالك رسل آخرون كما قال تعالى (ورسلاً لم نقصصهم عليك) ، ويتعين أن يكون المقصود هنا من كانوا قبل موسى لقوله (ثم بعثنا من بعدهم موسى) ، وفي الآية إشارة إلى أن نوحاً أول الرسل.

(**فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ** ...) أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به .

- **قال ابن عاشور** : وقد قوبل جمع الرسل بجمع (البينات) فكان صادقاً ببينات كثيرة موزعة على رسل كثيرين ، فقد يكون لكل نبيء من الأنبياء آيات كثيرة ، وقد يكون لبعض الأنبياء آية واحدة مثل آية صالح وهي الناقة.
- **قال ابن عطية** : ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد ﷺ ، أي كما حل بهؤلاء يحل بكم .

(**فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ**) للمفسرين في معنى هذه الجملة الكريمة أقوال:

فمنهم من يرى أن الضمائر في «كانوا، ويؤمنوا، وكذبوا» تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح عليه السلام وأن المراد بقوله: مِنْ قَبْلُ؛ أي: من قبل مجيء الرسل إليهم.

والمعنى على هذا الرأي: ثم بعثنا من بعد نوح عليه السلام رسلا كثيرين إلى أقوامهم فجاءوهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، إلا أن هؤلاء الأقوام الأشقياء. استمروا على كفرهم وعنادهم، وامتنعوا عن الإيمان بما كذبوا به من قبل مجيء الرسل إليهم وهو إفراد الله تعالى بالعبادة والطاعة فكان حالهم في الإصرار على الكفر والجحود قبل مجيء الرسل إليهم، كحالهم بعد أن جاءوهم بالهدى ودين الحق، حتى لكأنهم لم يأتهم من بشير ولا نذير.

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي الإمام البيضاوي .

فقد قال (قوله: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا) أي : فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر، وخذلان الله إياهم.. بما كذبوا به من قبل، أي بسبب تعودهم تكذيب الحق، وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل- عليهم الصلاة

والسلام .

ومنهم من يرى أيضاً أن الضمائر تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح عليه السلام إلا أن المراد بقوله مِنْ قَبْلُ: أي : من قبل ابتداء دعوة الرسل لهؤلاء الأقوام.

وعليه يكون المعنى: ثم بعثنا من بعد نوح عليه السلام رسلا كثيرين إلى أقوامهم، فجاءوهم بالأدلة الواضحة الدالة على صدقهم، إلا أن هؤلاء الأقوام قابلوا رسلهم بالتكذيب من أول يوم، واستمروا على ذلك حتى آخر أحوالهم معهم، فكان تكذيبهم لهم في آخر أحوالهم معهم، يشبه تكذيبهم لهم من قبل. أي: في أول مجيئهم إليهم.

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي: الإمام ابن كثير .

فقد قال قوله (فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْل) أي : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول من أرسلوا إليهم، كما قال تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

ومنهم من يرى أن الضمير في قوله «كانوا ويؤمنوا» يعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح عليه السلام وأن الضمير في قوله «كذبوا» يعود إلى قوم نوح، وعلى هذا الرأي يكون المعنى:

ثم بعثنا من بعد نوح عليه السلام رسلا إلى أقوامهم. فجاءوهم بالآيات البينات الدالة على صدقهم، ولكن هؤلاء الأقوام استمروا في كفرهم وعنادهم، وأبوا أن يؤمنوا بوحدانية الله التي كذب بها قوم نوح من قبل.

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي الإمام ابن جرير فقد قال :

قوله (فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) يقول : فما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به رسلهم وبما كذب به قوم نوح ومن قبلهم من الأمم الخالية .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة، تدل على أن هؤلاء الأقوام عموا وصموا عن الحق، واستمروا على ذلك دون أن تحولهم الآيات البينات التي جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم.

(**كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ**) بيان لسنة الله تعالى في خلقه التي لا تتخلف ولا تتبدل.

والطبع: الختم والاستيثاق بحيث لا يخرج من الشيء ما دخل فيه، ولا يدخل فيه ما خرج منه.

أي: مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين للحدود في الكفر والجحود، وذلك بخذلانهم، وتخليتهم وشأنهم، لانهماكهم في الغواية والضلال.

- **قال ابن كثير** : أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم .

- **قال ابن عاشور** : والطبع : الختم ، وهو استعارة لعدم دخول الإيمان قلوبهم .

الفوائد :

١- إثبات الرسل .

٢- أن كل أمة قد أرسل لها رسولاً .

٣-أن كل رسول يكون معه من الآيات ما يدل على صدقه .

٤-أن أكثر الناس لا يؤمنون .

٥-أن من ختم الله على قلبه فلن يؤمن .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (٨٩) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)) .

[يونس : ٧٥- ٩٢] .

(**ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم**) أي : من بعد تلك الرسل ، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

(**مُّوسَى**) ابن عمران، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولي العزم من الرسل.

(**وَهَارُونَ**) وهو اخو موسى .

(**إِلَى فِرْعَوْنَ**) وهو ملك مصر في زمن موسى.

(**وَمَلَئِهِ**) أي: قومه.

- **قال أبو حيان** : ولا يخص قوله : وملائه بالإشراف ، بل هي عامّة لقوم فرعون شريفهم ومشروفهم.
- **قال الآلوسي** : أي أشراف قومه الذين يجتمعون على رأي فيملأون العين رواء والنفوس جلالة وبهاء ، وتخصيصهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والملمات .

(**بِآيَاتِنَا**) أي : بحججنا وبراهيننا .

كما قال تعالى (ولقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا) وقال تعالى (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم).

- البينة هي الحجة القاطعة التي لا تترك في الحق لبسًا، ومنه (البينات في الشهادات)؛ لأنها شهادات قوم عدول لا تترك في الحق لبسًا، فالبينات: الحجج الواضحة البينة التي لا تترك في الحق لبسًا. ومعنى (البينات) هنا على التحقيق: المعجزات؛ لأن الله ما أرسل نبيًّا قط إلا ومعه معجزة تُقارب التحدِّي، يعجز عنها الخلق، فتثبت بها نبوته؛ لأن إثبات الله للمعجزات للرسل هي بمثابة قوله لهم: أنتم صادقون في خبركم عني. فهي تصديق من الله لهم؛ لأنه ما خرق لهم العادة وقت التحدي وجاء بهذا العلم الخارق الذي لا يقدر عليه غيره إلا ومعناه عنده: أنت صادق يا عبدي فيما تنقل عَنّي. فهو تصديق من الله، ولذا سُمِّيَ مُعْجِزَة؛ لأن المعجزة فعل خارق يحصل عند التحدي لا يقدر عليه البشر. (الشنقيطي).

(**فَاسْتَكْبَرُواْ**) أي : استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له .

(**وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**) جمعُ المجرمِ، والمجرمُ مرتكبُ الجريمةِ، والجريمةُ: الذنبُ الذي يستحقُّ صاحبُه العذابَ والنكالَ .

(**فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا**) يعني فلما جاء فرعون وقومه الحق الذي جاء به موسى من عند الله ، من العصا واليد وغيرها من الآيات .

كما قال تعالى في الأعراف (قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ) .

قوله (بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ) هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها، خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف.

- قوله (للناظرين) أي بياضاً يراه الناظرون رؤية تعجب من بياضها.

كما قال تعالى في سورة النمل (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي: من غير بَرَص ولا مرض.

قال الحسن البصري: أخرجها – والله – كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه.

- قال ابن عطية: و" الجيب " الفتح في الثوب لرأس الإنسان .

- وهذه العصا كان فيها أربع آيات:

أولاً: أنه يلقيها فتكون حية تسعى، ثم يأخذها فتعود عصا.

ثانياً: أنه يضرب بها الحجر فينفجر عيوناً.

ثالثاً: أنه ضرب بها البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

رابعاً: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم وعصيهم، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

(**قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ**) يعني أن هذا الذي جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل أحد .

كما قال تعالى (فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) .

كما قال تعالى في سورة الأعراف (قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) .

- قيل سُمُّوا (ملأً) لأنهم يملؤون صدورَ المجالسِ بقاماتِهم الوافيةِ، أو يملؤونَ صدورَ الناظرِ لأُبَّهَتِهِمْ وَجَمَالِهِمْ، أو أنهم يَتَمَالَؤُونَ على العقدِ والحلِّ فيتفقونَ عليه.

(**قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا**) الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحر ؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر

(**وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**) أي : والحال انه لا يفوز ولا ينجح الساحرون .

(**قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا**) أي : تثنينا .

(**عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا**) أي : الدين الذي كانوا عليه .

(**وَتَكُونَ لَكُمَا**) أي : لك ولهارون .

(**الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْض**) أي : العظمة والرياسة .

(**وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ**) أي : ولسنا بمصدقين لكما فيما جئتما به .

- قال الزجاج : سمى الملك كبرياء ، لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ، وأيضاً فالنبي إذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه ، فصار أكبر القوم.

واعلم أن السبب الأول : إشارة إلى التمسك بالتقليد ، والسبب الثاني : إشارة إلى الحرص على طلب الدنيا ، والجد في بقاء الرياسة ، ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا (وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) .

- **وقال ابن عطية** : و(الكبرياء) مصدر مبالغ من الكبر ، والمراد به في هذا الموضع الملك ، وكذلك قال فيه مجاهد والضحاك وأكثر المتأولين ، لأنه أعظم تكبر الدنيا .

- **وقال ابن عاشور** : والكبرياء : العظمة وإظهار التفوق على الناس.

والأرض : هي المعهودة بينهم ، وهي أرض مصر ، كقوله (يريد أن يخرجكم من أرضكم) .

ولما كانوا ظنوا تطلبهما للسيادة أتوا في خطاب موسى بضمير المثنى المخاطب لأن هارون كان حاضراً فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين.

وإنّما شرّكوا هارون في هذا الظن من حيث إنه جاء مع موسى ولم يباشر الدعوة فظنوا أنه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظاً لنفسه.

(**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**) إنما قاله لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر.

قال تعالى في الأعراف (قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيم) .

- **قال ابن عاشور** : وأمر بإحضار جميع السحرة المتمكنين في علم السحر لأنهم أبصر بدقائقه ، وأقدر على إظهار ما يفوق خوارق موسى في زعمه ، فحضورهم مغن عن حضور السحرة الضعفاء في علم السحر لأن عملهم مظنة أن لا يوازي ما أظهره موسى من المعجزة فإذا أتوا بما هو دون معجزة موسى كان ذلك مروجاً لدعوة موسى بين دهماء الأمة.

والعموم في قوله (بكل ساحر عليم) عموم عرفي ، أي بكل ساحر تعلمونه وتظفرون به ، أو أريد (بكل) معنى الكثرة ، كما تقدم في قوله (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية) .

- **قال ابن كثير** : وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء موسى عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى. قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى. فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى).
- وقد ذكر تعالى في سورة الأعراف (وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) .

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام: إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاءً جزيلاً. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلنهم من جلسائه والمقربين عنده.

- وقد قال تعالى في سورة طه (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى. قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى. قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى).

قوله (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى) أي يوماً نجتمع فيه نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين.

ومعنى (سوى) أي مكان وسط تستوي أطراف البلد فيه لتوسطها بينها، ليتمكن الجميع من الحضور (قَالَ) أي موسى لهم (مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ) هو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية.

- (وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ) جميعهم (ضُحًى) أي ضحوة من النهار
- قال ابن كثير: ليكون أظهر وأجلى وأبين واوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بيّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهاراً ضحى

(**فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ**) أي : اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعِصِيكم.

- **قال ابن كثير**: والحكمة في هذا -والله أعلم - ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى).
- **وقال الخازن** : إنما أمرهم موسى بإلقاء ما معهم من الحبال والعصي التي فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد.
- **وقال القاسمي**: وإنما سوغ لهم التقدم ازدراءاً لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقةً بما كان بصدده من التأييد الإلهي، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً.
- **قال ابن عاشور** : والإلقاء : رمي شيء في اليد إلى الأرض ، وإطلاق الإلقاء على عمل السحر لأن أكثر تصاريف السحرة في أعمالهم السحرية يكون برمي أشياء إلى الأرض.

وقد ورد في آيات كثيرة أنهم ألقوا حبالهم وعصيهم ، وأنها يخيَّل من سحرهم أنها تسعى ، وكان منتهى أعمال الساحر أن يخيل الجماد حياً.

(**فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ**) يعني الذي جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم .

(**إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ**) أي : سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلاً أو سيظهر بطلانه وفساده للناس .

(**إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**) يعني لا يقويه ولا يكمله ولا يحسنه .

وقد ذكر تعالى ما حدث بعد ذلك في عدة سور :

قال تعالى في الأعراف (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) - يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ) أي: تأكل (مَا يَأْفِكُونَ) أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخروا سجداً وقالوا (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ).

- قوله تعالى (قَالُوا آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ) الظاهر أن قائل ذلك جميع السحرة، وقيل: بل قاله رؤساؤهم.
- قال السعدي: وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته، ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا) أي: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه.

- قال السعدي: ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا (رَبَّنَا أَفْرِغْ) أي: أفض (عَلَيْنَا صَبْرًا) أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير.

(وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) أي: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام.

- **قال ابن عاشور**: ودعوا لأنفسهم بالوفاة على الإسلام إيذاناً بأنهم غير راغبين في الحياة، ولا مبالين بوعيد فرعون، وأن همتهم لا ترجو إلاّ النجاة في الآخرة، والفوزَ بما عند الله، وقد انخذل بذلك فرعون، وذهب وعيده باطلاً، ولعله لم يحقق ما توعدهم به لأن الله أكرمهم فنجاهم من خزي الدنيا كما نجاهم من عذاب الآخرة.

وقالوا كما قال تعالى في سورة طه:

(قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥)).

وقالوا كما في سورة الشعراء (قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ).

(**وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ**) أي : يبيّنه ويوضحه.

(**بِكَلِمَاتِهِ**) أي : بكلامه وحججه وبراهينه.

(**وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**) من آل فرعون .

- **وهذا** تأكيد لسنة الله- تعالى- في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد.

أي: أنه جرت سنة الله تعالى- أن لا يصلح عمل المفسدين، بل يمحقه ويبطله، وأنه سبحانه يحق الحق أي يثبته ويقويه ويؤيده بِكَلِماتِهِ النافذة، وقضائه الذي لا يرد، ووعده الذي لا يتخلف وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل، لا تعطل مشيئة الله، ولا تحول بين تنفيذ آياته وكلماته .

وقد كان الأمر كذلك فقد أوحى الله إلى موسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُون .

(**فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ**) يخبر تعالى أنه لم يؤمن

بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية -وهم الشباب- على وجل وخوف منه ومن مَلَئه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتوّ، وكانت له سَطْوة ومَهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ) اختلفوا في المراد بالذرية على وجوه :

الأول : أن الذرية ههنا معناها تقليل العدد.

الثاني : قال بعضهم : المراد أولاد من دعاهم ، لأن الآباء استمروا على الكفر ، إما لأن قلوب الأولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف.

قال ابن كثير مرجحاً هذا القول : يخبر الله- تعالى- أنه لم يؤمن بموسى- عليه السلام- مع ما جاء به من الآيات والحجج، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية- وهم الشباب-، على وجل وخوف منه ومن ملئه.

- قوله تعالى (مِن قَوْمِهِ) **قيل** : من قوم موسى ، **وقيل** : من قوم فرعون .

ورجح ابن جرير أنه من قوم موسى .

لأن رجوع الضمير إلى موسى عليه السلام هو الظاهر المتبادر من الآية، لأنه أقرب مذكور، وليس هناك ما يدعو إلى صرف الآية الكريمة عن هذا الظاهر.

- **قال أبو حيان** : والظاهر أن الضمير في قومه عائد على موسى ، وأنه لا يعود على فرعون ، لأنّ موسى هو المحدث عنه في هذه الآية ، وهو أقرب مذكور.

ولأنه لو كان عائداً على فرعون لم يظهر لفظ فرعون ، وكان التركيب على خوف منه وممن ذهب إلى أن الضمير في قومه على موسى : ابن عباس قال : وكانوا ستمائة ألف ، وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر في اثنين وسبعين نفساً ، فتوالدوا بمصر حتى صاروا ستمائة ألف.

- **وقال ابن عطية** : ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام أنّ المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوماً قد فشت فيهم السوآت ، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذل مفرط ، وقد رجوا كشفه على يد مولود يخرج فيهم يكون نبياً ، فلما جاءهم موسى عليه السلام أصفقوا عليه وبايعوه ، ولم يحفظ قط أن طائفة من بني إسرائيل كفرت به ، فكيف تعطى هذه الآية أنّ الأقل منهم كان الذي آمن ، فالذي يترجح بحسب هذا أنّ الضمير عائد على فرعون.

- وإنما ذكر الله هذا تسلية لنبيه محمد ﷺ لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به، واستمرارهم على الكفر والتكذيب، فبين الله له أن له أسوة بالأنبياء- عليهم الصلاة والسلام-. لأن ما جاء به موسى من المعجزات، كان أمرا عظيما. ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه .

- **قال السعدي** : والحكمة -والله أعلم- بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب، أقبل للحق، وأسرع له انقيادًا، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم -بسبب ما مكث في قلوبهم

من العقائد الفاسدة- أبعد من الحق من غيرهم.

(**وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**) أي : وإن فرعون المتكبر متجبر في أرض مصر كلها، وإنه لمن المسرفين المتجاوزين لكل حد في الظلم والبغي وادعاء ما ليس له.

والمتجبرون والمسرفون يحتاجون في مقاومتهم إلى إيمان عميق، واعتماد على الله وثيق، وثبات يزيل المخاوف ويطمئن القلوب إلى حسن العاقبة، ولذا قال موسى لأتباعه المؤمنين:

(**وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**) أي: فإن الله كاف من توكل عليه (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

وكثيرا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل .

كما في قوله تعالى (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) .

وقوله تعالى (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) .

وقوله تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا) .

وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

- **قال الرازي** : واعلم أن من توكل على الله في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ) .
- **وقال الخازن** : ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان وأن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره .

(**فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا**) أي : قالُوا مجيبين لنصيحة نبيهم عَلَى اللَّهِ وحده لا على غيره تَوَكَّلْنا واعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه.

(**رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**) أي: يا ربنا لا تجعلنا موضوع فتنة وعذاب للقوم الظالمين. بأن تمكنهم منا فيسوموننا سوء العذاب، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل، لأننا لو كنا على الحق -في زعمهم- لما تمكنوا منا، ولما انتصروا علينا.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين) أي : لا تنصرهم علينا ، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين ، أو لا تمتحنّا بأن تعذّبنا على أيديهم.

وقال مجاهد: المعنى لا تهلكنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلَّط عليهم؛ فيُفتنوا.

وقال أبو مِجْلَز وأبو الضُّحا : يعني لا تظهرهم علينا فيروْا أنهم خير منا فيزدادوا طغياناً.

- **قال ابن عاشور** : وسموا ذلك فتنة لأنها تزيد الناس توغلاً في الكفر ، والكفر فتنة ، فمعنى سؤالهم أن لا يجعلهم الله فتنة هو أن لا يجعلهم سبب فتنة ، وصفوا الكفار بـ (الظالمين) لأن الشرك ظلم ، ولأنه يشعر بأنهم تلبسوا بأنواع الظلم : ظلم أنفسهم ، وظلم الخلائق .

(**وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**) ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر، أكثر صراحة من سابقه في المباعدة بينهم وبين الظالمين فقالوا (وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ) أي: نحن لا نلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنة

لهم فقط، بل نلتمس منك أيضاً أن تنجينا من شرور القوم الكافرين، وأن تخلصنا من سوء جوارهم، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب.

- **قال الخازن**: أي: وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة.
- **قال الشوكاني** : وفي هذا الدعاء الذي تضرعوا به إلى الله- دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم .
- **قال الآلوسي** : وفي تقديم التوكل على الدعاء وإن كان بياناً لامتثال أمر موسى عليه السلام لهم به تلويح بأن الداعي حقه أن يبني دعاءه على التوكل على الله تعالى فإنه أرجى للإجابة ولا يتوهمن أن التوكل مناف للدعاء لأنه أحد الأسباب للمقصود والتوكل قطع الأسباب لأن المراد بذاك قطع النظر عن الأسباب العادية وقصره على مسببها عز وجل واعتقاد أن الأمر مربوط بمشيئته سبحانه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

(**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا**) أي : أوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لج فرعون في طغيانه وفي إنزال العذاب بالمؤمنين- أن اتخذا لقومكما المؤمنين بيوتاً خاصة بهم في مصر، ينزلون بها، ويستقرون فيها، ويعتزلون فرعون وجنده، إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

- **قال ابن الجوزي** : في البيوت قولان :

أحدهما : أنها المساجد ، قاله الضحاك ، والثاني : القصور ، قاله مجاهد.

(**وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**) فيها أقوال :

أحدها : اجعلوها مساجد ، رواه مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك عن ابن عباس ، وبه قال النخعي ، وابن زيد.

وقد ذكرنا أن فرعون أمر بهدم مساجدهم ، فقيل لهم : اجعلوا بيوتكم قبلة بدلا من المساجد.

والثاني : اجعلوها قِبَل القبلة ، رواه العوفي عن ابن عباس.

وروى الضحاك عن ابن عباس ، قال : قِبَل مكة.

وقال مجاهد : أُمروا أن يجعلوها مستقبلة الكعبة ، وبه قال مقاتل ، وقتادة ، والفراء.

والثالث : اجعلوها يقابل بعضها بعضاً ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال سعيد بن جبير.

والرابع : واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلةً لكم في الصلاة .   (زاد المسير) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) قال أكثر المفسرين : كان بنو إسرائيل لا يصلّون إلا في مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة ، فلما أُرسل موسى أمر فرعونُ بمساجد بني إسرائيل فخرّبت كلها ومنعوا من الصلاة ؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذا وتخيّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر ، أي مساجد ، ولم يرد المنازل المسكونة.

هذا قول إبراهيم وابن زيد والرّبيع وأبي مالك وابن عباس وغيرهم.

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جُبَير أن المعنى : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً.

والقول الأوّل أصح ؛ أي اجعلوا مساجدكم إلى القِبلة ؛ قيل : بيت المقدس ، وهي قبلة اليهود إلى اليوم ؛ قاله ابن بحر.
وقيل الكعبة.

- **وقال رحمه الله** : المراد صلوا في بيوتكم سراً لتأمنوا، وذلك حين أخافهم فرعون، فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت، والإقدام على الصلاة، والدعاء، إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم .

(**وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ**) بأدائها كاملة بحضور قلب وخشوع مكملة اركانها وواجباتها وسننها .

- **قال ابن عاشور** : وأمْرهم بإقامة الصلاة ، أي التي فرضها الله عليهم على لسان موسى ، والتي كانوا يصلونها من قبل مجيء موسى اتباعاً لإبراهيم عليه السلام وأبنائه.

والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدة رحلتهم.
(**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**) بالنصر والفلاح في الدنيا، وبالثواب الجزيل في الآخرة.
بشارة الأمة– كما يقول الآلوسى– وظيفة صاحب الشريعة، وهي من الأعظم أسرّ وأوقع في النفس .
هذا، ومن التوجيهات الحكيمة التي نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن مما يعين المؤمنين على النصر والفلاح، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان، إذا لم تنفع معهم النصيحة، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم على المحبة الصادقة، وعلى الأخوة الخالصة، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً .
(**وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً**) هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون وَمَلَئِه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبرًا وعتواً قال:
(**رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً**) أي: من أثاث الدنيا ومتاعها .
والزينة: اسم لما يتزين به الإنسان من ألوان اللباس وأواني الطعام والشراب، ووسائل الركوب.. وغير ذلك مما يستعمله الإنسان في زينته ورفاهيته.

- **قال أبو حيان** : والزينة عبارة عما يتزين به ويتحسن من الملبوس والمركوب والأثاث والمال ، ما يزيد على ذلك من الصامت والناطق.

(**وأموالاً**) أي: جزيلة كثيرة .
(**فِي**) هذه .
(**الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) التي نعيشها .
(**رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ**) –بفتح الياء –أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم

استدراجاً منك لهم، كما قال تعالى (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) .

وقرأ آخرون (لِيُضِلُّوا) بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم.

- واللام في قوله (رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ) .

قيل : هي لام العاقبة والصيرورة .

أي: أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال، ليخلصوا لك العبادة والطاعة، وليقابلوا هذا العطاء بالشكر، ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال، فأزل يا مولانا هذه النعم من بين أيديهم.

- **قال القرطبي** : وأصح ما قيل فيها وهو قول الخليل وسيبويه أنها لام العاقبة والصيرورة ، أي لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضِلّوا.

وقيل : إن هذه اللام للتعليل .

ويكون المعنى : وقال موسى مخاطباً ربه: يا ربنا إنك قد أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا، وإنك يا ربنا قد أعطيتهم ذلك على سبيل الاستدراج ليزدادوا طغياناً على طغيانهم، ثم تأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وشبيه بهذه الجملة في هذا المعنى قوله (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِين) .

وقد رجح هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال :

والصواب من القول في ذلك عندي أنها لام كي، ومعنى الكلام : ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادك عقوبة منك لهم، وهذا كما قال تعالى (لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً. لِنَفْتِنَهُمْ فِيه) .

وقال أبو حيان : واللام في (ليضلوا) الظاهر أنها لام كي على معنى : آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج ، فكان الإتيان لكي يضلوا.

وقيل : إن هذه اللام هي لام الدعاء، وأنها للدعاء عليهم بالزيادة من الإضلال والغواية .

فيكون المعنى : وقال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا اللهم يا ربنا زدهم ضلالاً على ضلالهم.

(**رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ**) أي: أتلفها عليهم : إما بالهلاك ، وإما بجعلها حجارة، غير منتفع بها.

- **قال الشوكاني** : قال الزجاج : طمس الشيء : إذهابه عن صورته ؛ والمعنى : الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ، ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس .

(**وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ**) بأن تزيدها قسوة على قسوتها ، وعناداً على عنادها مع استمرارها على ذلك، حتى يأتيهم العذاب الأليم الذي لا ينفع عند إتيانه إيمان، ولا تقبل معه توبة، لأنهما حدثا في غير وقتهما.

- **قال الشوكاني** : (واشدد على قُلُوبِهِمْ) أي : اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ، ولا تنشرح للإيمان.

(**فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ**) قيل : أنه دُعَاءٌ عليهم أيضاً ، كأنه قال : اللهم فلا يؤمنوا .
قاله الفراء ، وأبو عبيدة ، والزجاج.
وقيل : هو عطف على قوله (لِيَضلُّوا عن سبيلك) فالمعنى: أنك آتيتهم لِيَضلُّوا فلا يؤمنوا، حكاه الزجاج عن المبرِّد. (زاد المسير)

- وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء ، وقال : إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم.

وأجيب بأنه لا يجوز لنبيّ أن يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه ، وإنما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن ، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، قال (رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً) .

- **قال ابن كثير** : وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّاراً) .
- **وقال أبو حيان** : ... أو علم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال ، أو علم ذلك بوحي من الله تعالى ، دعا الله تعالى عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول : لعن الله إبليس وأخزى الكفرة.

كما دعا نوح على قومه حين أوحى إليه (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) وقدم بين يدي الدعاء ما آتاهم الله من النعمة في الدنيا وكان ذلك سبباً للإيمان به ولشكر نعمه ، فجعوا ذلك سبباً لجحوده ولكفر نعمه.

- **وقال السعدي** : قال ذلك، غضبًا عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله ، وأفسدوا عباد الله ، وصدوا عن سبيله ، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.
- ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم هذه الدعوة، التي أمَّنَ عليها أخوه هارون، فقال تعالى :

(**قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا**) أي : قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون.

- جعل الدعوة ها هنا مضافة إلى موسى وهارون ، وفيما تقدّم أضافها إلى موسى وحده :

فقيل : إن هارون كان يؤمِّن على دعاء موسى ، فسمي ها هنا داعياً ، وإن كان الداعي موسى وحده ، ففي أوّل الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي ، وها هنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمن منزلة الداعي .
ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين ، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أوّل الكلام لأصالته في الرسالة. (فتح القدير) .

- **قال السعدي** : هذا دليل على أن موسى كان يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن ، يكون شريكاً للداعي في ذلك الدعاء.

(**فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**) أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري.

(**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ**) أي : جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبساً وحفظناهم حتى بلغوا الشط.

- **قال ابن كثير** : وذلك أن الله أوحى إلى موسى، لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثنى عشر طريقًا، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين.

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر، وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون.

قال تعالى (فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ) .

(**فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ**) أي : لحقهم يقال : أتبعه حتى لحقه .

(**بَغْيًا وَعَدْوًا**) البغي طلب الاستعلاء بغير حق ، والعدو الظلم .

(**حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ**) وجزم بهلاكه .

(**قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ**) وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو .

(**وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**) أي: المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى.

قال الله تعالى – مبينا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له–:

(**آلآنَ**) تؤمن، وتقر برسول الله ، في هذا الوقت .

(**وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ**) وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ؟

(**وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**) أي: في الأرض الذين أضلوا الناس .

فوله تعالى (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) .

قيل : هو من قول الله تعالى ، **وقيل** : هو من قول جبريل ، **وقيل** : ميكائيل ، صلوات الله عليهما ، أو غيرهما من الملائكة له صلوات الله عليهم.

- **قال الخازن** : والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام ، وقيل الملائكة ، وقيل : إن القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى (فاليوم ننجيك ببدنك). والقول الأول أشهر ويعضده ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال (لما أغرق الله فرعون قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة) .
- **وقال الشوكاني** : وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل : هي من قول الله سبحانه ، وقيل : من قول جبريل ، وقيل : من قول ميكائيل ، وقيل : من قول فرعون ، قال ذلك في نفسه لنفسه.
- فآمن حيث لا ينفعه الإيمان : فعند الاحتضار لا تقبل التوبة .

قال تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ

يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) .

فقوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي: وليس قبول التوبة ممن ارتكب السيئات والمنكرات واستمر عليها، (حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) أي : حتى إذا فاجأهم الموت وحضرت أسبابه وعلاماته وبلغت الحلقوم ، (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) أي : قال في هذه الحال حضور الموت ، واليأس من الحياة ، إني تبت الآن ، فهؤلاء لا تنفعهم توبتهم في هذه الحال ، لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) .

وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

وقال ﷺ (إِنَّ اللهَ ﷻ يَقْبَلُ تَوبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ) أي تبلغ روحه رأس حلقه ، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار ؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله.

- **قال السعدي** : فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله، أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم، لأن إيمانهم، صار إيمانًا مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع، إنما هو الإيمان بالغيب.

(**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ**) قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ) أي: نرفعك على نَشز من الأرض (بِبَدَنِك) قال مجاهد: بجسدك .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ) معنى ننجيك نلقيك على نجوة من الأرض ، والنجوة المكان المرتفع .

(**لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**) أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك ، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً) هذا تعليل لتنجيته ببدنه ، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى ، والمراد بالآية : العلامة ، أي لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك ، وأنك لست كما تدّعي ، ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق.

وقيل : المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله ، يعتبر بها الناس ، أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك ، حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرّد على الله سبحانه ، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية ، واستمرّ على ذلك دهراً طويلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة.

- **قال الرازي** : قوله تعالى (لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً) ففيه وجوه :

الأول : أن قوماً ممن اعتقدوا فيه الإلهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لا يموت ، فأظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم.

وقيل كان مطرحه على ممر بني إسرائيل.

الثاني : لا يبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله (أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى) ليكون ذلك زجراً للخلق عن مثل طريقته ، ويعرفوا أنه كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره إلى ما يرون.

(**وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**) أي: لا يتعظون بها، ولا يعتبرون ، فلذلك تمر عليهم وتتكرر فلا ينتفعون بها ، لعدم إقبالهم عليها .

كما قال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ) .

وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

- وقد كان إهلاك فرعون وملئه يوم عاشوراء :

عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه : أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه .

الفوائد :

١- إثبات الرسل .

٢- أن الله يرسل الرسل للأمم رحمة بهم وهداية .

٣- ن لكل أمة رسول .

٤- إثبات رسالة موسى وهارون .

٥-أن كل رسول يأتي بآية تدل على صدق ما جاء به .

٦- خطر الاستكبار ورد الحق .

٧- أن أهل الباطل دائماً يهتمون أصحاب الدعوات بالسحر والجنون .

٨- تسلية لكل داعية .

٩- شجاعة موسى بالرد على باطلهم .

١٠- الشبهة والدعوة الباطلة التي يدعيها كثير من أهل الباطل : هذا ما وجدنا عليه الآباء .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) [الزخرف : ٢٣ - ٢٤] .

فأمرهم الله تعالى بقوله : (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) [الأعراف : ٣] .

وقال تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) وقال : (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) .

١١-شدة طغيان فرعون وعتوه .

١٢- انتصار الحق على الباطل .

١٣- يقين موسى الشديد بوعد ربه ، وهذا اليقين يأتي بقوة الإيمان والتعلق بالله .

١٤-أن الحق منتصر ، ولو ظهر لبعض الناس في أوقات معينة أن النصر للباطل .

قال ابن القيم : الحق منصور وممتحنٌ فلا تعجب فهذه سنة الرحمن .

١٥- حكمة الله أن أهل الحق دائماً أقل من أهل الباطل .

١٦- من أعظم علامات الإيمان التوكل على الله .

١٧- من أراد النصر والتمكين فليتوكل على الله .

١٨- الأمر بإقامة الصلاة .

١٩- أن الصلاة مفروضة على من قبلنا .

٢٠- تبشير لكل مؤمن بكل خير بالدنيا والآخرة .

٢١-أن الكافر قد ينعم ويعطَى أكثر من المؤمن .

٢٢- أن كثرة المال والغنى ليس دليلاً على رضا الله تعالى .

٢٣- أن الأموال والنعم قد تكون أحياناً استدراجاً .

٢٤-آية من آيات الله في إنقاذ أوليائه وإهلاك المكذبين .

٢٥- من آيات الله انفلاق البحر لموسى لكي ينجو من فرعون وجنوده .

٢٦-أن التوبة وقت الغرغرة لا تنفع .

٢٧- عند الموت كل أحد يعرف الحق ويتوب ، لكن لا عبرة بذلك .

٢٨-من شروط قبول التوبة أن تكون قبل الغرغرة .

٢٩- ذم من لا يعتبر ولا يتفكر في آيات الله .

٣- ينبغي على الإنسان أن يتفكر ويعتبر بما يرى من آيات الله . الأحد : ٢٠ / ٨ / ١٤٣٩هـ

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)) .

[يونس : ٩٣] .

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ) قوله: بَوَّأْنا أي: أنزلنا وأسكنا، من التبوء، وهو اتخاذ المباءة أي: المنزل والمسكن.

وفي إضافة المبوأ إلى الصدق مدح له، فقد جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا: رجل صدق إذا كان متحلياً بمكارم الأخلاق.

- **قال أبو حيان** : والظاهر أنّ بني إسرائيل هم الذين كانوا آمنوا بموسى ونجوا من الغرق ، وسياق الآيات يشهد لهم.

وقيل : هم الذين كانوا بحضرة النبي ﷺ من بني إسرائيل قريظة والنضير وبني قينقاع

- **قال الرازي** : أي أسكناهم مكان صدق أي مكاناً محموداً .
- **وقال ابن عطية** : المعنى لقد اخترنا لبني إسرائيل أحسن اختيار وحللناهم من الأماكن أحسن محل ،و{ مبوأ صدق } أي يصدق فيه ظن قاصده وساكنه وأهله .

ويعني بهذه الآية إحلال بلاد الشام وبيت المقدس ، قاله قتادة وابن زيد .

وقيل بلاد مصر والشام ، قاله الضحاك .

والأول أصح بحسب ما حفظ من أنهم لم يعودوا إلى مصر، على أن القرآن كذلك (وأورثناها بني إسرائيل) يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك، وقد يحتمل أن يكون (أورثناها) معناه الحالة من النعمة وإن لم يكن في قطر واحد. (تفسير ابن عطية)

- **وقال الخازن** : المعنى : أنزلناهم منزلاً محموداً صالحاً وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق تقول العرب : هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشيء إذا كان كاملاً صالحاً ، لا بد أن يصدق الظن فيه .
- **قال الآلوسي** : والمراد بهذا المبوأ، كما رواه ابن المنذر وغيره عن الضحاك: الشام ومصر، فإن بنى إسرائيل الذين كانوا في زمان موسى– عليه السلام– وهم المرادون هنا، ملكوا ذلك حسبما ذهب إليه جمع من الفضلاء .

وقيل : المراد به الشام وبيت المقدس ، بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك.

(**وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**) أي: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً .

والمعنى: ولقد أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلا صالحا مرضيا، فيه الأمان، والاطمئنان لهم، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات الطيبات التي أحللناها لهم.

(**فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ**) توبيخ لهم على موقفهم الجحودي من هذه النعم التي أنعم الله بها عليهم.

أي : أنهم ما تفرقوا في أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة، وهو ما بين أيديهم من الوحى الذي أمرهم الله تعالى أن يتلوه حق تلاوته، وان لا يستخدموه في التأويلات الباطلة.

فالجملة الكريمة توبخهم على جعلهم العلم الذي كان من الواجب عليهم أن يستعملوه– في الحق والخير– وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم.

- **قال الخازن** : يعني فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوباً عندهم فلما بعث الله محمداً ﷺ واختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغياً وحسداً.

فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه حقاً

فوضع العلم مكان العلوم .

- وفسر بعض العلماء العلم هنا بالتوراة ، أي : أن اختلافهم لم يكن عن جهل بالحق ، وخفاء معالمه ، وإنما كان بسبب الهوى والبغي .

وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) فالتفرق والاختلاف إنما وقع لهم بعدما اتضح لهم الحق وظهر ، ولهذا قال تعالى في موضع آخر (فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) .

- **قال بعض العلماء** : المراد ببني إسرائيل في هذه الآية اليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام .

فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين.

قال ابن عباس : وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق ما بين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات .

والمراد ما في تلك البلاد من الرطب والتمر التي ليس مثلها طيباً في البلاد ، ثم إنهم بقوا على دينهم ، ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم .

والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما سماه علماً ، لأنه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور.

وفي كون القرآن سبباً لحدوث الاختلاف وجهان :

الأول : أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس ، فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسداً وبغياً وإيثاراً لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم ، فبهذا الطريق صار نزول القرآن سبباً لحدوث الاختلاف فيهم.

الثاني : أن يقال : إن هذه الطائفة من بني إسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفاراً محضاً بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم ، فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقي أقوام آخرون على كفرهم.

- **قال السعدي** : قوله تعالى (فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ) وهذا هو الداء، الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين اللعين.

وإلا فإذا كان ربهم واحدًا، ورسولهم واحدًا، ودينهم واحدًا، ومصالحهم العامة متفقة، فلأي شيء يختلفون اختلافًا يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم، بسبب ذلك ما يموت؟.

فنسألك اللهم، لطفًا بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام.

(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) أي : يفصل بينهم يوم القيامة ، فيجازي أهل الحق بما يستحقونه من ثواب، ويجازى أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب.

- قوله تعالى (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) سمي بذلك:

أولاً: لأن الناس يقومون من قبورهم.

قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

ثانياً: ولقيام الأشهاد.

لقوله تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ).

ثالثاً: ولقيام الملائكة.

لقوله تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً).

الفوائد :

١- نعم الله الكثيرة على بني إسرائيل .

٢- تذكير الله بالنعم لعل الناس يتعظون ويتقون .

٣- التذكير بالنعم من أساليب القرآن . (ترغيب وترهيب) .

٤- خطر الأهواء والتعصب وأنها من أسباب الاختلاف والتفرق .

٥- ذم التفرق والاختلاف .

٦-إثبات يوم القيامة .

٧- إثبات الحساب والجزاء .

(فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧)) .

[يونس : ٩٤- ٩٧] .

(فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ)

المراد مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ هنا: ما أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ من قصص حكيم يتعلق بأنبياء الله تعالى ورسله.

- **قال الآلوسي** : وإنما خصت القصص بالذكر، لأن الأحكام المنزلة عليه ﷺ ناسخة لأحكامهم، ومخالفة

لها فلا يتصور سؤالهم عنها .

والمراد بالكتاب: جنسه فيشمل التوراة والإنجيل.

والمعنى: فإن كنت أيها الرسول الكريم- على سبيل الفرض والتقدير- في شك مما أنزلنا إليك من قصص حكيم كقصة موسى ونوح وغيرهما (فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ) وهم علماء أهل الكتاب ، فإن ما قصصناه عليك ثابت في كتبهم.

فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول ﷺ وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير، لا على سبيل الثبوت.

وقيل: الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره .

كقوله تعالى (يا أيها النبي اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين) وكقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) .

وكقوله (يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَءنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ) ومن الأمثلة المشهورة : إياك أعني واسمعي يا جاره.

والذي يدل على صحة هذا القول :

قوله تعالى في آخر السورة (يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي شَكّ مّن دِينِي) فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز ، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح.

- **قال ابن عطية** : والصواب في معنى الآية أنها مخاطبة للنبي ﷺ والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض .
- **قال الشوكاني** : ... وَقِيلَ: الشَّكُّ هُوَ ضِيقُ الصَّدْرِ، أَيْ: إِنْ ضَاقَ صَدْرُكَ بِكُفْرِ هَؤُلَاءِ فَاصْبِرْ وَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ يُخْبِرُوكَ بِصَبْرِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى أَذَى قَوْمِهِمْ.

وَقِيلَ: مَعْنَى الْآيَةِ: الْفَرْضُ وَالتَّقْدِيرُ، كَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: فَإِنْ وَقَعَ لَكَ شَكٌّ مَثَلًا، وَخَيَّلَ لَكَ الشَّيْطَانُ خَيَالًا مِنْهُ تَقْدِيرًا، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ، فَإِنَّهُمْ سَيُخْبِرُونَكَ عَنْ نُبُوَّتِكَ وَمَا نَزَلَ عَلَيْكَ، وَيَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ، وَقَدْ زَالَ فِيمَنْ أسلم منهم ما كان مقتضيا للكتم عِنْدَهُمْ.

- قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم .
- **قال السعدي** : قوله تعالى (فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ) أي: اسأل أهل الكتب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته.

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانًا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟

فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم.

وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ "عبد الله بن سلام" ، وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه، ومن بعده و "كعب الأحبار" وغيرهما.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه.

فإذا كان موجودًا في التوراة، ما يوافق القرآن ويصدقه، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رءوس الأشهاد.

ومن المعلوم أن كثيرًا منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب، رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعًا واختيارًا، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب .

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياساتهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسمًا لا معنى .

(**لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**) الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه .

(**فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين**) التقدير: أقسم لقد جاءك الحق الذي لا لبس فيه من ربك لا من غيره، فلا تكونن من الشاكين المترددين في صحة ذلك.

(**وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) تعريض بأولئك الشاكين والمكذبين له ﷺ من قومه ، أي: ولا تكونن من القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدقك فيما تبلغه عنا، فتكون بذلك من الخاسرين الذين أضاعوا دنياهم وأخراهم.

- **قال الآلوسي** : وفائدة النهى في الموضعين التهييج والإلهاب نظير ما مر ، والمراد بذلك الإعلام بأن الامتراء والتكذيب قد بلغا في القبح والمحذورية إلى حيث ينبغي أن ينهى عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما، فكيف بمن يمكن اتصافه بذلك .
- **وقال الشوكاني** : قوله تعالى (فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وَفِي هَذَا التَّعْرِيضِ مِنَ الزَّجْرِ لِلْمُمْتَرِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ مَا هُوَ أَبْلَغُ وَأَوْقَعُ مِنَ النَّهْيِ لَهُمْ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِحَيْثُ يُنْهَى عَنْهُ مَنْ لَا يُتَصَوَّرُ صُدُورُهُ عَنْهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ يُمْكِنُ مِنْهُ ذَلِكَ.
- **وقال السعدي** : وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك، التكذيب به، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار،

وهو عدم الربح أصلا وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمرًا بالتصديق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه، علمًا وعملا.

فبذلك يكون العبد من الرابحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ)

توبيخ للكافرين على إصرارهم على الكفر، وجحودهم للحق.

والمراد بكلمة ربك: حكمه النافذ، وقضاؤه الذي لا يرد، وسنته التي لا تتغير ولا تتبدل في الهداية والإضلال.

والمراد بالآية: المعجزات والبراهين الدالة على صدق الرسول ﷺ

أي : إن الذين حكم الله- تعالى- عليهم بعدم الإيمان- لأنهم استحبوا العمى على الهدى- لا يؤمنون بالحق الذي جئت به- أيها الرسول الكريم.. مهما سقت لهم من معجزات وبراهين دالة على صدقك..

ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق، حين يرون العذاب الأليم وقد نزل بهم من كل جانب.

وهنا سيكون إيمانهم كلا إيمان، لأنه جاء في غير وقته، وصدق الله إذ يقول: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا.. «١» .

وسيكون حالهم كحال فرعون، الذي عند ما أدركه الغرق قال آمنت.

- **قال الشوكاني** : وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ حَقٌّ عَلَيْهِمْ قَضَاءُ اللَّهِ وَقَدَرُهُ: بِأَنَّهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ، وَيَمُوتُونَ عَلَيْهِ، لَا يَقَعُ مِنْهُمُ الْإِيمَانُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَإِنْ وَقَعَ .

مِنْهُمْ مَا صُورَتُهُ صُورَةُ الْإِيمَانِ، كَمَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ فَهُوَ فِي حُكْمِ الْعَدَمِ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ التَّكْوِينِيَّةِ وَالتَّنْزِيلِيَّةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَحَقَّ مِنْهُ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ فَيَقَعُ مِنْهُمْ مَا صُورَتُهُ صُورَةُ الْإِيمَانِ وَلَيْس بِإِيمَانٍ، وَلَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِه .

- **وقال السعدي** : ...فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً ، وغياً إلى غيهم ، وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق، لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله، بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم، وأبصارهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، الذي وعدوا به.

فحينئذ يعلمون حق اليقين، أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئًا، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم، ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد . (تفسير السعدي) .

وقد بين القرآن أن هذا الطبع وهذا الختم لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب، وقد دلت آيات كثيرة على أن الله عز وجل يسبب للإنسان الضلالة بسبب ارتكاب الذنوب كما يسبب له الهدى بسبب الطاعات، قال تعالى (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) (الباء) في قوله (بِكُفْرِهِمْ) سببية، فبيّن أن هذا الطبع بسبب كفرهم، وكقوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وكقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) وكقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً).

الفوائد :

١- تهديد من يشك في آيات الله .

٢- توجيه الخطاب للنبي ﷺ وإن المراد غيره لتعظيم الأمر وتهويله .

٣- وجوب اليقين فيما أنزل الله من القصص .

٤- إثبات علو الله تعالى .

٥- أن القرآن منزل غير مخلوق .

٦- قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم .

٧-تحريم التكذيب بآيات الله .

٨- وجوب الإيمان بالله تعالى . الثلاثاء : ٢٢ / ٨ / ١٤٣٩هـ

(فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)) .

[يونس : ٩٨] .

(فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا) أي: ما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلَّا قَومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، آمَنوا كُلُّهم في وقتٍ يَنفَعُهم فيه الإيمانُ، حين رأَوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم .

- **قال ابن كثير** : يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم .

كما قال تعالى (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) .

وقال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) .

وقال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)

والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى . (تفسير ابن كثير) .

وكما قال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي * أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا) .

والحكمة في هذا ظاهرة فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران .

- و(لولا) حرفٌ يَرِدُ لِمَعانٍ مِنها التَّوبيخُ، وهو هنا مُستعمَلٌ في لازِمِ التَّوبيخِ، كِنايةً عن التَّغليطِ؛ لأنَّ أهلَ

القُرى قد انقَضَوْا، وذلك أنَّ أصلَ معنى (لولا) التَّحضيضُ، وهو طلبُ الفعلِ بحَثٍّ، فإذا دخلَت على فعلٍ قد فات وقوعُه كانت مُستعمَلةً في التَّغليطِ، والتَّنديمِ، والتَّوبيخِ على تَفْويتِه، ويكونُ ما بَعدَها في هذا الاستعمالِ فِعْلَ مُضيٍّ؛ فهي هنا مُستعمَلةٌ في لازمِ التَّوبيخِ، كنايةً عن التَّغليظ .

(**إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**) إلا قوم يونس، وهم أهل نِينَوى ، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا لديه. واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى (إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) . (ابن كثير) .

- فقول ابن كثير : بعد ما عاينوا أسبابه ، أي حين رأَوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم .

وممن ذهب إلى القول : وهو أنهم رأوا علامات دالة على العذاب دون العذاب عينه ، فآمنوا فتاب الله عليهم .

الزجاج ، والواحدي ، وابن عطية ، والرازي ، والقرطبي ، وابن تيمية ، وابن كثير ، والشوكاني ، وابن عاشور .

وذهب بعض العلماء : إن قوم يونس خصوا من بين الأمم بأن تيب عليهم لما آمنوا بعد معاينة بعد معاينة العذاب .

وبهذا قال : الطبري ، والسعدي .

- **قال السعدي** : قوله (إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا) بعدما رأوا العذاب (كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا.

قال الله تعالى (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) إلى قوله (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر بل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه والله أعلم . (تفسير السعدي) .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وفيه وجهان :

أحدهما : أنهم تابوا قبل أن يروا العذاب فلذلك قبل توبتهم ، ولو رأوه لم يقبلها كما لم يقبل من فرعون إيمانه لما أدركه الغرق.

الثاني : أنه تعالى خصهم بقبول التوبة بعد رؤية العذاب ، قال قتادة : كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل.

- **قال ابن عطية** : وذهب الطبري إلى أن قوم يونس خصوا من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين وليس كذلك ، والمعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذب أو الموت بشخص الإنسان كقصة فرعون ، وأما قوم يونس فلم يصلوا هذا الحد .

وقال القرطبي : وقال الطبري : خص قوم يونس من بين سائر الأُمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب ؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين.

وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأُوا العلامة التي تدلّ على العذاب ، ولو رأُوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

قلت : قول الزجاج حسن : فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك.

ويَعْضُد هذا قوله عليه السلام : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

والغرغرة الحشرجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا.

وقد روى معنى ما قلناه عن ابن مسعود ، أن يونس لما وعدهم العذاب إلى ثلاثة أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأُمهات والأولاد ؛ وهذا يدلّ على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب .

ويكون معنى (كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخزي) أي العذاب الذي وعدهم به يونس أنه ينزل بهم ، لا أنهم رأُوه عِياناً ولا مخايلة ؛ وعلى هذا لا إشكال ولا تعارض ولا خصوص ، والله أعلم.

وبالجملة فكان أهل نينوى في سابق العلم من السعداء. (تفسير القرطبي) .

- **وقال الخازن** : واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عياناً أم لا :

فقال بعضهم : رأوا دليل العذاب فآمنوا ؛ وقال الأكثرون إنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله (كشفنا عنهم عذاب الخزي) والكشف لا يكون إلا بعد الوقوع أو إذا قرب وقوعه.

- اختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين :

أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية.

والقول الثاني فيهما لقوله تعالى (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

- **قال الشنقيطي** : قَوْلُهُ تَعَالَى (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ إِيمَانَ قَوْمِ يُونُسَ مَا نَفَعَهُمْ إِلَّا فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ، لِقَوْلِهِ: كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَيُفْهَمُ مِنْ مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ فِي قَوْلِهِ: (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى أَطْلَقَ عَلَيْهِمُ اسْمَ الْإِيمَانِ مِنْ غَيْرِ قَيْدٍ فِي سُورَةِ «الصَّافَّاتِ» ، وَالْإِيمَانُ مُنْقِذٌ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، كَمَا أَنَّهُ بَيَّنَ فِي «الصَّافَّاتِ» أَيْضًا كَثْرَةَ عَدَدِهِمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) .

الفوائد :

١-تكذيب الأمم لرسلهم .

٢- أن الإيمان لا ينفع عند معاينة العذاب .

٣- أن الإيمان والتوبة تنفع وتقبل إذا كانت قبل نزول العذاب .

٤-حكمة الله في جعل قوم يونس يتوبون ويرجعون .

٥- أن الهداية بيد الله .

٦-أن الموت نهاية كل حي .

فإن الله كتب الموت على كل نفس:

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ).

(وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (١٠٠)) .

[يونس : ٩٩-١٠٠] .

(**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ**) يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلّهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى .

كما قال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

وقال تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) .

وَقَوْلِهِ تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) .

وَقَوْلِهِ تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) .

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) عطف على جملة (إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون) لتسلية النبي ﷺ على ما لقيه من قومه.

(**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ**) أي: تلزمهم وتلجئهم .

(**حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**) أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل إلى الله (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) .

كما قال تعالى (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

وقال تعالى (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت) .

وقال تعالى (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) .

وقال تعالى (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله .

- **قال ابن عطية** : المعنى أن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم ، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمناً فلا تأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك ، وادع ولا عليك فالأمر محتوم ، أفتريد أنت أن تكره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك والله عز وجل قد شاء غيره.
- **قال ابن عاشور** : والاستفهام في (أفأنت تُكره الناس) إنكاري ، فنزّل النبي ﷺ لحرصه على إيمان أهل مكة وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان حتى ترتب على ذلك التنزيل إنكاره عليه.
- **قال الخازن** : وفي هذا تسلية للنبي ﷺ لأنه كان حريصاً على إيمانهم كلهم فأخبره الله أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له العناية الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم .

(**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ**) تأكيد لما اشتملت عليه الآية السابقة من قدرة نافذة لله تعالى أي : وما صح وما استقام لنفس من الأنفس، أن تؤمن في حال من الأحوال (إلا بإذن الله) أي: إلا بإرادته ومشيئته وتوفيقه وهدايته.

(**وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**) معطوف على محذوف يدل عليه الكلام السابق دلالة الضد على الضد، والرجس: يطلق على الشيء القبيح المستقذر.

والمعنى: وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله، فيأذن لمن يشاء من تلك الأنفس بالإيمان، ويجعل الرجس ، أي : الكفر وما يترتب عليه من عذاب على القوم الذين لم يستعملوا عقولهم فيما يهدى إلى الحق والخير، بل استعملوها فيما يوصل إلى الأباطيل والشرور.

- **قال الشوكاني** : والمراد بالذين لا يعقلون : هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ، ولا يتفكرون في آياته ، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة .
- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (الرِّجْسَ) وهو في هذه الآية بمعنى العذاب .
- **وقال ابن عاشور** : والرجس : حقيقته الخبث والفساد ، وأطلق هنا على الكفر ، لأنه خبث نفساني ، والقرينة مقابلته بالإيمان كالمقابلة التي في قوله (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً إلى قوله (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) ، والمعنى : ويوقع الكفر على الذين لا يعقلون.

والمراد نفي العقل المستقيم ، أي الذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحق ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الأدلة.

الفوائد :

١- حكمة الله في عدم إيمان كل الناس .

٢- إثبات الحكمة لله تعالى .

٣- لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه .

٤-ينبغي على الداعية ألا يحزن إن لم يؤمن الناس ، لأن الله كتب عليهم .

(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)) .

[يونس : ١٠١ – ١٠٣] .

(**قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي : قل- أيها الرسول الكريم- لقومك: انظروا وتأملوا وتفكروا فيما اشتملت عليه السموات من شموس وأقمار، وكواكب ونجوم، وسحاب وأمطار ...

وفيما اشتملت عليه الأرض من زروع وأنهار، ومن جبال وأشجار، ومن حيوانات ودواب متنوعة.

انظروا إلى كل ذلك وتفكروا، فإن هذا التفكر يهدى أصحاب العقول السليمة إلى أن لهذا الكون إلها واحدا عليما قديرا، هو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

- **قال ابن كثير** : يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.
- **وقال ابن عاشور** : وقد عمم ما في السماوات والأرض لتتوجه كلّ نفس إلى ما هو أقرب إليها وأيسر استدلالاً عليه لديها.
- **قال ابن القيم:** الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة.

فالنوع الأول كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ...).

وقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) وهو كثير في القرآن والثاني كقوله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) وقوله (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) وقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ).

- **وقال رحمه الله** : مبيناً من يعتبر بآيات الله الكونية والشرعية:

قال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) وقال (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) فأخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها

أهل التقوى والخشية والإنابة ومَن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى) وقال في الساعة (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا).

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

(**وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**) أي: وأي شيء تُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) .

(**فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ**) أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم .

- **قال القرطبي** : الأيام هنا بمعنى الوقائع، يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم قال قتادة: يعنى وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما، كقوله- تعالى- وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام .

(**قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ**) أمر من الله- تعالى- لنبيه ﷺ بأن يستمر في تهديدهم ووعيدهم.

أي: قل- يا محمد- لهؤلاء الجاحدين للحق الذي جئت به: إذا فانتظروا العذاب الذي نزل بالسابقين من أمثالكم، إني معكم من المنتظرين لوعد ربي لي، ولوعيده لكم.

(**ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا**) الذين أرسلناهم لإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

(**وَالَّذِينَ آمَنُواْ**) وننجي- أيضاً- الذين آمنوا برسلنا وصدقوهم .

(**كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ**) ونهلك المكذبين .

الفوائد :

١- الحث على الاعتبار والتفكر في مخلوقات الله وآياته العظيمة الدالة على وحدانيته .

٢-لا تنفع الموعظة مهما بولغ فيها عبداً كتب أزلاً أنه من أهل النار .

٣- تهديد لكل ظالم مكذب ، وأنهم لا ينتظرون إلا ما حل بمن قبلهم من العذاب والنكال .

٤- وعد الله الذي لا يتغير ولا يتبدل وهو : إنجاء المؤمنين وهلاك المكذبين .

(**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)**) .

[يونس : ١٠٤- ١٠٦] .

(**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) الخطاب للنبي ﷺ أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم فشكوا في أمرك ولم

يؤمنوا بك .

(**إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي**) أي : إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم من الدين الحنيف، الذي أوحاه الله إلي .

(**فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ**) فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله وهي هذه الأصنام ، لأنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئًا من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

- وجوب البراءة من الشرك وأهله ، والبراءة من الشرك أقسام :

أولاً : البراءة القلبية :

وهي أن تبغض المشركين والشرك بقلبك وتكرههم وتتمنى زوالهم كبغض النصارى واليهود والهندوس .

وحكم هذا القسم فرض لازم ولا يمكن أن يسقط عن المسلم .

والدليل على ذلك حديث أبي مالك الأشجعي (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله تعالى) .

ثانياً : براءة اللسان :

وذلك بالتصريح بأنك تبغض الكفار والتصريح أن دينهم باطل وأنهم كفار .

والدليل قوله تعالى : (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) قل : أي بلسانك .

وقوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون) .

وهذا القسم واجب مع القدرة لقوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) ويجب عليه الهجرة إن استطاع .

ثالثاً : براءة الجوارح .

وذلك بمجاهدتهم بالجوارح ، وتكسير معبوداتهم ومساجدهم وقتلهم .

والدليل قوله تعالى : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) .

وقوله ﷺ (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ...) رواه مسلم .

وهذا القسم يجب مع القدرة ويسقط مع العجز .

(**وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ**) أي : ولكن أعبد الله وحده لا شريك له .

الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ) وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم .

- **قال السعدي** : أي هو الله الذي خلقكم ، وهو الذي يميتكم ، ثم يبعثكم ، ليجازيكم بأعمالكم ، فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويخضع ويسجد.
- **قال الخازن** : والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة :

أن المراد أن الذي يستحق العبادة أعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولاً ولم تكونوا شيئاً ثم يميتكم ثانياً ثم يحييكم بعد الموت ثالثاً، فاكتفى بذكر الوفاة تنبيهاً على الباقي .

وقيل : لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع .

وقيل إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري

عليكم .

- **وقال ابن عطية** : ... ثم صرح بمعبوده وخص من أوصافه (الذي يتوفاكم) لما فيها من التذكير للموت وقرع النفوس به ، والمصير إلى الله بعده والفقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة .

(**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب .

(**وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**) أي: أخلص العبادة لله وحده حنيفاً ، أي: منحرفاً عن الشرك؛ ولهذا قال (وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وهو معطوف على قوله (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

والحنيف: هو المائل عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام.

- وخص الوجه بالذكر، لأنه أشرف الأعضاء.

والمعنى: أن الله سبحانه أمره بالاستقامة في الدين ، والثبات عليه، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال.

- **قال الآلوسي** : إقامة الوجه للدين، كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى، والإعراض عما سواه، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء، يقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، إذ لو التفت بطلت المقابلة، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين، فالمراد بالوجه الذات ، أي : اصرف ذاتك وكليتك للدين .

(**وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) تأكيد للأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده وهو معطوف على أَقِم .

أي : استقم على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله تعالى وحده واثبت على ذلك، ولا تكونن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

- فلا تكونن من المشركين : لا في اعتقادهم, ولا في مجالستهم, ولا في الاجتماع بهم, فهذا أفرض الفروض عليَّ , وأوجب الواجبات.

والشرك: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

- والحَنَف: الميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنيفُ: المائل والجنف: ضده. والأحنف: مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً، وقيل لمجرد الميل. قال ابن كثير: الحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد. وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين، قال تعالى: (ولَمْ يَكُ مِنَ المشْرِكِينَ) وقال: (وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ) وهكذا فليكن أولياء الله.

- والحنيفية لها في الشرع معنيان: أحدهما: الإسلام، والثاني: خاص: وهو الإقبال على الله بالتوحيد بالميل عن ما سواه.

وهي دين الأنبياء جميعاً، وخصت بالإضافة إلى إبراهيم، لأن إبراهيم أكمل الخلق تحقيقاً لها مع تقدمه أبوةً على نبينا محمد المشارك له في كمال التحقيق للحنيفية.

وقد قال تعالى في سورة النساء (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) .

(مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) معناه أخلص دينه لله وخضع له وتوجه إليه بالعبادة (وَهُوَ مُحْسِنٌ) الإحسان هنا: الموافقة للشريعة، فيكون في الآية دليل على شرطي العبادة، وهما الإخلاص والمتابعة.

- قال ابن كثير: قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) أخلص العمل لربه عز وجل، فعمل إيماناً واحتساباً (وَهُوَ مُحْسِنٌ) أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق.

وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي: يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متبعًا للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمن فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمن فقد الإخلاص كان منافقًا، وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين

(**وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ**) أي : ولا تدع من دون الله في أي وقت من الأوقات ما لا يَنْفَعُكَ إذا دعوته لدفع مكروه أو جلب محبوب وَلا يَضُرُّكَ إذا تركته وأهملته ، وإنما النافع الضار هو الله .

(**فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ**) **أي** : فَإِنْ فَعَلْتَ شيئا مما نهيناك عنه فَإِنَّكَ إِذاً تكون مِنَ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها مورد المهالك، لإشراكها مع الله تعالى آلهة أخرى.

وهذا الظلم هو الشرك ، كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟!!

- الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الشرك.

وهو أعظم الظلم وأشده.

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي: من المشركين.

قال ابن رجب: فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق , فعبده وتألهه , فوضع الأشياء في غير موضعها , وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين , إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

والثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي.

كما قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث: ظلم العبد لغيره.

كما في الحديث (قال الله تعالى: إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم.

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام, كحرمة يومكم هذا, في شهركم هذا, في بلدكم هذا) متفق عليه.

وعن ابن عمر. قال: قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه.

الفوائد :

١-أن النبي ﷺ عبد يؤمر وينهى .

٢- وجوب البراءة من الشرك وأهله .

٣-وجوب عبادة الله تعالى وحده .

٤- أن القادر على الإحياء والإماتة هو المستحق للعبادة .

٥- تهديد الكفار والظلمة بالموت .

٦- وجوب إقامة الدين كاملاً لله تعالى .

٧- أن التوحيد نفي وإثبات .

٨- من أعظم الصفات عدم الشرك ولذلك وصف الله إبراهيم بقول (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

٩- تحريم دعاء غير الله ، وأنه شرك ،ويؤخذ من الآية من وجهين :

أحدهما : في قوله (وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ) فهذا نهي والنهي للتحريم ، والمنهي عنه إيقاع عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله ، فإذا جعلت لغيره كان ذلك شركاً .

والآخر : في قوله (فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِين) أي : من المشركين ، لأن الشرك أعظم الظلم ، فمن دعا غير الله فقد وقع في فعلٍ من أفعال المشركين .

١٠- أن دعاء غير الله شرك .

١١- وجوب دعاء الله ، لأنه بيده كل شيء .

(وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)) .

[يونس : ١٠٧] .

(**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ**) كمرض وتعب وحزن .

وهذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها :

(**فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ**) أي : لهذا الضر إِلَّا هُوَ سبحانه، لأن الخلق، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدا، لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرده الله .

وهذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها فلا كاشف إلا هو .

(**وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ**) كمنحة وغنى وقوة .

(**فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ**) أي : فلا يستطيع أحد أن يرد هذا الخير عنك.

كما قال تعالى (ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيم) .

- وعبر سبحانه بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى تفضله على عباده بأكثر مما يستحقون من خيرات.

(**يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ**) أي : يصيب بذلك الفضل والخير مَنْ يَشاءُ إصابته مِنْ عِبادِهِ.

(**وَهُوَ الْغَفُورُ**) لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه، كبارها، وصغارها.

(**الرَّحِيم**) الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغنى عن إحسانه، طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع، أن الله، هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحدًا من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

الفوائد :

١- أن جلب النفع ودفع الضر من خصائص الله عز وجل .

٢- أن المستحق للعبادة هو الله .

٣- إبطال تعلق القلب بغير الله .

٤- وجوب تعلق القلب بالله تعالى .

٥- اطمئنان القلب ، فإن الإنسان إذا أيقن أن رزقه مضمون مكفول ، فإنه يطمئن ويرتاح .

٦- لا أحد يستطيع أن يرد رزق الله عن أحد .

٧- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغفور ، والرحيم .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨)) .

[يونس : ١٠٨] .

(**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) خطاب للرسول ﷺ أن يقول للناس .

- **قال ابن عاشور** : افتتاحها بـ (قل) للتنبيه على أنه تبليغ عن الله تعالى فهو جدير بالتلقي.

وافتتاح المقول بالنداء لاستيعاء سماعهم لأهمية ما سيقال لهم ، والخطاب لجميع الناس من مؤمن وكافر ، والمقصود منه ابتداءً المشركون ، ولذلك أطيل الكلام في شأنهم ، وقد ذكر معهم من اهتدى تشريفاً لهم.

- **قال الشيخ ابن عثيمين** : قوله تعالى (قل) فيه أهمية هذا الأمر الذي أُمِر به النبي ﷺ , لأن كل حكم أو خبر يُصدَّر بقل هو دليل على الاهتمام به, لأن الله جعل له عناية خاصة بالوصية بإبلاغه, وإلا فجميع الكتاب قال الله فيه (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ).

(**قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**) يقول تعالى آمراً لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك .

قال القرطبي : قوله تعالى (قُلْ يا أيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الحق) أي القرآن ، وقيل : الرسول ﷺ .

وقد قال تعالى في سورة النساء (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) .

(قد جاءكم برهان من ربكم) يعني محمداً ﷺ وما جاء به من البينات من ربه عز وجل وإنما سماه برهاناً لما معه من المعجزات الباهرات التي تشهد بصدقة ولأن للبرهان دليل على إقامة الحق وإيصال الباطل والنبي ﷺ كان كذلك ولأنه تعالى جعله حجة قاطعة قطع به عذر جميع الخلائق.

- وقال البغوي: قوله تعالى (قد جاءكم برهان من ربكم) يعني محمداً، هذا قول أكثر المفسرين، وقيل: هو القرآن.

وقوله تعالى (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً) أي: ضياء واضحاً على الحق.

والمراد بالنور القرآن الكريم.

- **قال ابن عاشور**: وأمّا النور المبين فهو القرآن لقوله (وأنزلنا).
- **قال الرازي**: والنور المبين هو القرآن، وسماه نوراً لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب.
- **وقال القرطبي**: النور المنزل هو القرآن؛ عن الحسن؛ وسماه نوراً لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي واضح بيّن.
- **وقال الخازن**: وإنما سماه نوراً لأن به تتبين الأحكام كما تتبين الأشياء بالنور بعد الظلام ولأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب فسماه نوراً لهذا المعنى.
- **وقال الشنقيطي**: الْمُرَادُ بِهَذَا النُّورِ الْمُبِينِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ; لِأَنَّهُ يُزِيلُ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ كَمَا يُزِيلُ النُّورُ الْحِسِّيُّ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ.
- **وقال ابن الجوزي**: وإنما سماه نوراً، لأن الأحكام تبين به بيان الأشياء بالنور.

(**فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ**) فَمَنِ اهْتَدَى إلى هذا الحق، وعمل بمقتضاه فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ أي: فإنما تكون منفعة هدايته لنفسه لا لغيره.

(**وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**) أي : وَمَنْ ضَلَّ عن هذا الحق وأعرض عنه فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها أي: فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه.

(**وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ**) أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

كما قال تعالى في آيات أخرى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا) .

وقال تعالى (مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) .

وقال تعالى (قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) .

وقال تعالى (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) .

وقال تعالى (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ) .

- **قال الآلوسي** : ولا يخفى ما في هذه الآيات من الموعظة الحسنة وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم ووعد للمؤمنين والوعيد للكافرين .

الفوائد :

١- أن الرسول وما جاء به من القرآن حق .

٢- وجوب الإيمان بالرسول .

٣- وجوب الإيمان بالقرآن .

٤-أن الله لا تضره معصية العاصين .

٥- من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه وينفعها ، ونفع ذلك راجع إليه لا إلى الله .

٦- من ضل فإنما ضلاله على نفسه .

٧- أن مهمة الرسل والدعاء دعوة الناس إلى الناس ، وأما هدايتهم فلا يقدر عليها إلا الله .

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)) .

[يونس : ١٠٩] .

(**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ**) أي : وَاتَّبِعْ- أيها الرسول الكريم- في جميع شئونك ما يُوحى إِلَيْكَ من ربك من تشريعات حكيمة، وآداب قويمة ، علماً ، وعملاً ، وحال ودعوة .

(**وَاصْبِرْ**) على مشاق الدعوة وتكاليفها ، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل، ولا تضجر، بل دم على ذلك، واثبت .

(**حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ**) بينك وبين من كذبك .

(**وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**) لأنه هو العليم بالظواهر والبواطن، وهو الذي لا معقب لحكمه.

وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعد ما نصره الله عليهم، بالحجة والبرهان، فلله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله، وعظمته، وكماله وسعة إحسانه.

الفوائد :

١- أمر النبي ﷺ أن يتبع ما يوحى إليه .

٢-أن الله يعلم نبيه ويربيه .

٣- وجوب اتباع الكتاب والسنة ، كما قال تعالى (اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ) .

٤- الحث على الصبر .

٥- فضل الصبر لأمر الله تعالى لنبيه بذلك .

٦- تسلية للنبي ﷺ ولكل داعية إلى الله .

٧- أنه لا بد لمن يدعو إلى الحق أن يواجه من الناس ما يؤذيه إما بالقول وإما بالفعل .

٨- أن الصبر على أذى الخلق وتحمل ذلك من أعظم علامات التوفيق والنصر .

قال ابن تيمية وهو يتكلم عن الصبر على أذى الخلق للداعية قال رحمه الله :

النوع الثاني : أن يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه ، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جداً، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصديقون .

وكان نبينا ﷺ إذا أوذي يقول: يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر .

وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والعز والسرور والأمن والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له وزيادة العلم، ولهذا قال الله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .

٩- تهديد لكل كافر وظالم ، بأن الله سيحكم بين الناس وسيجازي كلاً بعمله .

تمت بفضل الله

أخوكم

سليمان بن محمد اللهيميد

الأحد : ٢٧ / ٨ / ١٤٣٩هـ

تفســــير

ســـورة هـــود

بقلم
سليمان بن محمد اللهيميد

١ / رمضان / ١٤٣٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال ابن عاشور : سميت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة سورة هود ، ولا يعرف لها اسم غير ذلك ، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أن أبا بكر قال : طيا رسول الله قد شبت ، قال : شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت .

وسميت باسم هود لتكرر اسمه فيها خمس مرات ، ولأن ما حكي عنه فيها أطول مما حكي عنه في غيرها ، ولأن عاداً وصفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله (أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُود) .

- **قال القرطبي** بعد أن ساق بعض الأحاديث في فضل هذه السورة. ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس. وتشيب منه الرءوس .
- **قال ابن عاشور** : جمهور العلماء على أن سورة هود جميعها مكية .
- أغراضها :

قال ابن عاشور : ابتدأت بالإيماء إلى التحدي لمعارضة القرآن بما تومئ إليه الحروف المقطعة في أول السورة.

وباتلائها بالتنويه بالقرآن.

وبالنهي عن عبادة غير الله تعالى.

وبأن الرسول عليه الصلاة والسلام نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمى.

وإثبات الحشر.

والإعلام بأن الله مطلع على خفايا الناس.

وأن الله مدبر أمور كل حي على الأرض.

وخلق العوالم بعد أن لم تكن.

وأن مرجع الناس إليه ، وأنه ما خلقهم إلا للجزاء.

وتثبيت النبيء ﷺ وتسليته عما يقوله المشركون وما يقترحونه من آيات على وفق هواهم (أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ) .

وأن حسبهم آية القرآن الذي تحداهم بمعارضته فعجزوا عن معارضته فتبين خذلانهم فهم أحقاء بالخسارة في الآخرة.

وضرب مثل لفريقي المؤمنين والمشركين.

وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حل بهم وعاد وثمود ، وإبراهيم ، وقوم لوط ، ومدين ، ورسالة موسى ، تعريضا بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر فإن أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي

يدعونها.

وأن في تلك الأنباء عظة للمتبعين بسيرهم.

وأن ملاك ضلال الضالين عدم خوفهم عذاب الله في الآخرة فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك.

وانفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه.

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١))

[هود : ١] .

(**الر**) هذه من الحروف المقطعة وقد تقدم الكلام عليها .

فقيل : هِيَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ ، **وَقِيلَ:** هِيَ أَسْمَاءٌ لِلسُّوَرِ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِهَا ، **وَقِيلَ:** هِيَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى،

قال الشنقيطي : أَمَّا الْقَوْلُ الَّذِي يَدُلُّ اسْتِقْرَاءُ الْقُرْآنِ عَلَى رُجْحَانِهِ فَهُوَ: أَنَّ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ ذُكِرَتْ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ مَعَ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ تَيْمِيَةَ، وَشَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمُجْتَهِدُ أَبُو الْحَجَّاجِ الْمِزِّيُّ، وَحَكَاهُ لِي عَنِ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

وَوَجْهُ شَهَادَةِ اسْتِقْرَاءِ الْقُرْآنِ لِهَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ السُّوَرَ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ يُذْكَرُ فِيهَا دَائِمًا عَقِبَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الِانْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ.

قَالَ تَعَالَى فِي «الْبَقَرَةِ» (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ) .

وَقَالَ فِي «آلِ عِمْرَانَ» (الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) .

وَقَالَ فِي «الْأَعْرَافِ» (المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ) .

وَقَالَ فِي سُورَةِ «يُونُسَ» (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) .

وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ سُورَةَ «هُودٍ» (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) .

(**كِتَابٌ**) والمراد به القرآن العظيم .

ووسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

(**أُحْكِمَتْ**) أي : هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد، هو كتاب عظيم الشأن، جليل القدر، فقد أحكم

الله آياته إحكاما بديعا، وأتقنها إتقانا معجزا، بحيث لا يتطرق إليها خلل أو فساد.

- **قال القرطبي** : أحسن ما قيل في معنى (أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) قول قَتَادة ؛ أي جعلت محكمة كلّها لا خَلَل فيها ولا باطل.

والإحكام منع القول من الفساد ، أي نُظمت نظماً مُحْكَماً لا يلحقها تناقض ولا خَلَل.

- فمن إحكامه : أن الآيات الواردة فيه غير متناقضة ، والتناقض ضد الإحكام فإذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل الإحكام.

وأيضاً : ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة ، وهذا أيضاً مشعر بالقوة والإحكام.

- إشكال وجواب :

في هذه الآية وصف القرآن كله بأنهم محكم .

وجاء في آية ثانية وصفه بأنه متشابه : قال تعالى (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) .

وجاء في آية أخرى وصفه بأن منه محكم ومنه ما هو متشابه : قال تعالى (هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) .

والجواب :

فقوله (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ) الإحكام العام ، فالقرآن كله محكم ، أي : أنه متقن في ألفاظه ، ومعانيه ، وإعجازه ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ، لا تعتريه وصمة ولا عيب .

وأما القرآن كله متشابه : أي أن آياته يشبه بعضها بعضاً في الحسن ، والصدق ، والحق ، والإعجاز ، والسلامة من جميع العيوب وأما وصغ القرآن بأن بعضه محكم وبعضه متشابه في قوله تعالى (مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) فالمراد به الإحكام الخاص ، والتشابه الخاص .

المحكم الواضح المعنى الظاهر الدلالة ، والمتشابه : ما لا يتضح معناه ، أو لا تظهر دلالته

(**ثُمَّ فُصِّلَتْ**) أي : ثم فصل- سبحانه- هذه الآيات تفصيلا حكيما، بأن أنزلها نجوما، وجعلها سورا سورا، مشتملة على ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم، من شئون العقائد، والعبادات، والمعاملات، والآداب، والأحكام.

- **قال الرازي** : قوله تعالى (ثم فُصّلَتْ) فيه وجوه :

أحدها : أن هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية ، وهي دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص.

والثاني : أنها جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية.

الثالث : (فُصّلَتْ) بمعنى أنها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة ، ونظيره قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ءايات مّفَصَّلاَتٍ) والمعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة.

الرابع : فصل ما يحتاج إليه العباد أي جعلت مبينة ملخصة.

الخامس : جعلت فصولاً حلالاً وحراماً ، وأمثالاً وترغيباً ، وترهيباً ومواعظ ، وأمراً ونهياً لكل معنى فيها فصل ، قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها ، ويحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الأكمل.

- **قال ابن كثير** : أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى .

(**مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ**) أي: من عند الله الحكيم في أقواله، وأحكامه .

- والحكيم اسم من أسماء الله تعالى .

قال ابن كثير: الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله.

- قال ابن القيم: وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة: أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل.
- وقال السعدي: فالله لا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

هو سبحانه حكيم في صنعه، وحكيم في شرعه، فجميع مصنوعاته كلها محكمة، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبداً.

- قال بعض العلماء: الحكمة تكون في صورة الشيء: أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة.

وتكون في غايته: أي: أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة، وكذلك الحيوانات، وكذلك جميع المخلوقات، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً).

- نستفيد من معرفتنا أن الله حكيم في كل أفعاله: اقتناع الإنسان بما يجري عليه وما يوجبه الله عليه، لأن ما يجريه الله –عز وجل– من الأحكام مقرون بالحكمة، فإذا علمت هذا يقيناً اقتنعت سواء كان هذا من الأحكام الكونية أو الأحكام الشرعية، حتى المصائب التي تنال العباد لاشك أن لها حكمة.

رابعاً: الرضا بالقضاء والقدر. ؟؟؟

(**خَبِيرٍ**) الخبير بعواقب الأمور.

أي : هذا الكتاب الذي أتقنت آياته إتقانا بديعا، وفصلت تفصيلا رصينا، ليس هو من عند أحد من الخلق، وإنما هو من عند الخالق الحكيم في كل أقواله وأفعاله، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها.

- **قال الشوكاني**: وفي قوله مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ لف ونشر، لأن المعنى: أحكمها حكيم، وفصلها خبير، عالم

بمواقع الأمور .

- **والخبير اسم من أسماء الله تعالى .**

ومعناه العليم ببواطن الأمور , (المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها) , المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور.

- قال ابن عاشور: الخبير العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة , والظاهرة والخفية.
- الآثار المترتبة على معرفتنا لهذا الاسم:

أولاً: يجب على الإنسان أن يحذر من كتم النفاق أو الحسد أو غيرها من أمراض القلوب , لأن الله مطلع على كل شيء , لا تخفى عليه خافية.

ولذلك أمرنا سبحانه أن نتقيه ونعمل بما يحب , وأن نبتعد عن كل ما يسخطه ويغضبه , فقال تعالى (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً).

وقال تعالى (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون).

وقال سبحانه (وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً).

ثانياً: وجوب مراقبة الله تعالى.

ثالثاً: أن الله خبير بأحوال عباده , بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها , بصير بمن يصلح حاله بالغنى والمال , وبمن يفسد حاله بذلك (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ).

رابعاً: اليقين بأن الله هو الخبير العالم ببواطن الأمور وخفياتها , عالم بما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن كيف كان سيكون .. , لا يفوته من العلم شيء وان كان صغيراً سراً دقيقاً , وهذا لله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه.

والإيمان بأن الله خبير عليم بأعمال عباده وأقوالهم, وما يجول في صدورهم من خير أو شر, قال تعالى (وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) فيوقن العبد أنه مكشوف أمام الله, لا تخفى على الله منه خافية, فيراقب الله في جميع أحواله وخواطره وقلبه بتهذيب سره وتطهير باطنه, ويخلص أعماله لله .

قال الشيخ ابن عثيمين: وقرن تعالى هنا بين الحكيم والخبير (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير) ليعلم الناس أن حكمة الله عز وجل عن خبرة وعلم ببواطن الأمور , وعلى هذا فقد تكون خفية عن كثير من الناس , لأنه لا يدرك الحكمة إلا من كان خبيراً.

الفوائد :

١- بيان إعجاز هذا القرآن العظيم .

٢-أن من أسماء القرآن الكتاب .

٣-الثناء العظيم على القرآن بأنه محكم .

٤- وجوب الإيمان القطعي بأن القرآن محكم كامل لا خلل فيه ولا نقص .

٥- أن إيمان المسلم بذلك يزيده قوة وارتباطاً بالقرآن وتمسكاً به .

٦- من أسماء الله الحكيم .
٧- وجوب الاستسلام لأوامر الله وأحكامه ، لأنه صادرة من حكيم خبير مطلع على كل شيء .
(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢))
[هود : ٢] .

(**أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ**) جملة تعليلية، أي : أنه- سبحانه- فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم خبير، لكي تخلصوا له العبادة والطاعة، وتتركوا عبادة غيره لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة.

- **قال ابن كثير** : أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له .

كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .
قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

- **قال الشنقيطي** : هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها: هي أن يعبد الله جل وعلا وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء، لأنه قوله جل وعلا (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله) الآية؛ صريح في أن آيات هذا الكتاب فصلت من عند الحكيم الخبير لأجل أن يعبد الله وحده .

فمعنى الآية: أن حاصل تفصيل القرآن هو أن يعبد الله تعالى وحدة ولا يشرك به شيء. ونظير هذا المعنى قوله تعالى في سورة الأنبياء (قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ) ومعلوم أن لفظه (إنما) من صيغ الحصر ، فكأن جميع ما أوحي إليه منحصر في معنى (لا إله إلا الله) لأن معناها. خلع جميع المعبودات غير الله جل وعلا في جميع أنواع العبادات ، وإفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات ، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية.

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل ، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جداً .
كقوله (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .
وقوله (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون) .

- وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً عن محبة الله يُبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها، فإن المحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً لا تنبغي، والله عز وجل لا يليق به شيء من ذلك (قاله الشنقيطي).
- فالعبادة تطلق على معنيين: احدهما: التعبد: يعني التذلل لله، كما سبق.

وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية. (ذكر ذلك ابن تيمي

- وجوب عبادة الله تعالى ، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك:

قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا).

وقال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وقال تعالى (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ).

- وأمر تعالى بعبادته حتى الموت فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).
- بل الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله تعالى كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).
- وأمر الله بها جميع رسله:

كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ)، وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم.

- وأخبر الله أنه أرسل في كل أمة رسولاً لهذا الغرض.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

- ووصف ملائكته بذلك.

فقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ).

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له:

فقال تعالى (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً) وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً).

- وقد نعت الله نبيه بالعبودية في أكمل أحواله:

فقال في الإسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً).

وقال في الإيحاء (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى).

وقال في الدعوة (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).

وقال في التحدي (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ).

(**إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**) بيان لوظيفة الرسول ﷺ .

قال ابن كثير : أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ، ألستم مصدقي؟" فقالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

الفوائد :

١- وجوب عبادة الله تعالى .

٢- أن أعظم ما أمر الله به هو التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة .

٣- تحريم عبادة غير الله .

٤-أن مهمة الرسل الإنذار والتبشير .

٥- تحذير وتهديد كل من عبد غير الله .

٦- تبشير كل من عبد الله واتقاه .

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)) .

[هود : ٣] .

(**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ**) أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك .

- وهذا معطوف على قوله (ألا تعبدوا) من عطف الأمر على النهي .

والاستغفار طلب المغفرة ، والغفر الستر والتغطية ، والمراد ستر الأمور وتغطيتها بعفو الله تعالى .

(**ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**) أي : ارجعوا إليه تائبين من كل ذنب ، بالندم ، والإقلاع عن المعصية ، والعزم على عدم العودة .

- وفائدة الترتيب (بثم) أن يكون قد يستغفر ثم يبقى متلبساً بالذنوب .

- **قال ابن القيم** : الاستغفار نوعان :

مفرد ومقرون بالتوبة .

فالمفرد : كقول نوح عليه السلام لقومه : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً) .

وكقول صالح لقومه (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

والمقرون كقوله تعالى (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ). وقول هود لقومه (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً) .

فالاستغفار المفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ، فالاستغفار يتضمن التوبة والتوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق .

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى فالاستغفار منه ، طلب وقاية شره وذنب يخاف وقوعه ، فالتوبة : العزم على أن لا يفعله ، والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقيه شر ما مضى ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله .

(**يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا**) هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم.

أي: في الدنيا ، بأن يبدل خوفكم أمنا، وفقركم غنى، وشقاءكم سعادة.
فالْمُرَادَ بِالْمَتَاعِ الْحَسَنِ : سَعَةُ الرِّزْقِ ، وَرَغَدُ الْعَيْشِ ، وَالْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا ، ومثله الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

- **قال الشنقيطي** : والدليل أن المراد به المتاع الدنيوي قوله تعالى بعد ذلك (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) وقوله تعالى في نفس السورة في قصة هود مع قومه (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) .

ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) فإن النعيم الذي له أجل مسمى — أي محدود له أجل ينتهي عنده — هو نعيم الدنيا ، أما نعيم الآخرة فلا منتهى له .

(**إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**) أي : إلى نهاية حياتكم التي قدرها الله لكم في هذه الدنيا.
الْمُرَادَ بِالْأَجَلِ الْمُسَمَّى : الْمَوْتُ .

- فكل نفس سوف تموت :

كما قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ).
وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ).
وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ).
وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ).
وقال تعالى (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً).
وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ).

- وفي هذا فضل الاستغفار والتوبة إلى الله ، وهو سَبَبٌ لِأَنْ يُمَتِّعَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى .

كما في قَوْله تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ نَبِيِّهِ هُودٍ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ «نُوحٍ» (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) .
وقَوْله تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)
وَقَوْله تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) .
والاستغفار سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات .
قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً) .
وفي الحديث القدسي (قال الله : من يستغفرني فأغفر له ..) متفق عليه .
وقوله تعالى في الحديث القدسي (فاستغفروني أغفر لكم) رواه مسلم .

وهو سبب لحصول القوة في البدن .

قال هود لقومه (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) .

وهو سبب لدفع المصائب ورفع البلايا .

قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) .

وسبب لبياض القلب .

قال ﷺ (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه) رواه أحمد .

من أقوال السلف :

قال بعض العلماء : طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً .

وكان ابن عمر : يطلب من الصبيان الاستغفار ويقول : إنكم لم تذنبوا .

وقال قتادة : إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، فأما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار .

وقال رياح القيسي : لي نيف وأربعون ذنباً ، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة .

وقال الحسن : لا تملُّوا من الاستغفار .

وقال بكر المزَني : إن أعمال بني آدم تُرفع فإذا رُفعت صحيفةٌ فيها استغفار رُفعت بيضاء ، وإذا رُفعت ليس فيها استغفار رفعت سوداء .

وعن الحسن قال : أكثروا من الاستغفار في بيوتكم ، وعلى موائدكم ، وفي طُرُقِكم ، وفي أسواقكم ، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة .

قال لقمان لابنه : أيْ بُنَيَّ عوِّد لسانك : اللهم اغفر لي ؛ فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً .

ورئي عمر بن عبد العزيز في النوم فقيل له : ما وجدت أفضل ؟ قال : الاستغفار .

فائدة :

قال تعالى (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ) .

- **قال الرازي** : لم سمى منافع الدنيا بالمتاع ؟

الجواب : لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها ، ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى (إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى) فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية .

- **قال الخازن** : فإن قلت قد ورد في الحديث (إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فيكف الجمع مبين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى (يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى) .

قلت أما قوله ﷺ (الدنيا سجن المؤمن) فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فإنه في سجن في الدنيا حتى يفضي إلى ذلك المعد له .

وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو النسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع

فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة لأنه راض عن الله في جميع أحواله.

(**وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**) أي: في الدار الآخرة ، أي: ويعط كل صاحب عمل صالح جزاء عمله.

فالمراد بالفضل الأول: العمل الصالح. والمراد بالفضل الثاني الثواب الجزيل من الله- تعالى-.

فالجملة الكريمة، وعد كريم عن الله- تعالى- لكل من آمن وعمل صالحاً .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

(**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**) هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى ، وكذب رسله ، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة .

- وفي وصفه بالكبر، زيادة- أيضاً- في تهويله وشدته، حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويقلعوا عن غيهم وعنادهم.

(**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**) أي: معادكم يوم القيامة .

أي : إلى الله- تعالى- وحده رجوعكم مهما طالت حياتكم، ليحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء، وهو- سبحانه- على كل شيء قدير، لا يعجزه أمر، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل.

وما دام الأمر كذلك، فأخلصوا لله العبادة، واستغفروه ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة.

(**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

الفوائد :

١- فضل عظيم للاستغفار والتوبة ، وأنه سبب للحياة الطيبة السعيدة .

٢- الحث على كثرة الاستغفار .

٣- من علامة التوبة المقبولة :

أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

أنه لا يزال الخوف مصاحباً له ، لا يأمن مكر الله طرفة عين .

انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوفاً .

٤- أن متاع الدنيا قليل زائل .

٥- أن متاع الآخرة باق لا يزول .

٦- كل نفس ذائقة الموت ، فكل إنسان سوف يموت .

٧- تهديد من تولى وأعرض وكذب بالله ورسله .

٨- شدة يوم القيامة على الكافرين .

٩- إثبات البعث والحساب والجزاء .

١٠- عموم قدرة الله ، وأنه قادر على الإحياء بعد الإماتة ، وعلى جمع الناس وحسابهم .

(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)) .

[هود : ٥] .

(**أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْه**) يَثْنُونَ من الثني بمعنى الطى والستر. يقال: ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة ، وثنى الصدور: إمالتها وطأطأتها وحنيها بحيث تكون القامة غير مستقيمة. والاستخفاء: محاولة الاختفاء عن الأعين، ومنه قوله تعالى يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ، و(يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُم) أي : يتدثرون ويتغطون بها، مبالغة في الاستخفاء عن الأعين.

وقد اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية على أقوال ذكرها العلماء : ملخصها :

قيل : نَزَلَتْ فِي بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ ، كَانَ إِذَا مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ ثَنَى صَدْرَهُ وَظَهْرَهُ ، وَطَوْطَأَ رَأْسَهُ وَغَطَّى وَجْهَهُ لِكَيْلَا يَرَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْعُوَهُ إِلَى الْإِيمَانِ.

وقيل : نزلت في قوم كانوا لشدة عداوتهم رسولَ الله ﷺ إذا سمعوا منه القرآن حنَوا صدورهم ، ونكسوا رؤوسهم ، وتغشوا ثيابهم ليبعد عنهم صوت رسول الله ﷺ ولا يدخل أسماعهم شيء من القرآن

وقيل : نزلت في الأخنس بن شِريق ، وكان رجلاً حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء.

وقيل : (يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ) أي : يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف ، قال ابن عباس : يخفون ما في صدورهم من الشَّحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه.

وَقِيلَ : كَانُوا إِذَا عَمِلُوا سُوءًا ثَنَوْا صُدُورَهُمْ وَغَطَّوْا رُءُوسَهُمْ ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَخْفَوْا بِهِ عَمَلَهُمْ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .

والله أعلم .

والمقصود : أن هذا إخبار عن معاداة المشركين للنبيّ ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم .

(**أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**) أي : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم، ويتدثرون بثيابهم، يعلم الله تعالى ما يسرونه في قلوبهم من أفكار، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال، لأنه سبحانه محيط بما تضمره النفوس من خفايا، وما يدور بها من أسرار.

(**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**) أي : بما فيها من الإرادات ، والوساوس ، والأفكار التي لم ينطقوا بها سراً ولا جهراً ، فكيف تخفى عليه حالكم ، إذا أثنيتم صدوركم لتستخفوا منه .

- ومعنى (ذات الصدور) أي: صاحبة الصدور وهي القلوب، لأنها في الصدور كما قال تعالى (إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

والمعنى: أن الله تعالى يعلم ما في القلوب التي في الصدور وما فيها من المكنونات والخفيات، لأن القلوب عليها مدار التقوى والصلاح كما قال ﷺ (التقوى ههنا) وأشار ﷺ إلى صدره، وقال ﷺ : إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب .

- **قال السعدي** قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم

الفوائد :

١- عموم علم الله لكل شيء .

٢- تهديد شديد ووعيد عظيم لمن يبطن في قلبه الخبث والعداء للإسلام وغيرها من أمراض القلوب .

٣- جهل هؤلاء الكفار ، حيث يعتقدون أن الله لا يعلم ما تنطوي عليه القلوب .

٤- وجوب الإيمان بأن الله يعلم كل شيء .

٥- أن من أيقن بعموم علم الله للسر والعلن ، فإن ذلك يقوده إلى التقوى والإخلاص وطهارة القلب .

قال الشنقيطي : اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَاعِظًا أَكْبَرَ ، وَلَا زَاجِرًا أَعْظَمَ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ وَأَمْثَالُهَا فِي الْقُرْآنِ ، مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَعْمَلُهُ خَلْقُهُ ، رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، لَيْسَ بِغَائِبٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ، وَضَرَبَ الْعُلَمَاءُ لِهَذَا الْوَاعِظِ الْأَكْبَرِ ، وَالزَّاجِرِ الْأَعْظَمِ مَثَلًا لِيَصِيرَ بِهِ كَالْمَحْسُوسِ ، فَقَالُوا : لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ مَلِكًا قَتَّالًا لِلرِّجَالِ ، سَفَّاكًا لِلدِّمَاءِ ، شَدِيدَ الْبَطْشِ وَالنَّكَالِ عَلَى مَنِ انْتَهَكَ حُرْمَتَهُ ظُلْمًا ، وَسَيَّافُهُ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، وَالنَّطْعُ مَبْسُوطٌ لِلْقَتْلِ ، وَالسَّيْفُ يَقْطُرُ دَمًا ، وَحَوْلَ هَذَا الْمَلِكِ الَّذِي هَذِهِ صِفَتُهُ جَوَارِيهِ وَأَزْوَاجُهُ وَبَنَاتُهُ ، فَهَلْ تَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْحَاضِرِينَ يَهُمُّ بِرِيبَةٍ أَوْ بِحَرَامٍ يَنَالُهُ مِنْ بَنَاتِ ذَلِكَ الْمَلِكِ وَأَزْوَاجِهِ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عَالِمٌ بِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ ؟ ! لَا ، وَكَلَّا ! بَلْ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ يَكُونُونَ خَائِفِينَ ، وَجِلَةً قُلُوبُهُمْ ، خَاشِعَةً عُيُونُهُمْ ، سَاكِنَةً جَوَارِحُهُمْ خَوْفًا مِنْ بَطْشِ ذَلِكَ الْمَلِكِ .

وَلَا شَكَّ «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» أَنَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَلَّ وَعَلَا أَشَدُّ عِلْمًا ، وَأَعْظَمُ مُرَاقَبَةً ، وَأَشَدُّ بَطْشًا ، وَأَعْظَمُ نَكَالًا وَعُقُوبَةً مِنْ ذَلِكَ الْمَلِكِ ، وَحِمَاهُ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، فَإِذَا لَاحَظَ الْإِنْسَانُ الضَّعِيفُ أَنَّ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَيْسَ بِغَائِبٍ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ وَمَا يَنْوِي لَانَ قَلْبُهُ ، وَخَشِيَ اللَّهَ تَعَالَى ، وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا .

الجمعة: ٢/رمضان/١٤٣٩هـ

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)) .

[هود : ٦] .

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) يخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها .

- والرزق : ما يسوقه الله لخلقه ليقيم به شؤون حياته .

قيل لأبي أسيد : من أين تأكل؟ فقال : سبحان الله والله أكبر إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد .

وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال : كأن ما له إلا السماء يا هذا الأرضُ له والسماءُ له ؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أخافُ الفقرَ واللّهُ رازقي . . .ورازق هذا الخلق في العُسْرِ واليُسْرِ

تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهِمْ . . .وللضَّبِّ في البيداءِ والحُوتِ في البحرِ

(**وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا**) أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها.

وقيل : (وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا) أي: حيث تأوي (وَمُسْتَوْدَعَهَا) حيث تموت.

(**كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**) أي : وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك ، وهو اللوح المحفوظ .

فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها ، وأحاط علماً بذواتها ، وصفاتها .

- ما قال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .

وقوله تعالى (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

- وللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق: سماه القرآن بالكتاب .

كما في قوله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

وبالإمام المبين , كما في قوله تعالى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ).

وبالكتاب المسطور , كما في قوله تعالى (وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ).

وبأم الكتاب , كما قال تعالى (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ).

الفوائد :

١- أن الله متكفل كل دابة على وجه الأرض .

٢- أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .

٣- أن الرزاق هو الذي يستحق العبادة والخضوع .

٤- على الإنسان أن يطمئن ، فإن قد تكفل برزقه .

٥- عموم علم الله بكل شيء .

٦- الإيمان بأن الله يعلم كل شيء ، وأن كل شيء مكتوب .

وهذه من مراتب الإيمان بالقدر .

فإن الإيمان بالقدر لا يتم إلا بأربعة أمور :

منها : الإيمان بعلم الله الشامل .

معناه : الإيمان بأن الله تعالى قد علم بعلمه الأزلي الأبدي ما كان وما يكون من صغير ، وكبير ، وظاهر ، وباطن مما يكون من أفعاله أو أفعال مخلوقاته .

دليل هذه المرتبة :

قال تعالى : (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) .

وقال تعالى : (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) .

ومنها : **أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء .**

ومعناه : الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ، فما من شيء كان أو يكون إلا وهو مكتوب مقدر قبل أن يكون .

ودليل هذه المرتبة :

قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) .

عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) . رواه مسلم .

وهناك آية فيها دليل لكلا المرتبتين :

قال تعالى (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) .

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)) .

[هود : ٧- ٨] .

(**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**) أي : الذي أوجدها على تقدير محكم , لأن الأصل أن الخلق لغة هو التقدير .

والله يحمد على ذلك كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) .

- وإنما ذكر السموات والأرض , لأنهما من أعظم المخلوقات .
- وخلقهما بالحق كما سيأتي إن شاء الله .

قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

أي: وليس عبثاً , فإن الله منزه عن العبث , فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة , فالحق ضد الباطل , فالله خلقهما لحكم باهرة , لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّار).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون).

(**فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.

- **قال ابن عطية**: وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء.
- **وقال القرطبي**: قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.
- **وقال ابن كثير**: والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة –وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.
- وقد اختلف في مقدار هذه الأيام:

فقيل: كأيامنا هذه.

لأن الله أطلقها، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه.

وقيل: كل يوم مقدار خمسين ألف سنة.

وقيل: المراد باليوم لحظة.

والراجح الأول.

- فإن قيل: أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

قال تعالى (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (... قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (هو الذي يحي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

- وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين:

الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها.

الحكمة الثانية: أن الله علم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه.

- هذه الأيام أربعة منها للأرض، ويومان للماء، كما فصل ذلك في سورة فصلت (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ

سَمَاء أَمْرَهَا ...) .

- **قال الإمام القرطبي**: وذكر هذه المدة – أي ستة أيام – ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد:
  - o أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.
  - o ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء ... .
  - o وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً، وبيّن بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً ... .
- **وقال ابن الجوزي**: فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).

والرابع: أنه علّم عباده التثبت، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق.) ا. هـ.

- وقال القاضي أبو السعود (... وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور) ا.

(**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**) أي : كان قبل خلقهما عرشه على الماء ، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السموات والأرضين.

وقد جاء في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء) .

والعرش: لغة عبارة عن السرير الذي للملك، سمي عرشاً لارتفاعه عليه

وشرعاً: هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات .

وقد ذكره الله في كتابه في سبعة مواضع ، وأنه استوى عليه سبحانه وتعالى استواء يليق بجلاله .

وقد وصفه الله بأوصاف عظيمة.

وصفه بالعظمة:

قال تعالى (ورب العرش العظيم).

ووصفه بأنه كريم:

قال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

ومدح نفسه سبحانه بأنه ذو عرش:

كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش).

وأخبر سبحانه أن للعرش حملة:

قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله ...).

وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية).

وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض:

قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء).

وأخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس:

قال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن).

وله قوائم:

قال ﷺ (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ...).

- **قال الشنقيطي** : وفي هذه الآية دلالة على أن العرش موجود قبل خلق السماوات والأرض وأن الماء كان تحته ، ولم تكن حينئذ أرض ولا سماء .

(**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا**) ولم يقل : أكثر عملاً .

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

كما قال تعالى هنا (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) ولم يقل أيكم أكثر عملاً.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

فالإحسان: أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون.

قال الشنقيطي : صَرَّحَ تعالى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِحِكْمَةِ ابْتِلَاءِ الْخَلْقِ، وَلَمْ يَخْلُقْهُمَا عَبَثًا وَلَا بَاطِلًا، وَنَزَّهَ نَفْسَهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، وَصَرَّحَ بِأَنَّ مَنْ ظَنَّ ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَهَدَّدَهُمْ بِالنَّارِ، قَالَ تَعَالَى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

- وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى،

ولذلك فسر ذلك النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان؟ (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم.

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

- فعلى المسلم أن ينظر إلى إحسان العمل وإخلاصه لا إلى كثرته .

وإحسان العمل : اتقان العمل إخلاصاً ومتابعة .

قال ابن رجب : والحامل على ذلك أن يعبد العبد ربه كأنه يراه .

وعلم ﷺ معاذاً أن يقول (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

وقد وصى ﷺ رجلاً أن يصلي صلاة مودع ، يعني يستشعر أنه يصلي صلاة لا يصلي بعدها صلاة أخرى ، فيحمله على ذلك إتقانها وتكميلها وإحسانها .

وقد وردت أحاديث فضائل الأعمال مقيدة بإحسان العمل .

كما في حديث أَبَي سَعِيدٍ الْخُدْرِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا ، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلاَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا)

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا) متفق عليه .

وعن عثمان . قال : قال ﷺ (من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده ...) رواه مسلم .

وكان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون مجرد الإكثار منه ، فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان أفضل من الكثير مع عدم الإتقان .

قال بعض السلف : إن الرجلين ليقومان في الصف وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض .

وقال بعض السلف : لا يقل عمل مع تقوى ، وكيف يقل ما يتقبل ؟ يشير إلى قوله تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين) .

وقد جاء في صحيح مسلم قال ﷺ (لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدْعُ به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً) .

وجاء في حديث (وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة) .

قال ابن تيمية : وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له) .

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها ، وإلا **فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها** .

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق , فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه , فغفر له بذلك ، **فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص** , وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض , **وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له** .

قال ابن المبارك : رب عمل صغير تكبره النية ، ورب عمل كبير تصغره النية .

(**وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ**) يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم _ مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض –

(**لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ**) أي: يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول.

(**وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ**) إمهالاً لا إهمالاً وغفلة .

(**إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ**) يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيبا واستعجالاً .

- **قال ابن عاشور** : و(معدودة) معناه مقدرة ، أي مؤجلة ، وفيه إيماء إلى أنّها ليست مديدة لأنّه شاع في كلام العرب إطلاق العَدّ والحساب ونحوهما على التّقليل ، لأن الشيء القليل يمكن ضبطه بالعدد ، ولذلك يقولون في عكسه : بغير حساب ، مثل (والله يرزق من يشاء بغير حساب) .
- أطلقت الأمة في القرآن على عدة معان اذكرها؟

أ-بمعنى الطائفة.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً ...) .

ب-بمعنى الإمام.

كما قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً) .

ج-بمعنى الملة.

كقوله تعالى عن المشركين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ...) .

د-بمعنى الزمن .

كما في هذه الآية .

وكما قال تعالى (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ...) .

قال السعدي : أي: إلى وقت مقدر فتباطأوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم .

(**لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ**) يعني العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذيباً للعذاب لتأخره عنهم ، أو استعجالاً واستهزاء ؛ أي ما الذي يحبسه عنا. (القرطبي) .

- **قال السعدي** : ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلا على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال .

(**أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ**) العذاب .

(**لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ**) أي : ليس محبوساً عنهم ، بل واقع بهم لا محالة .

(**وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**) أي : أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ، ووضع يستهزءون مكان يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم ، وعبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه ، فكأنه قد حاق بهم.

الفوائد :

١- أن الخالق هو الله .

٢- أن الخالق هو الذي يستحق العبادة ، قال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) .

٣- حكمة الله تعالى في خلق السماوات والأرض في ستة أيام .

٤- أن أفعال الله قائمة على الحكمة .

٥- حكمة الله في خلق الكون : وهو الابتلاء والاختبار : أيهم أحسن عملاً .

٦- أهمية إحسان العمل .

٧- إحسان العمل وإتقانه أولى وأهم من كثرته مع قل الإتقان .

٨- أن العبرة بالأعمال بما في القلوب من الإخلاص والإحسان .

٩-وجوب الإيمان بالبعث .

١٠- أن من أنكر البعث فهو كافر .

١١- حكمة الله في تأخير العذاب عن الكفار ، وأن الله يؤخر عنهم العذاب لحكمة لا إهمالاً .

١٢- أن وقوع عذاب الله له وقت محدد يعلمه الله .

١٣- أن عذاب الله إذا جاء لا يرد .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)) .

[هود : ٩- ١١] .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) أي : ولئن منحنا الإنسان- بفضلنا وكرمنا- بعض نعمنا، كالصحة والغنى والسلطان والأمان ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ أي: ثم سلبناها منه، لأن حكمتنا تقتضي ذلك.

إِنَّهُ في هذه الحالة لَيَؤُسٌ كَفُورٌ أي : لشديد اليأس والقنوط من أن يرجع اليه ما سلب منه أو مثله، ولكثير الكفران والجحود لما سبق أن تقلب فيه من نعم ومنن.

- **قال الشوكاني:** وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه: لأن الإذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ) أي : ولئن أذقنا هذا الإنسان اليؤوس الكفور نَعْماءَ بعد ضراء مسته كصحة بعد مرض، وغنى بعد فقر، وأمن بعد خوف، ونجاح بعد فشل..

(**لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي**) أي : ليقولن في هذه الحالة الجديدة ببطر وأشر، وغرور وتكبر، لقد ولت المصائب عنى الأدبار، ولن تعود إلي .

(**إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ**) أي : لشديد الفرح والبطر بالنعمة: كثير التباهي والتفاخر بما أعطى منها، مشغول بذلك عن القيام بما يجب عليه نحو خالقه من شكر وثناء عليه- سبحانه-.

- **قال ابن عاشور** : وشدة الفرح : تجاوزه الحد وهو البطر والأشَر ، كما في قوله (إنّ اللهَ لاَ يُحبُّ الْفَرحين) .

والفخر : تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للنّاس.

والمعنى أنّه لا يشكر الله على النعمة بعد البأساء وَمَا كان فيه من الضرّاء فلا يتفكر في وجود خالق الأسباب وَنَاقل الأحوال ، والمخالف بين أسبابها.

- **قال ابن القيم** : قوله (ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عني) لَو أَنه قَالَ أذهب الله السَّيِّئَات عني برحمته وَمِنْه لما ذمّ على ذَلِك بل كَانَ مَحْمُودًا عَلَيْهِ وَلكنه غفل عَن الْمُنعم بكشفها وَنسب الذّهاب إِلَيْهَا فَرح وافتخر فَإِذا علم الله سُبْحَانَهُ هَذَا من قلب عبد فَذَلِك من أعظم أَسبَاب خذلانه وتخليه عَنهُ فَإِن مَحَله لَا تناسبه النِّعْمَة الْمُطلقَة التَّامَّة .   (الفوائد) .

- **وقال رحمه الله** : وفي الحديث الصحيح : أن ثلاثة أراد الله أن يبتليهم أبرص وأقرع وأعمى فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه وأنه كان أعمى فقيرا فأعطاه الله البصر والغنى وبذل للسائل ما طلبه شكرا لله وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كان عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر وقال في الغنى إنما أوتيته كابرا عن كابر وهذا حال أكثر الناس لا يعترف بما كان عليه أولا من نقص أو جهل وفقر وذنوب وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه وأنعم بذلك عليه .   (شفاء العليل) .

- إن قيل : ما وجه عيب الإنسان في قوله (ذهب السيئات عني) وما وجه ذمه على الفرح، وقد وصف الله الشهداء فقال (فرحين) ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : إنما عابه بقوله (ذهب السيئات عني) لأنه لم يعترف بنعمة الله ، ولم يحمَده على ما صُرف عنه ، وإنما ذمه بهذا الفرح ، لأنه يرجع إلى معنى المرح والتكبُّر عن طاعة الله .

- وإنها أيضاً لصورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، فلا يتذكر فيما مضى، ولا يتفكر فيما سيكون عليه حاله بعد الموت، ولا يعتبر بتقلبات الأيام، فهو يؤوس كفور إذا نزعت منه النعمة، وهو بطر فخور إذا عادت إليه، وهذا من أسوأ ما تصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مرذولة.   (التفسير الوسيط) .

- **قال الرازي** : قوله (الإنسان) في هذه الآية فيه قولان :

القول الأول : أن المراد منه مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه تعالى استثنى منه قوله (إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات) والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه

لدخل ، فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر ، وذلك يدل على ما قلناه.
الثاني : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى (والعصر . إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات) وموافقة أيضاً لقوله تعالى (إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً) .

الثالث : أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز.
قال ابن جريج في تفسير هذه الآية يا ابن آدم إذا نزلت لك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نزعت منك فيؤس قنوط.
والقول الثاني : أن المراد منه الكافر .
قالو : إن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر لأنه وصفه بكونه يؤوساً ، وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ووصفه أيضاً بكونه كفوراً ، وهو تصريح بالكفر ووصفه أيضاً بأنه عند وجدان الراحة يقول (ذهب السيئات عني) وذلك جراءة على الله تعالى ، ووصفه أيضاً بكونه فرحاً (والله لاَ يُحِبُّ الفرحين) ووصفه أيضاً بكونه فخوراً ، وذلك ليس من صفات أهل الدين.

- **قال الشنقيطي** : في هذه الآية ذكر تعالى أن عادة الإنسان الجزع عندما يصيبه شر من فقر ومرض وغيرهما ، والبطر عندما يحصل له خير من عافية وغني وغيرهما ، فهو معيب في كلا طرفي الابتلاء ، فهو لا ينجح في الأمرين ، إذ لا يشكر نعمة ولا يصبر على نقمة .

وَقَدْ أَوْضَحَ جَلَّ وَعَلَا هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ :
كَقَوْلِهِ تعالى في سورة فصلت (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) .
وَقَوْلِه تعالى في سورة الروم (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) .
وَقَوْلِهِ فِيهَا أَيْضًا (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) .
وَقَوْلِهِ تعالى فِي سُورَةِ يس (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ) .
وَقَوْلِهِ تعالى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) .
وَقَوْلِهِ فِيهَا أَيْضًا (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

- أما المؤمن الحق ، فقد بيّن النبي ﷺ أنه بخلاف ذلك : يشكر عند السراء ، ويصبر عند الضراء .

قال ﷺ (عَجَباً لأمْرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خيرٌ ولَيسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ للمُؤْمِن : إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيراً لَهُ ، وإنْ أصَابَتْهُ ضَراءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْراً لَه) .

- ثم استثنى الله من هذا الخلق السيء

(**إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا**) عند الضراء فلم ييأسوا ، وعند السراء فلم يبطروا .

- **قال الخازن** : هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم ليسوا كذلك فإنهم إن نالتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا عليها (أولئك) يعني من هذه صفتهم (لهم مغفرة) يعني لذنوبهم (وأجر كبير) يعني الجنة.
- **قال ابن عاشور** : ومنْ معاني الصبر انتظار الفرج ولذلك أوثرَ هنا وصفُ (صبروا) دون (آمنوا) لأنّ المرادَ مقابلة حالهم بحال الكفّار في قوله (إنّه ليؤوس كفور) .

ودل الاستثناء على أنّهم متّصفون بضد صفات المستثنى منهم.

وفي هذا تحذير من الوقوع فيما يماثل صفات الكافرين على اختلاف مقادير.

- وفي هذا فضل الصبر .

أولاً : معية الله للصابرين .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

ثانياً : محبة الله لهم .

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

ثالثاً : إطلاق البشرى لهم .

قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) .

رابعاً : إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم .

قال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

خامساً : ضمان المدد والنصرة لهم .

قال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

سادساً : استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم .

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) .

وقال تعالى (وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

سابعاً : حفظهم من كيد الأعداء .

قال تعالى (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

ثامناً : سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين .

قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .

قال ابن تيمية : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا هذه الآية (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

تاسعاً : أنه من أسباب النصر .

كما في حديث ابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر) .

عاشراً : أمر الله به المؤمنين .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

الحادي عشر : الصبر ضياء .

كما قال ﷺ (والصبر ضياء) .

قال ابن رجب : ولما كان الصبر شاقاً على النفوس ، يحتاج إلى مجاهدة النفس ، وحبسها وكفها عما تهواه ، كان ضياء ، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر .

الثاني عشر : أنه خير ما أعطي العبد .

قال ﷺ (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم .

- فعلى المسلم أن يصبر ويتصبر حتى يتعود على الصبر .

عن أبي سعيد (أَنَّ نَاساً مِنَ الأَنْصَارِ سَألوا رسولَ الله ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَألوهُ فَأَعْطَاهُمْ ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِندَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيءٍ بِيَدِهِ (مَا يَكُنْ عِنْدي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفهُ اللهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ . وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) مُتَّفَقٌ عليه .

- **قال السعدي** : وإنما كان الصبر أعظم العطايا ، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته ، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر ، فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله ، حتى يقوم بها ويؤديها ، وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله ، وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة ، فلا يتسخطها ، بل إلى صبر على نعم الله ومحبوبات النفس ، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرح المذموم ، بل يشتغل بشكر الله ، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر ، وبالصبر ينال الفلاح ، ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) وكذلك قوله (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) .

فهم نالوا الجنة بنعيمها ، وأدركوا المنازل بالصبر ، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا يدري ما عاقبته ، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر ، فالعافية هي المطلوبة بالأصالة في أمور الابتلاء والامتحان ، والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته ، والله هو المعين .

(**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) من واجبات ومستحبات .

ولعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين: الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعاً للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

فمن عمل عملاً أشرك به مع الله غيره ولو يسير الرياء كان عمله غير صالح، ومن أخلص لله لكن على غير شريعة رسول الله ﷺ كان عمله غير صالح .

- **قال السعدي**: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه.
- ودائماً يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...).

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...).

(**أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**) يستر الله ذنوبهم جزاء صبرهم وشكرهم .

وفي هذا زوال المرهوب.

(**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**) أي : ثواب كبير عظيم ، وهو الجنة .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

وقال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...).

والأجر في اللغة جزاء العمل .

- وسمي الثواب أجراً: لأنه سبحانه التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير.
- ووصفه بالكِبَر لما في الجنة من عظيم الشأن، لأن الله يقول فيها (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، ولأجل هذا وصِف هذا الجزاء بالعظم، وقد جاء مفصلاً في القرآن جميع ملاذه، كالمناكح في النساء التي هن في غاية الجمال، والملابس التي هي في غاية الجمال، والمشارب، والأواني والحلي والولدان وغيرها من النعيم، وأعلى ذلك النظر إلى وجهه الكريم.
- وفي هذا حصول المطلوب
- وقدم المغفرة على الأجر العظيم، لأن التخلية قبل التحلية، فغفر لهم وطهرهم من الذنوب أولاً ثم آتاهم الأجر العظيم.

الفوائد :

١- شدة يأس الإنسان إذا أصابه ما يكره .

٢- قلة صبر الإنسان عند حدوث المكروهات .

٣- طغيان الإنسان عند النعم ، وأنه يطغى وينسى الشكر .

٤-المسلم الحقيقي يصبر عن الشدائد ، ويشكر عند النعم .

٥- فضل الصبر ، وأنه سبب لكل فضيلة .

٦-فضل العمل الصالح .

(**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)**) .

[هود : ١٢] .

(**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ** ....) كان النبي ﷺ يشق عليه تكذيب قومه له ، وادعاء أنه ساحر وكاهن وشاعر ، والقرآن سحر وكهانة ، فحرصه الله تعالى أن يبلغ ما أوحي إليه ، لأن ذلك وظيفته ، ولا يلتفت إلى شدة إنكارهم وتكذيبهم .

- واختلف في (لعل) على أوجه أظهرها ، أنه قصد بها النهي والزجر ، كما يقول للعبد : لعلك تفرط في الأمر الفلاني ، والقصد من ذلك توبيخه وزجره عن التفريط .

والمعنى : إياك يا محمد أن تترك بعض ما يوحى إليك أو يضيق به صدرك .

فقوله (**تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ**) مما يشق على الكفار سماعه ودعوتهم إليه .

(**لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ**) الكنز المراد به الذهب والفضة ، و (لولا) بمعنى : هلا ، للتحضيض والطلب بشدة .

والمعنى : أنهم يقولون : إذا كنت رسولاً من عند الله فلم لا نرى معك شيئاً من الغنى والكنوز ، وأنت مثلنا تأكل الطعام وتمشي في الأسواق .

كما قال تعالى (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا) .

(**أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ**) أي : ليأمر الناس باتباعه ويشهد له بالرسالة حتى نصدقه .

(**إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ**) أي : لم نرسلك لتأتينهم بما يقترحون عليك من الآيات ، وليس ذلك من وظيفتك ، وإنما وظيفتك أن تنذرهم وتخوفهم عقوبة ربهم .

وقد بين تعالى أنه أنزل آية عظيمة يُستنكر أن يُطلب غيرها من المعجزات ، لأنها كافية لمريد الحق ، وهي كتابه العزيز .

قال تعالى (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

(**وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**) فهو الوكيل عليهم ، يحفظ أعمالهم ، ويجازيهم بها أتم الجزاء .

فالوكيل : الحافظ الذي تسند إليه الأمور ليكفي غيره ، وهو من أسماء الله تعالى . (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) .

الفوائد :

١- ذم من هذا عمله ، الجزع عند الشدائد ، والبطر عند النعم .

٢-وجوب الصبر عند الشدائد .

٣- وجوب الصبر عند النعم ، وذلك بالقيام بشكرها واستعمالها فيما يرضي الله تعالى .

٤- أن المؤمن الحق يصبر عند الشدائد ، ويشكر عند النعم .

٥- أن الشدائد تحتاج إلى صبر ، وكذلك النعم تحتاج إلى صبر .

الأحد : ٤/رمضان/١٤٣٩هـ

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)) .

[هود : ١٣ – ١٤] .

(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**) بل أيقولون: إن هذا القرآن افتراه محمد من عند نفسه؟ فإنهم يعلمون أنه بشر مثلهم .

(**قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ**) أي : قل لهم: يا محمد على سبيل التبكيت والتحدي: إن كان الأمر كما زعمتم من أني أنا الذي اختلقت هذا القرآن، فأتوا أنتم يا فصحاء العرب بعشر سورة مفتريات كما زعمتم أن يفترى ، وقد أبحت لكم مع ذلك أن تدعوا لمعاونتكم ومساعدتكم في بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله تعالى .

(**إِن كُنتُمْ صَادِقِين**) أي : إن كنتم صادقين في زعمكم أني افتريت هذا القرآن، فهاتوا أنتم عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم.

- والضمير في (مِثْلِهِ) يعود إلى القرآن الكريم، والمراد بمثله هنا: ما يشابهه في حسن النظم، وجمال الأسلوب، وسداد المعنى، وقوة التأثير.

وكلمة مَنِ في قوله (مَنِ اسْتَطَعْتُمْ) تشمل آلهتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة.

- وقد وقع التحدي بالقرآن على أوجه :

تحداهم أن يأتوا بقرآن بمثل هذا القرآن : (في الطور) .

قال تعالى (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) ، وقال تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) .

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله : (في هود) .

كما قال هنا (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله . (في البقرة ويونس) .

في قوله تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وقال تعالى في سورة يونس (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

- وقوله (وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قيل : أعوانكم ونصراءكم ، وقيل : آلهتكم ، وقيل : ائتوا بشهداء يشهدون لكم أن ما أتيتم به يعادل القرآن أو يقاربه .

وهذا غاية التحدي لهم . وهذا كما يقول المعجِز المتحدي لمن عانده وتحداه : اذهب وائت بمن تستطيع من أصحابك وأعوانك وأوليائك لتستعين بهم .

- قوله (فَأْتُواْ) صيغة الأمر هنا للتعجيز .
- (بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ) أي : في الفصاحة والبلاغة وصدق الأخبار وعدل الأحكام .

- وجاءت كلمة (سورة) منكرة، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه.
- **قال ابن كثير** : ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى ، ... فكلٌ من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى ، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ، ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ... لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء .
- فلا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه ، كما قال تعالى (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) أي معيناً .

(**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ**) أي : فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاونة وعجزوا عن ذلك

(**فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ**) أي : فَاعْلَمُوا أيها الناس أن هذا القرآن أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وحده، وبقدرته وحدها ، ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه.

(**وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**) واعلموا -أيضاً- أنه لا إلهَ إلَّا هُوَ سبحانه فهو الإله الحق، الذي تعنو له الوجوه ، وتخضع له القلوب، وتتجه إليه النفوس بالعبادة والطاعة.

(**فَهَلْ أَنتُم**) بعد كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانية الله، وعلى أن هذا القرآن من عنده .

(**مُّسْلِمُونَ**) أي : داخلون في الإسلام، متبعون لما جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسلم.

- ويرى بعض العلماء أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى النبي ﷺ والمسلمين، أو إليه وحده ﷺ وعلى سبيل التعظيم, وعليه يكون المعنى : فإن لم يستجب لكم -أيها المؤمنون- هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق، بعد أن ثبت عجزهم عن الإتيان بما تحديتموهم به (فَاعْلَمُوا) أي فازدادوا علماً ويقيناً وثباتاً، بأن هذا القرآن «إنما أنزل بعلم الله» الذي لا يعزب عنه شيء، وازدادوا علما بأنه لا إله إلا هو سبحانه مستحق للعبادة والطاعة، فهل أنتم بعد كل ذلك (مُسْلِمُونَ) أي ثابتون على الإسلام، وملتزمون بكل أوامره ونواهيه.

الفوائد :

١- إعجاز هذا القرآن .

٢- عظمة القرآن حيث تحدى الله كفار قريش أن يأتوا بمثله .

٣- وجوب العناية بالقرآن حفظاً وتدبراً وفهماً .

٤- أن من أعظم آيات النبي ﷺ هذا القرآن العظيم .

٥- لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن .

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٦)) .

[هود : ١٥- ١٦] .

(**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا**) أي: من كان يريد بأقواله الحسنة وبأعماله الطيبة على حسب الظاهر، الحصول على (الحياة الدنيا وزينتها) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية، بدون التفات إلى ما يقربه من ثواب الآخرة.

(**نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**) أي: نوصل إليهم -بإرادتنا ومشيئتنا- ثمار جهودهم وأعمالهم في هذه الدنيا.

(**وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ**) أي : وهم في هذه الدنيا لا ينقصون شيئا من نتائج جهودهم وأعمالهم، حتى ولو كانت جهوداً لا إخلاص معها ولا إيمان.

(**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**) أي: أولئك الذين أرادوا بأقوالهم وأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها، ليس لهم في الآخرة إلا النار، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة في الدنيا وبقيت عليهم أوزار نياتهم السيئة في الآخرة.

(**وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا**) وفسد ما صنعوه في الدنيا من أعمال الخير، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله تعالى وإنما قصدوا بها الرياء ورضى الناس .

والحبوط : الهلاك والاضمحلال .

(**وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) أي : وباطل في نفسه ما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال ظاهرها البر والصلاح، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب في الآخرة لأن الأعمال بالنيات، ونيات هؤلاء المرائين، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله، وإنما كانت متجهة اتجاها كليا إلى الحياة الدنيا وزينتها، إلى إرضاء المخلوق لا الخالق.

والباطل : الزائل المضمحل .

وهنا مباحث :

مبحث : ١

في الآية ذم من يريد بعمله الصالح الدنيا .

قال تعالى (فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ (٢٠٠) وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .

وفي الحديث (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ) .

مبحث : ٢

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي هَذِهِ الْآيَة :

فقيل : نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ وَاخْتَارَهُ النَّحَّاسُ .

لأن قوله تعالى (أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) لا يليق إلا بالكفار.

وَقِيلَ : الْآيَةُ وَارِدَةٌ فِي النَّاسِ عَلَى الْعُمُومِ كَافِرِهِمْ وَمُسْلِمِهِمْ. وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ حَظَّ الدُّنْيَا يُكَافَأُ

بِذَلِكَ.

وقيل : نزلت في أهل الرياء .

وقيل : أن الآية نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها.

وقيل : أن المراد : اليهود والنصارى ؛ وهو منقول عن أنس.

- **قال ابن الجوزي** : اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال :

أحدها : أنها عامة في جميع الخلق ، وهو قول الأكثرين.

مبحث : ٣

هذه الآية مقيدة بالآية الأخرى في سورة الإسراء .

قال تعالى (من كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً) .

قَالَ الْقُرْطُبِي : ذَهَبَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُطْلَقَةٌ، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي فِي الشورى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها) قَيَّدَتْهَا وَفَسَّرَتْهَا الَّتِي فِي سُبْحَانَ: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها مَا نَشاءُ لِمَنْ نُرِيد .

مبحث : ٤

إشكال وجوابه :

قال الشنقيطي : هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن الكافر يُجازى بحسناته ؛ كالصدقة وصلة الرحم وقرى الضيف والتنفيس عن المكروب ، في الدنيا دون الآخرة ؛ لأنه تعالى قال : (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) يعني الحياة الدنيا ، ثم نصَّ على بطلانها في الآخرة بقوله :(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) الآية .

ونظير هذه الآية قوله تعالى (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) .

وقد صحَّ عنه ﷺ أن الكافر يُجازى بحسناته في الدنيا .

مع أنه جاءت آيات أُخر تدلُّ على بطلان عمل الكافر واضمحلاله من أصله ، وفي بعضها التصريح ببطلانه في الدنيا مع الآخرة في كفر الرِّدَّة وفي غيرها .

أما الآيات الدالّة على بطلانه من أصله :

فكقوله (أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) .

وكقوله (أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ) .

وقوله (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا) .

وأما الآيات الدالة على بطلانه في الدنيا مع الآخرة :

فكقوله في كفر المرتد (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)

.

وكقوله في كفر غير المرتد (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ) إلى قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) .

والجواب من أربعة أوجه :

الأول والذي يظهر لي صوابه لدلالة ظاهر القرآن عليه : أن من الكفار من يثيبه الله بعمله في الدنيا ، كما دلَّتْ عليه آيات وصحَّ به الحديث ، ومنهم من لا يثيبه الله بعمله في الدنيا ، كما دلت عليه آيات وصحَّ به الحديث ، وهذا مُشاهد فيهم في الدنيا ، فمنهم من هو في عيش رغد ، ومنهم من هو في بؤس وضيق .

ووجه دلالة القرآن على هذا ، أنه تعالى أشار إليه بالتخصيص بالمشيئة في قوله (من كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ) فهي مخصصة لعموم قوله تعالى (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُم) .

وعموم قوله تعالى (وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا)

ويدل لهذا التخصيص قوله في بعض الكفار (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) .

وجمهور العلماء من حمل العام على الخاص ، والمطلق على المقيد ، كما تقرر في الأصول .

الثاني : وهو وجيه أيضاً: أن الكافر يُثاب عن عمله بالصحة وسعة الرزق والأولاد ونحو ذلك، كما صرح به تعالى في قوله (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا) يعني الدنيا ، وأكد ذلك بقوله (وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ) وبظاهرها المتبادر منها كما ذكرنا .

فسرها ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ،والضحاك كما نقله عنهم ابن جرير .

وعلى هذا : فبطلان أعمالهم في الدنيا بمعنى أنها لم يعتد بها شرعاً في عصمة دم ، ولا ميراث ولا نكاح ، ولا غير ذلك ، ولا تفتح لها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى الله تعالى ، بدليل قوله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ) .

ولا تُدَّخر لهم الأعمال النافعة ، ولا تكون في كتاب الأبرار في عليين ، وكفى بهذا بطلاناً .

أما مطلق النفع الدنيوي بها ، فهو عند الله لا شيء ، فلا يُنافي بطلانها ؛بدليل قوله (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ) .

وقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) .

وقوله (وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) إلى قوله (للمتقين) والآيات في مثل هذه كثيرة .

ومما يوضح هذا المعنى حديث : لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء .

الفوائد :

١- ذم من يطلب بعمله الصالح الدنيا .

٢- أن طلب الدنيا بعمل الآخرة يبطل ثوابها .

٣-خطر الرياء .

٤- خطر فتنة الدنيا .

٥-أن الله قد يجازي الكافر في الدنيا على حسناته ، وكذا طالب الدنيا ، فلا يبقى معه في الآخرة شيء من

ثواب أعماله .

٦-أن الشرك يبطل الأعمال .

(**أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٧)**) .

[هود : ١٧] .

(**أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ**) أي : أفمن كان على نور واضح، وبرهان ساطع من الله تعالى، وهو النبي ﷺ والمؤمنون، وجوابه محذوف أي كمن كان يريد الحياة الدنيا؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً، وتبايناً بعيداً، فلا يستوي .

- **قال ابن الجوزي** : في المشار إليه ب "مَنْ" قولان :

أحدهما : أنه رسول الله ﷺ ، قاله ابن عباس والجمهور.

(**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ**) أي : ويتبعه شاهد من الله بصدقه قال ابن عباس: هو جبريل عليه السلام .

- **قال الواحدي** : هو جبريل في قول أكثر المفسرين .
- **قال البغوي في تفسير الآية** : قوله تعالى (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ) بيان (مِنْ رَبِّهِ) قيل: في الآية حذف، ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، أو مَنْ كان على بينة من ربه كمن هو في الضلالة والجهالة .

والمراد بالذي هو على بينة من ربه: النبي ﷺ .(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) أي: يتبعه من يشهد به بصدقه. واختلفوا في هذا الشاهد فقال ابن عباس، وعلقمة، وإبراهيم، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وأكثر أهل التفسير: إنه جبريل عليه السلام.

- **وقال الشوكاني** : بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ بَيْنَ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلدُّنْيَا فَقَطْ، وَمَنْ كَانَ طَالِبًا لِلْآخِرَةِ، تفاوتا عظيما، وتباينا بعيدا المعنى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فِي اتباع النبيّ ﷺ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ كَغَيْرِهِ مِمَّنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ: النَّبِيُّ ﷺ ، أَيْ : أَفَمَنْ كَانَ مَعَهُ بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ وَمُعْجِزَةٌ كَالْقُرْآنِ وَمَعَهُ شَاهِدٌ كَجِبْرِيلَ، وَقَدْ بَشَّرَتْ بِهِ الْكُتُبُ السَّالِفَةُ، كَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا. وَمَعْنَى الْبَيِّنَةِ: الْبُرْهَانُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ .

(**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى**) أي : ومن قبل هذا الشاهد التالي للبينة شاهر آخر ، وهو كتاب موسى ، والمراد

به التوراة .

قال ابن الجوزي : قال الزجاج : والمعنى : وكان من قبل هذا كتاب موسى دليلاً على أمر النبي ﷺ ، فيكون "كتاب موسى" عطفا على قوله : (ويتلوه شاهد منه) أي : ويتلوه كتاب موسى ، لأن موسى وعيسى بشَّرا بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل.

ونصب "إماما" على الحال.

فإن قيل : كيف تتلوه التوراة ، وهي قبله؟

قيل : لما بشَّرت به ، كانت كأنها تالية له ، لأنها تبعته بالتصديق له.

(**إِمَامًا**) الإمام : هو الذي يؤتم به في الدين ويقتدى به .

- **قال الخازن** : يعني أنه كان إماماً لهم يرجعون إليه في أمور الدين والأحكام والشرائع .

(**وَرَحْمَةً**) الرَّحْمَةُ: النِّعْمَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى مَنْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ بِاعْتِبَارِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُوَافِقَةِ لِحُكْمِ الْقُرْآنِ .

- **قال الخازن** : وكونه رحمة لأنه الهادي من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة .

(**أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**) أي : أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدقون بالقرآن حق التصديق .

(**وَمَن يَكْفُرْ بِهِ**) أي : بالقرآن ، أو بالنبي ﷺ .

(**مِنَ الأَحْزَابِ**) المراد كل حزب ، سواء كان من النصارى ، أو من اليهود ، أو من المجوس ، أو من غيرهم .

(**فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**) أي : ومن يكفر بالقرآن ، من أهل الملل والأديان ، فله نار جهنم يدخلها لا محالة .

وفي هذا دليل على عموم رسالة النبي ﷺ ، وقد كثرت النصوص في أن دعوة ورسالة النبي ﷺ عامة لجميع الناس .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) .

وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) أَيْ: وَأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ.

وَقال تعالى (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) .

وَقَالَ تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) .

وَقَالَ ﷺ (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، ....، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّة) متفق عليه .

وقال ﷺ (وأرسلت إلى الخلق كافة) رواه مسلم .

وفي رواية (وبعثت إلى كل أحمر وأسود) .

قيل : المراد بالأحمر العجم ، والأسود العرب ، **وقيل** : الأحمر الإنس ، والأسود الجن

وَقَالَ ﷺ (لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّار) رواه مسلم .

(**فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ**) المرية : الشك ، أي : لاتكن في شك .

والنبي ﷺ لا يشك ، ولكنه قد يؤمر وينهى تشريعاً لغيره .

- **قال الشوكاني** : وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِغَيْرِهِ ﷺ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ عَنِ الشَّكِّ فِي الْقُرْآنِ .

(**إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**) أي : هذا القرآن هو الحق ، الثابت الذي لا يزول ولا يضمحل ، والمراد أنه مطابق للواقع لا كذب فيه .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) هذه الآية تدل على أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين ، فأهل النار هم الأكثر ، كما جاء في آيات كثيرة وأحاديث .

كما قال تعالى (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ).

وقال تعالى (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

وقال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

وقال تعالى (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ).

وقال تعالى في شأن نوح (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ).

وقال ﷺ (إنما أنتم في الأمم كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض) متفق عليه.

وقال ﷺ (يأتي يوم القيامة النبي وليس معه أحد).

الفوائد :

١- لا يستوي من كان على بينة من ربه ومن ليس كذلك .

٢- الحرص على طلب العلم الشرعي ليكون الإنسان على بينة من ربه .

٣- الأدلة كثيرة ومتنوعة على إثبات رسالة النبي وأنه على نور من ربه .

٤-إثبات نبوة موسى وكتابه التوراة .

٥-أن الكتب المتقدمة تثبت نبوة النبي ﷺ .

٦- وجوب الإيمان بالقرآن .

٧- أن من كفر بالقرآن فهو كافر بالنار .

٨- أن القرآن لا شك فيه ولا مرية .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)) .

[هود : ١٨- ٢٢] .

(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**) أي : لا أحد أشد ظلماً ممن تعمد الكذب على الله تعالى بأن زعم

بأن الأصنام تشفع لعابديها عنده، أو زعم بأن الملائكة بنات الله، أو أن هذا القرآن ليس من عنده سبحانه.

(**أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ**) أي : أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله تعالى يعرضون يوم الحساب، على ربهم ومالك أمرهم، كما يعرض المجرم للقصاص منه، ولفضيحته أمام الناس.

- **قال الزجاج** : ذكر عرضهم توكيداً لحالهم في الانتقام منهم ، وإن كان غيرهم يعرض أيضاً.
- **قال الرازي** : قوله تعالى (أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ على رَبّهِمْ) وما وصفهم بذلك لأنهم مختصون بذلك العرض ، لأن العرض عام في كل العباد كما قال : (وَعُرِضُواْ على رَبّكَ صَفَّا) وإنما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم (هَؤُلاء الذين كَذَبُواْ على رَبّهِمْ) فحصل لهم من الخزي والنكال مالا مزيد عليه .

(**وَيَقُولُ الأَشْهَادُ**) الأشهاد: جمع شهيد كشريف وأشراف. أو جمع شاهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب والمراد بهم- على الراجح- جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم، ومن الأنبياء والمؤمنين.

قيل : هم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا.

وقيل : الناس كما يقال على رؤوس الأشهاد ، يعني على رؤوس الناس.

وقيل : هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال الله تعالى (فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين) والفائدة في اعتبار قول الأشهاد المبالغة في إظهار الفضيحة.

- **قال ابن الأنباري** : وفائدة إخبار الأشهاد بما يعلمه الله : تعظيم بالأمر المشهود عليه ، ودفع المجاحدة فيه.

(**هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ**) أي : هؤلاء الذين افتروا الكذب على الله هؤُلاءِ المجرمون هم الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ بأن نسبوا إليه ما هو منزه عنه ، بادعاء الولد ، والشركاء تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

- **قال أبو حيان** : وفي قوله : هؤلاء إشارة إلى تحقيرهم وإصغارهم بسوء مرتكبهم.

وفي قوله (على ربهم) أي : على من يحسن إليهم ويملك نواصيهم ، وكانوا جديرين أن لا يكذبوا عليه ، وهذا كما تقول إذا رأيت مجرماً : هذا الذي فعل كذا وكذا.

(**أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**) الذين وضعوا الأمور في غير مواضعها، فأوردوا أنفسهم المهالك .

و (ألا) حرف تنبيه ، ومن فوائدها إحضار ذهن السامع لما بعدها .

والظالمون : الذين يضعون الأشياء في غير موضعها ، والذي يعبد غير الله يضع العبادة في غير موضعها .

(**الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**) الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم عن الحق بل يحاولون صرف غيرهم عنه ويطلبون لملة الإسلام العوج ويصفونها بذلك تنفيرا للناس منها .

يَصُدُّونَ من صد بمعنى صرف الغير عن الشيء ومنعه منه. يقال صد يصد صدودا وصدا.

وسَبِيلِ اللَّهِ طريقه الموصلة إلى رضائه. والمراد بها ملة الإسلام.

وأضيفت إلى الله لأنه هو الذي شرعها ووعد سالكيها بالثواب .

(**وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً**) أي يطلبون لها العوج، يقال: بغيت لفلان كذا إذا طلبته له.

والعوج- بكسر العين- الميل والزيغ في الدين والقول والعمل. وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج.

(**وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**) أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها.

(**أولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ**) أي : أولئك الذين افتروا على الله الكذب لم يكن سبحانه عاجزاً عن إنزال العذاب الشديد بهم في الدنيا.

أي ليسوا مفلتين من عذاب آلله وإن أمهلهم ، كما يحدث لبعض الناس في عصيان الملوك ، ثم الفرار منهم ، فلا يستطيع الملوك القبض عليهم ، بخلاف رب العالمين ، فلا يفوته شيء .كما قال تعالى (وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ) يمنعونهم من عقابه.

والولي : كل من انعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويجعله يواليك ، والمراد : ليس لهم أولياء يدفعون عنهم عذاب الله ويمنعونهم من ذلك .

- **قال ابن كثير** : أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن (يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ) وفي الصحيحين: "إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفْلته .

(**يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ**) أي : يضاعف لهم ضعفاً مكان إضلالهم وصدهم غيرهم ، وضعفاً مكان ابتغائهم اعوجاج الطريق .

كما قال تعالى (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ) .

وقال ﷺ (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) .

(**مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ**) أي أن هؤلاء المجرمين بلغ بهم الجهل والعناد والجحود أنهم ما كانوا يستطيعون السماع للحق الذي جاءهم من ربهم لثقله على نفوسهم الفاسدة، وما كانوا يبصرون المعجزات الدالة على صدق نبيهم ﷺ .

- **قال الشنقيطي** : في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه ، بعضها يشهد له القرآن :

الأول – وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره ، ونقله عن ابن عباس وقتادة – : أن معنى (مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع) أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا لحق سماع منتفع ، ولا أن يبصروه إبصار مهتد ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى : وقد كانت لهم أسماع وأبصار.

ويدل لهذا قوله تعالى (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَآ أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله) .

الثاني – **وهو أظهرها عندي**– : أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآية إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم ، والغشاوة التي جعل على أبصارهم.

ويشهد لهذا القول قوله تعالى (خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) .

وقوله (إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً) ونحو ذلك من الآيات.

وذل الختم والأكنة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم كما دلت عليه آيات كثيرة .

كقوله (بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) وقوله (فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) وقوله (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً) .

وقوله (وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ) الآية وقوله (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث : أن المعنى ما كانوا يستطيعون السمع اي لشدة كراهيتهم لكلام الرسل على عادة الرسل على عادة العرب في قولهم : لا استطيع أن اسمع كذا إذا كان شديد الكراهية والبغض له .

ويشهد لهذا القول قوله تعالى (وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا) .

وقوله تعالى (وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن) .

وقوله (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) .

(**أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ**) ودلت آيات أخر أنهم خسروا ايضاً أهليهم (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

خسارة عظيمة : حتى أمنية الكافر يوم القيامة الموت (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) .

(**وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**) أي : وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة .

(**لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ**) أي : لا محالة ولا شك في أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

وأصل الخسران في لغة العرب: هو نقصان مال التاجر، سواء كان نقصاً في ربح المال، أو نقصاً في رأس المال.

والخسران في اصطلاح الشرع: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه (جل وعلا)؛ لأن الإنسان إذا غُبن في حظوظه من ربه (جل وعلا) فقد خَسِرَ الخُسْرَان المبين.

وقد أقسم الله (جل وعلا) – وهو أصدق من يقول – في سورة كريمة من كتابه – وكل سورة منه كريمة– ألا وهي (سورة العصر) أن الخسران لا ينجو منه إنسان كائناً ما كان إلا بأعمال معينة مبينة، وذلك في قوله (وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) (إِنَّ الْإِنسَانَ) معناه: إن كل إنسان كائناً من كان (لَفِي خُسْرٍ) (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) فهذا الخسران لا يُنجي منه شيء أبداً كما أقسم عليه رب السماوات والأرض إلا الإيمان والأعمال الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، هذا الذي يُنجي من الخسران.

وأكبر الأدلة على خسرانهم أنفسهم: أنهم إن صاروا إلى النار أكبر مُنْيةٍ يتمنونها، وأكبر غرض يطلبونه: هو أن يموتوا وتعدم أنفسهم فتصير لا شيء؛ ولذلك يقولون (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ).

ولكن أمنيتهم العُظْمَى الَّتِي هِيَ الموت لا يحصلونها أبداً؛ لأن الله يقول (لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ

عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) ويقول (جل وعلا) في الكافر (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيى).

- **قال ابن عاشور** : عبر عمّا لحقهم من الضر بالخسارة استعارة لأنه ضر أصابهم من حيث كانوا يرجون المنفعة فهم مثل التجار الذين أصابتهم الخسارة من حيث أرادوا الربح.

وإنما كانوا أخسرين ، أي شديدي الخسارة لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة.

ولأنهم شقُوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة قال تعالى (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) فكانوا أخسرين لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة.

الفوائد :

١- أن الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم.

٢- أن من عقوبة الافتراء على الله كذباً الفضيحة والتشهير به يوم القيامة .

٣- إثبات العرض على الله .

٤-أن الله لا يظلم أحداً لكمال عدله .

٥- إثبات شهادة الشهود يوم القيامة .

٦-إثبات لعنة الله على المشركين الظالمين .

٧- أنه لا أحد يستطيع أن يهرب أو أن يفلت من الله .

٨-أن من افترى على الله كذباً خسروا في الدنيا والآخرة .

٩- إثبات الآخرة .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)) .

[هود : ٢٣- ٢٤] .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثَنَّى بذكر السُّعَداء .

قال الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:

أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه.

وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان.

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**) بقلوبهم .

(**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) بجوارحهم من واجبات ومستحبات .

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.
- والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعاً للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

- **قال السعدي**: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

(**وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ**) قيل : خشعوا ، وقيل : أنابوا .

قال ابن جرير : الخشوع والتواضع .

- **قال الآلوسي** : وأخبتوا إلى ربهم : اطمأنوا إليه وخشعوا له .
- **قال السعدي** : قوله تعالى (وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ) أي: خضعوا له، واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته، وخوفه، ورجائه، والتضرع إليه.

و" الْخَبْتُ " فِي أَصْلِ اللُّغَةِ: الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ.

قال ابن القيم : وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ تَدُورُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: التَّوَاضُعِ، وَالسُّكُونِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

وقد وعد الله المخبتين بالجنة .

كما في هذه الآية .

وبشرهم الله تعالى .

فقال تعالى (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) .

والإخبات عمل قلبي يبدو على الجوارح فينتظم حركتها وسكناتها .

قال تعالى (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) .

- **قال ابن القيم** : اعْلَمْ أَنَّهُ مَتَى اسْتَقَرَّتْ قَدَمُ الْعَبْدِ فِي مَنْزِلَةِ الْإِخْبَاتِ وَتَمَكَّنَ فِيهَا ارْتَفَعَتْ هِمَّتُهُ، وَعَلَتْ نَفْسُهُ عَنْ خَطَفَاتِ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ. فَلَا يَفْرَحُ بِمَدْحِ النَّاسِ. وَلَا يَحْزَنُ لِذَمِّهِمْ. هَذَا وَصْفُ مَنْ خَرَجَ عَنْ حَظِّ نَفْسِهِ، وَتَأَهَّلَ لِلْفَنَاءِ فِي عُبُودِيَّةِ رَبِّهِ. وَصَارَ قَلْبُهُ مُطَّرِحًا لِأَشِعَّةِ أَنْوَارِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ. وَبَاشَرَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ قَلْبُهُ. وَالْوُقُوفُ عِنْدَ مَدْحِ النَّاسِ وَذَمِّهِمْ عَلَامَةُ انْقِطَاعِ الْقَلْبِ، وَخُلُوِّهِ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَمْ تُبَاشِرْهُ رُوحُ مَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَذُقْ حَلَاوَةَ التَّعَلُّقِ بِهِ وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَيْهِ.

(**أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**) الإشارة إلى الذين تقدمت صفاتهم .

والصحبة تطلق على كل شيئين وقعت بينهما ملازمة طويلة .

وإنما سموا أصحاب الجنة لأنهم ملازموها .

والجنة : في اللغة البستان ، والمراد بها هنا دار الكرامة التي أعدها الله لعباده المؤمنين .

(**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) أي : ماكثون ، والمراد بالخلود هنا الديمومة والبقاء الأبدي الذي لا انقطاع فيه .

كما قال تعالى (عطاء غير مجذوذ) وقال تعالى (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) .

وقال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس، لا تبلى ثيابُه، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم.

وقال ﷺ (يناد مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم.

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح، فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ...) متفق عليه .

وهذا من أعظم تمام النعيم، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين.

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

(**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ**) أي: فريق الأشقياء ، وفريق السعداء.

(**كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ**) (كَالأعْمَى وَالأصَمِّ) هؤلاء الأشقياء، (وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) مثل السعداء.

ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للكافر بالأعمى والأصم ، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير ، وبين أنهما لا يستويان ، ولا يستوي الأعمى والبصير ، ولا يستوي الأصم والسميع .

- **قال الخازن** : ... كالأعمى وهو الذي لا يهتدي لرشده والأصم وهو الذي لا يسمع شيئاً البتة ، والبصير وهو الذي يبصر الأشياء على ماهيتها ، والسميع وهو الذي يسمع الأصوات ويجيب الداعي فمثل المؤمنين كمثل الذي يسمع ويبصر وهو الكامل في نفسه ومثل الكافر كمثل الذي لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص في نفسه .
- **وقال الشوكاني** : ضرب للفريقين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع ، على أن كل فريق شبه بشيئين ، أو شبه بمن جمع بين الشيئين ، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم ، والمؤمن شبّه بمن جمع بين السمع والبصر .

فالكافر : عمي البصائر ، لا يرون الحق حقاً ، ولا الباطل باطلاً ، صم الأذان : لا يسمعون الكلام الحسن

الذي ينفعهم .

- **قال ابن كثير** : فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجَج، فلا يسمع ما ينتفع به (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) .

وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ : وهذا مثل للفريق المؤمن : فهم يرون ببصائرهم ويعقلون ويسمعون ما ينفع فيأخذون به ، وما يضر فيجتنبونه **قال ابن كثير** : وأما المؤمن ففَطِن ذكي لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبعُ الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يَرُوج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا.

- وقد جرت العادة أن الله تعالى يضرب الأمثال في القرآن للمعقولات بالمحسوسات ، حتى تصير المعقولات كالمحسوسات .

ولكن الله أخبر سبحانه أنه لا ينتفع بالأمثال إلا أهل البصائر .

فقال تعالى (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) .

بل أخبر تعالى أن تلك الأمثال لا تزيد الكافر إلا ضلالاً .

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ) .

والحقيقة أن البصر الحقيقي هو صلاح البصيرة، ولا يضر عمى البصر مع نور البصيرة، قال تعالى (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

(**هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا**) أي : الفريقان السابقان، هل تستوي صفاتهم وما يترتب عليها في الدنيا والآخرة ؟ لا شك أن صفتهم لا تستوي ، وهم لا يستوون .

قال تعالى (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

كما قال في الآية الأخرى (لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

وقال (وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) .

وقوله (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى) .

(**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**) أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء .

والتذكر : الاتعاظ .

الفوائد :

١- وجوب الإيمان بالله وبما يجب به من الإيمان به .

٢- أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنان .

قال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

٣- فضل الإخبات لله والخضوع والتواضع .

٤- أن الجنة تنال بالعمل والإيمان .

٥- أعظم نعيم الجنة هو الخلود .

٦- إن من عيوب الدنيا الموت والرحيل عنها (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) فلا خلود في الدنيا.

الأربعاء: ٧/رمضان/١٤٣٩هـ

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧))

[هود : ٢٥- ٢٧] .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ) يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عَبَدة الأصنام .

- **قال ابن كثير** : وكان قوم نوح يعبدون الأصنام: فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد.
- بدأ تعالى بقصص الأنبياء في السورة تسلية للنبي ﷺ وبيان أن الشدة التي لاقاها من قومه قد لاقاها إخوانه من الأنبياء قبله كما قال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل) وفيها أيضاً تهديداً للمشركين.
- وبدأ بنوح لأنه أول رسول أرسل إلى أهل الأرض حينما انتشر الشرك بينهم، ويسمى نوح (آدم الأصغر) لأن البشرية كلها بعده من ذريته كما قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ).
- ونوح هو أحد أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم في موضعين في كتابه:

الموضع الأول / في سورة الأحزاب.

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً).

الموضع الثاني / في سورة الشورى.

قال تعالى (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ).

ونوح أول الرسل.

لقوله (فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض).

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ).

- قال ابن كثير: وقد كان بين آدم إلى زمن نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام. قاله ابن عباس.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين (ودًا وسواعًا ويَغُوث وَيَعُوق ونسراً) فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى -وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

(**إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**) أي: ظاهر النِّذَارَة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله .

والإنذار : الإعلام المقرون بتخويف .

- ذكر الإنذار هنا دون البشارة مع أن الرسل جاءوا بالنذارة والبشارة :

قيل : من باب الاكتفاء .

كقوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) أي : والبرد .

وعلى أحد الأقوال في قوله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى) أي : وإن لم تنفع .

ويحتمل أنه ذكر النذارة لأنهم كانوا في غاية المكابرة والإعراض ، فهو ينذرهم ، كما قال ﷺ (أنا النذير العريان) .

واقتصر على الإنذار لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به وهو الفوز برضا الله- تعالى- إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة.

- **قال الرازي** : قال بعضهم : المراد من النذير كونه مهدداً للعصاة بالعقاب ، ومن المبين كونه مبيناً ما أعد الله للمطيعين من الثواب ، والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب وأنه مبين بمعنى أنه بين ذلك الإنذار على الطريق الأكمل والبيان الأقوى الأظهر .

(**أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ**) وهذه دعوة جميع الرسل .

- وفي هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل، وأنها دعوة الرسل جميعاً، وأول ما يبدا به.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

وقال ﷺ (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ الأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عَلاَّتٍ، .. وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ).

(الأنبياء أولاد عَلاّت) أولاد العلات: هم الأخوة للأب من أمهات شتى.

معنى الحديث: أن الأنبياء أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الخلاف.

(**إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ**) أي : إن استمررتم على ما أنتم عليه عَذَّبكم الله عذابا أليما مُوجعًا

شاقًا في الدار الآخرة.

وهي جملة تعليلية، تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه ومنفعتهم.

أي : إني أحذركم من عبادة غير الله، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم الى وقوع العذاب الأليم عليكم، وما حملني على هذا التحذير الواضح إلا خوفي عليكم، وشفقتي بكم، فأنا منكم وأنتم منى بمقتضى القرابة والنسب.

(**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ**) أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم.

- قيل سُمُّوا (ملأً) لأنهم يملؤون صدورَ المجالسِ بقامتِهم الوافيةِ، أو يملؤونَ صدورَ الناظرِ لأُبَّهَتِهِمْ وَجَمَالِهِمْ، أو أنهم يَتَمَالَؤُونَ على العقدِ والحلّ فيتفقونَ عليه.

(**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا**) أي: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا ؟

أي : ما نَراكَ يا نوح إلا بشراً مثلنا، أي: إلا إنساناً مثلنا، ليست فيك مزية تجعلك مختصاً بالنبوة دوننا .

فهم- لجهلهم وغبائهم- توهموا أن النبوة لا تجامع البشرية، مع أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل إليهم، حتى تتم فائدة التفاهم معه، والاقتداء به في أخلاقه وسلوكه .

- **قال الشنقيطي** : زعموا أن البشرية مانعة من الرسالة ، وهي أكثر ما ابتلاهم به ، وأكبر الموانع من إيمانهم بالرسل .

فقال تعالى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا).

وقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْهُمْ (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا).

وَقَوْلُهُ (فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا).

وقال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ).

وقال تعالى (وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ).

وشُبْهَتُهُمْ هَذِهِ الْبَاطِلَةُ رَدَّهَا اللَّهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا).

وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا) أَيْ: لَا مَلَائِكَةً.

- **قال القرطبي**: لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقاربته وما أنسوا به , ولداخلهم من الرعب والاتقاء له ما يكفهم من كلامه , ويمنعهم عن سؤاله , فلا تعم المصلحة , ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

- والبشر الإنسان ، سمي بشراً لأن بشرته بادية لا يسترها شعر ولا وبر .

هذه الشبهة الأولى للكفار : كون الرسل بشراً .

(**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**) هذه الشبهة الثانية .

أي : ثم ما نراك اتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء

الذين اتبعوك لم يكن عن تَرَوّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك .
كما قال تعالى عنهم في سورة الشعراء (قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُون) .

- والأراذل جمع أرذل ، والرذالة التفاهة والدناءة وسقوط القيمة .
- **قال الرازي** : هذا جهل منهم، لأن الرفعة في الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية، بل الفقر أهون على الدين من الغنى، بل نقول: الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال في الدنيا طعناً في النبوة والرسالة.
- وقد أجرى الله العادة في عباده أن أول المسارعين لطاعة رسله هم الفقراء والضعفاء، وهم أكثر أهل الجنة، وأن أول ما يبادر إلى التكذيب هم الأشراف والرؤساء، لأنهم يحبون الرئاسة والشرف، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين، وهم أكثر أهل النار .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم (بَادِيَ الرَّأْي) ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ولا يفكر وينزوي هاهنا إلا عَيِيّ أو غبي . والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاءوا بأمر جلي واضح.

(**وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ**) يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خَلْق ولا خُلُق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا .

الفضل: الزيادة في الشرف والغنى وغيرهما مما يتميز به الإنسان عن غيره.

والمراد هنا: آثاره التي تدل عليه.

أي : أنت يا نوح لست إلا بشرا مثلنا، وأتباعك هم أحقرنا شأنا، وما نرى لك ولمتبعيك شيئاً من الزيادة علينا لا في العقل ولا في غيره، بل إننا لنعتقد أنكم كاذبون في دعواكم أنكم على الحق، لأن الحق في نظرنا هو في عبادة هذه الأصنام التي عبدها من قبلنا آباؤنا.

(**بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**) أي : مخبرين بخلاف الواقع .

والكذب : الإخبار بخلاف الواقع .

الفوائد :

١- إثبات رسالة نوح .

٢- عظمة الله لقوله (ولقد أرسلنا) فالجمع للتعظيم .

٣-أن كل نبي يرسل إلى قومه خاصة إلا نبينا ﷺ فإنه أرسل لجميع الناس .

٤-أن مهمة الرسل التبشير والإنذار .

٥-وجوب عبادة الله تعالى .

٦- أن دعوة جميع الرسل هو عبادة الله وحده وترك الشرك .
٧-عظم المال والرئاسة ، حيث إنها من أسباب رد الحق .
٨- أن أهل الترف دائماً يعادون الرسل .
٩-من عادة الترف احتقار الضعفاء .
١٠-أن أتباع الرسل هم ضعفاء الناس .

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)).
[٢٨- ٣١] .

(**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ**) أي: على يقين وأمر جلي .
(**وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ**) أي : ومنحني بفضله وإحسانه النبوة التي هي طريق الرحمة لمن آمن بها، واتبع من اختاره الله لها. فالمراد بالرحمة هنا النبوة .
(**فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ**) أي: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها .
(**أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**) الاستفهام للإنكار والنفي.
أي: إذا كانت الهداية إلى الخير التي جئتكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلائها ، فهل أستطيع أنا وأتباعي أن نجبركم إجباراً ، ونقسركم قسراً على الإيمان بي، وعلى التصديق بنبوتي، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها.
كلا إننا لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع واختيار لا عن إكراه وإجبار.
(**وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً**) يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالاً أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل .
لأن طلبي هذا قد يجعلكم تتوهمون أني محب للمال .
(**إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ**) وحده، فهو الذي يثيبني على دعوتي إلى عبادتكم له، وفي هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله تعالى مالاً ، وإنما يسأله ثواباً ، إذ ثواب الله يسمى أجرا، لأنه جزاء على العمل الصالح.
(**وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ**) كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم .

كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصاً، فأنزل الله تعالى (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) وقال تعالى (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) .

(**إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ**) أي: لن أطردهم عن مجلسي أبداً ، لأنهم قد آمنوا بي، ولأن مصيرهم إلى الله تعالى، فيحاسبهم على سرهم وعلنهم، أما أنا فأكتفي منهم بظواهرهم التي تدل على صدق إيمانهم، وشدة إخلاصهم.

(**وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ**) أي : ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم، وتظنون أنكم خير منهم .

- وفي هذا أنه على الداعية أن يكون مخلصاً ناصحاً في دعوته لكي ينتفع الناس بدعوته.

ومن النصح ألا يأخذ على دعوته وتعليمه مالاً أو عوضاً.

وهذا هُوَ شَأْنُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ.

قال تعالى عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ).

وَقَوْلِهِ فِيهِ أَيْضًا فِي آخِرِ «سُورَةِ ص» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ).

وَقَوْلِهِ فِي «الطُّورِ»، وَ «الْقَلَمِ» (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ).

وَقَوْلِهِ فِي «الْفُرْقَانِ» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا).

وَقَوْلِهِ فِي «الْأَنْعَامِ» (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ).

وَقَوْلِهِ عَنْ هُودٍ فِي «سُورَةِ هُودٍ» (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي).

وَقَوْلِهِ فِي «الشُّعَرَاءِ» عَنْ نُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَلُوطٍ، وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ).

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ رُسُلِ الْقَرْيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي «يس» (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا).

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَجَّانًا مِنْ غَيْرِ أَخْذِ عِوَضٍ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى تَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا عَلَى تَعْلِيمِ الْعَقَائِدِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

(**وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ**) أي : من يمنعني من عذاب الله إن طردتهم.

(**أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**) أفلا تتعظون وتعتبرون .

(**وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ**) أخبر بتذلّله وتواضعه لله عزّ وجلّ ، وأنه لا يدّعي ما ليس له من خزائن الله ؛ وهي إنعامه على من يشاء من عباده .

- **قال الشوكاني** : والمراد بخزائن الله : خزائن رزقه .

(**وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ**) أي: ولا أدّعي أني أعلم بغيب الله، بل لم أقل لكم إلا أني نذير مبين، إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم.

- وقد بيّن تعالى أن الغيب كله لا يعلمه إلا الله .

كما قال تعالى (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).

وأعظم الخلق: الملائكة , والرسل لا يعلمون الغيب.

فالملائكة لما قال لهم الله (فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ) أجابوا بأن قالوا (سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا).

والرسل عليهم الصلاة – مع ما أعطاهم الله من العلم والمكانة – يقولون: إنهم لا يعلمون الغيب إلا ما علمهم الله.

فهذا سيدهم وخاتمهم قد أمره ربه أن يقول (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ).

وأمره أيضاً في سورة الأعراف أن يقول (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ).

وهذا نوح عليه السلام ذكر الله عنه في سورة هود أنه قال لقومه (وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً).

وهذا نبي الله إبراهيم كما قال الله (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) ولم يدرِ أن الذين ينضج لهم عجله ملائكة كرام لا يأكلون.

وهذا نبي الله يعقوب قال الله فيه (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) ومع هذا فولده يوسف كان في مصر , وما بينه وبينه ثمان مراحل , ولا يعلم عن أمره شيئاً.

وهذا نبي الله سليمان عليه السلام, الذي أعطاه الله الريح , غدوها شهر ورواحها شهر , وما كان يدر يعن قصة بلقيس وجماعتها , حتى جاءه الهدهد الضعيف المسكين , وكان قد خرج بغير إذن , وكان نبي الله سليمان يتوعده ويتهدده على الخروج بغير إذن كما قص الله في سورة النمل (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ...) حتى قال له (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ...).

(**وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**) وهذا جواب لقولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا أي لا أدعي أني من الملائكة بل أنا بشر مثلكم أدعوكم إلى الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ، ومنحني ربي النبوة .

قال تعالى (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

(**وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ**) أي : إني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبونهم وتحتقرونهم .

(**لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا**) بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه ؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة ، ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل ، ولا يضرّهم احتقاركم لهم شيئاً .

(**اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ**) من الإيمان به ، والإخلاص له ، فمجازيهم على ذلك ، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء .

(**إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**) أي : إن طردتهم ، أو احتقرتهم ، أو ادعيت أني أعلم الغيب .

الفوائد :

١-حرص نوح على هداية قومه .

٢- أن الأنبياء وغيرهم من باب أولى ليس بيدهم هداية أحد .

٣- أن الأنبياء لا يأخذون على دعوتهم أجراً إلا من الله .

٤- وجوب الإخلاص في الدعوة إلى الله .

٥- أن أخذ الداعية أجراً على دعوته يؤدي إلى قلة نفعها .

٦- أن أكثر أتباع الأنبياء الفقراء .

٧- أن الأنبياء لا يعلمون الغيب .

٨- أن النبي بشر كغيره إلا أن الله اصطفاه بالوحي .

(قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ (٣٥)) .

[هود : ٣٢- ٣٥] .

(**قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**) أي: حاجحتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك .

والجدال: هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة

- **قال ابن الجوزي** : قال الزجاج : الجدال : هو المبالغة في الخصومة والمناظرة ، وهو مأخوذ من الجَدْل ، وهو شدة الفتل ، ويقال للصقر : أجدل ، لأنه من أشد الطير.
- **قال القرطبي** : والجَدَل في الدين محمود ؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق ، فمن قَبِله أنجح وأفلح ، ومن ردّه خاب وخَسِر.

وأما الجِدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل في صورة الحقّ فمذموم ، وصاحبه في الدّارين ملوم.

- **قال أبو حيان** : وإنما كثرت مجادلته لهم لأنه أقام فيهم ما أخبر الله به ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وهو كل وقت يدعوهم إلى الله وهم يجيبونه بعبادتهم أصنامهم.
- بعض الاتهامات التي وجهت لنوح من قبل قومه:

أولاً: اتهموه بالجنون.

قال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ).

ثانياً: اتهموه بكثرة الجدال.

قال تعالى عنهم (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

ثالثاً: اتهموه بالضلال.

قال تعالى (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين).

رابعاً: توعدوه بالرجم.

قال تعالى عنهم (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ).

خامساً: التهكم والسخرية.

قال تعالى (وَيصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

(**فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنَا**) أي: من النقمة والعذاب .

(**إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) في كلامك وتهديدك .

(**قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاء**) يعني قال نوح لقومه حين استعجلوه بإنزال العذاب إن ذلك ليس إليّ إنما هو إلى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء إن أراد إنزال العذاب بكم .

(**وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ**) يعني وما أنتم بفائتين إن أراد الله نزول العذاب بكم .

(**وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ**) أي: أي شيء يُجدِي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم .

- والنصح : قيام الناصح بما يجب عليه .

وفي هذا فضل النصيحة

والنصيحة شرعاً :

قيل : هي كلمة يعبر بها عن إرادة الخير للمنصوح له .

وقيل : قيام العبد بما لغيره من الحقوق ، وهذا أصوب .

ولها فضائل :

أولاً: أنها مهمة الرسل.

قال تعالى إخباراً عن نوح (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم).

ثانياً: أن منزلتها عظيمة.

كما في حديث (الدين النصيحة).

ثالثاً: أنها من علامات كمال الإيمان.

كما قال ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

رابعاً: أنها من حقوق المسلم على أخيه المسلم.

قال ﷺ (للمؤمن على المؤمن ست خصال: ... وينصح له إذا غاب أو شهد).

سئل ابن المبارك: أي الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله.

وقال الفضيل: المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير.

وقال أيضاً: ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة.

قال أبو بكر المزني: ما فاق أبو بكر أصحاب رسول الله بصوم ولا بصلاة، ولكن بشيء كان في قلبه، قال ابن علية: الذي كان في قلبه الحب لله عز وجل والنصيحة في خلقه ".

وقال أبو الدرداء: إن شئتم لأنصحن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحبّبون الله تعالى إلى عباده ويعملون في الأرض نصحاً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قالت له فاطمة بنت قيس : قد خطبني أبو جهم ومعاوية ، فقال لها : أما أبو جهم فرجل ضراب للنساء ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له ، فبين النبي ﷺ حال الخاطبين للمرأة ، فإن النصح في الدين أعظم من النصح في الدنيا ، فإذا كان النبي ﷺ نصح المرأة في دنياها فالنصيحة في الدين أعظم .

وللنصيحة آداباً :

أولاً : الإخلاص لله عز وجل .

فلابد أن يقصد بنصحه وجه الله تبارك وتعالى كما في حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) .

ثانياً : ألا يقصد التشهير .

ثالثاً : أن يكون النصح سراً .

قال الشافعي : من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه .

يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله : وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً .

قال بعضهم : من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه .

قال الشاعر :

تغمدني بنصحك في انفرادي وجنّبي النصيحةَ في الجماعة

فإن النصحَ بين الناسِ نوعٌ من التوبيخِ لا أرضى استماعه

رابعاً : أن يكون النصح بلطف وأدب ورفق ولا يثقل على الناصح ولا يكثر عليه .

كما جاء في الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ قال (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه) .

(**هُوَ رَبُّكُمْ**) أي: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر .

والرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.

- **قال الخازن** : يعني أنه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه .

(**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) أي : وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**) أي : اختلقه وافتعله من عند نفسه .

- **قال الخازن** : أي اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود إلى الوحي الذي جاءهم به .

قيل : هذه الآية في محمد ﷺ وقومه .

وقيل : هي في نوح .

وهذا الصواب .

- **قال القرطبي** : وقيل : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر .

لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ؛ فالخطاب منهم ولهم .

- **قال الخازن** : وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهي من قصة نوح عليه السلام .

وقال مقاتل (أم يقولون) يعني المشركين من كفار مكة افتراه يعني محمداً ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة في قصة نوح ثم رجع إلى القصة فقال سبحانه وتعالى (وأوحي إلى نوح ...) .

- **وقال أبو حيان** : قيل : هذه الآية اعترضت في قصة نوح ، والإخبار فيها عن قريش.

يقولون ذلك لرسول الله ﷺ أي : افترى القرآن، وافترى هذا الحديث عن نوح وقومه، ولو صح ذلك بسند صحيح لوقف عنده، ولكن الظاهر أن الضمير في يقولون عائد على قوم نوح ، أي : بل أيقولون افترى ما أخبرهم به من دين الله وعقاب من أعرض عنه ، فقال عليه السلام قل : إن افتريته فعليّ إثم إجرامي .

وعلى قول من قال : إنها في شأن مشركي مكة : يكون المعنى ، لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل، ولكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك، بل يقولون إنك قد افتريت هذا القرآن، قل لهم: إن كنت قد افتريته– على سبيل الفرض– فعلي وحدي تقع عقوبة إجرامي وافترائي الكذب، وأنا بريء من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب.

(**قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ**) أي : اختلقته وافتعلته ، يعني الوحي والرسالة.

(**فَعَلَيَّ إِجْرَامِي**) أي: فإثم ذلك علي .

قال القرطبي : الإجرام مصدر أجرم ؛ وهو اقتراف السَّيئة.

(**وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ**) مما تقترفونه من منكرات، وما تكتسبونه من ذنوب.

الفوائد :

١– حرص نوح الشديد على هداية قومه ، بمجادلتهم وخطابهم المستمر .

٢–شدة كفر قوم نوح .

٣– أن الكفار دائماً يستعجلون العذاب .

٤- أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ، فلا يعلمون متى نزول العذاب .

٥- لا أحد يستطيع أن يفلت من الله .

٦- نصيحة نوح لقومه .

٧- أن من لم يرد الله هدايته فلن يهتدي .

٨- أن المرجع إلى الله .

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩)) .

[هود : ٣٦ – ٣٧] .

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) أي : بعد أن لج قوم نوح في طغيانهم، وصموا آذانهم عن سماع دعوته.. أوحى الله تعالى إلى نوح بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين، فإنه لم يبق في قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن، وبعد أن مكث فيهم زمناً طويلاً يدعوهم إلى الدخول في الدين الحق، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً .

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) تسلية له عليه السلام عما أصابه منهم من أذى.

والابتئاس: الحزن. يقال: ابتأس فلان بالأمر، إذا بلغه ما يكرهه ويغمه، والمبتئس: الكاره الحزين في استكانة.

أي : فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم، وتماديهم في سفاهاتهم وطغيانهم، فقد آن الأوان للانتقام منهم.

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (بما كانوا يفعلون) هو إصرارهم على الكفر واعتراضهم عن النظر في الدعوة إلى وقت أن أوحي إليه هذا.

قال الله تعالى حكاية عنه (فلم يزدهم دعائي إلاّ فِراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) .

- **قال ابن الجوزي:** قال المفسرون: لما أوحي إليه هذا، استجاز الدعاء عليهم، فقال (لا تذرْ على الأرض من الكافرين دياراً).
- وقد دعا نوح على قومه ونادى ربه:

قال تعالى (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

وقال تعالى (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا

فَاجِراً كَفَّاراً).

وقال تعالى (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ).

- فإن قيل لماذا دعا نوح على قومه؟

دعا نوح على قومين لأمرين:

الأمر الأول: أن الله أخبره أنه لن يؤمن من قومك إلا القليل.

كما قال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ).

الأمر الثاني: أن هؤلاء القوم سيضلون غيرهم.

كما قال تعالى (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً).

- إشكال وجوابه :

من المعلوم أنه لا أحد لا يعلم الغيب إلا الله ، فكيف قال نوح (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ....) .

والجواب : أن ذلك كان بوحي من الله ، ومما يدل على أنه وحي قوله تعالى (.. لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) .

(**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ**) يعني: السفينة .

والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام بصنعها نوح عليه السلام .

وهذه السفينة قال تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) .

(**بِأَعْيُنِنَا**) أي: بمرأى منا وتحت رعايتنا .

(**وَوَحْيِنَا**) أي : بتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحينا.

أي: وتعليمنا لك ماذا تصنعه .

(**وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**) يعني بالطوفان .

والمعنى ولا تخاطبني في إمهال الكفار فإني قد حكمت بإغراقهم .

وقيل : ولا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك واعلة؛ فإنهما هالكان مع القوم .

- **قال الشنقيطي** : وهذا الوجه بعيد، لأن نوحاً قد ألح في دعائه لربه أن يهلكهم، فالصحيح أن المراد لا تخاطبني في تعجيل العذاب والإهلاك لقومك ، فإنه قد كتب وحان.

- **قال الرازي** : ففيه وجوه :

الأول : يعني لا تطلب مني تأخير العذاب عنهم فإني قد حكمت عليهم بهذا الحكم ، فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك .

الثاني : (وَلاَ تخاطبني) في تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا، فإني لما قضيت إنزال ذلك العذاب في وقت معين كان.

الثالث : المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان .

(**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ**) بيان لامتثال نوح لأمر ربه .

(**وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ**) السخرية : الاستهزاء والاستخفاف ، أي : استهزؤا منه وضحكوا عليه ..

ومن سخريتهم :

أ- أنهم يقولون له : كيف تدعي النبوة ثم تصير نجاراً بعد ذلك ؟

ب- أنهم يرونه يصنع السفينة في أرض يابسة ، فيسألونه ماذا يريد بها ، فأخبرهم أنه يمشي بها على الماء ، فيَهزون رؤوسهم ، لأنهم لم يعرفوا ذلك ، لأنها أول سفينة صنعت .

(**قَالَ**) لهم نوح .

(**إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**) أي : قال نوح لهم: إن تسخروا منى ومن أتباعي اليوم لصنعنا السفينة، وتستجهلوا منا هذا العمل، فإنا سنسخر منكم في الوقت القريب سخرية محققة في مقابل سخريتكم الباطلة.

- والسخرية والاستهزاء سنة ماضية من قِبل أعداء الإسلام لأهله، فقد سخر واستهزأ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْكُفَّارَ اسْتَهْزَءُوا بِرُسُلٍ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ وَأَنَّهُمْ حَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلَمْ يُفَصِّلْ هُنَا كَيْفِيَّةَ اسْتِهْزَائِهِمْ، وَلَا كَيْفِيَّةَ الْعَذَابِ الَّذِي أُهْلِكُوا بِهِ، وَلَكِنَّهُ فَصَّلَ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، فِي ذِكْرِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ، وَهُودٍ وَقَوْمِهِ، وَصَالِحٍ وَقَوْمِهِ، وَلُوطٍ وَقَوْمِهِ، وَشُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

فَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِنُوحٍ قَوْلُهُمْ لَهُ (بَعْدَ أَنْ كُنْتَ نَبِيًّا صِرْتَ نَجَّارًا).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِهُودٍ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ).

وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ أَيْضًا (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ الْآيَةَ).

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ..)، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِصَالِحٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ (يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

وَقَوْلُهُمْ (يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ..) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِلُوطٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ...) وَقَوْلُهُمْ لَهُ أَيْضًا (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِشُعَيْبٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ).

(**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) وعيد شديد، وتهديد أكيد .

(**مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ**) أي: يهنه في الدنيا .

(**وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ**) أي: دائم مستمر أبداً .

الفوائد :

١- حكمة الله في قلة إيمان من آمن مع نوح .

٢- أن نوحاً قام بما يجب عليه من الدعوة والنصح ، لكن حكمة الله فوق كل اعتبار .

٣- تعليم الله لنبيه ورعايته له .

٤- أن الله إذا حكم بشيء فإنه لا يراجع في ذلك .

٥- أن السخرية والاستهزاء بالأنبياء وأتباعهم سنة ماضية .

٦-تهديد نوح لهؤلاء الكفار .

٧- ثقة نوح بوعد الله .

(حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)) .

[هود : ٤٠] .

(**حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا**) المراد بالأمر ، وقت حلول وقت نزول العذاب بهم، فهو مفرد الأمور، أي: حتى إذا حل بهم وقت عذابنا.. قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين.

(**وَفارَ التَّنُّورُ**) يقال : فار يفور إذا غلا غلياناً شديداً .

وفي المراد بالتنور أقوال للعلماء :

فقيل : إن الكلام على سبيل المجاز، والمراد بقوله سبحانه فارَ التَّنُّورُ التمثيل بحضور العذاب، كقولهم، حمى الوطيس، إذا اشتد القتال .

وقيل : أنه تنور الخبز ، وذلك أن الله تعالى جعله له علامة ، عندما يفور يغلم أن الإهلاك حاصل بعده .

ورجحه ابن جرير ، لأن هذه اللفظ هو المتبادر من اللفظ .

قال ابن جرير : وَأَوْلَى هَذِهِ الأَقْوَالِ عِنْدَنَا بِتَأْوِيلِ قَوْلِهِ (التَّنُّورِ) قَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ التَّنُّورُ الَّذِي يُخْبَزُ فِيهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ كَلاَمِ الْعَرَبِ، وَكَلاَمُ اللَّهِ لاَ يُوَجَّهُ إِلاَّ إِلَى الأَغْلَبِ الأَشْهَرِ مِنْ مَعَانِيهِ عِنْدَ الْعَرَبِ إِلاَّ أَنْ تَقُومَ حُجَّةٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ بِخِلاَفِ ذَلِكَ فَيُسَلَّمُ لَهَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِنَّمَا خَاطَبَهُمْ بِمَا خَاطَبَهُمْ بِهِ لِإِفْهَامِهِمْ مَعْنَى مَا خَاطَبَهُمْ بِهِ . (التفسير) .

وقيل : المراد به وجه الأرض ، أي : إذا فاض وجه الأرض بالماء ، فاركب لئلا يدركك الغرق .

- **قال ابن كثير** : أما قوله (وَفَارَ التَّنُّورُ) فعن ابن عباس : التنور : وجه الأرض ، أي : صارت الأرض عيونا تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار ، صارت تفور ماء ، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.
- وقد أمر تعالى نوحاً أن يحمل معه ثلاثة أشياء:

(**قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**) والمقصود بالزوجين كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى.

- لأن الله تعالى أخبر نوحاً أن الطوفان سيهلك كل موجود على وجه الأرض ، فأمر نوحاً أن يأخذ من كل جنس ذكراً وأنثى ليبقى التناسل في الأرض ، وهذا من رحمة الله .

(**وَأَهْلَكَ**) أي : احمل أهلَك ، والمراد بهم من كان مؤمناً منهم .

(**إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ**) أي إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله.

والمراد بمن سبق عليه القول:

زوجته التي جاء ذكرها في سورة التحريم في قوله تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما) .

وابنه الذي أبى أن يركب معه السفينة.

(**وَمَنْ آمَنَ**) واحمل معك من آمن بك من قومك.

(**وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**) مع طول مكثه فيهم .

الفوائد :

١- أن الله وضع علامة لقدوم العذاب على الكافرين .

٢- تعليم الله لنبيه نوح من يحمل معه في السفينة .

٣- رحمة الله بعباده حيث أمر نوحاً أن يحمل معه من كل زوجين اثنين لبقاء التناسل .

٤- نجاة أهل الإيمان .

٥- أن العبرة بالإيمان لا بالأحساب .

٦- أن من كان كافراً فإنه لا تنفعه قرابته لنبي من الأنبياء .

٧- قلة من آمن مع نوح .

٨- عبرة وعظة لكل داعية في عدم حزنه لقلة من آمن معه .

٩- أن الحق والإيمان دائماً هم الأقل .

(وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (٤٢) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ

بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)) .

[هود : ٤٠- ٤٤] .

(**وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها**) يقول تعالى إخبارًا عن نوح ﷺ أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة (ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أي: بسم الله يكون جَرْيُها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسُوها.

- **قال الشوكاني** : قوله (وَقالَ ارْكَبُوا فِيها) الْقَائِلُ نُوحٌ، وَقِيلَ: اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، لِقَوْلِهِ: إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .
- **وقال الآلوسي** : قوله تعالى (وَقَالَ) أي نوح ﷺ لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى (إِنَّ رَبّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ).

وقيل : الضمير لله تعالى ، وفيه أنه لو كان كذلك لكان المناسب إن ربكم الخ ، ولعل هذا القول بعد إدخال ما أمر بحمله في الفلك من الأزواج .

- **قال الشنقيطي** : ذكر الله تعالى في هذا الآية الكريمة : أن نبيه نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أمر أصحابه الذين قيل لهم احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلاً : وَقَالَ (بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها.

وبين في سورة الفلاح : أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدوا الله الذي نجاهم من الكفرة الظالمين ، ويسألوه أن ينزلهم منزلاً مباركاً ، وذلك في قوله (فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك فَقُلِ الحمد للَّهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القوم الظالمين وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ المنزلين) .

وبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله (والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُون) .

ومعنى قوله (مُقْرِنِينَ) أي : مطيقين .

- **قال ابن كثير** : ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى (وَالَّذِي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُون) وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة "الزخرف" ، إن شاء الله وبه الثقة.
- **قال الخازن** : وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمراً فلا ينبغي له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سبباً للنجاح والفلاح في سائر الأمور .

(**إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**) مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذِكْرُ أنه غفور رحيم، كما قال (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) ، وقال (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ

لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.
(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبَّق جميع الأرض، حتى طفت على رءوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا، وقيل: بثمانين ميلا وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كَنَفه وعنايته وحراسته وامتنانه .

- **قال الشنقيطي** : ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة : أن السفينة تجري بنوح ومن معه في ماء عظيم ، أمواجه كالجبال.

وبين جريانها هذا في ذلك الماء الهائل في مواضع آخر.
كقوله (إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) .
وقوله (فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) .

- **قال ابن عاشور** : والموج : ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه ، وتشبيهه بالجبال في ضخامته.
- **قال الرازي** : الأمواج العظيمة إنما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة ، والمقصود منه : بيان شدة الهول والفزع.
- **قال ابن الجوزي** : شبهه بالجبال في عِظَمه وارتفاعه .

(وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ) لا يختلفون أنه كان كافراً.
وفي اسمه قولان :
أحدهما : كنعان ، وهو قول الأكثرين.
والثاني : اسمه يام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عبيد بن عمير ، وابن إسحاق.

- وهذا كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال ، إذ يتعذر إيقافها بعد جريها لأن الراكبين كلّهم كانوا مستقرين في جوف السفينة.

(وَكانَ فِي مَعْزِلٍ) المعزل في اللغة معناه : موضع منقطع عن غيره ، وأصله من العزل ، وهو التنحية والإبعاد.
قيل : في معزل من السفينة ، وقيل : في معزل من دين أبيه.
(يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ) تصغيره هنا تصغير شفقة بحيث يجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة.

- **قال ابن عاشور** : قول نوح عليه السّلام له (اركب معنا) كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير.

قيل : المراد كان في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم، وظن نوح عليه السلام أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة، وقيل: إنما ناداه لأنه كان ينافقه فظن أنه مؤمن، واختاره كثير من المحققين وغيره، وقيل: كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت لكنه عليه السلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال وبلوغ السيل الزبي ينزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان، وقيل: لم يجزم بدخوله في الاستثناء لما أنه كان كالمجمل فحملته شفقة الأبوة على أن ناداه .

(**قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ**) اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق .

- ظن ابن نوح أن ذلك المطر والتفجير على العادة ، فلذلك قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء أي : من وصول الماء إليّ فلا أغرق ، وهذا يدل على عادته في الكفر ، وعدم وثوقه بأبيه فيما أخبر به.

(**قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ**) أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله .

- **قال الشنقيطي** : الصحيح أن الاستثناء هنا منقطع ، أي : ولكن من رحم الله فهو معصوم كالمؤمنين . (ضابط الاستثناء المنقطع : أن يستثني بإلا شيء من غير جنس ما ذكر) .

(**وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ**) أي : بين نوح وابنه ، وذلك أن الموج ارتفع حتى صار مثل الجبال ، فطغى عليه الطوفان .

(**فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**) الهالكين بالغرق .

(**وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي**) يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلعَ عن المطر .

- **قال ابن عاشور** : والبلع حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم.
- والقائل هو الله ، وإنما حذف للعلم به ، لأنه لا أمر لأحد على السماء والأرض بذلك غير رب العالمين .

(**وَغِيضَ الْماءُ**) أي : شرع في النقص .

(**وَقُضِيَ الْأَمْرُ**) أي: فُرِغَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم دَيّار .

كما قال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

(**وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيّ**) أي : السفينة بمن فيها (عَلَى الْجُودِيِّ) قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة .

- **قال ابن الجوزي** : وفي علة استوائها عليه قولان :

أحدهما : أنه لم يغرق ، لأن الجبال تشامخت يومئذ وتطاولت ، وتواضع هو فلم يغرق ، فأرست عليه ، قاله مجاهد.

والثاني : أنه لما قلَّ الماء أَرْسَتْ عليه ، فكان استواؤها عليه دلالة على قلة الماء.

- وقال القرطبي : وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت ، وبقي الجُوديّ لم يتطاول تواضعاً لله ، فاستوت السّفينة عليه : وبقيت عليه أعوادها.

وفي الحديث أن النبيّ ﷺ قال (لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة ".

- وقال مجاهد : تشامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق ؛ فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً ، وتطامن الجوديّ ، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق ، ورست السفينة عليه.

وقد قيل : إن الجوديّ اسم لكل جبل .

ويقال : إن الجُوديّ من جبال الجنة ؛ فلهذا استوت عليه.

ويقال: أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر: الجوديّ بنوح، وطور سيناء بموسى، وحِراء بمحمد صلوات الله وسلامه

عليهم أجمعين.

مسألة : لما تواضع الجوديّ وخضع عزَّ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذَلّ، وهذه سُنّة الله في خلقه، يرفع من تخشّع، ويضع من ترفّع؛ ولقد أحسن القائل :

وإذا تذلّلتِ الرّقابُ تَخشُّعاً ... مِنّا إليكَ فعِزُّها في ذُلّها .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال (كانت ناقة للنبي ﷺ تُسمَّى العَضْباء؛ وكانت لا تُسبق؛ فجاء أعرابيّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتدّ ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سُبِقت العضباء فقال رسول الله ﷺ : "إن حقّا على الله ألا يَرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه) .

وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال (ما نَقَصت صدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) .

(**وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**) أي: هلاكًا وخسارًا لهم وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

قيل : هذا من كلام نوح ، وقيل : من كلام الله .

- **قال الرازي** : فيه وجهان :

الأول : أنه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرد.

والثاني : أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق .

فائدة :

قال بعض العلماء :

(قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ) هذا عقل .

(قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) هذا وحي .

وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ...) هذه نتيجة من قدم عقله على الكتاب والسنة غرق في بحور الأهواء .

الفوائد :

١-مشروعية التسمية في بداية كل عمل ، تشرع التسمية (استحباباً أو وجوباً) في مواضع :

منها : عند الوضوء .

لقوله ﷺ (لا صلاة لمن لا وضوء له) رواه أبو داود .

ومنها : عند الركوب .

قال الله تعالى (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ) .

وفي حديث علي (... وأُتِيَ بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله .... الحديث وفي آخره قال : رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت) رواه أبو داود .

ومنها : عند الذبح والصيد .

لقوله تعالى (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) .

وقال تعالى (وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) .

وعن عدي بن حاتم . قال : قال رسول الله ﷺ (إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله عليه فكل) متفق عليه .

ومنها : عند الأكل .

لحديث عمرو بن سلمة . قال (كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال : يا غلام سم الله ، وكل بيمينك .....) متفق عليه .

ومنها : عند دخول المنزل .

لحديث جابر . أن رسول الله ﷺ قال (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله ، وعند طعامه ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء) رواه مسلم .

ومنها : عند الجماع .

لحديث ابن عباس . عن النبي ﷺ أنه قال (لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ...) متفق عليه .

ومنها : عند الخروج من البيت .

لحديث أنس . قال : قال رسول الله ﷺ (إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله ، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له حينئذ: هديت وكفيت ...) رواه أبو داود .

ومنها : في المساء والصباح .

لحديث عثمان . قال : قال رسول الله ﷺ (من قال : بسم الله ، الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح ...) رواه أبو داود .

ومنها : إذا عثر المرء أو عثرت دابته .

لحديث رجل قال (كنت رديف النبي ﷺ فعُثِر بالنبي ﷺ فقلت : تعس الشيطان ، فقال النبي ﷺ : لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب) رواه أبو داود .

ومنها : عند وضع الميت في قبره .

لحديث ابن عمر (أن النبي ﷺ كان إذا وضع الميت في القبر قال : بسم الله ، وعلى سنة رسول الله) رواه أبو داود .

٢- من آيات الله نجاة المؤمنين وهلاك الظالمين .

٣- كل شيء يجري بأمر الله .

٤- من رحمة الله نجاة أهل الإيمان وغرق أهل الكفر والضلال .

٥- شدة الطوفان وارتفاع أمواجه .

٦- من لم يكتب الله له الهداية فلن يهتدي .

٧- حكمة الله : في عدم إيمان ابن نوح .

٨- مصداق : يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي .

٩- أن الأنبياء لا يستطيعون هداية أحد إلا من أراد الله هدايته .

١٠- لا ينفع ولا يرد أمر الله إذا جاء شيء .

(وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)) .

[هود : ٤٥- ٤٩] .

(**وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ**) هذا سؤال استعلام وكشف من نوح ﷺ عن حال ولده الذي غرق .

(**فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي**) أي : وقد وعدتني بنجاة أهلي .

وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ) ووعدُك الحق الذي لا يخلف .

(**وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ**) فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟

- واكتفى نوح ﷺ بأن يقول: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي. وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدباً مع الله تعالى وحياء منه سبحانه واعتقاداً منه بأنه سبحانه عليم بما يريده، وخبير بما يجول في نفسه.
- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) أي : أَنَّهُ مِنَ الْأَهْلِ الَّذِينَ وَعَدْتَنِي بِتَنْجِيَتِهِمْ بِقَوْلِكَ: وَأَهْلَكَ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ طَلَبَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْجَازَ مَا وَعَدَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: وَأَهْلَكَ وَهُوَ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَتَرَكَ مَا يُفِيدُهُ الِاسْتِثْنَاءُ، وَهُوَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ؟ فَيُجَابُ: بِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ إِذْ ذَاكَ أَنَّهُ مِمَّنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَظُنُّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

- **قال القاسمي**: وإنما قال نوح ذلك- أي: رب إن ابني من أهلي.. ألخ- لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية، والرحمة النسبية، وغفل- لفرط التأسف على ابنه- عن استثنائه تعالى بقوله: إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول، فاستعطف ربه بالاسترحام، وعرض بقوله وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده .

يقول المؤرخون : إن أبناء نوح أربعة : أحدهم هذا الذي خاطب الله فيه ، ويسمى : كنعان ، والثلاثة الباقون هم مؤمنون ، ومنهم كان النسل البشري الباقي كما قال تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) .

(**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ**) الموعود بنجاتهم .

- **قال ابن كثير** : أي الذين وعدت إنجاءهم ؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال (وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) فكان هذا الولد ممن سَبَق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحاً عليه السلام.
- فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه، لأن ظاهر الآية يدل على أنه ابنه من صلبه، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه، لخلوه عن الدليل.
- قول إنه ليس بابنه ، وإنما ابن زنية قول عظيم ، وجرم كبير .
- **قال ابن كثير** : قال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) أي: الذين وعدتك نجاتهم .

وقولُ ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رمَوا أم المؤمنين عائشة بنتَ الصدّيق زوج النبي ﷺ ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) إلى قوله (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) .

أما قوله تعالى (فخانتاهما) فالمراد الخيانة في الدين ، وذلك أن امرأة نوح كانت تخبر قومها بمن آمن معه فيعذبونهم ، وامرأة لوط كانت توقد الدخان لقومها علامة على أن عند لوط ناساً ليأتوا فيفعلوا بهم الفاحشة .

(**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**) تعليل لانتفاء كونه من أهله.

- **قال البقاعي** : قوله تعالى (إنه ليس من أهلك) أي المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره ، ولهذا علل بقوله (إنه عمل) أي ذو عمل ، ولكنه جعله نفس العمل في قراءة الجماعة مبالغة في ذمه .
- **قال الشوكاني** : قَرَأَ الْجُمْهُورُ: عَمَلٌ، عَلَى لَفْظِ الْمَصْدَرِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْكِسَائِيُّ، وَيَعْقُوبُ: عَمِلَ، عَلَى لَفْظِ الْفِعْلِ .

وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى الْمُبَالَغَةُ فِي ذَمِّهِ كَأَنَّهُ جُعِلَ نَفْسَ الْعَمَلِ، وَأَصْلُهُ ذُو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ ثُمَّ حَذَفَ الْمُضَافَ وَجُعِلَ نَفْسَ الْعَمَلِ، كَذَا قَالَ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ. وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ ظَاهِرٌ، أَيْ: إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ، وَهُوَ كُفْرُهُ وَتَرْكُهُ لِمُتَابَعَةِ أَبِيهِ .

- **ذهب بعض العلماء** : إلى أن هذا الضمير عائد إلى هذا السؤال ، فكان التقدير أن هذا السؤال عمل غير صالح ، أي قولك : إن ابني من أهلي لطلب نجاته عمل غير صالح ، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنباً ومعصية.
- **قال الرازي** : هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فإن في هذه الصورة كانت قرابة

النسب حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين، لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو: قوله: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .

- **قال القرطبي** : في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين.

(**فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**) أي : لا تطلب مني الشيء الذي لا تعلم أن في طلبك إياه مصلحة ، لأنك إذا سألت شيئاً لا ينبغي وقوعه ، فقد طلبت من الله أ، يفعل ما لا ينبغي ، فكأنك هنا قلت : اللهم أنج كافراً من الكفار .

(**إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**) أي : إني أنهاك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها ، ولا يعلمون حقائق الأشياء .

- **قال الشوكاني** : أَيْ أُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، كَقَوْلِهِ: يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: أَرْفَعُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذِهِ زِيَادَةٌ مِنَ اللَّهِ وَمَوْعِظَةٌ يَرْفَعُ بِهَا نُوحًا عَنْ مَقَامِ الْجَاهِلِينَ، وَيُعْلِيهِ بِهَا إِلَى مَقَامِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ .

(**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**) أي : أعتصم وأتمنع بك من أن أقع في هذا الخطأ مرة أخرى ، استعاذ بالله من أن يقع في ذلك في المستقبل .

(**وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**) أي : إن لم تستر ما مضى لي من الذنب ، وتغمرني برحمتك التي وسعت كل شيء أكن في عداد الخاسرين .

(**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ**) لما أمر الله الأرض ببلع الماء ، والسماء بالكف عن إنزاله ، واستوت السفينة على الجبل أحب نوح ومن معه النزول ، فأمره الله بالهبوط هو ومن معه .

والمراد هنا : قيل : من السفينة ، وقيل : من الجبل .

- **قال أبو حيان** : قيل : القائل هو الله تعالى ، وقيل : الملائكة تبليغاً عن الله تعالى ، والظاهر الأول لقوله : منا.

(**بِسَلاَمٍ مِّنَّا**) أي : مصحوباً بسلام ، أي : بتحية وسلامة .

وهذا من إكرام الله لنبيه نوح ، حيث كان عبداً شكوراً .

- فضائل نوح:

أولاً: ثناء الله عليه.

قال تعالى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً).

ثانياً: أول رسول للبشر.

لحديث أبي هريرة –حديث الشفاعة– قال ﷺ (... فيأتون نوحاً فيقولون أنت أول رسول إلى البشر، وسماك الله عبداً شكوراً).

ثالثاً: أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب.

رابعاً: استجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب.

قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

(**وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ**) أي : خيرات كثيرة .

- **قال الخازن** : والبركة هي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته ، وقيل : المراد بالبركة هنا أن الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه في السفينة غيرهم .

(**وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ**) واختلفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال : منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات ، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلا هم ، فلهذا السبب جعلهم أمماً .

ومنهم من قال : بل المراد ممن معك نسلاً وتولداً قالوا : ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة في قوله تعالى (وَمَا ءامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

ومنهم من قال : المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك .

(**وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي : أن الأمم التي تكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين: قسم منهم له منا السلام، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح.

وقسم آخر سنمتعه في الدنيا وبالكثير من زينتها وخيراتها، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمنا، وعصيانه لرسلنا.

فعلى كل عاقل أن يجتهد في أن يكون من القسم الأول، وأن يتجنب القسم الثاني.

- **قال الخازن** : قوله تعالى (وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم ..) هذا ابتداء كلام ، أي : وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا إلى منتهى آجالهم .

(**تِلْكَ**) الإشارة إلى ما مضى من قصص نوح ، من دعوته قومه إلى عبادة الله .

(**مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ**) أي : تلك القصص التي أخبرناك بها من الأمور التي هي غائبة عن الناس .

وفي هذا أعظم معجزة للنبي ﷺ ، حيث إنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وإذا به يخبر عن غرائب التاريخ التي مضى عليها آلاف السنين ، فليست إلا بوحي من الله .

(**مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا**) أي : هذه القصة وأمثالها ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنت يا محمد، وما كان يعلمها قَوْمُكَ أيضا، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة، الخالية من الأساطير والأكاذيب ، مِنْ قَبْلِ هذا الوقت الذي أوحيناها إليك فيه.

(**فَاصْبِرْ**) وما دام الأمر كذلك فَاصْبِرْ صبراً جميلاً على تبليغ رسالتك، وعلى أذى قومك كما صبر أخوك نوح من قبل.

وفي هذا أن أعظم ما يعين على الصبر قراءة سير من تقدم من الأنبياء والعظماء والعلماء العاملين وكيف صبروا وضحوا .

- **قال الرازي** : وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه.

- وإنما أمره بالصبر لأمور:

أولاً: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر).

ثانياً: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات.

ثالثاً: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

رابعاً: وليكون قدوة لغيره.

(**إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**) تعليل للأمر بالصبر.

أي : إن العاقبة الحسنة الطيبة في الدنيا والآخرة، للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضى الله تعالى، وليست لغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى.

الفوائد :

١- أهمية عقيدة الولاء والبراء في الإسلام .

قال بعضهم : لو كان الولاء للأرض ما ترك النبي مكة – ولو كان للقبيلة ما قاتل قريشاً – ولو كان للعائلة ما تبرأ من أبي لهب ، ولكنها العقيدة أغلى من التراب والدم .

٢- أن ابن نوح كان كافراً ، فلم يستحق النجاة .

٣- أن العبرة بالدين بالإيمان والعمل لا بالأحساب والأنساب .

٤-أن الأنبياء بشر كغيرهم ، لا يستطيعون هداية أحد إلا بأذن الله .

٥- الرد على من يرفع نبياً من الأنبياء فوق منزلته ، فنوح لم يستطع هداية ابنه ، ونبينا ﷺ لم يستطع هداية عمه .

٦- حكمة الله في عدم هداية ابن نوح .

٧- أن كل أحد – حتى الأنبياء – بحاجة إلى رحمة الله ومغفرته .

٨- ثناء الله على نوح .

٩- معجزة ظاهرة للنبي ﷺ ، حيث أخبر بهذا الأنباء التي لا يعلمها إلا الله .

١٠- أمر النبي ﷺ بالصبر .

١١- أن الصبر من أسباب النصر والتمكين والرفعة ، حيث صبر نوح فنصره الله ومكنه .

١٢- علينا الاقتداء بالأنبياء في صبرهم وجهادهم وتحملهم .

١٣- أن العاقبة في الدنيا والآخرة لمن اتقى الله .

١٢ رمضان١٤٣٩هـ .

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي

أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)) .

[هود : ٥٠ – ٦٠] .

(**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا**) يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا.

- وهذه الأممُ يَقُصُّ اللهُ خبرَها على هذه الأمةِ لتستفيدَ من ذلك فوائدَ عظيمةً (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ) فيخافُ المكذبونَ للرسلِ الجاحدونَ بآياتِ اللهِ أن ينزلَ بهم مِثْلُ ما نَزَلَ بأولئك من الْمَثُلاَتِ، ومن عذابِ اللهِ المستأصلِ المتصلِ بعذابِ النارِ، وكذلك يُعَلِّمُ الناسَ الآدابَ، وآدابُ الدعاةِ إلى اللهِ في لِينِهِمْ وَعَطْفِهِمْ، وَلِينِ كَلاَمِهِمْ، وكرمِ مخاطبتِهم، وعدمِ بذاءتِهم وكلامِهم بكلامِ الجاهلين .
- وعاد قبيلة عظيمة، وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العَمَد في البر، كما قال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ) وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) .

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

قال تعالى (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ).

- **قال ابن كثير**: هذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هودا ﷺ، دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبا؛ لأن الرسل صلوات الله عليهم إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدّد خلقهم شُدِّد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق؛ ولهذا دعاهم هود ﷺ، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.
- قوله تعالى (أخا هوداً) أي: أخاهم في النسب لا في الدين خلافاً لمن زعم أن أصله ليس منهم.
- **قال الرازي**: اتفقوا على أن هوداً ما كان أخاً لهم في الدين.
- والسر في التعبير بالأخوة لهم: ليزداد التشنيع عليهم، لأنه منهم يعلمون صدقه وثقته وشرفه.
- **قال الآلوسي**: وحكمة كون النبي يبعث إلى القوم منهم أنهم أفهم لقوله من قول غيره وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله.

(**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**) كل دعوات الرسل هي مضمون (لا إله إلا الله) التي قام

عليها أمر السماوات والأرض، وخلقت من أجلها الجنة والنار، ولهذا كل رسول يبدأ قومه بالدعاء إليها (مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أي: ليس لكم معبود يستحق منكم العبادة غيره، لأنه الخالق الرازق المدبر.

(**إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ**) الافتراء: الكذب المتعمد الذي لا شبهة لصاحبه في النطق به.

أي : ما أنتم إلا متعمدون للكذب في جعلكم الألوهية لغير الله تعالى .

- وقال في سورة الأعراف (أَفَلاَ تَتَّقُونَ) أي: أفلا تخافون عذاب الله فتبتعدوا عن طريق الشرك والضلال لتنجوا من عقابه.
- **قال أبو حيان:** وفي قوله (أَفَلا تَتَّقُونَ) استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى، ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر في العالم مثلها قال لهم: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها فاكتفى هود بقوله لهم: أَفَلا تَتَّقُونَ ، والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا، فقوله: أَفَلا تَتَّقُونَ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة.

(**يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**) أيْ: لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَجْرًا عَلَى مَا أُبَلِّغُهُ إِلَيْكُمْ، وَأَنْصَحُكُمْ بِهِ مِنَ الْإِرْشَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ لَكُمْ سِوَاه .

(**إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي**) أَيْ: مَا أَجْرِيَ الَّذِي أَطْلُبُ إِلَّا مِنَ الَّذِي فَطَرَنِي، أَيْ: خَلَقَنِي فَهُوَ الَّذِي يُثِيبُنِي عَلَى ذَلِكَ .

- ومقصده من هذا القول، إزالته ما عسى أن يكون قد حاك في نفوسهم، من أنه ما دعاهم إلى ما دعاهم إليه، إلا لأنه رجل يبتغي منهم الأجر الذي يجعله موسرا فيهم .
- قوله (إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) كما قال تعالى عن إبراهيم ﷺ (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي).

فقوله (إلا الذي فطرني) ولم يقل إلا الله لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة , لأنه كما أنه متفرد بالخلق , فيجب أن ينفرد بالعبادة.

والثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام , ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها , ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات.

- قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات, لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم, كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).

وقيل: ليذكرهم بذلك نعمته عليهم.

- والله عز وجل ينبه كثيراً على هذا المعنى، ويذكر المشركين بذلك، وأن الخالق هو المستحق للعبادة:

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ).

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ).
وقال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ).
وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ).
وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).
(**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**) أفلا تعقلون إلى ما أدعوكم إليه , خاصة وأنه موجب لقبوله , منتفٍ المانع عن رده .

- ثُمَّ رَغَّبَهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِالْخَيْرِ الْعَاجِلِ

(**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**) الاستغفار: طلب المغفرة من الله- تعالى- وعدم المؤاخذة على الخطايا:
والتوبة: العزم على الإقلاع عن الذنب، مع الندم على ما حصل منه في الماضي.
أي : ويا قوم استغفروا ربكم مما فرط منكم من شرك وعصيان، ثم عودوا إليه بالتوبة الصادقة النصوح.
(**يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**) أي : يُرْسِلِ السَّماءَ أَيِ: الْمَطَرَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً أَيْ: كَثِيرَ الدُّرُورِ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، دَرَّتِ السَّمَاءُ تُدِرُّ وَتَدُرُّ فَهِيَ مِدْرَارٌ، وَكَانَ قَوْمُ هُودٍ أَهْلَ بَسَاتِينَ وَزَرْعٍ وَعِمَارَةٍ، وَكَانَتْ مَسَاكِنُهُمُ الرِّمَالَ الَّتِي بَيْنَ الشَّامِ وَالْيَمَنِ .
(**وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ**) معطوفة على ما قبلها ، أي : وأيضاً إن فعلتم ذلك زادكم الله تعالى عزاً إلى عزكم، وشدة إلى شدتكم التي عرفتم بها، ووهبكم الأموال الطائلة ، والذرية الكثيرة.
(**وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ**) أَيْ: لَا تُعْرِضُوا عَمَّا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَتُقِيمُوا عَلَى الْكُفْرِ مُصِرِّينَ عَلَيْهِ، وَالْإِجْرَامُ: الْآثَامُ .
(**قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ**) يخبر تعالى إخبارًا عن قوم هود أنهم قالوا لنبيهم (مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) أي: بحجة ولا دلالة ولا وبرهان على ما تدعيه .

- **قال ابن عطية** : ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق ، كما جعلت قريش القرآن سحراً وشعراً ونحو هذا ، وقد قال رسول الله ﷺ (ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر) الحديث ، وهذا يقضي بأن هوداً وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضه .
- **قال أبو حيان** : وقد كذبوا في ذلك وبهتوه كما كذبت قريش في قولهم (لولا أنزل عليه آيـة من ربه) وقد جاءهم بآيات كثيرة، أو لعمائهم عن الحق وعدم نظرهم في الآيات اعتقدوا ما هو آية ليس بآية فقالوا: ما جئتنا ببينة تلجئنا إلى الإيمان، وإلا فهود وغيره من الأنبياء لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضها، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر .

(**وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ**) أي: بمجرد قولك : اتركوهم ، نتركهم .
(**وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**) بمصدقين .
(**إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ**) أي : يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبَل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها .
(**قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ**) أي : قال هود عليه السلام للطغاة من قومه بعزة وثقة إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ الذي لا رب سواه على

براءتي من عبادتكم لغيره.

(**وَاشْهَدُواْ**) وَاشْهَدُوا أنتم أيضاً .

(**أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ**) على أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ من الأنداد والأصنـام .

أي : على براءتي من كل عبادة تعبدونها لغير الله تعالى لأنها عبادة باطلة ، يحتقرها العقلاء، ويتنزه عنها كل إنسان يحترم نفسه .

(**فَكِيدُونِي جَمِيعًا**) أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً .

(**ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ**) أي: طرفة عين .

فأنت تراه في هذه الآية الكريمة يعلن احتقاره لآلهتهم، وبراءته من شركهم، واستخفافه .

- وهذا من أعظم الآيات، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقته بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم .

- **قال ابن كثير** : وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جَماد لا تسمع ولا تبصر، ولا تُوالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

- **وقال القرطبي** : قوله تعالى عن هود (ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ) أي لا تؤخرون ، وهذا القول مع كثرة الأعداء يدلّ على كمال الثقة بنصر الله تعالى.

وهو من أعلام النبوّة ، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : فَكِيدُونِي جَمِيعاً .

وكذلك قال النبي ﷺ لقريش ، وقال نوح ﷺ (فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُم) .

- **وقال ابن القيم** : ... حتَّى إِنَّ مِنْ أَخْفَى آيَاتِ الرُّسُلِ آيَاتُ هُودٍ عليه السلام، حَتَّى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ (يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) وَمَعَ هَذَا فَبَيِّنَتُهُ مِنْ أَظْهَرِ الْبَيِّنَاتِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ (إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ: أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخِطَابِ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ، وَلَا خَوَّارٍ، بَلْ وَاثِقٌ مِمَّا قَالَهُ جَازِمٌ بِهِ، قَدْ أَشْهَدَ اللَّهَ أَوَّلًا عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَمِمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ، مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ: أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُسَلِّطِهِمْ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ - إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ -: أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ، الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيُعَادُونَ، وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهَا.

ثُمَّ أَكَّدَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ، وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ يُعَاجِلُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ أَضْعَفُ وَأَعْجَزُ وَأَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّكُمْ لَوْ رُمْتُمُوهُ لَانْقَلَبْتُمْ بِغَيْظِكُمْ مَكْبُوتِينَ مَخْذُولِينَ.

ثُمَّ قَرَّرَ دَعْوَتَهُ أَحسَنَ تَقْرِيرٍ، وَبَيَّنَ أَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى وَرَبَّهُمْ، الَّذِي نَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ: هُوَ وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ، الْقَائِمُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَلَا يَخْذُلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَآمَنَ بِهِ، وَلَا يُشْمِتُ بِهِ أَعْدَاءَهُ، وَلَا يَكُونُ مَعَهُمْ

عَلَيْهِ، فَإِنَّ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ – فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ – يَمْنَعُ ذَلِكَ وَيَأْبَاهُ.

- **وقال الخازن:** (**قال**) يعني قال هود مجيباً لهم (**إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ**) أي : واشهدوا أنتم أيضاً علي (**أني بريء مما تشركون من دونه**) يعني هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها (**فكيدوني جميعاً**)يعني احتالوا في كيدي وضري أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فإنها لا تضر ولا تنفع (**ثم لا تنظرون**) يعني ثم لا تمهلون ، وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك أنه كان وحيداً في قومه فما قال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت إلا لثقته بالله وتوكله عليه .
- فائدة : آيات الأنبياء تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : منها ما هو مُعجِز .

كالقرآن الكريم ، وناقة صالح ، وانشقاق القمر ، والآيات التسع التي أعطيها موسى .

والقسم الثاني : ما ليس بمعجز .

مما يعرف بها صدقه ، كالأشياء التي سأل عنها هرقل لأبي سفيان .

(**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم**) أي : إني فوضت أمرى إلى الله الذي هو ربي وربكم، ومالك أمرى وأمركم، والذي لا يقع في هذا الكون شيء الا بإرادته ومشيئته.

وفي قوله (رَبِّي وَرَبِّكُمْ) مواجهة لهم بالحقيقة التي ينكرونها، لإفهامهم أن إنكارهم لا قيمة له، وأنه إنكار عن جحود وعناد.. فهو سبحانه ربهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه.

(**مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**) أي : ما من دابة تدب على وجه الأرض إلا والله تعالى مالكها وقاهر لها، وقادر عليها، ومتصرف فيها كما يتصرف المالك في ملكه.

- قال الأزهري : الناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته.

واعلم أن العرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، أي أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته ، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا في القرآن بما يعرفون فقوله (مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) أي ما من حيوان إلا وهو تحت قهره وقدرته ، ومنقاد لقضائه وقدره.

(**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**) أي : على عدل ، وقسط ، وحكمة ، وحمد في قضائه وقدره ، في شرعه وأمره ، وفي جزائه وثوابه وعقابه ، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يحمد عليها ويثنى عليه بها .

- **قال الخازن** : يعني إن ربي وإن كان قادراً وأنتم في قبضته كالعبد الذليل فإنه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف والعدل فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه .
- **وقال ابن القيم** : أَيْ مَعَ كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ آخِذًا بِنَوَاصِي خَلْقِهِ وَتَصْرِيفِهِمْ كَمَا يَشَاءُ فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالرَّحْمَةِ . فَقَوْلُهُ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُك مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) وَقَوْلُهُ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُك مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ (إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

- **قال ابن القيم** : وَلذَا قَالَ هود لِقَوْمِهِ (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي على صِرَاط مُسْتَقِيم) ، وَقَوله (مَاض فِيَّ حكمك عدل فِي قضاؤك) تضمّن هَذَا الْكَلَام أَمريْن :

أَحدهمَا : إمضاء حكمه فِي عَبده ، وَالثَّانِي : يتضمّن حَمده وعدله وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَهُ الْملك وَله الْحَمد .

وَهَذَا معنى قَول نبيّه هود (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) ثمَّ قَالَ (إِنَّ رَبِّي على صِرَاط مُسْتَقِيم) أَي : مَعَ كَونه مَالِكًا قاهراً متصرّفا فِي عباده نواصيهم بِيَدِهِ فَهُوَ على صِرَاط مُسْتَقِيم وَهُوَ الْعدْل الَّذِي يتصرّف بِهِ فيهم فَهُوَ على صِرَاط مُسْتَقِيم فِي قَوْله وَفعله وقضائه وَقدره وَأمره وَنَهْيه وثوابه وعقابه فخبره كُله صدق وقضاؤه كلّه عدل وَأمره كُله مصلحَة وَالَّذِي نهى عَنهُ كُله ومفسدة وثوابه لمن يسْتَحق الثَّوَاب بفضله وَرَحمته وعقابه لمن يسْتَحق الْعقَاب بعدله وحكمته .

(**فَإِن تَوَلَّوْاْ**) يعني تتولوا بمعنى تعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم .

(**فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِليكم**) أي : فقد فعلت ما أمرت به ، وبذلت ما في وسعي ، لأبلغكم ما أرسلني الله به إليكم .

قال تعالى (ما على الرسول إلا البلاغ) .

(**وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا**) أي : أن ربي غني عنكم ، فلو شاء لأماتكم على كفركم فلقيتم جزاءكم في الآخرة ، وجعل في الأرض خلفاً غيركم ، ولا تضرونه بذلك ، وإنما تضرون أنفسكم .

- نستفيد من هذه الآية : أن معصية العاصين لا تضر الله شيئاً ، كما يفهم منها أن طاعة الطائعين لا تنفع الخالق .

قال ﷺ (قال تعالى : يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني) .

(**إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**) الحفيظ الرقيب الذي يحفظ الأشياء .

- **قال ابن كثير** : أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(**وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا**) أي : بإهلاك عاد .

وقد أهلكهم الله بالريح العقيم .

قال تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ).

وقال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ).

وقال تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ).

وقال تعالى (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ).

(رِيحاً صَرْصَراً) أي: ريحاً شديدة البرودة، شديدة الصوت. وهي الريح العقيم التي لا نفع فيها كما قال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ).

(العقيم) التي لا تنتج خيراً.

(كالرميم) أي: كالشيء البالي الفاني.

(سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً) سبع ليال وثمانية أيام حسوماً: أي متتابعات بلا انقطاع مشؤومات نحسات.

(كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) أي: كأنهم جذوع وسيقان النخل التي قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض

- (خاوية) ميتة منقلعة من منابتها هامدة ساقطة على الأرض فهم أجساد بلا رؤوس.

(**نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا**) تنجية مصحوبة بِرَحْمَةٍ عظيمة كائنة مِنَّا بسبب إيمانهم وعملهم الصالح.

- **قال الخازن** : وذلك أن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكفار فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه .
- **وقال أبو حيان** : والظاهر تعلق برحمة منا بقوله : نجينا أي ، نجيناهم بمجرد رحمة من الله لحقتهم ، لا بأعمالهم الصالحة.

أو كنى بالرحمة عن أعمالهم الصالحة ، إذ توفيقهم لها إنما هو بسبب رحمته تعالى إياهم.

- **وقال ابن عاشور** : والباء في (برحمة منّا) للسببيّة ، فكانت رحمة الله بهم سبباً في نجاتهم.

والمراد بالرحمة فضل الله عليهم لأنّه لو لم يرحمهم لشملهم الاستئصال فكان نقمة للكافرين وبَلوى للمؤمنين.

(**وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**) أي : من عذاب ضخم شديد مضاعف ترك هؤلاء الطغاة وراءه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

- ووصف العذاب بأنه غليظ، بهذا التصوير المحسوس، يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة في الأجسام، ومن تفاخر بالقوة.

قال تعالى (فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) .

وكان عذابهم كما جاء في آيات أخرى بالريح العقيم كما تقدم .

- **قال بعض العلماء** : المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى أنه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظاً لأنه أعظم من عذاب الدنيا .

(**وَتِلْكَ عَادٌ**) اسم الإشارة في قوله تعالى (وَتِلْكَ عادٌ ...) يعود إلى القبيلة أو إلى آثارهم التي خلفوها من بعدهم.

أي : وتلك هي قصة قبيلة عاد مع نبيها هود- عليه السلام- وتلك هي عاقبتها وكانت الإشارة للبعيد تحقيرا لهم، وتهوينا من شأنهم بعد أن انتهوا، وبعدوا عن الأنظار والأفكار، وقد كانوا يقولون: من أشد منا قوة.

- **قال الخازن** : وتلك عاد رده إلى القبيلة وفيه إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بها .

(**جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**) بيان لجرائمهم التي استحقوا بسببها العذاب الغليظ.

والجحد: الإنكار الشديد للحق الواضح.

وآيات ربهم: الحجج والبراهين التي جاء بها الأنبياء من ربهم للدلالة على صدقهم.

والجبار: هو الشخص المتعالي المتعاظم على الناس، المترفع عن الاستجابة للحق.

- **قال الرازي** : والمراد من الجبار المرتفع المتمرد العنيد العنود والمعاند ، وهو المنازع المعارض.
- **قال القرطبي** : العنيد الطاغي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له.

أي : وتلك هي قصة قبيلة عاد مع نبيها، كفروا بآيات ربهم الدالة على صدق أنبيائه، وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم، واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم، بدون تفكر أو تدبر.

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (وَعَصَوْا رُسُلَهُ) مع أنهم قد عصوا رسولاً واحداً هو هود عليه السلام، للإشارة إلى أن معصيتهم لهذا الرسول كأنها معصية للرسل جميعاً، لأنهم قد جاءوا برسالة واحدة في جوهرها وهي: عبادة الله تعالى وحده، والتقيد بأوامره ونواهيه.

والإشارة أيضاً إلى ضخامة جرائمهم، وإبراز شناعتها حيث عصوا رسلاً لا رسولاً .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ) شنعة عليهم وذلك أن في تكذيب رسول واحد تكذيب سائر الرسل وعصيانهم، إذ النبوات كلها مجمعة على الإيمان بالله والإقرار بربوبيته .
- **وقال القرطبي** : وإنما جمع هاهنا لأن من كذّب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل.
- **وقال ابن عاشور** : لأن تكذيبهم هوداً لم يكن خاصاً بشخصه لأنهم قالوا له (وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك) فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذبون به.

فجميع الأنبياء دعوتهم واحدة. وهي الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك.

ولذلك من كذب واحداً من الرسل فقد كذب جميع الرسل.

ولهذا يقول تعالى في كل قصة (كذبت قوم نوح المرسلين).مع أن قوم نوح لم يأتهم إلا نوح.

وكذلك قال تعالى في عاد (كذبت عاد المرسلين).

وكذلك في ثمود (كذبت ثمود المرسلين).

(**وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**) اللعنة: الطرد بإهانة وتحقير.

أي : أنهم هلكوا متبوعين باللعن والطرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة.

أي : أن هذه اللعنة تابعة لهم لا تفارقهم ، كما لا يفارق الظل صاحبه ، ولهذا سمي الظل تابعاً .

(**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أي : وتلازمهم يوم القيامة .

(**أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ**) تسجيل لحقيقة حالهم، ودعاء عليهم بدوام الهلاك، وتأكيد لسخط الله عليهم.

أي : ألا إن قوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم، ألا سحقاً وبعداً لهم عن رحمة الله، جزاء جحودهم للحق،

وإصرارهم على الكفر، واستحبابهم العمى على الهدى.

وتكرير حرف التنبيه «ألا» وإعادة لفظ «عاد» للمبالغة في تهويل حالهم وللحض على الاعتبار والاتعاظ بمآلهم.

- **قال بعض العلماء** : وهذا تنبيه للكفار أن عاداً كفروا ربهم ، فأهلكهم الله تعالى ، فاحذروا كيلا يصيبكم بكفركم ، ما أصابهم بكفرهم ، ويقال (أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ) يعني : ينادي مناد يوم القيامة ، لإظهار حالهم .

الفوائد :

١-التأكيد على التوحيد وأن جميع الرسل دعوتهم التوحيد.

٢- أن من يخلق هو من يستحق أن يُعبد .

٣-فضل الاستغفار والتوبة وأنها سبب للخيرات وحصول القوة والتمكين .

٤-ما من نبي إلا وجاء قومه ببينة تدل على صدقه .

٥-تحدي هود قومه ، وهذا يدل على قوة ثقته بالله تعالى وتوكله عليه .

٦-وجوب التوكل على الله .

٧- أن الأنبياء أعظم الناس توكلاً على ربهم .

٨-وجوب البراءة من الشرك وأهله .

٨- لا أحد يستطيع أن يخرج عن قهر الله وقوته وسلطانه .

٩- أن الله لا يظلم أحداً لكمال عدله .

١٠- أن أحكام الله كلها حكمة وعدل ورحمة .

١١-أن الله أهلك عاداً بالريح العقيم .

١٢- أن هلاك الأمم متنوع ، فكل أمة أهلكت بعقوبة تختلف عن الأخرى لحكمة يريدها الله.

كما قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

١٣ - أن الريح من جنود الله تسير بأمر الله، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً) وقال تعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ).

والرياح: لمن تأملها تدل على قدرة الله وعظيم تدبيره وتصريفه، فمنها ما يكون لينا سهلاً لطيفاً تنعم به الأجسام ومنها ما يكون عنيفاً شديداً يدمر كل شيء كريح عاد (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) وسماها بالريح العقيم، فهي لا تلقح السحاب ولا النبات وإنما تستأصل حتى جعلتهم أعجاز نخل خاوية لا تبق ولا تذر. ومنها ما يكون حاراً ومنها ما يكون بارداً، ومنها ما لها صوت ومنها ما لا صوت لها، ومنها ما يهب من جهة المشرق وهي الصَّبا ومن جهة المغرب وهي الدبور ومنها الجنوب، ومنها ما يأتي بالنصر، كما فعل الله بالمشركين حيث هزمهم بالريح، ومنها ما يسوق السحاب ومنها ما يلقحه، ومنها ما يلحق النبات، فهي أنواع كثيرة جداً.

١٤ – أن الله لا يعاقب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه.
قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).
وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى).
١٥ –من أساليب الدعوة التذكير بالنعم .

الأربعاء : ١٤ رمضان ١٤٣٩هـ

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ (٦٨)) .
[هود : ٦١- ٦٨] .

(**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا**) نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد.

- وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

قال تعالى (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ).

- **قال الرازي:** قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثموداً لقلة مائها من الثمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى، وقيل سميت ثمود لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

عن ابْنَ عُمَرَ قَالَ (مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحِجْرِ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ». ثُمَّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ حَتَّى خَلَّفَهَا.

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (إِلَى ثَمُودَ) وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ مَدَائِنَ الْحِجْرِ بَيْنَ تَبُوكَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ، فَبَعَثَ اللَّهُ مِنْهُمْ (أَخَاهُمْ صَالِحًا) فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْخَالِقِ الرَّازِقِ .

(**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**) دعوته عليه السلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين، الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله.

- **قال ابن عاشور:** يدلّ على أنّ ثمود كانوا مشركين، وقد صُرح بذلك في آيات سورة هود وغيرها، والظّاهر

أنّهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد، لأنّ ثمود وعاداً أبناء نسب واحد، فيشبه أن تكون عقائدهم متماثلة.

(**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ**) أي: ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ مِنْهَا، مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي خَلَقَ مِنْهَا أَبَاكُمْ آدم .

كما قال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ) يعني أباهم آدم, الذي هو أصلهم, ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) وقال تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

وقال تعالى (والله خلقكم من تراب) أي: ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب.

وقال تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين) يعني خلق أبا البشر آدم من طين.

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ).

وجاء في السنة ما يؤيد هذا: قال ﷺ (الناس بنو آدم , وآدم من تراب).

وقد أمر الله عباده أن ينظروا في هذا الخلق الهائل كما قال تعالى (فلينظر الإنسان مما خلق) .

فالذي خلق الإنسان وجميع الأشياء هو المستحق للعبادة .

وقد نبه تعالى على ذلك في سورة الزمر :

قال تعالى (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) .

وقد رد الله على الذين ينكرون البعث بأنه أوجدهم من نطفة، ثم طور خلقهم حتى صاروا شيوخاً، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) .

فالذي خلق الإنسان هذا الخلق وطوره هذا التطوير لا يعجزه أن يبعثه يوم القيامة من جديد ، وهو وحده الذي يستحق العبادة

وقد احتج نوح على قومه بهذا الخلق العجيب وتلك الأطوار المدهشة لذوي الألباب ، كما قال تعالى (مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) .

(**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**) قولان للعلماء :

الأول : أي جعلكم عُمارها وسكانها .

والثاني : من العمر ، والمعنى أطال الله أعماركم فيها .

ويدل للأول قوله تعالى (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) .

(**فَاسْتَغْفِرُوهُ**) لسالف ذنوبكم .

(**ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**) فيما تستقبلونه .

(**إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**) أي : إن استغفرتموه ورجعتم إليه .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

- **قال الشنقيطي** : ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي وَبَيَّنَ فِي آيَةٍ أُخْرَى تَعْلِيقَ ذَلِكَ عَلَى مَشِيئَتِهِ جَلَّ وَعَلَا وَهِيَ قَوْلُهُ (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ) .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : التَّعْلِيقُ بِالْمَشِيئَةِ فِي دُعَاءِ الْكُفَّارِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ سِيَاقِ الْآيَةِ ، وَالْوَعْدُ الْمُطْلَقُ فِي دُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَلَيْهِ فَدُعَاؤُهُمْ لَا يُرَدُّ ، إِمَّا أَنْ يُعْطُوا مَا سَأَلُوا أَوْ يُدَّخَرَ لَهُمْ خَيْرٌ مِنْهُ أَوْ يُدْفَعَ عَنْهُمْ مِنَ السُّوءِ بِقَدْرِهِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِالدُّعَاءِ الْعِبَادَةُ ، وَبِالْإِجَابَةِ الثَّوَابُ ، وَعَلَيْهِ فَلَا إِشْكَالَ .

(**قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا**) يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ بَيْنَ صَالِحٍ ﷺ وَبَيْنَ قَوْمِهِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ فِي قَوْلِهِمْ: (قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) أَيْ: كُنَّا نَرْجُوكَ فِي عَقْلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مَا قُلْتَ!

- **قال ابن عطية** : (مرجواً) معناه : مسوداً ؛ نؤمل فيك أن تكون سيداً سادّاً مسدّ الأكابر .
- **وقال القرطبي** : أي كنا نرجو أن تكون فينا سيّداً قبل هذا ؛ أي قبل دعوتك النبوّة.
- **قال في التفسير الوسيط** : أي قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم: يا صالح لقد كنت فيناً رجلاً فاضلاً نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلمك وعقلك وصدقك.. قبل أن تقول ما قلته، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك، وصرت في رأينا رجلا مختل التفكير.

(**أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**) أي : أجئتنا بدعوتك الجديدة لتنهانا عن عبادة الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا من قبلنا؟ لا، إننا لن نستجيب لك، وإنما نحن قد وجدنا آباءنا على دين وإننا على آثارهم نسير.

(**وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**) أي : لن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا، وإننا لفي شك كبير، وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه.

(**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي**) أي : قال صالح ﷺ لقومه: يا قوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربي ومالك أمرى.

(**وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً**) أي : وأعطاني من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة حيث اختارني لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته.

(**فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ**) أي : إذا كان الله تعالى قد منحني كل هذه النعم، وأمرني بأن أبلغكم دعوته فمن ذا الذي يجيرني ويعصمني من غضبه، إذا أنا خالفت أمره أو قصرت في تبليغ دعوته، احتفاظا برجائكم في، ومسايرة لكم في باطلكم؟ لا، إنني سأستمر في تبليغ ما أرسلت به إليكم، ولن يمنعني عن ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم.

(**فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ**) أي : فما تزيدونني بطاعتكم ومعصية ربي غير الوقوع في الخسران، وغير التعرض لعذاب الله وسخطه وحاشاي أن أخالف أمر ربي إرضاء لكم.

(**وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً**) أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف، لكم

فيها آية عظيمة.

- وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية.

قال تعالى عنهم أنهم قالوا (فأتنا بآية إن كنت من الصادقين).

وفي سورة الشعراء (فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

وقال تعالى (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا).

أي : أن قوم ثمود طلبوا من صالح آية ناقة تخرج من صخرة عينوها، فدعا صالح ﷺ ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا.

- مبصرة: أي أن هذه الآية مبصرة: أي بينة تجعلهم يبصرون الحق واضحاً لا لبس فيه، دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها.
- **قال ابن الجوزي:** قوله تعالى (لكم آية) أي: علامة تدل على قدرة الله؛ وإنما قال (لكم) لأنهم هم الذين اقترحوها، وإن كانت آية لهم ولغيرهم.

وفي وجه كونها آية قولان:

أحدهما: أنها خرجت من صخرة ملساء، فتمخَّضت بها تمخُّضَ الحامل، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها.

والثاني: أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم، وتسقيهم اللبن مكانه.

(**فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ**) فلا عليكم من مئونتها شيء .

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله) أي ليس عليكم رزقها ومؤونتها.
- **وقال أبو حيان:** قوله تعالى (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله) لما أضاف الناقة إلى الله أضاف محل رعيها إلى الله، إذ الأرض وما أنبت فيها ملكه تعالى لا ملككم ولا إنباتكم، وفي هذا الكلام إشارة إلى أن هذه الناقة نعمة من الله ينال خيرها من غير مشقّة تكلف علف ولا طعمة، وهو شأن الإبل كما جاء في الحديث قال فضالة الإبل، قال مالك: ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها.

(**وَلاَ تَمَسُّوهَا بسوء**) أي: بعقر أو غيره ، فلا تتعرضوا لها لا بضرب ولا بعقر ولا بغيرهما ، بل اتركوها ترعى وتستقي من فضل الله عليها وعليكم .

- **قال الآلوسي**: قوله تعالى (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء) نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى (وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم).

والتنكير للتعميم أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً كالطرد والعقر وغير ذلك. انتهى.

- قال ابن كثير: قوله تعالى (نَاقَةُ اللَّهِ) قال ابن كثير: أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم كقوله: بيت الله.

(**فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ**) جواب النهي ، أي : قريب من عقرها ، وذلك ثلاثة أيام .

- ولعل الداعي لصالح لنهيهم عن التعرض لها مع أنهم لم يُظهروا ما يدل على ذلك : هو معرفة نبي الله صالح

عليه السلام أن القوم متمردون مصرون على كفرهم ، وذلك قد يدفعهم إلى قتلها ، لأنها آية دالة على صدقه وحجة قائمة عليهم ، وهم خصوم له ولدعوته ، والخصم لا يحب ظهور حجة خصمه .

(**فَعَقَرُوهَا**) أي: نحروا الناقة .

كما قال تعالى (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

وقال تعالى في سورة الشعراء (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ).

وقد قالوا أيضاً كما في سورة الأعراف (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) أي: جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به، إن كنت حقاً رسولاً، قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً.

- **قال ابن كثير**: فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في قوله [ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب]، والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه .

- الذي تولى قتلها منهم، هو قدار بن سالف.

قال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)).

- **قال الشيخ السعدي:**

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) أي: بسبب طغيانها.

(إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا) أي: أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف لعقرها حين اتفقوا على ذلك.

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ) صالح عليه السلام محذراً:

(نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) أي احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها.

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِم) أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم فأصبحوا جاثمين على ركبهم لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً.

- فإن قال قائل: لماذا قال (فعقروها) مع أن الذي تولى عقرها واحد؟
- **قال القرطبي**: إنما اضيف العقر إلى الكل، لأنه كان برضى الباقين.
- **وقال ابن كثير**: وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم.
- **وقال الرازي**: واعلم أنه أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة العظيمة: أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم.
- **وقال ابن عاشور**: ومقصدهم من نيّتهم إهلاك النّاقة أن يزيلوا آية صالح عليه السّلام لئلا يزيد عدد

المؤمنِين به، لأنّ مشاهدة آية نبوءته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشِربها، ولأنّ في اعتدائهم عليها إيذاناً منهم بتحفزهم للإضرار بصالح عليه السّلام وبمن آمن به بعدَ ذلك وليُرُوا صالحاً عليه السّلام أنّهم مستخفّون بوعيده إذ قال لهم (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم).

(**فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**) أي : قالهم صالح لما عقروها ما أخبر تعالى عنه أنه قال (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

- **قال ابن كثير**: وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه -عياذاً بالله من ذلك- لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من اسفل منهم، ففاضت الأرواح وأزهقت النفوس في ساعة واحدة [فأصبحوا في دارهم جاثمين] أي صرعى لا أرواح فيهم.

(**فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ**) وقال تعالى في سورة الأعراف (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) قال ابن كثير: هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم، تقريعاً وتوبيخاً.

- قوله تعالى: (فتولى عنهم) فيه قولان:

الأول: أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا.

والدليل عليه أنه تعالى قال (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) والفاء تدل على التعقيب، فدل على أنه حصل هذا التولي بعد جثومهم.

- **قال السمرقندي**: ويقال: إنما قال ذلك بعد إهلاكهم، قال على وجه الحزن، إني قد أبلغتكم الرسالة.

والثاني: أنه عليه السلام تولى عنهم قبل موتهم.

بدليل: أنه خاطب القوم (وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ) وذلك يدل على كونهم أحياء من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه قال لهم (يا قوم) والأموات لا يوصفون بالقوم، لأن اشتقاق لفظ القوم من الاستقلال بالقيام، وذلك في حق الميت مفقود.

والثاني: أن هذه الكلمات خطاب مع أولئك وخطاب الميت لا يجوز.

والثالث: أنه قال (ولكن لا تحبون الناصحين) فيجب أن يكونوا بحيث يصح حصول المحبة فيهم.

(**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ**) القادر الذي لا يعجزه شيء .

وَقد وصف الله -عز وجل- نفسه بِالْقُوَّةِ فَقَالَ تعالى (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ) ، فالقوة لله جميعاً،

يقهر من يشاء، ويذل من يشاء، وينصر من يشاء ويرزق من يشاء ويعز من يشاء .

القوي –سبحانه– الذي كتب الغلبة لنفسه ورسله فقال (كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ إنا وَرُسُلِي إن الله قَوِيٌّ عَزِيز) .

القوي كامل القدرة لا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال، الموصوف بالقوة المطلقة، والكمال الدال على قوته وجبروته، فالله تبارك وتعالى القوي، الذي لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه راد، الذي ينفذ أمره وقضاؤه، لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع، ولا يفوته هارب؛ الذي قهر جميع المخلوقات، ودانت له الخلائق، وخضعت له جميع الكائنات، وامتنع أن يناله أحد من المخلوقات.

وفي القرآن نجد أن الله قد قرن اسم القوي باسمين مخصوصين تتكامل بهما معاني ودلالات اسم الله القوي، هذا الاسمان هما: العزيز والمتين، فكثيرا ما يقترن اسم الله القوي باسمه العزيز؛ لأن قوته عن عزة وغنى، فالقوة دائما تتبعها مصلحة، وأصحاب القوة في العالم إما يحمون بها أنفسهم، أو يمنحونها لغيرهم طلبا لتبعيتهم وشراءً لذمتهم أو تهديدا لنهب ثرواتهم ومصا لدمائهم، أما القوي الغني عن العالمين، الذي يلطف بالخلق أجمعين، فقوته عن عزة وقدرة وحكمة .

قال تعالى (اللهُ لطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيز) يطعم ولا يطعم، يرزق ولا يرزق، يجير ولا يجار عليه، لا ملجأ للخلائق منه إلا إليه .

وقال تعالى (الذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَليَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لقَوِيٌّ عَزِيز) .

(**الْعَزِيزُ**) الذي له العزة الكاملة .

(**وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ**) المراد بالصيحة : صيحة الملك الذي أمره الله تعالى بها لإهلاكهم .

وقال تعالى (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) .

قال ابن كثير: أي بادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات.

- وذكر تعالى في آية أخرى أنه أهلكهم بالرجفة (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) .
- **قال الشنقيطي**: الرجفة هي الاضطراب الشديد، أي: رجفت بهم الأرض واضطربت اضطراباً شديداً.

ولا منافاة: فالظاهر أن الملك لما صاح بهم اضطربت الأرض من تحتهم فأهلكهم الله بهما جميعاً.

(**فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**) أي : ساقطين منكبين على وجوههم لاصقين بالأرض .

(**كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا**) أي : كأنهم لم يقيموا بها ولم يسكنوا بها .

(**أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ**) الكفر : الستر والتغطية ، وسمي تكذيب الكفار لدعوة الرسل كفراً لما فيه من ستر الحق وإخفائه .

(**أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ**) أي : أبعدهم الله بعداً عن النجاة والسلامة .

الفوائد :

١ – أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة؛ وهي الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك.

٢-أن أهل الباطل يبغضون من يدعوهم إلى الحق ويحاول أن يحملهم عليه، فصالح كان محبوباً عندهم قبل أن يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا).

وهذا فيه دليل على خطر طلب المحمدة والمنزلة عند الناس، لماذا؟

لان من يطلب ذلك لا بد أن يتنازل عن كثير من أمور الشرع.

يتنازل عن توضيحها وبيان تحريمها، لأنه اذا فعل ذلك أبغضوه وهو يريد المنزلة والجاه.

صدق من قال: ما صد عن دين الله مثل طلب المحامد.

قال ﷺ (مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلاَ فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِه).

وقد ذكر العلماء: أن من أعظم علامة الزهد استواء المدح والثناء، وأن الإنسان لا يبالي بمدح أو ذم في دين الله.

٣-أن الآيات مهما كانت واضحة فإنها لا تهدي القوم المجرمين.

كما قال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي واضحة جلية في دلالتها على وحدانية الله تعالى.

٤ - ينبغي الوثوق بنصر الله.

فقد دمر الله الأمم المكذبة وآبادهم عن آخرهم.

قال تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين).

الخميس: ١٥ رمضان ١٤٣٩هـ

(وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)) .

[هود : ٦٩- ٧٦] .

(**وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا**) وَهُمُ الْمَلَائِكَة .

(**إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى**) قِيلَ: تُبَشِّرُهُ بِإِسْحَاق .

وَقِيلَ: بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ.

وَيَشْهَدُ لِلْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) .

- **قال الشوكاني** : وَالْبُشْرَى الَّتِي بَشَّرُوهُ بِهَا: هِيَ بِشَارَتُهُ بِالْوَلَدِ وَقِيلَ: بِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، وَالْأُولَى أَوْلَى .
- **وقال الشنقيطي** :ولَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْبُشْرَى الَّتِي جَاءَتْ بِهَا رُسُلُ الْمَلَائِكَةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَكِنَّهُ أَشَارَ بَعْدَ هَذَا إِلَى أَنَّهَا الْبِشَارَةُ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي قَوْلِهِ (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ

إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) .

و لِأَنَّ الْبِشَارَةَ بِالذُّرِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ شَامِلَةٌ لِلْأُمِّ وَالْأَبِ ، كَمَا يَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وَقِيلَ : الْبُشْرَى هِيَ إِخْبَارُهُمْ لَهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ .

وَعَلَيْهِ فَالْآيَاتُ الْمُبَيِّنَةُ لَهَا كَقَوْلِهِ هُنَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ (قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) .

وَقَوْلِهِ (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ) .

وَقَوْلِهِ (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) .

وَالظَّاهِرُ : الْقَوْلُ الْأَوَّلُ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ تَدُلُّ عَلَيْهِ ; لِأَنَّ فِيهَا التَّصْرِيحَ بِأَنَّ إِخْبَارَهُمْ بِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَ مَجِيئِهِمْ بِالْبُشْرَى ; لِأَنَّهُ مُرَتَّبٌ عَلَيْهِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ الَّتِي هِيَ «لَمَّا» كَمَا ترى .

(**قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ**) أي : سلموا عليه ، ورد عليهم السلام .

- **قال السعدي** : ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد، أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية، الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

(**فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ**) أَيْ : ذَهَبَ سَرِيعًا، فَأَتَاهُمْ بِالضِّيَافَةِ، وَهُوَ عجل: فتى البقر ، حَنِيذ: مَشْوي عَلَى الرَّضْف، وَهِيَ الْحِجَارَةُ المحماة.

وقال تعالى في سورة الذاريات (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ) .

قوله (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ) أي انسل خفية في سرعة ، وهذا من أدب الضيافة ، أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف .(فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ) أي من خيار ماله ، وفي الآية هنا (فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) أي مشوي على الرضف .

- **قال الشوكاني** : وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ بِعِجْلٍ، لِأَنَّ الْبَقَرَ كَانَتْ أَكْثَرَ أَمْوَالِه .
- **وقال الشنقيطي** : يُؤْخَذُ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ ضَيْفِهِ هَؤُلَاءِ أَشْيَاءَ مِنْ آدَابِ الضِّيَافَةِ:

مِنْهَا تَعْجِيلُ الْقِرَى ; لِقَوْلِهِ (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) .

وَمِنْهَا كَوْنُ الْقِرَى مِنْ أَحْسَنِ مَا عِنْدَهُ ; لِأَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ الْبَقَرُ وَأَطْيَبُهُ لَحْمًا الْفَتِيُّ السَّمِينُ الْمُنْضِجُ.

وَمِنْهَا تَقْرِيبُ الطَّعَامِ إِلَى الضَّيْفِ.

وَمِنْهَا مُلَاطَفَتُهُ بِالْكَلَامِ بِغَايَةِ الرِّفْقِ، كَقَوْلِهِ أَلَا تَأْكُلُونَ .

(**فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**) وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَلَا يَشْتَهُونَهُ وَلَا يَأْكُلُونَهُ؛ فَلِهَذَا رَأَى حَالَهُمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ، فَارِغِينَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ فَعِنْدَ ذَلِكَ نكرهم (وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) .

وفي سورة الذاريات (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) .

(**قَالُواْ**) أي : الملائكة .

(**لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ**) لنهلكهم .

- وكان إبراهيم في فلسطين، وقرية لوط في البحر الميت من الأردن، وهي الآن مغمورة، وكان لوط ابن أخيه كما قيل، وقيل : ابن عمه .

(**وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ**) أي : والحال أن امرأته قائمة ، وهي سارة .

(**فَضَحِكَتْ**) الراجح أن المراد به الضحك المعروف ، وهذا قول الجمهور .

- **قال ابن كثير** : فَضَحِكَتْ سَارَّةُ اسْتِبْشَارًا مِنْهَا بِهَلَاكِهِمْ، لِكَثْرَةِ فَسَادِهِمْ، وغِلَظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بِالْوَلَدِ بَعْدَ الْإِيَاسِ.

وَقَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ: إِنَّهَا إِنَّمَا ضَحِكَتْ مِنْ أَنَّهَا ظَنَّتْ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْمَلُوا كَمَا يَعْمَلُ قَوْمُ لُوطٍ، وَقَوْلُ الْكَلْبِيِّ إِنَّهَا إِنَّمَا ضَحِكَتْ لِمَا رَأَتْ مِنَ الرَّوْعِ بِإِبْرَاهِيمَ -ضَعِيفَانِ جِدًّا، وَإِنْ كَانَ ابْنُ جَرِيرٍ قَدْ رَوَاهُمَا بِسَنَدِهِ إِلَيْهِمَا، فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ**) ذكر تعالى هنا أن البشارة لسارة ، وذكر في محل آخر أن المبشر إبراهيم ، فكيف ذلك مع أن القصة واحدة ؟

والجواب : أن وجود الولد وحصول السرور به مشترك بينهما فلا منافاة بين أن تبشر به الأم تارة ، ويبشر به الأب أخرى .

- **قال ابن كثير** : ... مِنْ هَاهُنَا اسْتَدَلَّ مَنِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ، عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ إِنَّمَا هُوَ إِسْمَاعِيلُ، وَأَنَّهُ يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْحَاقُ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ، وَأَنَّهُ سَيُولَدُ لَهُ يَعْقُوبُ، فَكَيْفَ يُؤْمَرُ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِهِ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَلَمْ يُولَدْ لَهُ بَعْدُ يَعْقُوبُ الْمَوْعُودُ بِوُجُودِهِ. وَوَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ لَا خُلْفَ فِيهِ، فَيُمْتَنَعُ أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِ هَذَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الِاسْتِدْلَالِ وَأَصَحِّهِ وَأَبْيَنِهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.
- **وقال الشنقيطي** : قوله تعالى (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) لِأَنَّ رُسُلَ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَشَّرَتْهَا بِإِسْحَاقَ ، وَأَنَّ إِسْحَاقَ يَلِدُ يَعْقُوبَ ، فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يُؤْمَرَ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِهِ ، وَهُوَ صَغِيرٌ ، وَهُوَ عِنْدَهُ عِلْمٌ يَقِينٌ بِأَنَّهُ يَعِيشُ حَتَّى يَلِدَ يَعْقُوبَ .

والموضع الثاني في سورة الصافات ، بيّن فيه بياناً شافياً أن الذبيح إسماعيل .

فإنه بعد أن ذكر أنه أمره بذبح ولده الذي بلغ معه السعي ، وأنه فداه ، ذكر بعد ذلك أنه بشره بإسحاق ، أي : أنه يولد له إسحاق ، ولو كان موجوداً من قبل لما حصلت البشرى .

قال تعالى (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) .
(**قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا**) كما حَكَى فِعْلَهَا فِي الذاريات (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ النِّسَاءِ فِي أَقْوَالِهِنَّ وَأَفْعَالِهِنَّ عِنْدَ التَّعَجُّبِ.
(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ) أي في صرخة عظيمة ورنة . (فَصَكَّتْ وَجْهَهَا) أي ضربت بيدها على جبينها على عادة النساء عند التعجب . (وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) أي كيف ألد وأنا عجوز ، وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل .
(**إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**) وكان تعجبها لأمور :
الأول : أنها عجوز ، كما في هذه الآية .
الثاني : أنها كانت عقيماً ، كما في آية الذاريات .
الثالث : أن زوجها كان شيخاً لا يولد لمثله عادة .
(**قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ**) أَيْ: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهَا، لَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: "كُنْ" فَيَكُونُ، فَلَا تَعْجَبِي مِنْ هَذَا، وَإِنْ كُنْتِ عَجُوزًا كَبِيرَةً عَقِيمًا، وَبَعْلُكِ وَهُوَ زَوْجُهَا الْخَلِيلُ عليه السلام، وَإِنْ كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى ما يشاء قدير.
ففي قصة أصحاب الكهف (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً) .
ومعناه : يقول لنبيه ﷺ : إن قصة أصحاب الكهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها ، فليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا ، فإن خلقنا للسموات والأرض وجعلنا ما على الأرض زينة لها ، وجعلنا إياها بعد ذلك صعيداً جرزاً — أعظم وأعجب مما فعلنا بأصحاب الكهف ، ومن كوننا أمتناهم هذا الزمن الطويل ، ثم بعثناهم .
وقال تعالى لمريم حين استبعدت أن تولد بدون زوج (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) .
وقال تعالى لزكريا عندما استبعد أن يكون له ولد من امرأة عاقر مع كبر سنه هو (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) .
وفي سورة آل عمران (قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء) .
(**رَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ**) هذه تحية من الملائكة على أهل بيت إبراهيم .
والبركات جمع بركة : وهي شاملة للخيرات الدنيوية والأخروية .
(**إِنَّهُ حَمِيدٌ**) الحميد : هو المحمود الذي استحق الحمد بأفعاله .

- **وقال ابن كثير** : أي : المحمود في جميع أفعاله وأقواله وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه .
- **وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله** : الصحيح أنها بمعنى المحمود والحامد ، فالله سبحانه حامدٌ من يستحق

الحمد ، وما أكثر الثناء على من يستحقون الثناء في كتاب الله ، وهو كذلك محمود على كمال صفاته ، وتمام إنعامه .

(**مَّجِيدٌ**) من المجد ، وهو العلو والرفعة والشرف .

- **قال السعدي** : المجد : هو عظمة الصفات وسعتها ، فله صفات الكمال ، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها .
- المجيد هو الكبير العظيم، الموصوف بصفات المجد والكبرياء، والعظمات والجلال، الذي هو أكبر وأجل وأعلم وأعظم من كل شيء، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه. الشريف ذاته، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه وثوابه.
- والله يحمد على مجده وعظمته وكبريائه .

(**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى**) اعلم أن الروع هو الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى : أنه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجيء البشرى بحصول الولد ، أخذ يجادلنا في قوم لوط .

- والرُّوع بضم الراء النفس ، ومنه قولهم ألقى في رُوعي أي في نفْسي.

(**يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ**) لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا جَادَلَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ الْمَلَائِكَةَ فِي قَوْمِ لُوطٍ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي «الْعَنْكَبُوتِ» بِقَوْلِهِ (قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ) .

فَحَاصِلُ جِدَالِهِ لَهُمْ أَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ أَهْلَكْتُمُ الْقَرْيَةَ وَفِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَكْتُمْ ذَلِكَ الْمُؤْمِنَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، فَأَجَابُوهُ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِمْ (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا) .

- **قال الخازن** : وقال جمهور المفسرين : معناه يجادل رسلنا في قوم لوط وكانت مجادلة إبراهيم مع الملائكة أن قال لهم أرأيتم لو كان في مدائن قوم لوط خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال إبراهيم فإن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا أمرأته كانت من الغابرين وقيل إنما طلب إبراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي .
- وخير ما يفسر به القرآن .
- وقوله (يُجَادِلُنَا) أضاف سبحانه المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة، لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره تعالى، فمجادلة إبراهيم لهم هي مجادلة في تنفيذ أمره تعالى .
- وقال سبحانه يُجادِلُنا مع أنها كانت في الماضي، لتصوير هذه الحالة في الذهن تصويرا حاضرا، حتى تزداد منه العبرة والعظة.

(**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ**) ثناء على إبراهيم عليه السلام .

- صفات إبراهيم عليه السلام :

الصفة الأولى: أمة.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ...) .

قيل معناها هنا: الرجل الجامع لخصال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس , وهذا هو المقصود في حق إبراهيم , وهذه تدلنا على عظيم ما كان يتصف به إبراهيم من عبادة ودعوة وخلق.

وقيل أن المقصود بالأمة هنا: أي الإمام , أي قدوة يقتدى به في الخير , وممن قال به ابن جرير الطبري وابن كثير.

الصفة الثانية: قانت.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً).

والقنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع.

الصفة الثالثة: حنيفاً.

والحَنَف: الميل عن الضلال إلى الاستقامة , والحنيفُ: المائل والحنف: ضده. والأحنف: مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً , وقيل لمجرد الميل. قال ابن كثير: الحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد. وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين , قال تعالى: [ولَمْ يَكُ مِنَ المشْرِكِينَ] , وقال: [ومَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ] , وهكذا فليكن أولياء الله.

الصفة الرابعة: شاكر.

قال تعالى (شَاكِراً لأَنْعُمِهِ) أي قائماً بشكر نعم الله عليه.

نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً , وعلى قلبه: شهوداً ومحبة , وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة. بالقلب , قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

وباللسان , قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وبالجوارح , قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

الصفة الخامسة: الحلم.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ).

وهي صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى.

والحلم: ضبط النفس والطبع عن الهيجان عند الاستثارة. والحليم: الكثير الحلم وموقف إبراهيم من مقالة أبيه (لأَرْجُمَنَّكَ).

ومن العتاة قوم لوط حينما مرت به الملائكة وأخبرته بما أمرت بها قال (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وجَاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ).

ولم يكن حلم إبراهيم ذريعة يتذرع للسكوت عن المنكر بل كان يعلن الحق وينكر الباطل (وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ).

الصفة السادسة: أوّاه.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ).

والذي يتحقق من معنى الأوّاه أنه الخاشع الدعّاء المتضرع , وكثرة تأوّه إبراهيم وتضرعه بين يدي ربه قد ذكرت في آيات كثيرة تدل على تحقيق إبراهيم (رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ) وجدير بمن سلك طريق الدعوة أن يجعل تعجيل الإنابة من أبرز سماته ليكسب عون ربه وتسديده ومحبته.

الصفة السابعة: السخاء.

قال تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ).

فذكر أن الضيف مكرمون لإكرام إبراهيم لهم, ولم يذكر استئذانهم ليدل على أنه قد عرف بإكرام الضيفان, مع أنهم قوم منكرون لا يعرفهم فقد ذبح لهم عجلاً واستسمنه, ولم يعلمهم بذلك بل راح: أي ذهب خفية حتى لا يُشعر به, تجاوباً لضيافة , فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيئاً للضيفان, وخدمهم بنفسه, فجاء به ومرّ به إليهم ولم يقربهم إليه, وتلطف مبالغة في الإكرام فقال (أَلا تَأْكُلُونَ).

الصفة الثامنة: الصبر.

كان إبراهيم مثلاً يحتذى في الصبر حتى استحق أن يكون من أولي العزم الذين أمر رسولنا ﷺ أن يصبر كصبرهم (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ).

وكان صبر إبراهيم شاملاً لابتلاءات كثيرة , سيأتي بيان جملة منها بإذن الله.

الصفة التاسعة: شجاعته.

واجه إبراهيم قومه ولم يخش كيدهم وقال مقسماً (وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) وقوله لهم (أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ...).

الصفة العاشرة: تحقيقه الكامل لعقيدة الولاء والبراء.

قال تعالى (وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ. إِلاَّ الَذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ).

فكل عدو لله وإن قربه النسب تجب البراءة منه , وكل ولي لله وإن باعدت به الأوطان والأزمان تجب موالاته ومحبته وقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم في ذلك (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ...).

الصفة الحادية عشرة: سلامة القلب.

قال تعالى (وإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

وسلامة القلب نوعان: كلاهما داخل في مضمون الآية, أحدهما: في حق الله وهو سلامة قلبه من الشرك, وإخلاصه العبودية لله, وصدق التوكل عليه. والثاني: في حق المخلوقين بالنصح لهم وإيصال الخير إليهم , وسلامة القلب من الحقد والحسد وسوء الظن والكبر وغير ذلك.

وقد أثنى الله على إبراهيم بقوله (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) .

فإبراهيم أخذ ولده إلى المذبح والاستعداد التام لذبحه ، طاعة لأمر الله سبحانه .

وأسكن الزوج والولد في واد غير ذي زرع بمكة ، حيث لم يسكن فيه إنسان .

ونهض بوجه عَبَدة الأصنام وتحطيم الأصنام ، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية ، ثم إلقاؤه في وسط النيران ، وثباته ورباطة جأشه في كل هذه المراحل.

وهاجر من أرض عبدة الأصنام والابتعاد عن الوطن ، والاتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته .

(فَأَتَمَّهُنَّ) أي : قام بهن؛ أي قام بهن كلهن، وأداهن أحسن تأدية من غير تفريط ولا توان كما قال تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) أي وفَّى جميع ما شرع له ، فعمل به صلوات الله عليه .

- وثناء الله على شخص فيه فوائد :

الأولى : لنقوم بالثناء عليه .

والثانية : لنقتدي به .

والثالثة : لنحبه في الله .

(**يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ**) أي: قالت الملائكة لإبراهيم: يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا الجدال في أمر قوم لوط، وفي طلب إمهال عقوبتهم إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ بإهلاكهم وَإِنَّهُمْ بسبب إصرارهم على ارتكاب الفواحش آتِيهِمْ من ربهم عَذابٌ شديد غَيْرُ مَرْدُودٍ عنهم لا بسبب الجدال ولا بأى سبب سواه، فإن قضاء الله لا يرد عن القوم المجرمين. هذا .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (يإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا) أي دع عنك الجدال في قوم لوط (إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ) أي عذابه لهم.(وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ) أي نازل بهم.(عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع.

الفوائد :

١-استحباب تبشير المسلم .

لأن البشارة مما تسر المسلم وتفرحه .

وقد قال تعالى (فبشرناه بغلام حليم) وقال تعالى (وبشروه بغلام عليم).

وفي قصة توبة كعب بن مالك (... ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ الله تَعَالَى مِنَّا ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارخٍ أوفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأعْلَى صَوتِهِ : يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أبْشِرْ ، فَخَرَرْتُ سَاجِدا ، وَعَرَفْتُ أنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ . فآذَنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله ﷻ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الفَجْر فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا ، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَساً وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أسْلَمَ قِبَلِي ، وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إيَّاهُ بِبشارته، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ...) .

٢-الإسراع في إكرام الضيف .

٣-كرم إبراهيم عليه السلام .

٤-من كمال الكرم أن يقرب الطعام للضيف .

٥- إثبات الملائكة .

٦- أن الملائكة جند من جنود الله .

٧- أن الفرح بهلاك الكافر .

٨- أن السلام مشروع، وأنه ينبغي أن يكون الرد أفضل لقول إبراهيم سَلامٌ بالرفع وهو أدل على الثبات والدوام.

٩- عظم قدرة الله .

١٠- إثبات اسمين من أسماء الله : الحميد ، والمجيد .

١١- ثناء الله العظيم على إبراهيم .

١٢- أن أمر الله إذا جاء لا يرد .

السبت: ١٧ رمضان ١٤٣٩هـ

(وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)) .

[هود : ٧٧- ٨٣] .

(وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) أي : ولما جاءت ملائكتنا لوطًا ساءه مجيئهم واغتمَّ لذلك; وذلك لأنه لم يكن يعلم أنهم رسل الله، فخاف عليهم من قومه، وقال: هذا يوم بلاء وشدة.

وهؤلاء الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه .

- **قال الشنقيطي** : ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَمَّا جَاءَتْهُ رُسُلُ رَبِّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَصَلَتْ لَهُ بِسَبَبِ مَجِيئِهِمْ مَسَاءَةٌ عَظِيمَةٌ ضَاقَ صَدْرُهُ بِهَا، وَأَشَارَ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ إِلَى أَنَّ سَبَبَ مَسَاءَتِهِ وَكَوْنِهِ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ: أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُمْ ضُيُوفٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، كَمَا ظَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَظَنَّ أَنَّ قَوْمَهُ يَنْتَهِكُونَ حُرْمَةَ ضُيُوفِهِ فَيَفْعَلُونَ بِهِمْ فَاحِشَةَ

اللِّوَاطِ ; لِأَنَّهُمْ إِنْ عَلِمُوا بِقُدُومِ ضَيْفٍ فَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا بِهِ لِيَفْعَلُوا بِهِ الْفَاحِشَةَ الْمَذْكُورَةَ .

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ هُنَا (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) .

وَقَوْلُهُ فِي «الْحِجْرِ» (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) .

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (هذا يوم عصيب) قاله في نفسه كما يناجي المرء نفسه إذا اشتد عليه أمر.

والعصيب : الشديد فيما لا يرضي.

يقال : يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم من أحوال الناس أو أحوال الجوّ كشدة البرد وشدة الحرّ.

(**وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ**) أي : وجاء قومُ لوط يسرعون المشي إليه لطلب الفاحشة .

- قَوْلُهُ: يُهْرَعُونَ ، أَيْ: يُسْرِعُونَ وَيُهَرْوِلُونَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ .

كما قال تعالى في آية أخرى (وجاء أهل المدينة يستبشرون) .

- **قال ابن عاشور** : وقد طوى القرآن ذكر الغرض الذي جاؤوا لأجله مع الإشارة إليه بقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيّئات) فقد صارت لهم دأباً لا يسعون إلاّ لأجله.

(**وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ**) أي : كانوا مِن قبل مجيئهم يأتون الرجال شهوة دون النساء .

وقد ذكر الله تعالى أن قوم لوط كانوا أول من ارتكب هذه الفعلة القبيحة .

قال تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) .

وقد كانوا يتجاهرون بها :

قال تعالى في سورة النمل (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ).

وقال تعالى في سورة العنكبوت (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ...).

- **قال ابن عاشور**: وجملة (وأنتم تبصرون) حالٌ زيادة في التشنيع، أي تفعلون ذلك علناً يبصر بعضكم بعضاً، فإن التجاهر بالمعصية معصية لأنه يدل على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي.

(**قَالَ**) لهم لوط .

(**يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**) اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِ لُوطٍ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (هَؤُلَاءِ بَنَاتِي) على أقوال :

أَحَدُهَا: أَنَّهُ أَرَادَ الْمُدَافَعَةَ عَنْ ضَيْفِهِ فَقَطْ، وَلَمْ يُرِدْ إِمْضَاءَ مَا قَالَ .

وَبِهَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بَنَاتُهُ لِصُلْبِهِ .

وَأَنَّ الْمَعْنَى: دَعُوا فَاحِشَةَ اللِّوَاطِ وَأُزَوِّجُكُمْ بَنَاتِي، وَعَلَى هَذَا فَتَزْوِيجُ الْكَافِرِ الْمُسْلِمَةَ كَانَ جَائِزًا فِي شَرْعِهِ، كَمَا كَانَتْ بَنَاتُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ الْكُفَّارِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَنَاتِ: جَمِيعُ نِسَاءِ قَوْمِهِ .

لِأَنَّ نَبِيَّ الْقَوْمِ أَبٌ دِينِيٌّ لَهُمْ .

كَمَا يَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَبِيِّنَا ﷺ (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» وَرُوِيَ نَحْوُهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِهَذَا الْقَوْلِ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

قال تعالى عنه أنه قال لهم (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ).

- **قال ابن كثير** : أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن (وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟
- **قال الخازن:** وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه: أن بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة، وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار.
- **وقال الرازي** : وهذا القول عندي هو المختار ، ويدل عليه وجوه :

الأول : أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر متبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء ؟

الثاني : وهو أنه قال (هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم.

- **وقال ابن عاشور** : وقد رُويَ أنه لم يكن له إلاّ ابنتان ، فالظّاهر أن إطلاق البنات هنا من قبيل التشبيه البليغ ، أي هؤلاء نساؤهن كبناتي ، وأراد نساءً من قومه بعدد القوم الذين جاءوا يُهرعون إليه.

وهذا معنى ما فسر به مجاهد ، وابن جبير ، وقتادة ، وهو المناسب لجعلهنّ لقومه إذ قال (هنّ أطهر لكم) فإن قومه الذين حضروا عنده كثيرون ، فيكون المعنى : هؤلاء النساء فتزَوّجوهنّ.

(**هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**) أي : أنزه وأنقى .

(**فَاتَّقُواْ اللّهَ**) أي : اجعلوا بينكم وبين الله الوقاية بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، بأن توحدوه ولا تعبدوا غيره ، وتطيعوه فلا ترتكبوا ما نهى عنه من المعاصي ، وبخاصة تلك الفاحشة القبيحة .

(**وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي**) أَيْ: لَا تُهِينُونِ وَلَا تُذِلُّونِ بِانْتِهَاكِ حُرْمَةِ ضَيْفِي .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: قَوْلُهُ (وَلَا تُخْزُونِ) مِنَ الْخَزَايَةِ، وَهِيَ الْخَجَلُ وَالِاسْتِحْيَاءُ مِنَ الْفَضِيحَةِ، أَيْ لَا تَفْعَلُوا بِضَيْفِي مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي خَجَلِي وَاسْتِحْيَائِي .

(**أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ**) أليس منكم رجل ذو رشد، ينهى من أراد ركوب الفاحشة، فيحول بينهم وبينها، فإهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلا أهل السفاهة .

- **قال ابن عاشور** : قوله : (منكم) بمعنى بعضكم أنكر عليهم تمالؤهم على الباطل وانعدام رجل رشيد من بينهم ، وهذا إغراء لهم على التعقل ليظهر فيهم من يتفطّن إلى فساد ما هم فيه فينهاهم ، فإنّ ظهور الرشيد في الفئة الضالة يفتح باب الرشاد لهم ، وبالعكس تمالؤهم على الباطل يزيدهم ضراوة به.

(**قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ**) أي : قال قوم لوط له: لقد علمتَ من قبلُ أنه ليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة، وإنك لتعلم ما نريد، أي لا نريد إلا الرجال ولا رغبة لنا في نكاح النساء.

(**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**) أي : قال لهم حين أبوا إلا فعل الفاحشة: لو أن لي بكم قوة وأنصارًا معي، أو أركَن إلى عشيرة تمنعني منكم، لحَلْتُ بينكم وبين ما تريدون.

- **قال النووي** : قول النبي ﷺ (وَيَرْحَم اللَّه لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْن شَدِيد)

فَالْمُرَاد بِالرُّكْنِ الشَّدِيد هُوَ اللَّه سُبْحَانه وَتَعَالَى ، فَإِنَّهُ أَشَدّ الْأَرْكَان وَأَقْوَاهَا وَأَمْنَعهَا وَمَعْنَى الْحَدِيث وَاَللَّه أَعْلَم : أَنَّ لُوطًا ﷺ لَمَّا خَافَ عَلَى أَضْيَافه وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَشِيرَة تَمْنَعهُمْ مِنْ الظَّالِمِينَ ضَاقَ ذَرْعه وَاشْتَدَّ حُزْنه عَلَيْهِمْ ، فَغَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْحَال : " لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّة " فِي الدَّفْع بِنَفْسِي " أَوْ آوِي " إِلَى عَشِيرَة تَمْنَع لَمَنَعْتُكُمْ وَقَصْد لُوط ﷺ إِظْهَار الْعُذْر عِنْد أَضْيَافه ، وَأَنَّهُ لَوْ اِسْتَطَاعَ دَفْع الْمَكْرُوه عَنْهُمْ بِطَرِيقٍ مَا لَفَعَلَهُ وَأَنَّهُ بَذَلَ وُسْعه فِي إِكْرَامهمْ وَالْمُدَافَعَة عَنْهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِعْرَاضًا مِنْهُ ﷺ عَنْ الِاعْتِمَاد عَلَى اللَّه تَعَالَى ، وَإِنَّمَا كَانَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَطْيِيب قُلُوب الْأَضْيَاف وَيَجُوز أَنْ يَكُون نَسِيَ الِالْتِجَاء إِلَى اللَّه تَعَالَى فِي حِمَايَتهمْ ، وَيَجُوز أَنْ يَكُون اِلْتَجَأَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّه تَعَالَى وَأَظْهَرَ لِلْأَضْيَافِ التَّأَلُّم وَضِيق الصَّدْر . وَاَللَّه أَعْلَم .

(**قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ**) أي : قالت الملائكة: يا لوط إنَّا رسل ربك أرْسَلَنا لإهلاك قومك، وإنهم لن يصلوا إليك .

- وَبَيَّنَ فِي الْقَمَرِ أَنَّهُ تَعَالَى طَمَسَ أَعْيُنَهُمْ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ) .

(**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ**) أي : فاخرج من هذه القرية أنت وأهلك ببقية من الليل، ولا يلتفت منكم أحد وراءه; لئلا يرى العذاب فيصيبه .

- القطع الطائفة من الليل .
- وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَلْ هُوَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، أَوْ وَسَطِهِ أَوْ أَوَّلِهِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي «الْقَمَرِ» أَنَّ ذَلِكَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَقْتَ السَّحَرِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ (إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ) .

وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا أَنَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَهُمْ أَمَامَهُ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ ذَلِكَ فِي «الْحِجْرِ» بِقَوْلِهِ (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) .

- قوله (بأهلك) يفهم منه أنه لم يؤمن به إلا أهله .

(**إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ**) قَرَأَهُ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ إِلَّا امْرَأَتَكَ، بِالنَّصْبِ، وَعَلَيْهِ فَالْأَمْرُ وَاضِحٌ ; لِأَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْأَهْلِ، أَيْ أَسْرِ بِأَهْلِكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ فَلَا تُسْرِ بِهَا، وَاتْرُكْهَا فِي قَوْمِهَا فَإِنَّهَا هَالِكَةٌ مَعَهُمْ.

وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ فِيهَا فِي مَوَاضِعَ (كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) ، وَالْغَابِرُ: الْبَاقِي، أَيْ مِنَ الْبَاقِينَ فِي الْهَلَاكِ.
ويحتمل أن يكون من قوله (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ) أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم.

- **قال ابن كثير**: والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم.

(**إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**) أي : إن موعد هلاكهم الصبح، وهو موعد قريب الحلول.
يذكر أن لوطاً عندما وعده الملائكة بهلاك قومه بقولهم (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) استعجل نزول العذاب ، فقال لهم : الآن الآن ، فقالوا له : أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ .
ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ مَوْعِدَ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ وَقْتُ الصُّبْحِ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي «الْحِجْرِ» فِي قَوْلِهِ: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) وَزَادَ فِي «الْحِجْرِ» أَنَّ صَيْحَةَ الْعَذَابِ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ وَقْتَ الْإِشْرَاقِ، وَهُوَ وَقْتُ طُلُوعِ الشَّمْسِ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ) .
(**فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ**)
هذه كيفية هلاك قوم لوط :
رفع الله قراهم فجعل عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.
قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ).
وقال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).
وقال تعالى (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ).
فقوله تعالى (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ) والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللَّهَ قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا خَرَقَهُ.
(مَّنضُودٍ) أي: مجعول بعضه فوق بعض.
(مسومة) أي: مجعولاً فيها علامة تميزها، قيل: على كل حجر اسم من يرمي به ، وقيل : عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض .

- وصف الله تعالى الحجارة التي رمى بها قوم لوط بثلاثة صفات:

الصفة الأولى: كونها من سجيل.
الصفة الثانية: منضود.
لصفة الثالثة: مسومة.
(**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**) اختلف العلماء في هذه الآية على قولين:
القول الأول: أي وما هذه القرى المهلكة ببعيدة عن قومك (كفار قريش)، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون.
كما قال تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

وقال تعالى (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: وَمَا هِيَ رَاجِعٌ إِلَى دِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ الْمَفْهُومَةِ مِنَ الْمَقَامِ.

والثاني: الضمير يعود على الحجارة .

أي : وَمَا تِلْكَ الْحِجَارَةُ الَّتِي أُمْطِرَتْ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ بِبَعِيدٍ مِنَ الظَّالِمِينَ لِلْفَاعِلِينَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ، فَهُوَ تَهْدِيدٌ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ كَالَّذِي قَبْلَهُ.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) . فَإِنَّ قَوْلَهُ (وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) ظَاهِرٌ جِدًّا فِي ذَلِكَ، وَالْآيَاتُ بِنَحْوِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

الفوائد :

١-من آيات الله هلاك المكذبين .

٢-تحريم هذه الجريمة القبيحة الخسيسة .

٣-سنة الله في قلة من يؤمن مع الأنبياء .

٤- جرأة وتمرد هؤلاء على الفساد ، حيث جاؤوا مسرعين للفساد .

٥- جرت سنة الله أنه إذا أراد إهلاك قوم نبي عصوه أن يأمره بالخروج والانفصال عنهم، لينجيه ويستأصلهم.

٦-أن المرأة الكافرة قد تكون تحت الرجل المؤمن .

٧-تهديد لكل ظالم من عقوبة الله .

٨- الإشارة إلى أن الإنسان إذا رأى الشيء بعينه كان ذلك أقوى يقيناً مما إذا أخبر به .

الأحد : ١٨ رمضان ١٤٣٩هـ

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ

تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)) .

[هود : ٨٤- ٩٥] .

(**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا**) أي: أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً، فهو معطوف على قوله (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه).

- واختلفوا في مدين فقيل: إنه اسم البلد، وقيل: إنه اسم القبيلة بسبب أنهم أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام، ومدين صار اسماً للقبيلة.
- وكانت ديارُ مدينَ بأرضِ مَعَانٍ من أطرافِ الشامِ مما يلي الحجازَ، قريبًا من بحيرةِ قومِ لوطٍ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: (مَدْيَنُ) اسمُ بلدةٍ.
- وَغَلِطَ بعضُ العلماءِ وبعضُ المؤرخين، فَزَعَمَ أن شعيبًا كان بعد مُوسَى، وهذا لا شَكَّ أنه غَلَطٌ؛ لأن شُعَيْبًا قَبْلَ موسى، وقد دَلَّتْ عليه آياتُ القرآنِ في سورةِ الأعرافِ هذه وغيرِها؛ لأن اللَّهَ في سورةِ الأعرافِ هذه لَمَّا ذكرَ قصةَ نوحٍ وقصةَ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ مع قومِهم قال بعدَ ذلك في الآياتِ الآتيةِ (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا) فَدَلَّ على أن بعثَ موسى بآياتِ اللهِ بعدَ هؤلاءِ الرسلِ وَأُمَمِهِمْ، كما هو نَصُّ القرآنِ العظيمِ. وزعمَ بعضُ العلماءِ أن شعيبًا ابنُ بنتِ لوطٍ.

قال بعضُ العلماءِ: هو مِمَّنْ آمَنَ مع إبراهيمَ لَمَّا نجا مِنَ النارِ، وهاجرَ معه. وَكُلُّهَا أقوالٌ لا دليلَ عليها، وغايةُ ما يفيدُه القرآنُ: أن اللَّهَ بعثَ نبيَّه شعيبًا إلى أهلِ مدينَ. وذكر اللَّهُ في آياتٍ أُخْرَى متعددةٍ - كما سيأتي في سورةِ «الحجراتِ»، وفي سورةِ «الشعراء»، وفي سورةِ «ص» وغيرِ ذلك - أن شعيبًا أرسلَ أيضًا إلى أصحابِ الأيكةِ، كما سيأتي في قولِه (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) والعلماءُ مختلفون: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ كانوا يعبدونَ أيكةً،

أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللهَ سماهم مرةً بنسبهم (مدين) ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه وَمِمَّنِ اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ.

والذين قالوا: إنهما أُمَّتَانِ قالوا: في (مدين) قال: إنه أَخُوهُمْ حيث قال (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) أما أصحابُ الأيكةِ فلم يَقُلْ: إنه أخوهم بل قال (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) ولم يقل: أخوهم شعيبٌ.

وَأُجِيبَ عن هذا بأنه لَمَّا ذَكَرَ مَدْيَنَ ذَكَرَ الجدَّ الذي يشملُ القبيلةَ وَمِنْ جُمْلَتِهَا شعيبٌ، ذكر أنه أخوهم من النسبِ. أما قولُه (أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) فمعناه: أنهم يعبدونَها، وَلَمَّا ذَكَرَهُمْ في مقامِ الشركِ وعبادةِ غيرِ اللهِ لم يُدْخِلْ معهم شعيبًا في ذلك وهم أمةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم وَاللَّهُ أعلمُ.

- **قال ابن كثير**: قوله تعالى (كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)).

هؤلاء -أعني أصحاب الأيكة- هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغَيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: "إذ قال لهم أخوهم شعيب"، وإنما قال (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ)، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس مَنْ لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا عليه السلام، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم مَنْ قال: ثلاث أمم.

- **وقال أيضاً** : وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأِ الناس معاملة ; يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقس.

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر اكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد.

- وقد جاءهم ببينة .كما قال تعالى في سورة الأعراف (قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أي: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به.
- المراد بالبينة ههنا المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئاً لا نبياً، فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه.
- **قال الآلوسي**: قوله تعالى (قَدْ جَاءتْكُم بَيّنَةٌ مّن رَّبّكُمْ) أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم.

ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ والأنبياء عليهم السلام فيه، والقول بأنه لم يكن له عليه السلام معجزة غلط لأن الفاء في قوله سبحانه (فَأَوْفُوا الكيل والميزان) لترتيب الأمر على مجيء البينة، واحتمال كونها عاطفة على (اعبدوا) بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس.

(**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**) تقدم .

(**وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ**) المكيال والميزان: اسمان للآلة التي يكال بها ويوزن.

ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين:

أحدهما : أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم.

وثانيهما : أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم.

فكأنه عليه السلام يقول لهم: لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتم.

وإلى هذين الأمرين أشار قوله تعالى (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) .

(**إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ**) **أي** : أخلصوا لله عبادتكم، والتزموا العدل في معاملاتكم، فإني أراكم تملكون الوفير من المال، وتعيشون في رغد من العيش، وفي بسطة من الرزق، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لواهبها وهو الله تعالى وأن يستعملها استعمالا يرضيه، وأن يعطى كل ذي حق حقه.

- فالمراد بالخير هنا : المال الكثير ، والثروات الطائلة التي لا يحتاجون معها إلى التعدي إلى حقوق الناس .
- ويطلق الخير على المال كثيراً .

كما قال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ ...) .

وقال تعالى (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ) .

(**وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ**) أي : وإني أخاف عليكم -إن تماديتم على الكفر بالله ، والإضرار بالناس- عذاب يوم يحيط بكم.

والإحاطة : الإحداق ، أي : أن يحدق بكم العذاب من جميع الجوانب حتى لا يستطيع أن يفر منه فار .

وقيل : إنه كناية عن الهلاك .

كقوله (وأحيط بثمره) .

- وإنما أسند الإحاطة إلى اليوم ، لأن العرب تسند الهول إلى ظرفه ، وهو موجود في القرآن .

كما قال تعالى (فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً

(**وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**) أي: فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة.

فالإيفاء : الإكمال والإتمام ، أي : كيلوا كيلاً وافياً ، وزنوا وزناً وافياً ، ولا تنقصوا إن كلتم ، ولا تزيدوا إن اكتلتم .

قال تعالى في سورة الشعراء (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) قال ابن كثير: يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) أي: إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا، وتأخذوه -إذا كان لكم -تامًا وافيًا، ولكن خذوا كما

تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

وقال تعالى (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

(ويل للمطففين) أي هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بين أوصافهم القبيحة بقوله (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيا كاملا لأنفسهم (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، ينقصون الكيل والوزن.

(وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ) أي: ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات.

يقال: بخسه حقه يبخسه إذا نقصه إياه. وظلمه فيه «وتبخسوا» تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثاني أشياءهم.

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده.

(**وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**) أي: لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل.

(**بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) أي : ما يبقيه الله لكم من رزق حلال، ومن حال صالح، ومن ذكر حسن، ومن أمن وبركة في حياتكم ... بسبب التزامكم بالقسط في معاملاتكم، هو خير لكم من المال الكثير الذي تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم.

(**وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ**) أي : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسبكم عليها، وأجازيكم بها الجزاء الذي تستحقونه ، وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرني ربي بتبليغه، وهو وحده سبحانه الذي سيتولى مجازاتكم.

(**قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**) أي : قال قوم شعيب له– على سبيل التهكم والاستهزاء–: يا شعيب أصلاتك– التي تزعم أن ربك كلفك بها والتي أنت تكثر منها– تأمرك أن نترك عبادة الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه .

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التي كان يفعلها، لأنه عليه السلام كان كثير الصلاة، وكانوا إذا رأوه يصلى سخروا منه.

(**أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء**) أي : وتأمرك أن نترك ما تعودنا فعله في أموالنا من التطفيف في الكيل والميزان ... .

إن كانت صلاتك تأمرك بذلك، فهي في نظرنا صلاة باطلة، لا وزن لها عندنا، بل نحن نراها لونا من ألوان جنونك وهذيانك.

(**إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**) أي : وقالوا –استهزاءً به–: إنك لأنت الحليم الرشيد.

تقدم أن الحليم من الحلم ، وهو العقل الراجح الذي يحمل صاحبه على الأناة والتأني في الأمور وعدم العجلة التي تقتضي وضع الشيء في غير موضعه .

والرشيد من الرشد وهو ضد السفه ، فهو من عنده علم وبصيرة بما يضر وينفع .

قال بعض العلماء : إن هذا ليس تعريضاً ، وإنما هو على بابه ، ومرادهم : إنا قد كنا نأمل في حلمك ورشدك أن لا تقدم على مثل هذه الأمور فتأمر بما لا يليق ، كما قال قوم صالح لنبيهم (يا صالح قد كنت فينا مرجواً) .

(**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي**) أي: قال شعيب: يا قوم أرأيتم إن كنت على طريق واضح من ربي فيما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة له، وفيما أنهاكم عنه من إفساد المال .

(**وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا**) قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين.

(**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ**) أي : لا أريد أن أنهاكم عن الشيء لتتركوه ثم أفعله بعدكم .

- **قال الشنقيطي** : ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ نَبِيِّهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَنَّهُ أَخْبَرَ قَوْمَهُ: أَنَّهُ إِذَا نَهَاهُمْ عَنْ شَيْءٍ انْتَهَى هُوَ عَنْهُ وَأَنَّ فِعْلَهُ لَا يُخَالِفُ قَوْلَهُ.

وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُنْتَهِيًا عَمَّا يَنْهَى عَنْهُ غَيْرَهُ، مُؤْتَمِرًا بِمَا يَأْمُرُ بِهِ غَيْرَهُ.

وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) .

وَقَوْلِهِ (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَال (يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ ! فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ) .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ : فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ ، أَيْ: تَتَدَلَّى أَمْعَاؤُهُ.

وَأَخْرَجَ وَكِيعٌ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَأَحْمَدُ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَالْبَزَّارُ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحِلْيَةِ» ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» ، وَغَيْرُهُمْ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا قُرِضَتْ رَجَعَتْ، فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ) .

قَالَهُ صَاحِبُ «الدُّرِّ الْمَنْثُورِ» . اهـ.

وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وَقَدْ أَجَادَ مَنْ قَالَ:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ مَرِيضُ

وَمَعْلُومٌ أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ بِمَا يَنْصَحُ بِهِ غَيْرَهُ أَدْعَى لِقَبُولِ غَيْرِهِ مِنْهُ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَإِنَّكَ إِذْ مَا تَأْتِ مَا أَنْتَ آمِرٌ ... بِهِ تَلْفَ مَنْ إِيَّاهُ تَأْمُرُ آتِيَا

(**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ**) أي: فيما آمركم وأنهاكم، إنما مرادي إصلاحكم جهدي وطاقتي .

وهذا يدل على شدة اعتماد الرسل عليهم السلام على ربهم تعالى .

(**وَمَا تَوْفِيقِي إلا بالله**) أي: في إصابة الحق فيما أريده ، ومحاولة إصلاحكم .

(**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**) في جميع أموري .

والتوكل إسناد الأمور وتفويضها إلى الله، مع العلم أنه لا يقع من الخير إلا ما شاء الله، ولا يصيب العبد من الشر إلا ما كتب.

- والتوكل لا ينافي فعل الأسباب.

قال تعالى (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) مع أنه تعالى لو أراد أسقطه لها بدون هز منها.

ومن أوضح الأدلة قول يعقوب (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ).

(يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ) محافظة عليهم من العين ثم قال (وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ).

فقد أخذ بالسبب والحيطة، وصرح بان الاعتماد على الله وحده.

قال ابن القيم أيضاً: فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

التحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

قال شيخ الإسلام: وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، قال تعالى (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ).

وقال: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

وقال بعض العارفين: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

وقال ابن القيم – رحمه الله –ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً بإزالته لأزاله.

وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) أي : أرجع إلى الله وأتوب إليه .

(**وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ**) أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النقمة والعذاب.

- (أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ) بالغرق (أَوْ قَوْمَ هُودٍ) بالريح (أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ) بالصيحة . (**وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**) أي : فيصيبكم ما أصابهم من قلب قراكم ورميكم بالحجارة .

- **قال البقاعي** : (لا يجرمنكم) أي يحملنكم (شقاقي) أي شقاقكم لي على (أن يصيبكم) من العذاب (مثل ما) أي العذاب الذي (أصاب قوم نوح) بعد طول أعمارهم وتنائي أقطارهم (أو قوم هود) على شدة أبدانهم وتمادي أمانهم (أو قوم صالح) مع نحتهم البيوت من الصخور وتشييدهم عوالي القصور.

ولما كان للمقاربة أثر المشاكلة والمناسبة ، غير الأسلوب تعظيماً للتهويل فقال : (وما قوم لوط) أي على قبح أعمالهم وسوء حالهم وقوة أخذهم ووبالهم (منكم ببعيد) أي لا في الزمان ولا في المكان فأنتم أجدر الناس بذكر حالهم للاتعاظ بها .

(**وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**) في تفسيرها قولان :

قيل : المراد بعد المكان ، أي : وليست ديارهم ببعيدة منكم ، بل هي قريبة .

كما قال تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) .

وقيل : المراد بعد الزمان .

كما قال قتادة في قوله: (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) يعني إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس .

والمراد من ذلك على كلا الوجهين تحذيرهم أن يقع بهم ما وقع بقوم لوط الذين لا تبعد مساكنهم منهم ، كما أن زمنهم الذي أهلكوا فيه ليس ببعيد كذلك .

- **قال الرازي** : وأما قوله تعالى (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) ففيه وجهان :

الأول : أن المراد نفي البعد في المكان لأن بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين .

والثاني : أن المراد نفي البعد في الزمان .

لأن إهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الإهلاكات التي عرفها الناس في زمان شعيب عليه السلام، وعلى هذين التقديرين فإن القرب في المكان وفي الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب.

(**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**) أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة .

(**إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ**) لمن تاب وأناب .

(**وَدُودٌ**) الذي يتودد إلى المخلوقين بما جعلهم يعملون له ويحبونه .

ويحب من أطاعه ، فهو فَعول بمعنى فاعل .

وكلاهما حق .

قال السعدي :ومعنى الودود، من أسمائه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو "فعول" بمعنى "فاعل" وبمعنى "مفعول"

وقال : "الودود" الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودا وإخلاصا وإنابة من جميع الوجوه.

(**قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**

) قالوا: يا شعيب ما نفقه كثيرًا مما تقول، وإننا لَنراك فينا ضعيفًا لست من الكبراء ولا من الرؤساء،

- نادوه باسمه وقاحة وعدم احترام ، وصرحوا له بعدم فهمهم عنه مع أنه في غاية الفصاحة ، حتى قيل : إنه خطيب الأنبياء ، فتجاهلوا ذلك وزعموا أنهم لا يفهمون كلامه .
- **قال الرازي** : لقائل أن يقول : أنه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم ، فلم قالوا (مَا نَفْقَهُ) والعلماء ذكروا عنه أنواعاً من الجوابات :

فالأول : أن المراد : ما نفهم كثيراً مما تقول ، لأنهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله (وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) .

الثاني : أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزناً ، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه إذ لم يعبأ بحديثه : ما أدري ما تقول.

(**وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا**) أي : لا قوة لك إلى جانب قوتنا، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا.

- ومرادهم : لست أحق منا بهذا الأمر لو كان خيراً ، وهو مثل ما قاله كفار مكة في محمد (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) .

(**وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ**) أي : ولولا مراعاة عشيرتك لقتلناك رَجْما بالحجارة –وكان رهطه من أهل ملتهم–، وليس لك قَدْر واحترام في نفوسنا.

والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم ، ولا وقع له في صدورهم ، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترامهم رهطه.

والرهط : المراد بهم جماعته وعشيرته وعصبته الأقربون .

والمراد بالرجم : الرجم بالحجارة ، وهو من أشنع القتل .

وقيل : إن معنى رجمناك : شتمناك ، وقد شتموه حينا قالوا : (إنك لأنت الحليم الرشيد) كما مر أنه سخرية وتهكم .

- والرجم في اللغة عبارة عن الرمي ، وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل ، ولما كان هذا الرجم سبباً للقتل لا جرم سموا القتل رجماً ، وقد يكون بالقول الذي هو القذف ، كقوله (رَجْماً بالغيب) وقوله (وَيَقْذِفُونَ بالغيب مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) وقد يكون بالشتم واللعن ، ومنه قوله (الشيطان الرجيم) وقد يكون بالطرد كقوله (رُجُوماً للشياطين) .

(**وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**) أي : وما أنت علينا بمكرم أو محبوب أو قوى حتى نمتنع عن رجمك، بل أنت فينا الضعيف المكروه .

والعزة تطلق على الغلبة ، وهو إطلاق مشهور ، ومنه قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

وتطلق على النفاسة وقلة الوجود .

ومرادهم هنا : لست بكريم ذا مكانة عندنا .

(**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا**) أي : قال: يا قوم أعشيرتي أعزُّ وأكرم عليكم من الله؟ ونبذتم أمر ربكم فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون به ولا تنتهون بنهيه .

- **قال ابن عاشور** : والمراد بالظهريّ الكناية عن النسيان ، أو الاستعارة لأن الشيء الموضوع بالوراء ينسى لقلة مشاهدته ، فهو يشبه الشيء المجعول خلف الظهر في ذلك .
- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (واتخذتموه وراءكم) في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى ، قاله الجمهور.

قال الفراء : المعنى : رميتم بأمر الله وراء ظهوركم.

قال الزجاج : والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر : قد جعل فلان هذا الأمر بظهر .

(**إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**) أي : إن ربي قد أحاط علمه بأقوالكم وأعمالكم السيئة، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين.

وهذا هو الزاجر الأعظم ، والواعظ الأكبر ، وهو العلم بأن الله رقيب على كل شيء مطلع على كل شيء .

(**وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ**) أي : ويا قوم اعملوا كل ما تستطيعون على طريقتكم وحالتكم، إني عامل مثابر على طريقتي وما وهبني ربي مِن دعوتكم إلى التوحيد .

وقوله (**عَلَى مَكَانَتِكُمْ**) أي : اعملوا على تمكنكم ، أي : اعملوا ما تشاؤون على تمكنكم فإني عامل على تمكني .

(**سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ**) تهديد شديد .

(**وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ**) أي : وسوف تعلمون مَن منا كاذب في قوله، أنا أم أنتم؟

وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) تهديد ، والارتقاب من المراقبة ، وهو التربص والانتظار ، وهذا كقول الله عن الرسول (فتربصوا إنا معكم متربصون) .

(**وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا**) تقدم .

(**وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ**) تقدم .

والْهَلَاكُ الَّذِي أَصَابَ قَوْمَ شُعَيْبٍ ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْأَعْرَافِ أَنَّهُ رَجْفَةٌ .

قال تعالى (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) .

وَذَكَرَ فِي هُودٍ هنا أَنَّهُ صَيْحَةٌ (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) .

وَذَكَرَ فِي الشُّعَرَاءِ أَنَّهُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، قال تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

ويكون وقع ذلك كله :

فيكون صاح بهم الملك ، فتزعزعت بهم الأرض من الصيحة فرجفت بهم ، ثم جاءت الظلة فأمطرت عليهم النار .

والْجَوَابُ: مَا قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ قَالَ: وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ وَهِيَ

سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَرٌ مِنْ نَارٍ وَلَهَبٍ وَوَهَجٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ، وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ. اهـ مِنْهُ.

وقال رحمه الله : وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعًا مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَصُنُوفًا مِنَ الْمَثُلَاتِ، وَأَشْكَالًا مِنَ الْبَلِيَّاتِ، وَذَلِكَ لِمَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنْ قَبِيحِ الصِّفَاتِ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَجْفَةً شَدِيدَةً أَسْكَنَتِ الْحَرَكَاتِ، وَصَيْحَةً عَظِيمَةً أَخْمَدَتِ الْأَصْوَاتَ، وَظُلَّةً أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَرَرَ النَّارِ مِنْ سَائِرِ أَرْجَائِهَا وَالْجِهَاتِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ سُورَةٍ بِمَا يُنَاسِبُ سِيَاقَهَا وَيُوَافِقُ طِبَاقَهَا .

فِي سِيَاقِ قِصَّةِ الْأَعْرَافِ أَرْجَفُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِالْإِخْرَاجِ مِنْ قَرْيَتِهِمْ أَوْ لَيَعُودُنَّ فِي مِلَّتِهِمْ رَاجِعِينَ فَقَالَ تَعَالَى: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) . فَقَابَلَ الْإِرْجَافَ بِالرَّجْفَةِ، وَالْإِخَافَةَ بِالْخِيفَةِ، وَهَذَا مُنَاسِبٌ لِهَذَا السِّيَاقِ، وَمُتَعَلِّقٌ بِمَا تَقَدَّمَهُ مِنَ السِّيَاقِ .

وَأَمَّا فِي سُورَةِ هُودٍ فَذَكَرَ أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لِنَبِيِّ اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّنَقُّصِ (أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) . فَنَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ الصَّيْحَةَ الَّتِي هِيَ كَالزَّجْرِ عَنْ تَعَاطِي هَذَا الْكَلَامِ الْقَبِيحِ الَّذِي جَهَّلُوا بِهِ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ الْأَمِينَ الْفَصِيحَ فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَسْكَتَتْهُمْ مَعَ رَجْفَةٍ أَسْكَنَتْهُمْ

وَأَمَّا فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ فَذَكَرَ أَنَّهُ أَخَذَهُمْ (عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) وَكَانَ ذَلِكَ إِجَابَةً لِمَا طَلَبُوا، وَتَقْرِيبًا إِلَى مَا إِلَيْهِ رَغِبُوا فَإِنَّهُمْ قَالُوا (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

(**فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**) أي: موتى، كل واحد منهم منكب على وجهه لا روح في جسده.

(**كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا**) كما قال تعالى في سورة الأعراف (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا)

أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

- **قال الخازن:** قوله تعالى (الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوماً من الدهر يقال: غنيت بالمكان أي أقمت به.
- **وقال الشوكاني:** ومعنى الآية: الذين كذبوا شعيباً كأن لم يقيموا في دارهم، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب.
- **وقال ابن عطية:** قوله تعالى (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا) لفظ فيها للإخبار عن قوة هلاكهم ونزول النقمة بهم والتنبيه على العبرة بهم.
- **وقال الشنقيطي:** المعنَى: الذين كَذَّبُوا شعيبًا دَمَّرَهُمُ اللَّهُ وأهلكهم إهلاكًا مستأصلاً حتى كأنهم لم يُقِيمُوا في دارهم يومًا من الدهرِ أبدًا ولم يُوجَدُوا، والذي زَالَ زَوَالاً كُلِّيًّا تقولُ العربُ: كأنه لم يكن يومًا ما.

(**أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ**) أي : ألا هلاكا مصحوباً بالخزي واللعنة والطرد من رحمة الله لقبيلة مدين، كما هلكت من قبلهم قبيلة ثمود.

الفوائد :

١- التأكيد على أهمية التوحيد.

٢ – أن لكل نبي آية تدل على صدقه ونبوته.

٣ – حكمة الله تعالى في عدم ذكر آية نبي الله شعيب.

٤ – أن بخس المكاييل والموازين خصوصاً، وبخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

٥ – أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب، والكبر من الفقير أقبح من الغني، والسرقة ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج؛ لهذا قال شعيب لقومه (إِنِّيَ أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ) أي: بنعم كثيرة، فأي أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة.

٦–الحث على الرضا بما أعطى الله، والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس.

٧ – وجوب التوكل على الله، وتفويض الأمور إليه، وخاصة في نصرة الحق ومحاربة أهل الزيغ والفساد .

٨–ذم من يأمر الناس بالطاعة والبر ولا يفعل ذلك.

٩–فضل الرزق الحلال .

١٠–أن منهج الأنبياء هو الإصلاح .

١١–أن التوفيق بيد الله .

١٢–قوة الأنبياء في الحق وعدم خوفهم من أقوامهم .

الثلاثاء ٢٠ رمضان ١٤٣٩هـ

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)) .

[هود : ٩٦– ٩٩] .

(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**) ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا على توحيدنا وحجة تبين لمن عاينها وتأملها –بقلب صحيح– أنها تدل على وحدانية الله، وكَذِبِ كلّ من ادَّعى الربوبية دونه سبحانه وتعالى.

- موسى بن عمران، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولي العزم من الرسل.
- صيغة الجمع في قوله (ولقد أرسلنا) للتعظيم .
- والمراد بالآيات: الآيات التسع المشار إليها في قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) .

وقال تعالى (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) .

وهي: العصا، واليد البيضاء، والسنون العجاف، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

والسلطان المبين: الحجة الواضحة، والبرهان الظاهر على صدقه، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحجة والبرهان على ما يدعى، يقهر ويغلب من لا حجة ولا برهان معه، كما يقهر السلطان غيره.

(**إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ**) أي : أرسلنا موسى إلى فرعون وأكابر أتباعه وأشراف قومه، فكفر فرعون وأمر قومه أن يتبعوه، فأطاعوه، وخالفوا أمر موسى .

- وقوله (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) خصهم بالذكر مع فرعون، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره، ويعاونونه على فساده والضمير في قوله فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ يعود إلى الملأ.

أي : فاتبعوا أمره في كل ما قرره من كفر، وفي كل ما أشار به من فساد.

- فقد ادعى أنه إلههم من دون الله كما قال تعالى عنه (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) .

وقال تعالى (فقال أنا ربكم الأعلى) .

وكان قومه ضعفاء العقول ، يتبعون أمره مع وضوح ضلاله وفساده لخفة عقولهم .

كما قال تعالى (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) .

(**وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ**) أي : وليس في أمر فرعون رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه ويهملوه، بدل أن يطيعوه ويتبعوه .

(**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**) أي : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم، كما كان يتقدمهم في الكفر في الدنيا، فأوردهم النار، أي: فدخلها وأدخلهم معه فيها.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (فَأَوْرَدَهُمُ النار) أي أدخلهم فيها ، ذُكِر بلفظ الماضي ؛ والمعنى فيوردهم النار ؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن ؛ فلهذا يُعبَّر عن المستقبل بالماضي.

(**وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ**) أي: وبئس الورد الذي يردونه النار، لان الورد- الذي هو النصيب المقدر للإنسان من الماء- إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه، وإرواء ظمئه، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التي هي الضد من ذلك.

- والورد- بكسر الواو- يطلق على الماء الذي يرد إليه الإنسان والحيوان للشرب ، فالوِرد الشيء الذي يورد .

(**وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ**) أي : وأتبعهم الله في هذه الدنيا مع العذاب الذي عجّله لهم فيها من الغرق في البحر لعنةً، ويوم القيامة كذلك لعنة أخرى بإدخالهم النار، وبئس ما اجتمع لهم وترادَف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى في آية أخرى (وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) .

والرفد العطاء والعون يقال رفد فلان فلانا يرفده رفدا أي أعطاه وأعانه على قضاء مصالحه، أي: بئس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التي لا بستهم في الدنيا والآخرة.

وسميت اللعنة رفداً على سبيل التهكم بهم .

فكأنه سبحانه يقول: هذه اللعنة هي العطاء المعطى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الأغنام الذي يسير خلف قائده بدون تفكر أو تدبر ...وبئس العطاء عطاؤه لهم .

وهذا أسلوب عربي، جار على غرار قوله تعالى (وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ

وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا).

الفوائد :

١- عظمة الله .

٢- إثبات رسالة موسى .

٣- أن موسى كغيره من الأنبياء أعطي من الآيات العظيمة الدالة على صدقه .

٤- ذم من يتبع من لا يعقل ولا يرشد .

٥- أن فرعون كما كان قائداً لقومه في الدنيا في الضلال ، فإنه يكون قائدهم يوم القيامة إلى النار .

٦- أن فرعون وقومه لعنوا في الدنيا وفي الآخرة .

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)) .

[هود : ١٠٠- ١٠١] .

(**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ**) أي : ذلك الذي قصصناه عليك- أيها الرسول الكريم- في هذه السورة الكريمة، وهو جزء مِنْ أَنْباءِ الْقُرى المهلكة.

(**نقصه عليك**) أي : نخبرك به إخباراً مفصلاً في هذا القرآن عن طريق وحينا الصادق، ليعتبر به الناس، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذي لا علم لهم به من عند الله .

- قوله (أنباء) جمع نبأ ، وهو الخبر الذي له شأن .

والنبأ أخص من الخبر, فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ, لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص, وهو الخبر الذي له خطب وشأن, وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم.

وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دَلَّتْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم مثل ما وقع من الأوَّلِين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ) .

- **قال السعدي:** قوله تعالى (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ) ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين.
- **وقال القرطبي:** وهي تسلية للنبيّ عليه السلام والمسلمين.
- والقرى تطلق على الأبنية وعلى الساكنين بها .

(**مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ**) أي : من هذه القرى المهلكة ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها، كآثار قوم ثمود ، ومنها ما أثارها عفت وزالت وانطمست وصارت كالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه، فلم تبق منه باقية، كديار قوم

نوح.

- الضمير في قوله: (منها) يعود إلى تلك القرى المهلكة، والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار، فكأن سائلا سأل ما حال هذه القرى المهلكة أباقية آثارها أم عفى عليها الزمن؟ فكان الجواب: منها قائم وحصيد.

(**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ**) إذ أهلكناهم .

(**وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ**) ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، بسبب إصرارهم على الكفر، وجحودهم للحق، واستهزائهم بالرسل الذين جاءوا لهدايتهم .

(**فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ**) أي : أن هؤلاء المهلكين عند ما نزل بهم العذاب، لم تنفعهم أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله شيئاً من النفع ... بل هي لم تنفع نفسها فقد اندثرت معهم كما اندثروا.

والفاء في قوله سبحانه (فَما أَغْنَتْ) للتفريع على ظلمهم لأنفسهم، لأن اعتمادهم على شفاعة الأصنام، وعلى دفاعها عنهم... من مظاهر جهلهم وغبائهم وظلمهم لأنفسهم.

ومِنْ في قوله: (مِنْ شَيْءٍ) لتأكيد انتفاء النفع والإغناء: أي: لم تغن عنهم شيئاً ولو قليلاً من الإغناء ولم تنفعهم لا في قليل ولا كثير .

(**وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب**) أي : وما زادتهم أصنامهم التي كانوا يعتمدون عليها في دفع الضر سوى الخسران والهلاك.

قال ابن كثير : قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودَمَارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها فبهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، في الدنيا والآخرة.

الفوائد :

١- أن الله يقص علينا نبأ القرى للاعتبار والاتعاظ .

٢- علم من أعلام نبوته ﷺ .

٣- أن الله أهلك كثيراً من القرى بسبب ذنوبهم .

٤- أن تلك القرى منها ما هو موجود آثارها ، ومنها ما محي .

٥- أن سبب هلاك تلك القرى هو الظلم .

(**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)**) .

[هود : ١٠٢] .

(**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**) أي : ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظالمين السابقين، يكون أخذ ربك وعقابه لكل ظالم يأتي بعدهم وينهج نهجهم.

والكاف في (وَكَذلِكَ) بمعنى مثل، والمراد بالقرى: أهلها الظالمون.

والأخذ: هو العقاب المباغت السريع: يقال أخذ فلان الموت، إذا نزل به بسرعة وقوة.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال (إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد) متفق عليه .

- وقوله تعالى (وهي ظالمة) فيه أن هلاك الله للأمم إنما بسبب ظلمهم وكفرهم .

والله يمهل الظالمين ولا يهمل كما قال تعالى (وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ).

- مباحث تتعلق بإهلاك الله للقرى المكذبة:

أولاً: أخبر الله أنه أهلك كثيراً من القرى.

قال تعالى (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً).

وقال تعالى (وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ).

ثانياً: أخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم.

قال تعالى (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

ثالثاً: أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل.

قال تعالى (وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (وما كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

رابعاً: أن الله يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ.

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

وقال تعالى (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ

وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا).

خامساً: أخبر تعالى أن أهل الترف والغنى هم من يكذب بالرسول من القرى.

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ).

سادساً: أخبر تعالى لو أن أهل القرى آمنوا لكان خيراً لهم.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ).

الفوائد :

١- شدة انتقام الله من المكذبين الكافرين .

٢- أن الله أهلك كثيراً من القرى .

٣- أن سبب هلاك الأمم ظلمهم وتكذيبهم .

٤- الحذر من غضب الله .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤)) .

[هود : ١٠٣ – ١٠٤] .

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين .

(**لآيَةً**) أي : عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة .

(**لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ**) لأنه هو المنتفع بالعبر والعظات لصدق إيمانه، وصفاء نفسه، وإيقانه بأن هناك في الآخرة ثواباً وعقاباً وحساباً على الأعمال الدنيوية..

أما الذي ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، فإنه لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب دنيوي دمرهم تدميراً، بل ينسب ذلك إلى أسباب طبيعة أو فلكية أو غيرهما، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وطغيانهم .

- **قال الشنقيطي** : ... وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى) وقال في الساعة (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا).

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

وقوله (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) أي : يخشى عذاب الآخرة ، فالمحذوف في سورة النازعات صرح به هنا .

• أما من لا يؤمن بالآخرة فلا ينتفع بهذه الآيات .

قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

وقال تعالى (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا) .

وقال تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ) .

(**ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ**) أولهم وآخرهم .

كما قال تعالى (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) .

وقال تعالى (قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) .

وقال تعالى (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) .

• ونكّر اليوم تهويلاً وتعظيماً

(**وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ**)أي : عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها .

كما قال تعالى (كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) .

وقال تعالى (أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

• والغرض من ذلك، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، بأنه اليوم الذي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد ... .

(**وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ**) الأجل في اللغة: الوقت المضروب لانتهاء مدة معينة .

فأجل الإنسان: هو الوقت المحدد لانقضاء عمره، فقوله (إلا لأجل) أي : لوقت .

المعدود : المحسوب بإتقان لا يزيد ولا ينقص

والمعدود: أصله المحسوب، والمراد به هنا: المحدد بمدة معينة لا يزيد عليها ولا يتأخر عنها.

أي : أننا لا نؤخر هذا اليوم إلا لوقت محدد معلوم لنا، فإذا ما جاء موعد هذا الوقت، حل هذا اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة، الذي اقتضت حكمتنا عدم إطلاع أحد على موعده.

الفوائد :

١- أن هلاك الأمم المكذبة آية من آيات الله .

٢- أن من علامات الاعتبار والاتعاظ الإيمان باليوم الآخر .

٣- أنه ليس كل أحد يعتبر بالآيات .

٤- إثبات الحشر واجتماع الخلائق .

٥- أن يوم القيامة يوم عظيم مشهود .

٦- أنه لا يعلم يوم القيامة إلا الله .

(**يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ**

وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩)) .

[هود : ١٠٥- ١٠٩] .

(**يَوْمَ يَأْتِ**) أي : يوم يأتي يوم القيامة .

(**لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**) أي : لا يتكلم أحد إلا بإذن الله .

كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) .

(**فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ**) أي: فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) .

الشقي : هو الشخص المتلبس بالشقاوة. والشقاء: أي سوء الحال- بسبب إيثاره الضلالة على الهداية، والباطل على الحق .

والسعيد: هو الشخص المتلبس بالسعادة، وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه وعمله الصالح.

والمعنى: حين يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا تتكلم فيه نفس بأي كلام إلا بإذن الله تعالى ويكون الناس فيه منقسمين إلى قسمين: قسم شقي معذب بسبب كفره، وسوء عمله، وتفريطه في حقوق الله، وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه: وعمله الصالح.

(**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ**) الزفير : هو إخراج النفَس بشدة ، والشهيق : هو رد النفس بشدة ، قال الطبري : صوتُ الكافر في النار صوت الحمار ، أوله زفير وآخره شهيق

والمراد بهما: الدلالة على شدة كربهم وغمهم، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة، واستبد به الضيق حتى صار في كرب شديد .

والمعنى: فأما الذين كان نصيبهم الشقاء في الآخرة، بسبب كفرهم واقترافهم للمعاصي في الدنيا، فمصيرهم إلى الاستقرار في النار، لهم فيها من ضيق الأنفاس. وحرج الصدور، وشدة الكروب ما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من هم وغم. وخص سبحانه من بين أحوالهم الأليمة حالة الزفير والشهيق تنفيرا من الأسباب التي توصل إلى النار، وتبشيعا لتلك الحالة التي فيها ما فيها من سوء المنظر، وتعاسة الحال ...

(**خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**) أي : أن الأشقياء لهم في النار العذاب الأليم، وهم ماكثون فيها مكث بقاء وخلود .

فإن قيل : قد علم بالأدلة القطعية تأبيد عذاب الكفار في النار ، وعدم انقطاعه عنهم ، وثبت أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا ، فكيف قال (**مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**) ؟

والجواب من وجهين :

الأول : أن ذلك بناء على عادة العرب إذا أرادت المبالغة في تأبيد الشيء ودوامه، قالت: هو دائم ما دامت السموات والأرض، فأفهم الله تخليد الكفرة بذلك، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض، فهو أسلوب جارٍ على عرفهم يفيد الأبد والدوام الخالي عن الانقطاع .

والثاني : ليس المراد بقوله (**مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**) سموات الدنيا وأرضها ، فإن هذه تذهب بذهاب الدنيا ، وإنما المراد بها سموات الآخرة وأرضها ، فهي دائمة مخلوقة للأبد لا تفنى ولا تزول ، وعلى هذا فعذابهم وخلودهم أبدي دائم بدوامها .

لا يبرحونها مدة دوام السموات التي تظلهم، والأرض التي تقلهم فهو في معنى قوله تعالى خالِدِينَ فِيها أَبَداً.

(**إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ**) هذه الآية دلت بظاهرها على استثناء خلود أهل النار .

فقد يفهم البعض أن ذلك يدل على انقطاع عذاب الكفار في النار ، ونفي الخلود المؤبد لهم وذلك لقوله (إلا ما شاء الله) .

- ومن المعلوم المقطوع به ، وهو من عقائد أهل السنة والجماعة : خلود أهل النار بها واستمرار عذابهم بها وعدم انقطاعه .

وقد جاءت النصوص الكثيرة المتواترة بذلك :

كقوله تعالى (خالدين فيها أبداً) .

وقوله تعالى (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) .

وقال تعالى (وما هم بخارجين من النار) .

وقال تعالى (كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) .

وقال تعالى (مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُور) لأنهم لو ماتوا استراحوا من العذاب .

وقد أجاب العلماء على هذه الآية (إلا ما شاء الله) بأجوبة :

الجواب الأول : أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين.

ورجح هذا القول : ابن جرير ، وابن كثير.

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة ... نقل كثيرا منها الإمام ابن جرير، واختار: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط، وقال يوما من الدهر: لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة . (تفسير ابن كثير)

- **وقال الشوكاني** : قوله (إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ) قد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء على أقوال منها :

أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين وإنهم يخرجون بعد مدة من النار، وعلى هذا يكون قوله (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا) عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من خالدين، وتكون ما بمعنى من، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصا لكل عموم.

- **وقال الرازي** : بعد ذكره هذا القول : وهذا كلام قوي في هذا الباب .

وعلى هذا يكون قوله سبحانه (فأما الذين شقوا) عاماً في الكفرة والعصاة من أهل التوحيد ، ويكون الاستثناء من خالدين .

- **وقال البيضاوي** في تفسيره (إلا ما شاء ربك) استثناء من الخلود في النار، لأن بعضهم –وهم فساق الموحدين– يخرجون منها .
- **وقال الشنقيطي** : قوله (إِلاّ مَا شَاءَ اللهُ) معناه إلا من شاء الله عدم خلوده فيها من أهل الكبائر من الموحدين، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن بعض أهل النار يخرجون منها وهم أهل الكبائر من الموحدين .

الجواب الثاني : أن المدة التي استثناها الله هي المدة التي بين بعثهم من قبورهم واستقرارهم في مصيرهم قاله ابن جرير أيضاً .

الوجه الثالث: أن قوله (إِلاّ مَا شَاءَ اللهُ) فيه إجمال وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة مصرحة بأنهم خالدون فيها أبداً, وظاهرها أنه خلود لا انقطاع له, والظهور من المرجحات, فالظاهر مقدم على المجمل كما تقرر في الأصول.

(**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**) أي : فهو إن شاء غير ذلك فعله، وإن شاء ذلك فعله، ما شاء من الأفعال كان وما لم يشاء لم يكن.

وجاء سبحانه بصيغة المبالغة فَعَّالٌ للإشارة إلى أنه سبحانه لا يتعاصى عليه فعل من الأفعال بأي وجه من الوجوه.

(**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ**) في الآخرة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

(**فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**) تقدم الكلام عليها .

(**إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ**) لأن كل شيء بمشيئته .

ولما كان ذلك يوهم الانقطاع قال :

(**عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ**) أي : عطاء منه سبحانه لهم غير مقطوع عنهم .

وهذا نص في عدم انقطاع نعيم أهل الجنة .

كما قال تعالى (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ) .

وقال تعالى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ) .

(**فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ**) أي : لقد قصصنا عليك أيها الرسول الكريم الكثير من أخبار السابقين وبينا لك مصير السعداء والأشقياء ... ومادام الأمر كذلك، فلا تك

في شك من أن عبادة هؤلاء المشركين لأصنامهم إنما هي تقليد لما كان يعبده آباؤهم من قبل، وأنه كفر وضلال وباطل، وهذه العبادة لغير الله تعالى ستؤدى بالجميع إلى سوء العاقبة وإلى العذاب الأليم .

والخطاب للرسول ﷺ وهو من باب : إياك أعني واسمعي يا جارة .

(**وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ**) أي: وإنا لمعطو هؤلاء الذين نهجوا منهج آبائهم في عبادة غير الله، نصيبهم وحظهم من عذاب الآخرة كاملا بدون إنقاص شيء منه، كما ساروا هم على طريقة سلفهم في الضلال دون أن يغيروا شيئا منها ...

ومنهم من جعل المراد بالنصيب هنا: ما يشمل الجزاء على الأعمال الدنيوية والأخروية.

الفوائد :

١-أن يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله .

٢-أن الناس ينقسمون يوم القيامة إلى شقي وسعيد .

٣-أن من عذاب أهل النار خلودهم فيها وعدم انقطاع عذابهم بها .

٤-أن الله يفعل ما يريد .

٥- أن من أعظم نعيم أهل الجنة خلودهم الأبدي فيها .

٦- أن عظيم أهل الجنة دائم لا ينقطع .

الخميس: ٢٢ /رمضان/١٤٣٩هـ

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)**)

[هود : ١١٠- ١١١] .

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ**) أي : كما اختلف قومك- أيها الرسول الكريم- في شأن القرآن الكريم فمنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين، فقد اختلف قوم موسى من قبلك في شأن التوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم، إذ منهم من آمن بها ومنهم من كفر ... .

ومادام الأمر كذلك، فلا تحزن- أيها الرسول الكريم- لاختلاف قومك في شأن القرآن الكريم، فإن هذا الاختلاف شأن الناس في كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت.

فالجملة الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من مشركي قومه.

- **قال ابن عطية** : تسلية لمحمد ﷺ وذكر قصة موسى مثل له ، أي لا يعظم عليك أمر من كذبك ، فهذه هي سيرة الأمم ، فقد جاء موسى ، بكتاب فاختلف الناس عليه.
- **وقال ابن عاشور** : اعتراض لتثبيت النبي ﷺ وتسليتِه بأنّ أهل الكتاب وهم أحسن حالاً من أهل الشّرك قد أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه، وهم أهل مِلّة واحدة فلا تَأس من اختلاف قومك عليك، فالجملة عطف على جملة (فلا تك في مرية) ولأجل مَا فيها من معنى التّثبيت فُرع عليها قوله (فاستقم كما أمرت) .

- **قال ابن عاشور** : معنى الاختلاف فيه اختلاف أهل التّوراة في تقرير بعضها وإبطال بعض ، وفي إظهار بعضها وإخفاء بعض مثل حكم الرجم، وفي تأويل البعض على هواهم، وفي إلحاق أشياء بالكتاب على أنّها منه، كما قال تعالى: (فويل للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله) فهذا من شأنه أن يقع من بعضهم لا من جميعهم فيقتضي الاختلاف بينهم بين مُثبت ونافٍ ، وهذا الاختلاف بأنواعه وأحواله يرجع إلى الاختلاف في شيء من الكتاب.

(**وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**) يعني بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقونه من تعجيل العقوبة في الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى : (لقضي بينهم) يعني لعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم

ويحتمل : أن يكون بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) .

- **قال ابو حيان** : والظاهر عود الضمير في بينهم على قوم موسى عليه السلام ، إذ هم المختلفون فيه ، أو في الكتاب.

وقيل : يعود على المختلفين في الرسول من معاصريه.

- **قال ابن عطية** : وأنْ يعمهم اللفظ أحسن عندي ، وهذه الجملة من جملة تسليته أيضاً.

(**وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**) أي : وإن هؤلاء المختلفين في شأن الكتاب لفي شك منه، وهذا الشك قد أوقعهم في الريبة والتخبط والاضطراب.

وهذا شأن المعرضين عن الحق، لا يجدون مجالاً لنقده وإنكاره، فيحملهم عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه، وتأويله تأويلاً سقيماً يدعو إلى الريبة والقلق.

وبعض المفسرين يرى عودة الضمير في قوله وَإِنَّهُمْ إلى قوم موسى، وفي قوله مِنْهُ إلى كتابهم التوراة.

وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبي ﷺ والثاني إلى القرآن الكريم.

والذي يبدو لنا أن الرأي الأول أظهر في معنى الآية، لأن الكلام في موسى عليه السلام وقومه الذين اختلفوا في شأن كتابهم التوراة اختلافا كبيرا، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول.

وهذا لا يمنع أن بعض المكذبين للرسول ﷺ كانوا في شك من القرآن، أوقعهم هذا الشك في الريبة والحيرة.

(**وَإِنَّ كُلاًّ**) يعني من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب .

(**لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ**) اللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء أعمالهم في القيامة فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي المكذب على تكذيبه النار .

- **قال الرازي** : أي : أن من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فحالهم سواء في أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم في الآخرة .

فجمعت الآية الوعد والوعيد فإن توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم .

إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) يعني أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده وإن دقت ففيه وعد

للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين.

الفوائد :

١- إثبات رسالة موسى .

٢- حكمة الله في انقسام الناس عند مجيء الرسل إلى مصدق ومكذب .

٣- حكمة الله اقتضت أن لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة .

٤-أن الله يوم القيامة يعطي كل أحد حقه الذي يستحقه .

٥- أن الله خبير بأعمال العباد ، لا تخفى عليه خافية .

(فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)) .

[هود : ١١٢] .

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ) يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين في هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة، لأن ذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، وينهاهم عن الطغيان وهو البغي، لأنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك .

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، قَالَ « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ) رواه مسلم .

- والاستقامة هي المداومة على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه وقيل : هي طلب إقامة النفس على الصراط المستقيم ، والصراط المستقيم هو الإسلام كما ثبت تفسيره من حديث ثوبان عند أحمد بسند جيد .

- فضائل الاستقامة بعد الإيمان :

أولاً : تتنزل عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة وعدم الخوف .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) .

قوله (تتنزل عليهم الملائكة) **قيل** : عند الاحتضار ، **وقيل** : يوم خروجهم من قبورهم ، **وقيل** : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث، واختار هذا القول ابن كثير وقال: وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً .

ثانياً : الاستقامة سبب لبسط الرزق .

قال تعالى (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً) .

- **قال القرطبي** : أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق .

ثالثاً : أن الله أمر نبيه بالاستقامة .

قال تعالى (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) .

كان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة .

- أنه لا يلزم من الاستقامة عدم الوقوع بشيء من المعاصي فقد قال تعالى (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ) .
- **قال ابن رجب** : فيه إشارة إلى أنه لا بد من التقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فهو كما قال النبي ﷺ لمعاذ (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها) وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يستطيعوا الاستقامة حق الاستقامة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة. عن النبي ﷺ قال (سددوا وقاربوا) فالسداد هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، والمقاربة أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصمماً على قصد السداد وإصابة الغرض ، فتكون مقاربته عن عمد .
- وأعظم ما ينبغي مراعاته في الاستقامة استقامة القلب ، فهو ملك الأعضاء وهي جنوده ، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه .
- **قال ابن القيم** : فاستقامة القلب بشيئين:

(أحدهما) أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب تعالى الله وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه.

ما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان، يكرم المرء أو يهان.

وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى.

(والثاني) الذي يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهى، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى: (ما لكم لا ترجون لله وقاراً) قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة.

وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه .

وكذلك مما ينبغي مراعاة استقامته بعد القلب اللسان ، فإنه ترجمان القلب .

ولذلك قال ﷺ (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا) رواه الترمذي .

وجاء في رواية للترمذي: قلت يا رسول الله! ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه .

وقد جاء في مسند الإمام أحمد عن أنس . أن النبي ﷺ قال (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) .

- أسباب الاستقامة :

أولاً : دعاء الله بالثبات .

كان ﷺ يقول : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك) .

ثانياً : قراءة القرآن وتدبره .

قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) .

- أن من استقام في هذه الدار على الهداية ، وفقه الله تعالى للهداية يوم القيامة .

قال ابن القيم رحمه الله : فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار ، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط .

(**إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**) استئناف لتحذير من أخفى الطغيان بأن الله مطلع على كل عمل يعمله المسلمون ، ولذلك اختير وصف (بصير) من بين بقية الأسماء الحسنى لدلالة مادته على العلم البين ودلالة صيغته على قوته.

الفوائد :

١- الأمر بالاستقامة على شرع الله .

٢- أن الله يأمر رسوله .

٣- أهمية الاستقامة .

٤- الحذر من الطغيان والتمادي في العصيان .

٥- أن الله يبصر كل شيء .

(**وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ (١١٣)**) [هود : ١١٣] .

(**وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ**) الركون إلى الشيء: الميل إليه ، يقال ركن فلان إلى فلان، إذا مال إليه بقلبه، واعتمد عليه في قضاء مصالحه.

- **قال الرازي** : والركون هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالمحبة ونقيضه النفور عنه .

والمراد بالذين ظلموا هنا: ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين الذين يعتدون على حقوق الغير، ويستحلون من محارم الله.

والمعنى: واحذروا- أيها المؤمنون- أن تميلوا إلى الظالمين، أو تسكنوا إليهم لأن ذلك يؤدى إلى تقوية جانبهم. وإضعاف جانب الحق والعدل.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ) قيل : أهل الشرك.

وقيل : عامة فيهم وفي العصاة ، على نحو قوله تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا) .

وهذا هو الصحيح في معنى الآية ؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة ؛ وقد قال حكيم :

عن المرء لا تَسأَل وسَلْ عن قَرينه . . .فكلُّ قرينٍ بالمقَارن يَقْتَدِي

- **قال الرازي** : قال المحققون : الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب

منفعة عاجلة فغير داخل في الركون.

(**فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**) أي : فتصيبكم النار بسبب ميلكم إليهم، والاعتماد عليهم، والرضا بأفعالهم.

(**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاء**) أي : ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله.

ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ) أي : لا تجدون من ينصركم من تلك الواقعة.

قال بعض العلماء : الآية أبلغ ما يتصور في النهى عن الظلم، والتهديد عليه، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون حال من ينغمس في حمأته؟!! ثم قال: وقد وسع العلماء في ذلك وشددوا، والحق أن الحالات تختلف، والأعمال بالنيات.

والتفصيل أولى.

الفوائد :

١- أن الله تعالى حكم بأن من ركن إلى الظلمة لا بد وأن تمسه النار وإذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم في نفسه.

٢- تحريم الظلم .

٣- تحريم معاونة الظلمة .

٤- أن الركون إلى الظلمة خطره عظيم ، حيث فيه تقوية للظلم ، وإضعاف للحق ، وتأييد للظلمة .

٥- تحذير لكل ظالم ومن يعاونه .

(وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)) [هود : ١١٤] .

(**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ**) إقامة الصلاة المراد الإتيان بها على الوجه المطلوب .

وإقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).

- **قال ابن عاشور** : انتقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب النّبيء صلى الله عليه وسلم وهذا الخطاب يتناول جميع الأمّة بقرينة أنّ المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين ، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعيّنة للصلوات الخمس ، وذلك ما اقتضاه حديث أبي اليُسْر الآتي.

وطرف الشيء : منتهاه من أوّله أو من آخره ، فالتثنية صريحة في أنّ المراد أوّل النّهار وآخره.

- والمراد بالصلاة هنا: الصلاة المفروضة.
- **قال القرطبي**: لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية، المراد بها الصلوات المفروضة. وخصها بالذكر لأنها ثانية أركان الإسلام، وإليها يفزع في النوائب، وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

(**طَرَفَيِ النَّهَارِ**) وطرفي النهار: أي أول النهار وآخره، لأن طرف الشيء منتهاه من أوله أو من آخره.

والنهار: يتناول ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشمس. سمى بذلك لأن الضياء ينهر فيه أي يبرز كما يبرز النهر.

وفي المراد بطرفي النهار أقوال :

فقيل : الصلاة التي تكون في هذين الوقتين، تشمل صلاة الغداة وهي صلاة الصبح، وصلاة العشى وهي صلاة الظهر والعصر، لأن لفظ العشى يكون من الزوال إلى الغروب.

وقيل : الصلاة التي تكون في هذين الوقتين هي صلاة الصبح والمغرب.

(**وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ**) أي في زُلَفٍ من الليل ، والزّلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزْدَلِفَة ؛ لأنها منزل بعد عَرَفَة بقرب مكة.

وصلاة الزلف تطلق على صلاتي المغرب والعشاء .

- **قال ابن كثير** : وقوله وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ يعنى صلاة المغرب والعشاء.
- **قال ابن كثير** : ويحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضا في قول .

(**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**) أي : إن الأعمال الحسنة- كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والاستغفار ... يذهبن الأعمال السيئات، أي يذهبن المؤاخذة عليها، ويذهبن الاتجاه إليها ببركة المواظبة على الأعمال الحسنة.

والمراد بالحسنات هنا : الصلوات الخمس .

وهذا قول الجمهور .

- **قال القرطبي** : ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين ﷺ إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ، قال ابن عطية : وهذا على جهة المثال في الحسنات ، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات ؛ لقوله ﷺ : ما اجتنبت الكبائر .

قلت : سبب النزول يعضد قول الجمهور .   (تفسير القرطبي) .

جاء في الصحيحين : عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ (أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) . فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِي هَذَا قَالَ « لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ) .

- والمراد بالسيئات هنا صغار الذنوب .

لقوله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً) .

ولقوله تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ) .

ولأن كبائر الذنوب لا تكفرها إلا التوبة الصادقة.

كما قال ﷺ (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) رواه مسلم.

(**ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**) أي : ذلك الذي أمرناك به من وجوب إقامة الصلاة، ومن الاستقامة على أمر الله ... فيه التذكرة النافعة، لمن كان شأنه التذكر والاعتبار، لا الإعراض والعناد.

أي عظمة للمتعظين ، وخصهم بالذكر لأنه المنتفعون بها .

والإشارة إلى ما تقدم من الوصية بالاستقامة والنهي عن الطغيان والركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلوات في تلك الأوقات بتأويل المذكور ، وإلى هذا ذهب الزمخشري ، واستظهر أبو حيان كون ذلك إشارة إلى إقامة الصلاة وأمر التذكير سهل ، وقيل : هي إشارة إلى الإخبار بأن الحسنات يذهبن السيآت ، وقال الطبري : إشارة إلى الأوامر والنواهي في هذه السورة ، وقيل : إلى القرآن ، وبعض من جعل الاشارة إلى الإقامة فسر الذكري بالتوبة.

الفوائد :

١- وجوب إقامة الصلاة على الوجه الشرعي .

٢- أن للصلوات الخمس أوقات معلومة تكون فيها .

٣- أن الحسنات تكفر السيئات لقوله (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) ، والمراد بالسيئات هنا الصغائر .

فالجمهور حملوا المطلق هنا على المقيد بحديث (الصلوات الخمس ... مكفرات ما اجتنبت الكبائر) .

قال ابن جزي الكلبي : وإنما تذهب الحسنات عند الجمهور الصغائر إذا اجتنبت الكبائر .

٤- عظم شأن الصلاة .

تنبيه :

من فوائد حديث ابن مسعود السابق :

أولاً : أن القبلة ليست من الكبائر ، لأن الكبائر لا تكفرها الصلوات الخمس .

ثانياً : أنه إذا نزلت الآية في حادثة معينة فالعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فقوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) نزلت في شأن الرجل المذكور ولكنها جاءت بلفظ عام شامل فدخل فيها جميع المؤمنين والحمد لله على فضله.

فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، أدلة هذه القاعدة :

وقد جاء في رواية (فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا لَهُ خَاصَّةً قَالَ : بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً) .

وهذا صريح في أن العبرة بعموم اللفظ .

ثالثاً : الرجوع إلى أهل العلم فيمن وقع فيه الإنسان من مشاكل أو إشكالات .

رابعاً : أن نزول القرآن قد يكون ابتدائياً وقد يكون لسبب .

(**وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)**) .

[هود : ١١٥] .

(**وَاصْبِرْ**) أي : مشاق الدعوة ، وعلى أذى قومك لك .

وقد كثرت وتنوعت الفضائل الكثيرة للصبر ، وقد تقدم كل ذلك .

وتقدم لماذا يأمر الله بالصبر .

(**فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**) أي : واصبر أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين على مشاق التكاليف التي كلفكم الله تعالى بها، فإنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، بل موفي الصابرين أجرهم بغير حساب.

والإحسان : الإتيان بالعمل حسناً ، بأن يكون مطابقاً للأمر .

الفوائد :

١- وجوب الصبر على أمر الله .

٢- وجوب الصبر على أذى الأعداء .

٣- عظم منزلة الصبر ، ولذا أمر الله به .

٤- أن من صبر فاز وانتصر .

٥- الحث على الإحسان في العمل .

٦- أنه لا يضيع شيء عند الله من الأعمال .

(**فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (١١٦)**)

[هود : ١١٦] .

فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ) يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض.

(**إلا قَلِيلاً**) أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غِيَرِه، وفجأة نِقَمته .

ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

كما قال تعالى (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وفي الحديث (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه، أوشك أن يَعُمَّهُم الله بعقاب) .

- ففي الآية إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، حلت بها المصائب والنكبات.

ولولا: حرف تحضيض بمعنى هلا.

والمقصود بالتحضيض هنا تحذير المعاصرين للنبي ﷺ ومن يأتي بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون

الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين.

- وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له عقوبات :

منها : نزول عقاب الله وعدم استجابة الدعاء .

عن حذيفة ﷺ ، عن النَّبيِّ ﷺ ، قَال (وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ المنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوْنَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُم) رواه الترمذي ، وَقالَ : « حديث حسن » .

ومنها : **أن ذلك من صفات المنافقين .**

قال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) .

ومنها : نزول البلاء والعذاب العام .

قال تعالى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) .

وَالتَّحْقِيقُ فِي مَعْنَاهَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَعُمُّ الظَّالِمَ وَغَيْرَهُ هِيَ أَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ ، صَالِحُهُمْ وَطَالِحُهُمْ ، وَبِهِ فَسَرَّهَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ شَاهِدَةٌ لِذَلِك .

ولما قالت أم المؤمنين زينب رضي الله عنها: (أنهلك وفينا الصالحون ؟) قال لها الرسول ﷺ : نعم ، إذا كثر الخبث) .

وكما في الحديث (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) .

ومنها : اللعن والإبعاد من رحمة الله .

قال تعالى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

قال ﷺ (والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم) . رواه أبو داود

ومنها : انتفاء خيرية الأمة .

لأن الله علق خيرية هذه الأمة بالقيام بهذه المهمة ، قال تعالى (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) .

قال القرطبي : مدحٌ لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطأوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببا لهلاكهم .

ومنها : ظهور المعاصي والمنكرات وانتشارها .

ومنها : استعلاء أهل الشر والفساد .

(**وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ**) أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك ، واتبعوا ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنيء والشهوات العاجلة، فكفروا النعمة، واستكبروا وفسقوا عن

أمر ربهم ، حتى فجأهم العذاب.

- وأترفوا من الترف ومعناه التقلب في نعم الله تعالى مع ترك شكره سبحانه عليها.

والمترف: هو الشخص الذي أبطرته النعمة، فانغمس في الشهوات والمعاصي، وأعرض عن الأعمال الصالحة ...

- أهل الترف هم أعداء الرسل غالباً , وقد جاء ذلك في القرآن , حيث لم يذكر الترف إلا في مقام الذم.

قال تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ).

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ).

وقال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ).

وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ. فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ. لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ).

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ).

وقال تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا).

(**وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ**) أي : مصرين على ارتكاب الجرائم .

الفوائد :

١- أن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع سبب لعدم نزول العذاب .

٢- الترهيب من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣-أنه لا تزال توجد طائفة على الحق حتى تقوم الساعة .

٤-أن القيام بهذه الشعيرة سبب للنجاة .

٥- خطر الترف ، وأنه سبب للطغيان .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧))

[هود : ١١٧] .

(**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُون**) أي : وما كان ربك -أيها الرسول- ليهلك قرية من القرى وأهلها مصلحون في الأرض، مجتنبون للفساد والظلم، وإنما يهلكهم بسبب ظلمهم وفسادهم.

كما قال تعالى (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) .

وقال (وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ) .

وقال تعالى (وما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ) .

الفوائد :

١- أن سبب هلاك الأمم ظلمها وتكذيبها .

٢- تنزيه الله تعالى عن الظلم وذلك لكمال عدله .

٣-أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

٤- أن الإصلاح وعدم الفساد سبب لعدم تعذيب الله .

(وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)) .

[هود : ١١٨- ١١٩] .

(**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**) أي : ولو شاء ربك- أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه- أن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق لجعلهم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، ليتميز الخبيث من الطيب .

كما قال تعالى (وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً) .

وقال تعالى (وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى) .

(**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**) أي: ولا يزال الخُلْفُ بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم.

(**إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ**) أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية .

(**وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**) اختلف العلماء في المشار إليهم بقوله (ولذلك ..) على أقوال :

القول الأول : أن المشار إليه (إلا ما رحم ربك) أي : وللرحمة خلقهم .

وهذا قول مجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

قالوا : إن عود الضمير إلى أقرب مذكور أولى من عوده إلى أبعدهما ، وأقرب المذكورين هنا : الرحمة ، والاختلاف أبعدهما .

القول الثاني : أن الإشارة للاختلاف ، أي : وللاختلاف خلقهم .

وبهذا قال الحسن ، وعطاء ، ومالك .

ورجحه ابن جرير الطبري ، والقاسمي ، والشنقيطي ، وابن عاشور .

لقوله تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

قالوا : ففي هذا تصريح بأنه تعالى خلق أقواماً للهداية والجنة ، وأقواماً آخرين للضلالة والنار .

وفي حديث ابن مسعود ﷺ (ثم يبعث الله إليك الملك فيُؤمر بأربع كلمات : فيكتب رزقه ، وأجله وعمله ، وشقي أم سعيد " .

وروى مسلم من حديث عائشة - رضي الله عنها (يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم) .

وفي صحيح مسلم ، من حديث عبد الله بن عمرو . أن رسول الله ﷺ قال (إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء) .

- وإذا تقرَّر أن قوله تعالى (ولذلك خلقهم) معناه : أنهم خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض .

فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآية ، مع قوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقد اختلف العلماء في الجمع بين الآيتين على أقوال :

أصحها : أن الله تعالى ذكر في قوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الغاية التي من أجلها خلقوا وأمروا بها، وفي قوله (ولا يزالون مختلفين) الغاية التي إليها يصيرون، وكلتاهما مرادة له .

فالإرادة في قوله (ولذلك خلقهم) إرادة كونية قدرية، وهي التي بمعنى المشيئة التي يتعيّن فيها وقوع المراد وهي عامة فيما يحبه الله وما لا يحبه .

وأما الإرادة في قوله (وما خلقت الجن ...) فهي إرادة شرعية دينية ، وهي التي بمعنى المحبة التي لا يتعين وقوع المراد ، وهي تختص فيما يحبه الله سواء وقع أو لم يقع .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس .

وله الحجة البالغة والحكمة التامة.

عن أبي هُرَيْرَةَ . قال : قال ﷺ (تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ فَمَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ قَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رِجْلَهُ تَقُولُ قَطْ قَطْ قَطْ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَلاَ يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا ».

(جهنم) سميت بذلك إما لبعد قعرها، من قولهم: بئر جهنام، إذا كانت عميقة القعر، وقيل: مشتقة من الجهومة وهي الغلظة، سميت بذلك لغلظ أمرها في العذاب، فتكون ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي.

مباحث تتعلق بالآية :

مبحث : ١

في الآية أن الجني الكافر يدخل النار ، وهذا بالإجماع .

كما قال تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) .

وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) .

مبحث : ٢

واختلف العلماء في مؤمنهم على قولين :

القول الأول : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار .

وهذا قول أبي حنيفة .

لقوله تعالى : (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) .

القول الثاني : أنهم يدخلون الجنة .

وهذا مذهب الجمهور .

لقوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) والخطاب للإنس والجن .

ولقوله تعالى (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ) .

ولقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) .

ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل ، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة وهو مقام فضل .

وهذا القول هو **الصحيح** .

مبحث : ٣

إثبات الجن ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى : (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) .

وقال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقال تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) .

وعن أبي سعيد قال : قال لي رسول الله ﷺ : (إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: (أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون). رواه البخاري

وقال ﷺ : (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار). رواه مسلم

مبحث : ٤

أن الجن مكلفون ، ولذلك يعاقب عاصيهم ويثاب مطيعهم .

قال ابن رجب : والجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليس مماثلين للإنس في الجد والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الجد ، لكنهم مشاركوا الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين .

قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

ويقول تعالى يوم القيامة مخاطباً كفرة الجن والإنس موبخاً مكبتاً : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) .

الفوائد :

١- حكمة الله في جعل الناس مختلفين .

٢- حكمة الله في وجود الحق والباطل .

٣- أن الموفق من وفقه الله لاتباع الرسل وهديهم ليكون من المرحومين .

٤- لابد من أن تمتلئ جهنم من الإنس والجن الكفار .

٥- أن الجن مكلفون كالإنس .

٦- إثبات جهنم .

السبت: ٢٥/رمضان/١٤٣٩هـ

(وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠))

[هود : ١٢٠] .

لما ذكَرَ اللهُ تعالى في هذه السُّورةِ مِن أخبارِ الأنبياءِ ما ذكَرَ؛ ذكَرَ الحِكمةَ في ذِكرِ ذلك فقال :

(**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**) أي: ونَقُصُّ عليك- يا مُحمَّدُ- كلَّ ما تحتاجُ إلى مَعرفتِه مِن أخبارِ الرُّسُلِ المتقدِّمينَ؛ ما نُثَبِّتُ به قلبَك، فتزدادُ إيمانًا ويقينًا وصبرًا على تكذيبِ قَومِك، كما صبَرَ المرسَلونَ مِن قَبلِك .

- فيه أن من فوائد قصص الأنبياء تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى .

وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى له فيه مشاركاً خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت ، فإذا سمع الرسول هذه القصص ، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا ، سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

كما قال تعالى (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

وقال تعالى (مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) .

- **وقال الخازن** : وذلك لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا سمع هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه .
- **وقال أبو حيان** : وتثبيت الفؤاد هو بما جرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولاتباعهم المؤمنين ، وما لقوا من مكذبيهم من الأذى ، ففي هذا كله أسوة بهم ، إذ المشاركة في الأمور الصعبة تهون ما يلقى الإنسان من الأذى ، ثم الإعلام بما جرى على مكذبيهم من العقوبات المستأصلة بأنواع من العذاب من غرق وريح

ورجفة وخسف ، وغير ذلك فيه طمأنينة للنفس ، وتأنيس بأنْ يصب الله من كذب الرسول ﷺ بالعذاب ،كما جرى لمكذبي الرسل.

وإنباء له عليه الصلاة والسلام بحسن العاقبة له ولأتباعه ،كما اتفق للرسل وأتباعهم.

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) أي : ما نجعل به فؤادك مثبتاً بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ، ووفور طمأنينته ، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم .

(**وَجَاءكَ فِي هَذِهِ**) الإشارة في قوله (في هذه) يعود إلى السورة .

وهذا قول الجمهور .

- **قال الخازن** : قوله تعالى (في هذه ..) قيل في هذه السورة وهو الأقرب وهو قول الأكثرين . ا.هـ

وقيل : في هذه الآية.

والأول ارجح .

- **قال ابن عطية** : وقوله (في هذه) قال الحسن : هي إشارة إلى دار الدنيا ، وقال ابن عباس : إلى السورة والآيات التي فيها ذكر قصص الأمم ، وهذا قول الجمهور.
- ما الحكمة من تخصيص هذه السورة بالحق ، مع أن القرآن كله حق ؟

الجواب الأول : قيل إن الحق في هذه السورة أكمل حالاً مما ذكر في سائر السور .

- **قال الرازي** : واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذ السورة بمجيء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك ، لاحتمال أن يكون الحق المذكور في هذه السورة أكمل حالاً مما ذكر في سائر السور ، ولو لم يكن فيها إلا قوله : (فاستقم كَمَا أُمِرْتَ) لكان الأمر كما ذكرنا .

الجواب الثاني : خصت بذلك تشريفاً لها .

- **قال الخازن** : فإن قلت جاءه الحق في سورة القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وإنما خصها بالذكر تشريفاً لها .
- **وقال الشوكاني** : يكون تخصص هذه السورة بمجيء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور ، لقصد بيان اشتمالها على ذلك ، لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها .
- ذهب بعض العلماء إلى أن مرجع في قوله (في هذه ..) أي : في هذه الدنيا الحق ، وفيه بُعد لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير إليها .

(**الْحَقُّ**) صدق القصص وصحة الأنباء .

(**وَمَوْعِظَةٌ**) والوعظ : هو الكلام الذي يلين القلوب .

أي : وجاءَك في هذه السورةِ أيضًا مَوعِظةٌ مِن اللهِ يتَّعظ بها المؤمنون إذا سَمِعوا فيها ما نزَل بالأُمَم مِن العذابِ، ويَحترِزونَ عمَّا أهلكها .

- **قال القرطبي** : فالموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية ، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشريف

لهذه السّورة ؛ لأن غيرها من السّور قد جاء فيها الحقّ والموعظة والذّكرى ولم يقل فيها كما قال في هذه على التّخصيص.

- **وقال الخازن** : أي وهذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون إذا تذكروا أحوال الأمم الماضية وما نزل بهم .

والقرآن وصفه الله بأنه كله موعظة فقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أي: زاجر عن الفواحش .

والوعظ هو التذكير بالعواقب لترق القلوب، فمن أوصاف القرآن أنه موعظة .

والقرآن مملوء بما يتعظ القارئ به إذا تدبره وفهم معناه، وأرعى له سمعه، وفرغ له قلبه.

- **قال ابن عاشور** : الموعظة التّذكير بما يَصُدّ المرء عن عمل مضرّ.

(**وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**) الذكرى : مجرد التّذكير بما ينفع.

- **قال القرطبي** : وخصّ المؤمنين لأنهم المتّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

الفوائد :

١- فيه أنَّ سَماع أخبارِ الأخيارِ فيه تقويةٌ للعزائمِ، وإعانةٌ على اتِّباعِ تلك الآثارِ؛ فإنَّ النفوسَ تأنسُ بالاقتداءِ، وتنشطُ على الأعمالِ، وتريدُ المنافسةَ لغيرِها، ويتأيَّد الحقُّ بذكرِ شواهدِه، وكثرةِ مَن قام به

٢-الاعتبارَ مِن قَصَصِ الرُّسُلِ، بما فيها مِن حُسنِ صَبرِهم على أُمَمِهم، واجتهادِهم على دُعائِهم إلى عبادةِ اللهِ بالحَقِّ، وتذكيرِ الخيرِ والشَّرِّ، وما يدعو إليه كلٌّ منهما مِن عاقبةِ النَّفعِ والضُّرِّ؛ للثَّباتِ على ذلك جميعِه اقتداءً بهم .

٣- عناية الله تعالى بنبيه ﷺ .

٤-أن القرآن من أسباب ثبات القلب .

٥- أهمية ثبات القلب على الحق ولذلك كان ﷺ يقول : يا مقلب القلوب ثبتي قلبي على طاعتك .

٦-الثناء على القرآن وخاصة هذه السورة .

٧- أن القرآن ذكرى وموعظة لأهل الإيمان .

٨- فضل الإيمان ، وأنه من اسباب الاتعاظ والاعتبار .

قال تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا).

وقال تعالى (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ).

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).

(وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢))

[هود : ١٢١- ١٢٢] .

(**وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إنا عاملون**) فيه وعيد وتهديد يعني اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العمل فهو كقوله : اعملوا ما شئتم .

(**وَانتَظِرُوا**) تهديد آخر .

(**إِنَّا مُنتَظِرُونَ**) يعني ما يحل بكم من نقمة الله وعذابه إما في الدنيا وإما في الآخرة.

الفوائد :

١- أمر الله لنبيه ﷺ أن يهدد هؤلاء الكفرة .

٢-تهديد ووعيد لكل كافر من عقاب الله ونقمته .

٣- أن تأخير العذاب عن القوم الكافرين لحكمة .

(**وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)**) .

[هود : ١٢٣] .

(**وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي : يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعني أن علمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع الأشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

- **قال أبو حيان** : لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، ولا حظ لمخلوق في علم الغيب.
- **وقال الآلوسي** : أي أنه سبحانه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض ولا يعلم ذلك أحد سواه جل وعلا .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور) .

وقال سُبحانه (إن اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون) .

(**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ**) أي : كل الأمور راجعة إليه تعالى ، ومن الأمور الراجعة إليه بنو آدم وأعمالهم ، فيجازي كلاً منهم بما يستحق من خير أو شر .

- **قال ابن عاشور** : وإلى الله لا إلى غيره يرجع الأمر كله ، وهو تعريض بفساد آراء الذين عبدوا غيره ، لأنّ من لم يكن كذلك لا يستحق أن يعبد ، ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يفرد بالعبادة.

(**فَاعْبُدْهُ**) أي : قم بعبادته .

وفي هذا وجوب عبادة الله تعالى ، وهذا أول واجب على العبد . (وقد تقدمت مباحث العبودية) .

- وفائدة الترتيب بالفاء في قوله (فاعبده) الإشارة إلى نكتة ، وهو أنه لا ينبغي أن يعبد ويخضع ويذل إلا لمن اتصف بهذه الصفات العظيمة ، ومثله (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) .

(**وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**) أي : اعتمد على الله وثق به . (وقد تقدم مباحث التوكل) .

وخصَّ التوكل بِالذكر وهو الاسْتِعانَة وهِي من عبَادَة الله؛ ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإِنَّها هِيَ العونُ على سَائِرِ أنواعِ العبادَةِ؛ إِذْ هو سبحانَه لا يُعبدُ إِلَّا بمعونته .

(**وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) أي: أنه تعالى رقيب على أعمالكم لا يخفي عليه خافية، وسيجازيهم عليها، وفي هذا وعيد وتهديد.

وفي هذا وعيد شديد لمن عصى أوامر الله، فإن الله لا يغفل عنه شيئاً وذلك لكمال علمه سبحانه وتعالى.

- **قال القاسمي**: وقوله تعالى (وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى. فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه، مطلعاً عليه غير غافل عنه، كان لمجازاتهم بالمرصاد.
- والغفلة صفة منفية فيجب نفيها عن الله مع إثبات ضدها، فالله لا يغفل لكمال علمه.

الفوائد :

١- عموم علم الله تعالى بكل شيء .

٢-أنه لا يعلم الغيب أحد إلا الله .

٣- وجوب مراقبة الله تعالى ، لأنه لا يخفى عليه شيء .

٤- أن مرجع جميع الأمور إلى الله .

٥- وجوب عبادة الله تعالى .

٦- وجوب التوكل على الله .

٧- يجب على العبد أن يستعين بالله على القيام بعبوديته .

عموم رقابة الله عز وجل على كل شيء، ولا يفوته شيء ولا يخفى عليه شيء.

٧ - أن الغفلة من الصفات المنفية عن الله وذلك لكمال علمه سبحانه.

٨ - تهديد العصاة، بأن الله لا يغفل عنهم.

الأحد: ٢٦/رمضان/١٤٣٩هـ